دور الرقيق والجواري في الحياة العامة في بغداد
من سنة (٢٣٢هـ/٨٤٣م) إلى سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م)

إعداد

شادن محمد جمعة الوحش

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

أيار، ٢٠٠٦م

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (دور الرقيق والجواري في الحياة العامة في بغداد في العصر العباسي الثاني ٢٣٢ – ٣٣٤ هـ / ٨٤٣ – ٩٤٥ م) وأجيزت بتاريخ ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٦ م

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الدكتور محمد عبدالقادر خريسات ، مشرفاً أستاذ تاريخ إسلامي – قسم التاريخ	....
الدكتور فالح حسين ، عضواً أستاذ تاريخ إسلامي – قسم التاريخ	....
الدكتور عصام مصطفى عقلة ، عضواً أستاذ مساعد في التاريخ الإسلامي– قسم التاريخ	....
الدكتور سليمان عبد الخرابشة ، عضواً أستاذ تاريخ إسلامي – جامعة اليرموك	....

الإهداء

إلى والدي الكريمين ثمرة من ثمار

حبهما و تضحياتهما

وإلى إخوتي الأعزاء

شـــكــر وتــقـــديـــر:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وبعد؛ فيسعدني أن أتقدم من أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد خريسات بجزيل الشكر والتقدير والعرفان على إرشاداته وتوجيهاته وإشرافه المتميز على بحثي هذا.

والشكر الجزيل كذلك لأساتذتي الأجلاء في قسم التاريخ بالجامعة الأردنية الذين لهم الفضل بعد الله تعالى في توجيهي لدارسة التاريخ سواء في مرحلة البكالوريوس أم في مرحلة الماجستير.

كما أتقدم بالشكر والتقدير كذلك لكل من أفادني في هذا البحث من الجامعة الأردنية التي أفتخر بانتسابي إليها .

والله ولي التوفيق.

فهرس المحتويات

الموضـــــــــــــــــــوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
قائمة الاختصارات والرموز	و
الملخص باللغة العربية	ح
المقدمـــــــة	١
التمهيد: دور الجواري والرقيق في العصر العباسي الأول (١٣٢هـ/٢٣٢هـ)	٣
الفصل الأول: التعريف بالرقيق والجواري أنواعهم ومصادر شرائهم	٢٠
أولاً: تعريف المصطلحات	٢٠
ثانياً: الوضعية القانونية للرقيق في المجتمع الإسلامي	٣٥
ثالثاً: مصادر شراء الرقيق والجواري	٣٩
الفصل الثاني: أسباب الاعتماد على الرقيق والجواري في الحياة العامة في بغداد في العصر العباسي الثاني	٦١
١. أسباب اجتماعية	٦٣
- الخدمـــة	٦٣
• آداب الخدمة والتدريب عليها	٦٤
• خدمة المنازل والقصور	٦٧
• خدمات أخرى خاصة بالمنازل والقصور	٧٢
• أسباب مرتبطة بالأسرة	٧٤
• رعاية المرضى	٨٢
٢. الأسباب الثقافية	٨٤
• أسباب ثقافية الفنية	٨٤
• أسباب ثقافية الجادة (العلمية)	٩٣
٣. الأسباب الاقتصادية	٩٨
• أسباب مهنية وحرفية	٩٨
• أسباب مالية إدارية	١٠٢
• أسباب اقتصادية عسكرية	١٠٥

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة
٤. الأسباب السياسية	١٠٦
• أسباب سياسية خارجية	١٠٦
• أسباب سياسية داخلية	١١٠
الفصل الثالث: دور الجواري والرقيق في الحياة الاجتماعية والثقافية في بغداد في العصر العباسي الثاني	١١٦
١. الآثار الاجتماعية	١١٧
• التأثير على العلاقات الاجتماعية وعناصر المجتمع.	١١٨
• التأثير في أخلاق الناس وفي انتشار الجريمة وفساد الأخلاق.	١٢٣
• التأثير من خلال الأطعمة والعطور والأزياء.	١٣٦
٢. الآثار الثقافية	١٤٠
• المفهوم الثقافي للرقيق والجواري في بغداد. (التسلية)	١٤١
• الجهل والعلم	١٤٢
• العشق في أدب العصر العباسي الثاني	١٥٠
• الغناء والموسيقى	١٥٢
أشهر الجواري المغنيات والشاعرات في العصر العباسي الثاني	١٥٤
(عريب، فضل، محبوبة، شارية، بنان، نبت)	١٥٥
الفصل الرابع: الآثار الاقتصادية والسياسية للرقيق والجواري.	١٦١
١. الآثار الاقتصادية	١٦١
• الحالة الاقتصادية للدولة العباسية من سنة (٢٣٢هـ/٨٤٣م) إلى نهاية خلافة المهتدي	١٦٤
• الحالة الاقتصادية للدولة العباسية من المعتمد حتى مجيء البويهيين	١٧٤
• السمات الاقتصادية لهذه المرحلة	١٨١
٢. الآثار السياسية	١٨٤
• دور الخدم في خلافة المتوكل	١٨٧
• دور الخدم في قتل المتوكل	١٨٨
• دور الخدم في منصب الخلافة بعد مقتل المتوكل إلى سنة(٣٣٤هـ/٩٤٥م).	١٩٤
• إمرة الأمراء.	٢٠٤
• آثار حركة الزنج على الخلافة العباسية.	٢٠٦
• تعيين أشخاص في المناصب السياسية المختلفة.	٢٠٧
• الجيش العباسي	٢١١
• دور الجواري في سياسة الدولة في العصر العباسي الثاني	٢١٢
- نتائج الدراسة	٢١٧
- قائمة المصادر والمراجع	٢٢٠
- الملخص باللغة الإنجليزية.	٢٤١

قائمة الاختصارات أو الرموز

التوثيق: اسم الشهرة بالنسبة للمؤلف، اسم الكتاب مختصراً، والجزءأو العدد، أو الصفحة.فقط، بينما ترد جميع المعلومات المتعلقة بكل كتاب في قائمة المصادر والمراجع.

تـ : المتوفى

ج : الجزء

ص : صفحة

ط : الطبعة

ع : العدد بالنسبة للدوريات.

هـ : الهجري

م : ميلادي

د.ت: دون تاريخ نشر

د.م: دون مكان نشر.

د.ط: دون طبعة

ن.م: نفس المصدر

P. PAGE
ET.AL. OTHERS

.

دور الرقيق والجواري في الحياة العامة في بغداد في العصر العباسي الثاني من سنة (٢٣٢هـ - ٣٣٤هـ)/(٨٤٦م- ٩٤٥م)

إعداد
شادن محمد جمعه الوحش

المشرف
الأستاذ الدكتور محمد خريسات

ملخص

ضعفت مؤسسة الخلافة ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، نتيجة تسلط الجيش على مقاليد الخلافة، الأمر الذي أدى إلى سلب الخلافة سلطاتها الفعلية، وغدا دور الخلافة الفعلي محصوراً في كونها مؤسسة دينية لا أكثر، تختص بتعيين أئمة المساجد والقضاة في الوقت الذي انتقلت فيه شؤون السياسة والإشراف على الجيش والإدارة إلى أيدي المتسلطين، وقد حصل ذلك بعد ظروف عديدة طرأت على الخلافة استعاد فيها الخليفة في بعض الأحيان جزءاً من سلطته، وقد مكّن الرقيق والجواري الذين كانوا يعملون في دار الخلافة هؤلاء الجند من تحقيق غاياتهم في السيطرة على مقاليد الأمور في دولة الخلافة.

وقد نظر الكثير من الباحثين إلى دور الجواري والرقيق على أنه دور ثانوي في مختلف النواحي، بينما تناقل باحثون آخرون أخبار هؤلاء بوصفها الأهم والأبرز في حياة الخلفاء، فبالغوا في أخبارهم عن قصد أو دون قصد، ولا ينحصر هذان الموقفان المتباينان في التاريخ القديم، بل تعدى ذلك إلى كثير من المؤرخين المعاصرين في الوقت الحاضر.

وفي الوقت الذي يعتبر فيه دور الرقيق والجواري غير مهم بالنسبة للكثيرين في التأثير في مؤسسة الخلافة وفي حياة العامة، رأى البعض أن هذا الدور ذو أهمية واسعة في التأثير على الحياة الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية.

لقد مكّنت فترة الضعف التي اتسمت بها مؤسسة الخلافة في العصر العباسي الثاني من إعطاء دورٍ كبيرٍ للرقيق والجواري لم يكن بإمكانهم تحقيق مثله في فترة سابقة، فكانوا سلاحاً خطيراً على هذه المؤسسة وفي تلك الفترة، وبدل أن يلتزموا جانب الحياد، أو ينصروا أسيادهم

قاموا بخدمة مصالحهم مهما كان الطرف الذي يعملون معه، فزادوا الدولة ضعفاً على ضعفها، وكان هذا الدور شاملاً لجميع نواحي الحياة، ولا سيما في دار الخلافة.

ولقد كانت الأعمال اليومية لسكان بغداد بصورة خاصة هي السبب الأساسي لازدهار تجارة الرقيق في أسواق النخاسة، وكان دخولهم في حياة الناس بدوافع الخدمة والعمل في بداية الأمر، إلا أنهم تحولوا مع تغير الأوضاع السياسية والاقتصادية إلى القيام بأدوارٍ خطيرة أسهمت في وضع حد لقوة هذه الدولة ولكنها - مع ذلك - حافظت على الصورة الرمزية لمؤسسة الخلافة لا دورها الحقيقي بعد العصر العباسي الثاني إلى سقوطها على يد المغول عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، رغم استعادة الخلافة بعض قوتها في سنة (٥٣٣هـ-٦٥٦هـ) في العراق.

المقدمــــة:

ظهر الرقيق والجواري في المجتمع الإسلامي منذ وقت مبكر واعتمد المسلمون عليهم في الكثير من الأعمال، وأصبحوا جزءاً من المجتمع الإسلامي، وأثر هؤلاء في ثقافة المجتمع ومفاهيمه مع اختلاف درجة هذا التأثير من مرحلة إلى أخرى في التاريخ الإسلامي. وتحاول هذه الدراسة أن تبحث في دور الرقيق والجواري في الحياة العامة في بغداد في الفترة ما بين سنتي (٢٣٢هـ - ٣٣٤هـ)، إذ تمثل هذه الفترة بداية مرحلة ضعف الخلافة العباسية، وبداية سيطرة الجند عليها، وازدياد نفوذ الجواري والرقيق، وتأثيرهم في الحياة العامة، وفي بلاط الخلفاء سواء كان هذا التأثير سلبياً أم إيجابياً، وقد دفعني عدم وضوح هذا الدور لدى الكثيريين إلى البحث فيه نظراً لقيام الرقيق والجواري بالكثير من الأدوار الخطيرة التي كان لها آثارها على الدولة العباسية.

ولقد وجدت أن المؤرخين القدماء قاموا بوضع مؤلفات خاصة بالرقيق والجواري، وفي كيفية شرائهم، وصفاتهم، وافردت مؤلفات خاصة بهم كرسائل الجاحظ، وأخبار النساء التي ألف حولها ابن الساعي، وابن جميل، والسيوطي، وغيرها من المؤلفات التي استعنت بها في هذه الدراسة.

بينما كانت الدراسات الحديثة حولهم قليلة وكانت أكثر تلك الدراسات أدبية لا تاريخية، باستثناء رسالة الماجستير التي أعدها حسين علي محافظة(الرقيق في المجتمع العربي الإسلامي حتى ثورة الزنج)، لذا كان من المهم تقديم رسالة أخرى تضيف الجديد حول أخبارهم، إتماماً لما بدأه الآخرون.

وقد واجهت بعض الصعوبات في أثناء كتابة هذه الدراسة، إذ كان تعدد المسميات المرتبطة بالرقيق والجواري والتي تؤدي إلى الخلط بين هذه المسميات في الكثير من الأحيان، فكان لا بد من إظهارها وتوضيحها، كما واجهت صعوبة في تقسيم التجارة المرتبطة بالرقيق والجواري والقادمة إلى بغداد نظراً لإمكانية تقسيمها إلى أكثر من صورة، كما أن كثرة الدوافع والأسباب التي أدت إلى ازدهار هذه التجارة لدى السادة الأغنياء أو لدى عامة الناس مثلت إحدى الصعوبات التي واجهتها في هذه الدراسة. وقد كانت الأسباب أو الأعمال التي استعين بسببها بالرقيق لا تظهر إلا من خلال مضمون الروايات التي تحدثت عن موضوعات عديدة غير مرتبطة بهم بشكلٍ مباشر. وكانت الروايات التي تتحدث بشكلٍ مباشرٍ عن الرقيق والجواري

يضاف إليها الكثير من المبالغات التي تفضي إلى الكذب في بعض الأحيان، وكانت بعض الروايات التي تنسب إلى الخلفاء وعلاقتهم بالجواري مشابهة للروايات التي نسبت إلى خلفاء من العصر العباسي الأول أو إلى خلفاء من الأندلس.

لقد جاءت هذه الدراسة في أربعة فصول، تناولت في الفصل الأول فيها توضيح أبرز المصطلحات الخاصة بالرقيق والجواري سواء المباشرة أو غير المباشرة وحاولت إيجاد روابط بينها كما بينت فيه مراكز التجارة الرئيسية التي كان يجلب منها الرقيق إلى بغداد، ثم بينت الوضعية القانونية للرقيق في المجتمع الاسلامي.

أما الفصل الثاني فقد تناولت فيه أبرز الآداب التي تعلمها الرقيق عند النخاس ليتمكن من القيام بالأعمال اليومية، وكانت هناك أسباب عديدة لجلب الرقيق إلى العالم الإسلامي والتي بينتها في هذا الفصل منها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي، كما تناولت بالبحث والدراسة أهمية الحاجة إلى الرقيق والجواري في تلك الفترة.

وأما الفصل الثالث فقد بينت فيه أهم الآثار الاجتماعية والثقافية للرقيق والجواري على حياة المجتمع في بغداد، وقد كانت هذه الآثار عديدة وخطيرة في بعض الأحيان، إذ هددت العلاقات الأسرية وأثرت في عادات الناس وتقاليدهم وثقافتهم وقيمهم بصورة واضحة.

وأما الفصل الرابع فقد أبرزت فيه العديد من الآثار الاقتصادية والسياسية للرقيق والجواري في تلك الفترة، وقد كانت خطيرة كذلك وأسهمت في ضعف الدولة العباسية إلى حد كبير.

وبعد؛ فلست أزعم أن هذه الدراسة قد جاءت كاملة، أو مبرأةً من الخطأ، أو النقص، أو التقصير، فالكمال لله تعالى وحده، والتقصير والنقص والخطأ من طبائع البشر، ولكني أسلي النفس عن ذلك كله بسعيي إلى الكشف عن جانب مهم من جوانب التاريخ الإسلامي الذي لم يؤخذ على محمل الجد لفترة طويلة، ولأن كثير ممن تناولوها بالدراسة اهتموا بالجوانب الأدبية والفنية دون الاهتمام بعرض كثير من الروايات المنقولة إلى الدراسة المعمقة المعتمدة على التحقيق والتدقيق.

والله من وراء القصد ،

وما توفيقي إلا بالله.

- التمهيــد:

كان عام ١٣٢هـ/٧٤٩م حداً فاصلاً بين دولتين في التاريخ الإسلامي حيثُ شهد انتهاء الحكم الأموي في دمشق، وبدء العباسيون في تأسيس دولتهم الناشئة بعد دعوة مرتْ بمراحلَ عديدة كانت في بداياتها بقرية الحميمة، ثم ما ليثت أن أَعلنتْ عن نفسها في خُراسان.

اتخذَتْ الدعوةُ العباسيةُ من حق آل البيت الشرعي في الخلافة شعارها السياسي، ومن الوعد بتحسين أوضاع الموالي اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، ومساواتهم بالعرب برنامجها الاجتماعي، كما تعهدتْ باتخاذ الكتابِ والسنة النبوية والعدل قانوناً بين المسلمين."[١]"

وقُسم العصر العباسي إلى قسمين على أساسِ القوة والضعف، وكان أولَ خُلفاء العصر العباسي الأول "أبو العباس؛ عبد اللهِ بن محمد بن علي بن عبد اللهِ بن العباس بن عبد المطلب"الملقبِ بالسفاح، والذي تولى الخلافةَ في سنة (١٣٢هـ/٧٤٩م) بالكوفة، وتوفي سنة (١٣٦هـ./٧٥٣م)."[٢]"

إن فترةَ خلافته القصيرة لم تُتح له تنظيم أمورِ الدولة بشكلٍ كاف، ولهذا اعتبر المؤسس الحقيقي للدولة" أبو جعفر المنصور" "عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وقد تولى الخلافةَ في ذي الحجة سنة (١٣٦ هـ/٧٥٣م) وتوفي لست مضين من ذي الحجة (١٥٨هـ/٧٧٤م)، وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة"[٣]".

وكان أولَ من ساعد من خلفاء بني العباس على ترجمة الكتبِ القديمة العجمية إلى اللسان العربي مثل كتابِ كليلة و دمنة، والسند هند، وكُتُبِ أرسطو طاليس...، كما بدأَ يظهر في عهده بوادر النتاجِ العلمي العربي، إذ ظهرت أوائلُ الكُتُبِ في المغازي لمحمد بن إسحاق."[٤]"

أخذ المنصور البيعةَ لابنه المهدي أبي عبد الله الذي تولى الخلافة سنة (١٥٨هـ/٧٧٤م) - (١٦٩هـ/٧٨٥م)، والذي استهلّ خلافته بإرسال الجيوشِ إلى الصائفة على ُتخومِ الروم وإلى الهند، وواجه حركة الُمقنع الذي قال بالتناسخ في خراسان."[٥]"وَأخذَ البيعةَ لابنه موسى الهادي الذي تولى الخلافةَ سنةً واحدةً (١٦٩هـ - ١٧٠هـ=٧٨٥م -٧٨٦م)"[٦]".

---

١) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٠.
٢) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص٢٩٢/ الخطيب البغدادي، تـاريخ مدينـة الـسلام،،ج(١١)، ص٢٣٦-ص٢٣٧/ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٥)، ص١١٣.
٣) المسعودي، ن.م. ص٢٩٥/ البغدادي،ن.م. ج(١١)، ص٢٤٤-ص٢٤٥/ و ابن عبد ربـه، العقـد الفريـد، ج(٥)، ص١١٣-١١٤.
٤) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٢٢-٢٣.
٥) البغدادي،تاريخ بغداد،ج(٣)،ص٣٨٢ص٣٨٣/ وابن عبد ربه، العقـد الفريـد، ج٥، ص١١٥/ المـسعودي، التنبيه والإشراف،ص٢٩٦-٢٩٧/ و ابن منظور، المنتخب والمختار في النوادر و الأشعار، ص٥٧.
٦) البغدادي، تاريخ بغداد، ج(١٥)، ص٧-ص٨، المسعودي، التنبيه و الأشراف،ص٢٩٩-ص٣٠٠/ ابن عبـد ربه ، العقد الفريد، ج(٥)،ص١١٦٦.

تولى هارون الرشيد ابن المهدي الخلافة سنة(١٧٠هـ /٧٨٧م)- (١٩٣هـ/٨١٠م)، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنةً."[١] "وكان متابعاً للحج، والغزو، وبناء المصانع، والثغور ...وفي أيامه كثُر المتكلمون وناظروا ووضعوا الكتب، وقل ما كان يخلو من غزوة أو حجة في كل عام، وكان يصلي في كُل يومٍ مائة ركعة، وكان مقرباً للفقهاء والعلماء."[٢]

وبلغتْ الدولةُ الإسلاميةُ في عهده أوج توسعها، وقد قسم الدولةَ بين أبنائه، الأمر الذي شكلَ بذرةَ الخلاف بينهم فيما بعد، وتخلص من وزرائه البرامكة المقربين منه سنة (١٨٧هـ/٨٠٢م)."[٣]

وبعد وفاته تولى ابنه أبو عبد الله الأمين ابن الرشيد الخلافة سنة(١٩٣هـ/٨٠٨م)، وكانت خلافتُه أربع سنوات صفا له الأمر في سنتين منها وكانت الفتنةُ بينه وبين أخيه المأمون في السنتين الأخيرتين من خلافته، الذي تولى الخلافة بعد مقتل الأمين."[٤]

وتولى أبو العباس عبد الله المأمون بن الرشيد الخلافة سنة(١٩٨هـ/٨١٥م)، وأثار المأمون أهل بغداد وبني العباس عليه لاختياره علي الرضا بن موسى الكاظم ولياً للعهد، والذي اعتبر انتصاراً للعلويين وإبعاداً للعباسيين الذين ردوا باختيار إبراهيم بن المهدي العباسي خليفة عليهم، وانتهى الأمر بموت الرضي وتخلي إبراهيم عن الخلافة، إلا أن خلافته لم تنته إلا بفتنة جديدة عرفت (بمحنة القول بخلق القرآن الكريم) واستمرت بعد موته في خلافة المعتصم"[٥].

تولى محمد المعتصم بن الرشيد الخلافة بعد وفاة المأمون سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م)-(٢٢٧هـ/٨٤٤م)، وقام بفتوحات عديدة كفتح عمورية ومواجهة بابك الخرمي والمازيار، وكان أول خليفة عباسي استكثر من الترك، وابتنى لهم مدينة سامراء."[٦]

لقد كان الترك عامل قلق لاهل بغداد، وكان وجودهم سبباً لتغيير عاصمة الخلافة العباسية "بغداد"، والانتقال إلى مدينة العسكر سامراء (سر من رأى).

---

١) الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج(١٦)، ص٩-ص١١/ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٥)ص١١٧-١١٨.

٢) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٢٤-ص٢٧/الماوردي، نصيحة الملوك، ص١٣٦-ص١٣٨/ والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،ج(١٦)،ص٩.

٣) ابن حزم، جوامع السير وخمس رسائل أخرى، ص٣٧٠.

٤) المسعودي، التنبيه والإشراف،ص٣٠٠/ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،ج(٤)، ص٥٤١-ص٥٤٣/و ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٥)، ص١١٨-ص١١٩.

٥) المسعودي، التنبيه و الإشراف،ص٣٠٤/ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،ج(١١)، ص٤٣٠- ص٤٣٢ / وابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٥)، ص١١٩./ وابن حزم، جوامع السير،ص٣٧٠.

٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي،ج٣،ص٢٠٥./ الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام،ج٤، ص٥٤٧.

تولى هارون الواثق بن المعتصم الخلافة سنة (٢٢٧هـ/٨٤١م)- (٢٣٢هـ/٨٤٦م)، وقد استمر بالقول بخلق القرآن وامتحان العلماء في ذلك إلا أنه تراجع عن ذلك في آخر خلافته"[1]".

كانت هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي مزدهرة من النواحي العلمية والثقافية والحضارية، وكانت الحياة في بغداد مختلفة عن غيرها من المدن الأخرى حيث كان الاختلاط بين العرب وغيرهم على درجة كبيرة، فظهرت الشعوبية ضد العربية، واستمرت ثورات العلويين والخوارج، وظهرت أنواع جديدة من الاحتجاج الذي بدا في تصرفات أصحاب الكلام من المعتزلة وفي كتبهم.

وقد أظهر الخلفاء العباسيون اهتماماً خاصاً بالعلماء والشعراء، ودعموا الترجمة، وجادلوا علماء الفلسفة وقربوا الأطباء.

وبدأت مرحلة تدوين واسعة للعلوم، وظهرت محلات للوراقين والناسخين، واستعان الخلفاء بالمهندسين لتطوير العمارة فبنوا المدن الكبرى، وأظهروا اهتماماً ببناء القصور، وبأنواع أطعمتهم وألبستهم واستمعوا إلى الغناء، وساعدوا على تطوير الآلات الموسيقية، وظهرت مدارس لتدريب المغنيين والمغنيات، كالمدرسة التي ابتدأها وطورها إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وطوروا أثاث بيوتهم، وقد استدعى كل ذلك الاستعانة بالجواري والرقيق على اختلاف أصولهم، وقد كانوا بمجرد وصولهم إلى بغداد يلقون أحمالهم الثقافية المختلفة على سكانها أصحاب الثقافة الغالبة فيؤثرون ويتأثرون .

وكان وفرة المال سبباً في زيادة الترف، وكان الرقيق والجواري مظهراً من مظاهر ذلك الترف، والحديث عنهم يقودنا تارة إلى المستوى الحضاري الكبير الذي بلغته بغداد في تلك الفترة، ويوصلنا إلى قصور الخلفاء والوزراء وغيرهم من أصحاب السلطة والنفوذ فيها وتارة أخرى يعيدنا إلى أخفض وأدنى درجة اجتماعية فيها.

استخدم الرقيق والجواري لاسباب عديدة لعل أبرزها التي ذكرها " أبو دلامة عندما ألقى قصيدة أمام المهدي أعجبته فأمره أن يطلب ما يريد، فطلب كلباً فعجب المهدي لطلبه، فقال أبو دلامة:" الحاجة لي أم لك، قال: لك، فقال أبو دلامة: أريد كلباً، فقال: فهبني ذهبت للصيد أعدو على رجلي... فوهب له دابة، فمن يقوم على الدابة،... فأمر له بغلام فهبني صدت صيداً فمن

١)اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)،ص٢١٢/الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج(١٦)، ص٢٢-ص٢٣/ وابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، ص١٢٩/والذهبي، دول الإسلام، ج(١)،ص١٠١

يطبخه،... فأمر له بجارية، فقال: هؤلاء أين يبيتون؟ ...".[١]" وبين أبو دلامة أن الغلام والجارية يستخدمان للقيام بالأعمال اليومية التي يقوم بها الناس عادة، وأن ذلك سبباً للإعتماد عليهم.

لقد كان الرقيق والجواري موجودين بالحياة العامة، كما في قصور الخلفاء، إلا أن الهالة المحيطة بالقصور والهيبة لسكانها لدى الإنسان البسيط تجعله دائماً يرى ما فيها مختلفاً، ومثال ذلك ما حدث مع المأمون "عندما أطل من قصره، فوجد رجلاً يمسك بفحمة ويكتب بها على حائط القصر، فأرسل أحد خدمه ليعلم الأمر، فإذا به يكتب أبيات شعر يقول فيها:

يا قصر جمع فيك الشؤم واللوم   حتى يعشش في أرجائك البوم

يوم يعشش فيك البوم من فرحي   أكون أول من ينعاك مرغوم

فأتي بالرجل إلى المأمون، فسأله لما كتب ذلك فقال: إنه لم يخف عليك ما حواه هذا القصر من خزائن الأموال والحلي، والحلل والطعام والشراب، والفروش والجواري، والخدم فمررت عليه وأنا في غاية السوء من الجوع والعطش فقلت في نفسي: إن هذا القصر عامر وأنا جائع فلا فائدة له، فلو كان خرباً لأخذت من رخامه وخشبه ومساميره أبيعها وأتقوت بثمنها، ثم قال:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرىء   نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وما ذاك عن بغض ولا عن كراهة   و لكن يرى نفعه بانتقـالها

فأمر له المأمون بـ (١٠٠٠) دينار وجعلها له في كل سنة." "[٢]"

لقد كان في بغداد ترف وفقر كما في غيرها من المدن، وتخيل الرجل لما يحوي القصر حقيقي، إلا أن تلك الحقيقة قد يبالغ الإنسان فيها فيضيف أوصافاً عديدة متخيلة يخلطها بالواقع.

استخدم الرقيق في الجيش الإسلامي قبل الثورة العباسية التي اعتمدت عليهم لغايات عسكرية أيضاً،"وكان المنصور أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وقدمهم على العرب" "[٣]"، فتمثل الخلفاء من ولده بعده بذلك، وقدموا العناصر الفارسية التي ازدادت أهميتها بعد الفتنة بين الأمين والمأمون، لذا قيل عن المأمون أنه يذهب مذاهب ملوك الفرس" "[٤]"، ولما استكثر المعتصم من الأتراك قيل عنه إنه أضعف أمور الخراسانية جند آبائه واستظهر بالأتراك وكان يغلب عليه

---

١) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان،م(١)، ج(٢)، ص٢٨١/الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،ج(٩)، ص٥٢١-ص٥٢٢، ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين،تقديم،ص١٠٨-ص١٠٩/ وابن حجه الحموي، ثمرات الأوراق ،ص٩٦/

٢) الاتليدي، محمد بن دياب،١٩٩٨م، نوادر الخلفاء المسمى إعلام الناس بما وقع للبرامكة من بنـي العبـاس، ط(١)، ص٩٧./ والمقري، المنتخب من نوادر الأخبار، ص١٤١-ص١٤٢.

٣) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٢٤-ص٢٧.

٤) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٢٧-٢٨.

التشبه بملوك العجم"."١" " على أن أول من اتخذ الأتراك من الخلفاء المنصور، اتخذ "حماداً " ثم اتخذ المهدي "مباركاً" " "٢" وحماد ومبارك اسما عبدين تركيين.

وكان لاعتماد المعتصم عليهم تحول كبير في الدولة، إذ كانت عدة غلمان المعتصم بضعة عشر ألفاً "٣". لذا أخرجهم من بغداد وأرسلهم إلى سر من رأى. وكان ذلك سبباً لتغيير العاصمة.

"وقد حضر المعتصم صلاة العيد فعبأ جيشه تعبية لم يسمع بمثلها، وأمر الرجالة بالمسير بين يديه فتقدم منهم (٧) آلاف ناشب من الموالي كل ٣٠٠ منهم يرتدون زيا مخالفا للباقين..."٤ وكان هؤلاء يقومون بمهمات عديدة غير العمل بالجيش من مثل الحراسة، كما "حرس الرشيد من أحد المتطفلين أثناء خروجه إلى مكة" "٥"، أو أن "يرسل الواثق بعض مماليكه لإطلاق سجناء عفا عنهم"."٦"

وأما الاعتماد عليهم من الناحية الثقافية والفنية فكان اعتماداً واسعاً. ورغم أن ابن العبري يقول: "إنه لم يكن في دار المنصور لهو أو لعب فأنه يورد رواية عن خادم يضرب بالطنبور* تحيط به عدد من الجواري وعند رؤيتهن للمنصور تفرقن وضرب المنصور الخادم بالطنبور"."٧"

"وكان الرشيد أول خليفة عباسي اتخذ القيان (المغنيات)، فتشبه الناس جميعاً به وسلكوا سبيله، وكانت زوجته زبيدة تريد أن تتقدمه في كل شيء من جد وهزل، فكانت أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يركبون الدواب ويختلفون في حوائجها ورسائلها وكتبها فتشبه الناس بها."٨"

لقد كان الخلفاء سبباً لنشر عادات معينة بين الناس كما فعل الرشيد وزبيدة التي اتخذت أيضاً "الجواري الحسان الوجوه،وأطلقت عليهن اسم المطمومات أو (الغلاميات)"."٩"لتشبههن بالرجال.

---

١) ن. م، ص٣١-ص٣٢.
٢) الثعالبي، عبد الملك بن محمد، لطائف المعارف،ص٢٠.
٣)الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج(٤)،ص٥٥٢.
٤) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص١٥٢-ص١٥٥.
٥) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص١٤٠.
٦) المقري، المختار من النوادر والأخبار، ص١٠٠-ص١٠٢.
*)الطنبور من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار/ ادي شير، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، ص١٥.
٧) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول،ص١٢٣.
٨) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٢٧-ص٢٨.
٩) ن. م،ص٣٧.

وتعددت مواهب القيان والجواري وأتقنت بعضهن الشعر والغناء ومنهن المشهورات بذلك مثل"بنوسة جارية محمد المهدي التي ناظرت ماني الموسوس وقالت:

حـجـبوها عـن الرياح لإنني   قلت يا ريح بلغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ولكن   منعوها يوم الرياح الكلاما

فقال ماني:

فتنفست ثم قلت لطيفي   إن زرت طيـفها إلـماما
حيها بالسلام سرا و إلا   منعوها لشقوتي أن تناما" "[١]"

وكانت الجواري تتعلم الغناء فهذا إبراهيم الموصلي" يستأذن الرشيد في أن يهب له في كل أسبوع يوماً يخلو فيه مع جواريه، فأذن له يوم الأحد وهو يوم يستثقله"[2]"... وذلك ليعلمهن الغناء والضرب على الآلات المختلفة. وكان إسحاق خبيراً في الغناء وفي التدريب عليه. وسئل إسحاق عن المجيد من المغنين فقال: "من لطف في اختلاسه، وتمكن من أنفاسه، وتفرع في أجناسه، يكاد يعرف ضمائر مجالسيه، وشهوات معاشريه ...."[٣]"

"وفي يوم الشعانين أحد أعياد النصارى وجد المأمون وعنده (٢٠) وصيفة جلب روميات مزنرات تزين بالديباج الرومي وعلقن في أعناقهن صلباناً من ذهب، وفي أيديهن الخوص والزيتون يرقصن رقص " الدستبندا" وهو من أنواع الرقص المجوسي يأخذ بعضهم بيد بعض ويدورون ويرقصون"."[٤]"

وكان الناس يفضلون الجواري على الخدم والغلمان "إذ كان ثمامة ابن أشرس أحد المعتزلة البصريين جالساً مع المأمون فاستأذن الغلام لعمير المأموني، فكره ثمامة ذلك، ورأى المأمون الكراهة في عينيه، فسأله عن ذلك فقال: إذا غنانا عمير ذكرت مواطن الإبل وكثبان الرمل، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملي وانشرح صدري ... فتبسم المأمون وقال: الفرق بينهما واضح فأرسل في طلب قيناته "."[٥]"

لقد كان الخليفة يقرب الجارية أو الخادم إذا أتقن اللغة العربية وكان كثير منهم ممن نزل في بيوت الأدباء، أو جاء من البادية يتقن اللغة، وكان حفظ بعضهم للقرآن سبباً لعلو مكانتهم عند الخلفاء وغيرهم من الناس.

---

١) ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص٢٦٠-ص٢٦٣.
٢) القيروان، ذيل زهر الآداب، ص٢٦٤.
٣) القيرواني،زهر الآداب،ج(٣)، ص١٨.
٤) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج(٥)،ص٣٤-ص٣٥.
٥) القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ج(٣)،ص٤٠-ص٤١.

فهذه جارية طاهر بن الحسين قائد المأمون تفسر له رسالة من أحد أصدقائه التي لم يكتب فيها إلا " يا موسى" فلم يفهم ذلك، فقالت له الجارية: انه يقول "يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك"، وكان المأمون غاضباً منه."[١]"

"وأهديت للرشيد جاريتان أراد أن يقدم إحداهما على الأخرى فأمر الأصمعي أن يختبرهما في القرآن والشعر فقدم التي تميزت فيهما على الأخرى"."[٢]"

وكان بعضهم يوجه نقداً إلى الآخرين إن لم يتقن اللغة، فكان للرشيد جارية تسمى (هاشمية) طلب منها أبو طالب طعاماً بقوله: "إني قد رأيت متاعك، فقالت: بل قل طعامك"."[٣]"

"واشترى بعض الهاشميين غلاماً فصيحاً وهبه للرشيد، فقال الرشيد للغلام: إن مولاه قد وهبه إياه، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين ما زِلتُ ولا زِلتْ. فقال الرشيد: فَسر، فقال: ما زلت لك وأنا في ملكه، ولا زلت عن ملكه، فأعجب الرشيد به وقدمه"."[٤]"

وقال أبو العيناء*:" اشتري للواثق عبد فصيح من البادية، فأتيناه وجعلنا نكتب عنه كل ما يقول "...". "[٥]"

وكان إتقان الكتابة واللغة سبباً للاعتماد عليهم "وأراد أبو العتاهية أن ينافس شاعراً أحضره المأمون من خراسان فأعلمه أنه يملي على جاريته (٥٠٠) بيت شعر في اليوم"."[٦]"

وعلى عكس ذلك الإتقان وتلك المهارات التي ذكرت فإن أغلب الرقيق والجواري لم يكن متقناً للغة العربية، وأن من اكتسب منهم مهارة تكون بسبب البيئة التي وجد فيها، كما ذكرت سابقا، "فالمهدي الذي كان معجباً بخصي أعجمي له، وعين له معلماً نحوياً يعلمه القرآن وكان الخصي أعجمياً لا يفصح فقال: "في هل أتى" "يوماً عبوساً كمتريرا"**، وقال في " الجن": "نكعد منه مكاعد للسمع"***، فقال النحوي:

ولثقل الجبـال أهون مـما　　　　كلفوني من الخصي نجاح

---

١) ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، ص١٤٨-ص١٤٩.
٢) الجاحظ، المحاسن والأضداد،ص٢٤٦-ص٢٤٧.
٣) الآبي، نثر الدر،ج(٢)،ص٢٢-ص٢٢٣.
٤) الآبي، نثر الدر،ج(٣)،ص٣٩٢.
* أبو العيناء، هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان أبو عبد الله الضرير، مولى أبي جعفر المنصور أصله من اليمامة، وكان من أحفظ الناس وأفصحهم لساناً، وأسرعهم جواباً، وأحضرهم نادرة، ولد سنة ١٩١هـ في البصرة ومات في جمادى الآخرة سنة ٢٨٣هـ/ الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج(٤)، ص٢٨٤-ص٢٨٥/ وص٢٩٤.
٥) الآبي، نثر الدر،ج(٣)،ص٣٩١-ص٣٩٢/ والسيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٢٠-ص٢١..
٦) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ص٤٢٢.
** قال تعالى:(إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً) سورة الإنسان، آية (١٠).
*** قال تعالى:(وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الأن يجد له شهاباً رصداً) سورة الجن، آية (٩).

قال في هل أتى فأوجع قلبي   كمتريراً وكـ ده بالصياح"[١]"

وكان المأمون يحذر أبناءه لما سمع من أحدهم لحناً باللغة ويأمرهم بتعلم العربية بقوله:"... ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته"."[٢]"

وكان الخدم ينقلون أخبار القصور، ومثال ذلك هذا الإسناد المتصل بقهرمان سليمان" أنبأنا ابن ناصر، قال أنبأنا مبارك....حدثني محمد بن الحسن، قال حدثتني أم إبراهيم بن جميل، قالت: حدثني عبيد الله الشروي قهرمان سليمان بن أبي جعفر قال: دخل هارون الرشيد على سليمان وكان عليلاً وعنده جارية...". "[٣]"

كانت الجواري تقدم كهدايا بين الناس وخاصة الخلفاء إذ اتخذ المنصور من الجواري هدايا "فهو يقدم جارية للهذلي لما ماتت أم ولده، فكانت هذه تعزية وهدية"."[٤]"و"أهدى محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس للخيزران أم ولد المهدي (١٠٠) وصيفة..."."[٥]"

وأهديت للرشيد جارية جميلة وكان سعيداً بها وأخرج كل قينة في داره للاحتفال بها وكان من حضر من جواريه زهاء (٢٠٠٠) ... وكان من شدة سعادة الرشيد بذلك اليوم أن نثر (١٦) ألف ألف درهم."[٦]" وإن كانت المبالغة بادية للعيان في هذه الرواية إلا أنها تشير من ناحية أخرى إلى إهتمام الرشيد بالجواري المتميزات عن الأخريات.

وغضب الأمين من إبراهيم المهدي فحاول إرضاءه بهدية هي عبارة؛ عن وصيفة مغنية وعود هندي فرضي منه....و أهدى المأمون يوم بنى ببوران بنت الحسن بن سهل الحضور بنادق مسك فيها رقع بأسماء ضياع وجوار."[٧]"

وأهدت أسماء بنت داود إلى أسماء بنت المنصور ... عشر وصائف"."[٨]"

مثل الرقيق والجواري ثروة حقق من خلالها صاحبها الأموال التي يريد، ومثال ذلك جارية ابن رامين " زرقاء" التي دفعت كلا من معن بن زائدة وروح بن حاتم أن يقدم لها درة، بينما لم يجد ابن المقفع سوى صك ضيعة فقدمه لها"[٩]". بينما بالغ صالح بن عبد الوهاب في

---

١) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٤٢٦.
٢) القيرواني، زهر الآداب، ج(٣)، ص١٥٧.
٣) ابن الجوزي، ذم الهوى،ط(١)، ص٢٦٤.
٤) ابن منظور، المنتخب.... في النوادر والأشعار، ص٥٦٨.
٥) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص١٧-ص١٨.
٦) النويري، نهاية الأرب، (٤)، ص٢١٤-ص٢١٥.
٧) العمري، الروضة الفيحاء في تاريخ النساء، ص٣٥٠.
٨) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص٢٣٨.
٩) الجريري، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، ج(٤)،ص١١٨-١١٩.

الثمن الذي طلبه من الواثق في""قلم الصالحية" جاريته، فغضب الواثق لانه طلب فيها (١٠٠) ألف دينار وولاية مصر وردها ثم اشتراها بـ(١٠) آلاف دينار"."[1]

وقد كانت بعض الجواري تحصل على أموال خاصة بها وليس لسيدها ومثل ذلك ما عرف عن (دقاق)" وكانت مغنية جيدة وجميلة أخذت عن أكابر الدولة العباسية، وكانت ليحيى بن الربيع... ولما مات تزوجت بعدد من القادة والكتاب فماتوا وورثتهم ثم انقطعت إلى حمدونة بنت الرشيد ... وكانت مشهورة بالظرف والمجون، وقال هبة الله بن إبراهيم بن المهدي: إنها كانت تُري كل واحد ممن كان يهواها أنها تهواه، وكانت أحسن أهل عصرها وجهاً، وأشأمهم على من تزوجها، يقول فيها إبراهيم بن المهدي:

عدمتك يا صديقة كل خلق   أكل الناس ويحك تعشقينا" "[2]"

وقد كانت بعض الجواري تترك ثروة كبيرة بعد موتها يقتسمها ورثتها "وقام الأمين بأخذ جارية جعفر بن الهادي رغماً عنه وبقيت عند الأمين إلى أن مات، وولد الهادي وولد الأمين يدعون ولاءها، فلما ماتت ورثها أبناء الأمين.وقدم الأمين أموالاً طائلة لـ (بذل) منها فراريج من ياقوت وجوهر ومنها ما قدم إليها بعد موته وكان قد وعدها به"."[3]"

"وكان مغل (أي الغلة أو ما يقابلها من أموال) الخيزران في السنة(٢٦٠) ألفاً، وكانت صاحبة خيرات وجود وصدقات اشترت دورا وألحقتها بالحرم"."[4]"

إن من أهم النواحي التي أدت إلى الاعتماد على الجواري والرقيق هي النواحي الاجتماعية وأبرزها الزواج أو التسري، فهذا خالد بن صفوان التميمي يرغب لأبى العباس الزواج بأكثر من امرأة والتسري بالجواري، فتسمعه زوجة أبي العباس أم سلمى فترسل إلى مائة من مواليها البخارية لضربه حتى لا يعود إلى مثل ذلك فلما اجتمع بأبي العباس مرة أخري سأله عن الجواري وقوله السابق فيهن فغير قوله خوفاً من أم سلمى.ومع ذلك تزوج أبو العباس بأكثر من امرأة وخاصة من الجواري."[5]"

أما المنصور" فقد شرط لام موسى الحميرية أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى، وحاول التخلص من هذا الشرط بالكتابة إلى الفقهاء لكي يفتوه بالأمر، فكانت أم موسى تتابع تلك

---

١) الأصفهاني، القيان،ص١٢٦-١٢٩./ والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج(٥)، ص٧١.
٢) النويري، نهاية الأرب،ج(٥)، ص٧٠-ص٧١.
٣) الأصفهاني، القيان، ص٩٨.
٤) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٢٣٥./ والخطيب العمري الموصلي، الروضة الفيحاء في تـواريخ النساء، ص٣٣٥-٣٣٦.
٥) الجريري، الجليس الصالح الكـافي و...، ج(٢)، ص٤٥٦-ص٤٥٩/ والبيهقـي، المحاسـن والمـساوئ، ص٣٩١-٣٩٢.

الرسائل وتمنعهم من إصدار الفتوى، إلى أن ماتت فأهديت له مائة بكر، وفي نفس الخبر أنه أقطع لأم موسى الضيعة المسماة بالرحبة فوقفتها قبل موتها على المولدات من الإناث دون الذكور"."[١]، "وطلبت أم موسى من المنصور شراء جارية لتكون قيماً في داره، فحظيت عندها، فسألته التسري بها فأولدها علياً"."[٢]

وأما المهدي، "فكانت أول جارية ابتاعها "محياة" فرزق منها الولد وكان يبتاع الجواري بإسمها وتقربهن إليه"."[٣]"وحظيت عنده الخيزران وحسنة. إلا أن الخيزران تحظى بالنصيب الأكبر من اهتمامه."[٤]"

وكان للخيزران جوار عدة منهن المهلبية وجاريتها عبادة "[٥]".

ووفاة المهدي مرتبطة بعلاقته بالجواري على حد قول بعض الروايات "إذ أكل خبيصاً (نوع من الحلوى) مسموماً أرسلته إحدى جواريه للأخرى بسب الغيرة بينهما"."[٦]

وقد تولى الخلافة بعد موته ابناه من الخيزران موسى الهادي، وهارون الرشيد."وخطر ببال الهادي وجاريته(غادر) تغنيه أنه سيموت ويتزوجها أخوه الرشيد، فأتى بالرشيد وبها وبمماليكه وألزمهم أيمانا بأن لا يحدث ذلك، فلما مات تزوجها الرشيد بعد أن كفر عن أيمانه، وبينما هي نائمة ذات يوم انتبهت وفزعت تبكي فسألها الرشيد عن ذلك فقالت رأيت أخاك بالمنام يقول:

أخـــلفت وعدي بعدما	جاورت سكـــان المقابـر
وحـلفـت لـي أيـمانك	الـكـــذب الفـواجـــر
ونكـحت غـــادرة أخي	صدق الذي سماك غـــادر
ولحـقت بي قبل الصباح	وصرت حيث غدوت صـائر

فقال لها الرشيد أضغاث أحلام إلا أنها بقيت ترتعد إلى أن ماتت"."[٧]

"وكان الرشيد متزوجاً زبيدة بنت جعفر بن المنصور ولم تكن تنجب، فنصح بأن يتزوج عليها ليثير غيرتها كما جرى في قصة إبراهيم عليه السلام؛ فتزوج (مراجل) جاريته فأنجبت له

---

١) الجاحظ، المحاسن والأضداد،ص١٥٥-ص١٥٦.
٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٥)،ص١١٤.
٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٥)، ص١١٥.
٤) القيرواني الحصري، زهر الآداب، ج(٤)، ص٨٤-ص٨٥./ والسيوطي، المستظرف، ص٣٦.
٥) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ص٢٤٠-٢٤١.
٦) ابن منظور، المنتخب والمختار في النوادر و الأشعار، ص٥٧٠.
٧) وأبو الفرج الأصفهاني، القيان، ص٧٤-٧٥/ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص٤٥-ص٤٦/ والحموي، ثمرات الأوراق، ص٤٢٣-٤٢٤/ والسيوطي المستظرف، ص٤٧-ص٤٨.

المأمون وأنجبت له زبيدة الأمين، وكانت زبيدة تقول للرشيد إياك أن تجعلني بمنزلة إمائك اللاتي تريد التمتع بهن ...". "[١]"

ومن جواري الرشيد (ماردة) أم المعتصم، و(غضيض) أم ابنته حمدونة. و(ملك) إحدى جواري زوجته زبيدة. و(دنانير) التي أخذها من البرامكة بعد نكبتهم. "[٢]"

وقد عرف الرشيد بكثرة جواريه حتى أن بعض حكايات ألف ليلة وليلة، تذكره وتذكر جواريه، ويعتبر "ليتمان" "أن اسم الرشيد أصبح منذ وقت قديم رمزاً للعصر الذهبي الغابر الذي تفعل فيه الأعاجيب وتحاك حوله الأساطير لذا من الخطأ أن نكتفي بورود اسمه في إحدى تلك الحكايات". "[٣]"

وعلينا الحذر أيضاً من تلك الروايات التي ذكرتها سابقاً والتي تبالغ في كثرة عبادة الرشيد، لان كلا الروايتين لا تقدم صورة الرشيد كما هي بل تبالغ فيها، وذلك لأن أعداء الرشيد خاصة ممن لم يقبل نكبة البرامكة أراد التشهير به والإساءة له، بينما تصدى الرشيد وكل من أيده في ذلك إلى هذا التشهير بذكر عباداته المبالغ بها.

ومن أشهر جواري المأمون (تتريف) و(مؤنسة) و(عريب) التي اشتراها الأمين قبل موته وبقيت بعده وعاصرت عدداً من الخلفاء. "[٤]"

واشتهرت قرة العين المعتصمية، جارية المعتصم وحظيت عنده وكانت أديبة "[٥]". وكذلك فريدة جارية الواثق.

يبقى أن نقول إنه "ليس في خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا السفاح، والمهدي، والأمين، وأما سائرهم فكانوا أبناء إماء". "[٦]"

" إن أزهى فترات مشاركة النساء في الأمور السياسية كانت في زمن الخلفاء المهدي والهادي والرشيد، وتمثل ذلك بسيدتين هما الخيزران وزبيدة". "[٧]"

إلا أن القرب من مراكز صنع القرار في الدولة والقليل من الحرية التي تتاح للمقربين سواء كانوا نساء في القصر أو خدماً أو جواري يجعلهم من المؤثرين في قرارات الخلفاء، ومثال ذلك ما قاله إبراهيم الموصلي لأمير المؤمنين موسى الهادي:" إن من كان محله من أمير

١) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ص٥١٢.
٢) أبو الفرج الأصفهاني، القيان، ص٨٢./ السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري،ص٢٨-ص٣٠.
٣) ليتمان،E LITTMANN، ألف ليلة و ليلة دراسة وتحليل، ص٢٧- ص٢٨.
٤) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص١٧-ص١٨.
٥) ابن الساعي، نساء الخلفاء،ص٨٠-ص٨١.
٦) الثعالبي، لطائف المعارف، ص١٢٥.
٧) محمد خريسات،المرأة و المشاركة السياسية في ظل الدولة الإسلامية من العصر الجاهلي حتى سقوط الخلافة العباسية، ص١١٤.

المؤمنين محلي في الانبساط، وتقدم الندام جرأه البسط على الطلب، وبعثته المنادمة على الرجاء، وقد نصب لي أمير المؤمنين بقربي منه مشارع الرغبة إليه، وحثني محلي عنده على الكروع بين يديه، فقال: سل شفاهاً، فإني جاعل فعلي عن إجابتك إليه حاضراً...". "[١]"

مع أن إبراهيم النديم كان يأتي إلى القصر ساعات ويذهب، بينما تبقى الجواري والخدم في القصور بصورة دائمة.

وهكذا يبدوا أن على المرء ألا يبتعد كثيراً عن ذوي النفوذ وأن لا يقترب كثيراً منهم، فأحمد بن أبي خالد مثلاً يقول للمأمون عندما أراد أن يستوزره وأراد أن يستعفي :"اجعل بيني وبين الناس منزلة، يرجوني لها صديقي ويخافني بها عدوي، فما بعد الغايات إلا الآفات"."[٢]"

وقد كانت هذه المنزلة التي ذكرها خالد هي التي ساعدت الخلفاء طيلة العصر العباسي الأول في حكمهم وفقدت في العصر العباسي الثاني مما كان له الأثر الواضح في ضعف سلطانهم.

فقد ارتكب الخليفة الواثق بالله خطأً كبيراً بعدم اختياره لولي عهد من بعده ويعلق د. الدوري على ذلك بقوله:" فالواثق ذلك النكرة بالسياسة والإدارة لم يقم بفعاليات عسكرية تذكر، فكان حكمه فترة ركود جعل الترك يشعرون بأهميتهم ويتدخلون في السياسة بدل أن يقصر فعالياتهم على النواحي العسكرية، كما كان الوضع زمن المعتصم ... ولعل ضعفه وقلة إدراكه مسؤلان عن خطأ خطير وهو عدم تعيينه لولي عهد بعده فاختار الأتراك المتوكل، فكانت سابقة جرت ويلات على العباسيين" "[٣]".

لقد كانت هذه فرصة للأتراك لم تتح لغيرهم إذ أشعروا المتوكل – الذي يعتبر حكمه حداً فاصلاً بين فترة القوة التي تمثلت بالخلفاء السابقين وفترة الضعف التي تليها- بأنهم أصحاب الفضل عليه، وأنه لولا اختيارهم له لما كان خليفة، لذا استغل الأتراك ذلك بشكل كبير في خلافة المتوكل، وقد بويع جعفر المتوكل بن محمد بن هارون الرشيد بالخلافة وعمره(٢٦) سنة في ذي الحجة سنة(٢٣٢هـ /٨٤٩م) في سر من رأى."[٤]"

وقام بالتخلص من عدد من الأشخاص بعد توليه الخلافة لاسباب عدة أبرزها محاولة التخلص من ضغط الجند التركي عليه. الذي دفعه سنة (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م) إلى ترك سامراء

---

١) القيرواني، زهر الآداب، ج(٣)، ص٩-ص١٠.
٢) القيرواني، زهر الآداب، ص١٠٥.
٣) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٣.
٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج(٩)، ص١٥٤-ص١٥٥.

ودخول دمشق عازماً على الإقامة فيها إذ أمر بنقل دواوين الملك إليها ... ثم عاد إلى سر من رأى."[١]

وكرر المتوكل خطأ الرشيد السابق واختار أولاده الثلاثة محمد المنتصر، وأبا عبد الله المعتز، وإبراهيم المؤيد لولاية العهد وقسم الدولة بينهم، وفي سنة(٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) قام المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي، وحرث وبذر موضع القبر، وهدد الناس بعدم الاقتراب منه"[٢]".وفي سنة(٢٣٧هـ/ ٨٥١م) اخرج المتوكل أحمد بن حنبل من الحبس، وأمر بترك الجدل في مسألة خلق القرآن الكريم، وأن ذمته بريئة ممن يقول بخلق أو غير خلق."[٣]"

لقد كان لهدمه قبر الحسين ومنع الزيارة إليه أثر كبير إذ إتهم بعداوته للتشيع لآل البيت، والبعض الآخر اعتبره أحيا السنة وهدم البدعة بتركه محنة القول بخلق القرآن الكريم وإلغائه فكرة الإعتزال، فذهب البعض إلى تشبيه المتوكل بأبي بكر الصديق، وعمر بن عبد العزيز."[٤]"

وقد فُسرت هذه الإجراءات تفسيرات مختلفة وفق الخلافات المذهبية بين الناس، ولأربع خلون من شوال في سنة (٢٤٧هـ/٨٦١م) قتل المتوكل على يد الأتراك، وأشارت المصادر إلى دور ابنه المنتصر في قتله وقد تولى الخلافة من بعده."[٥]"وقدمت المصادر أسباباً عديدة لقتله أبيه إلا أن التناقض في بعض تلك الأسباب وموت المنتصر بعد ستة اشهر من توليه الخلافة تثير الشك حول دوره في ذلك.

وكان أبرز ما قام به المنتصر في أثناء توليه الخلافة عزل أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بتأثير من الجند التركي، وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة(٢٤٨هـ/٨٦٢م)."[٦]"ولم يكن موته نهاية لتدخل الجند في أمور الدولة، بل مثّل ذلك بداية مرحلة استضعف فيها الخلفاء من قبل الجند التركي الذين قاموا بتنصيب خلفاء وعزلهم وفق ما تفرضه مصلحتهم، وأصبحت أرزاقهم هي المحرك الأساسي لهم للثورة على الخلفاء وتعيين آخرين.

---

١) ابن كثير،البداية و النهاية ومعه نهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم، ج(٧)،ص٣٦١.
٢) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)،ص٢١٧-ص٢١٨/ الطبري، تاريخ الرسل، ص١٨٥-ص١٨٦/ ابـن الجـوزي، المنتظم في تواريخ الملوك والأمم،١٩٩٥م، ج(٦)،ص٤٤٧/ وابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٢.
٣) الطبري، تاريخ الرسل، ج(٩)، ص٢٠٩-ص٢١٢/ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣١٣/ ابـن دحيـة، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٧٥/الذهبي، دول الإسلام، ج(١)،ص١٠٢/وابن العبري، تـاريخ مختصر الدول، ص١٤٣.
٤) وكيع، أخبار القضاة، ج(٢)، ص١٨٠/الخطيب البغدادي، تاريخ، ج(٨)، ص٥١/ ابن الجـوزي، المنـتظم، ج(٦)، ص٤٠/ ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية،ص٢١٣.
٥) الطبري، تاريخ، ج(٩)،٢٣٤/الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج(٨)، ص٥٤/ وابن الجـوزي، المنـتظم، ج(٧)،ص٩٨/ابن العبري، المختصر، ص١٤٦/ وابن العماد الحنبلي،شذرات الذهب في أخبار من ذهـب، ج(٢)، ص٢٥١-٢٥٣/ والاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٢٧.
٦) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٤٤_ص٢٤٦/ ابن الجوزي، المنـتظم، ج(٧)، ص١٧/ والقلقـشندي، مـآثر الانافة في معالم الخلافة،ج(١)، ص٢٣٨-ص٢٣٩.

سعى الأتراك إلى تنصيب المستعين أبي العباس أحمد بن محمد المعتصم خوفاً منهم أن يبايعوا أحد أولاد المتوكل، ثم تنازل عن الخلافة سنة(٢٥٢هـ/ ٨٦٦م)."[١]" بسبب ضغط الأتراك عليه ورغم تنازله عن الخلافة سعى الأتراك لدى المعتز لقتله"."[٢]"

تولى المعتز أبو عبد الله محمد(أو الزبير) بن المتوكل الخلافة سنة (٢٥٢هـ/٨٦٦م)، وقام بمبايعة أخيه المؤيد بولاية العهد، إلا أنه خلعه وحبسه فمات بعد أيام، وفي أيامه بدأ ظهور المتغلبين في أطراف البلاد واستقل بعض الولاة بمدنهم."[٣]"

ولما كثر الاضطراب في مركز الخلافة وتأخرت أموال البلدان، ونفذ ما في بيوت الأموال، "وثب الأتراك بكرخ سر من رأى، ودخلوا على المعتز وخلعوه وأخرجوه ميتاً في رجب سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨م)." "[٤]"

تولى المهتدي محمد بن الواثق الخلافة في رجب سنة(٢٥٥هـ/٨٦٨م)، واتبع نهجاً مختلفاً عن الخلفاء قبله أملاً في تحسين وضع الدولة المضطرب، "فأظهر الورع والعدل إلا أنه لم يجد معينا، وكان أمير صدق وصاحب نسك، وكان يسمى راهب بني العباس، وكان يشبه بعمر بن عبد العزيز، فقد طرح الملاهي، وحرم الغناء والشرب، وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين والخراج"."[٥]" إلا أن ذلك لم يطل فقد دفعه الأتراك مرة أخرى إلى دائرة الصراع معهم فأعد لمواجهتهم إلا أنه وجد نفسه وحيداً لذا خلع من الخلافة ثم اخرج ميتاً.

إن سياسته التي اتبعها لم تنجح بإعادة الهدوء للدولة؛ لإنه لم يدرك عناصر الضعف في حكمه، ولا عناصر القوة لدى الأتراك، لذا خسر المعركة معهم.

تولى الخلافة بعده المعتمد أحمد بن المتوكل سنة(٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، وقد وصف بأنه أهمل أمور رعيته، وتشاغل باللهو واللذات وكان أول خليفة قهر وحجر عليه.

وأدى تجاهله لكثير من الممارسات إلى إطالة عمره ومدة خلافته أيضاً، وساعده على ذلك أن الفتن طالت على الناس وأثرت في حياتهم وفي استقرارهم، وكان لظهور أحد أفراد البيت العباسي أخو المعتمد أبو أحمد الموفق في الجيش وقيادته له أثر في تنظيم أمور الدولة

---

١) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢٢٦-ص٢٢٧ / الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥٦/ الحنبلي، شذرات الذهب، ج(١)،ص٢٥٧.

٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٦٢-ص٢٦٣.

٣) ابن حزم، جوامع السير، ص٣٧٤.

٤) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)،ص٢٣١-ص٢٣٥/ الطبري، تاريخ، ص٣٨٩-ص٣٩٠/ ابن الجوزي المنتظم، ج(٧)، ص٤٧/ ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٨٣، القلقشندي، مآثر الإنافة في..،ج(١)، ص٢٤٦-ص٢٤٧.

٥) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢٣٥-٢٣٧/ الخطيب البغدادي، تاريخ، م(٤)، ص٥٥٦-ص٥٥٧/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٧٦/ الذهبي، دول الإسلام، ج(١)، ص١١٣/ الحنبلي، شذرات الذهب، ج(٢)، ص٢٧٧-ص٢٧٩.

وتنظيم الجند الذي اعتاد الفوضى. وكان للثورات خارج العراق أثرها في توحيد الدولة وتوجيه الجيش إليها.

كما واجه المعتمد بقوة أخيه حركة الزنج، وحركة القرامطة، ويعقوب بن الليث الصفار في خراسان، وابن طولون في مصر. "وفي سنة(٢٦١ هـ/٨٧٤م) بايع المعتمد لابنه جعفر المفوض بولاية العهد ولأخيه أبو أحمد الموفق من بعده، إلا أن أخاه توفي في خلافته، فطالب ابنه أحمد بولاية العهد ثم طالبه بتقديمه على ابنه جعفر المفوض فكان له ذلك"."[١]"

ورافق خلافة المعتضد أحمد بن الموفق بن المتوكل، تحسن وضع العراق الاقتصادي، ففي (سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م) قال علي بن عيسى بن داود بن الجراح:" دخلنا على عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الخليفة المعتضد... وجعلنا نهنئه باستمرار الصلاح في جميع البلاد وسكون النفوس وسقوط جميع الأعداء." "[٢]"

وكان المعتضد قد فتح هو والقاسم بن عبيد الله ديار ربيعة وفتح الوزير ابن وهب وبدر خادم المعتضد المشرق، كما أنهى خلافه مع آل طولون بزواجه من قطر الندى ابنة خمارويه، وفي سنة (٢٨٨هـ/٩٠٠م) بدأ ظهور الفاطميين أصحاب أبي عبد الله الشيعي في المغرب ودعاهم إلى الأمام المهدي."[٣]"

وعمل الخليفة المعتضد على نقل العاصمة من (سر من رأى) إلى بغداد حيث أعاد لها مكانتها الأولى، وحرص قبل وفاته على أخذ البيعة لابنه علي بن المعتضد وتوفي يوم الاثنين النصف من شهر ربيع الآخر سنة(٢٨٩هـ/٩٠١م)."[٤]"

وعاد الفساد مرة أخرى إلى الخلافة العباسية، وثبت أن الموفق وابنه الخليفة المعتضد وإن حاولا إصلاح أمر الخلافة إلا أن إصلاحهما لم يكن جذرياً بحيث يمنع الأتراك من التدخل في أمور الدولة.

أفضى الأمر إلى أبي محمد علي بن أحمد المكتفي بالله ليلة وفاة أبيه وبقي والياً إلى أن مات في ذي القعدة سنة (٢٩٤هـ/٩٠٦م)،" فابتلي بكثرة الفتوق عليه واضطراب الأطراف ومع ذلك كان يمتلك جيشاً كبيراً، وأنفق الأموال العظيمة في

---

١) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٣٤-ص٣٥/ الطبري، تاريخ، ج٩، ص٤٧٤/ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣١٨-ص٣٢٠/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٧-ص١٤٨/ الذهبي، دول الإسلام، ج(٢)، ص١١٣-ص١٢٣.
٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، م(١)، ص٤٤٣-ص٤٤٤.
٣) القيرواني الحصري، ذيل زهر الآداب، ص٢٠٣/ ابن جميل، الحدائق الغناء في أخبار النساء، ص١٣٨/ الذهبي، دول الإسلام، م(١)، ص١٢٤-ص١٢٨.
٤) الخطيب البغدادي، تاريخ، م(٦)،ص٨٣.

حرب القرامطة الخارجين على الحجيج حتى أبادهم، وفي أيامه فتحت أنطاكية وكانت الروم استولت عليها"."[١]"

إلا أنه لم يختار ولي عهد من بعده "فعقد عظماء الدولة وأعيانها لجعفر بن أحمد المعتضد ولقبوه بالمقتدر بالله، وكان في الثالثة عشرة من عمره، فأطلق العامة والخاصة ألسنتهم بالقيل والقال"."[٢]"

ولم يل الخلافة أحد أصغر منه سناً، ولم سئل أحد الشيوخ عن تولي المقتدر الخلافة بهذا السن" أجاب أن الناس يسرعون إلى العجب مما لم يألفوه"."[٣]" وفي أيامه "فسدت الخلافة، ورقت أمور الإسلام ..."."[٤]"

وعزل الأتراك المقتدر عن الخلافة مرتين، وفي المرة الأولى اختاروا عبد الله بن المعتز ليوم وليلة للخلافة ثم قتلوه وأعادوا المقتدر سنة(٢٩٧هـ/٩٠٩م)، وعزلوه مرة، أخرى وولي القاهر بدلا منه ثم أعيد إلى الخلافة."[٥]"

ووقع خلاف بين المقتدر ومؤنس الخادم مما أدى إلى وقوع الحرب بينهما، والتي نتج عنها قتل المقتدر الذي حمل رأسه على رمح إلى مؤنس سنة (٣١٩هـ/٩٣١م)."[٦]"

و جاء بعد المقتدر القاهر محمد بن المعتضد الذي بويع سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م)، "وكان مهيباً مقداماً، ورغم ذلك خلعه الترك وسملوا عينيه".وكانت هذه سابقة أثرت على من جاء بعده من الخلفاء العباسيين."[٧]"

تولى الخلافة من بعده الراضي بن المقتدر سنة (٣٢٢هـ/٩٣٣م)، وفي خلافته عظم أمر الحنابلة في بغداد، وصاروا يكبسون دور القادة والعامة ويهاجمونها. وفي سنة (٣٢٤هـ/٩٣٥م) ألجأت الضرورة الراضي إلى أن يقلد أبا بكر محمد بن رائق إمرة الأمراء وصارت الأموال لا تحمل إلا إلى خزائنه. وفي سنة(٣٢٦هـ/٩٣٧م) تغلب بجكم على ابن

---

١) الخطيب البغدادي، تاريخ، م(١٣)، ص٢١٣-ص٢١٤/ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣٢٢-ص٣٢٦، ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣١-ص٢٣٢، ابن حزم، جوامع السير، ص٣٧٦/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)،ص٣٤٠/ ابن دحية، النبراس....، ط(٢)، ص٨٩-ص٩٠ /والذهبي، دول الإسلام، ج(١)، ص١٢٨.

٢) الخطيب البغدادي، تاريخ، م(٨)، ص١٢٧/خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٠/ و ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٣٢.

٣) التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة، ج(١)، ص٢٤٠-ص٢٤١.

٤) ابن حزم، جوامع السير، ص٣٧٦-ص٣٧٧.

٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣٢٩/ الخطيب البغدادي، تاريخ، ج(٨)،ص١٢٧-ص١٢٨/ القيرواني، زهر الآداب، م(٢)، ص٢٥٠-ص٢٥١/ ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص١٥٤-ص١٥٧/ الذهبي، دول الإسلام، ج(١)، ص١٣٢.

٦) ابن الطقطقا، الفخري..، ص٢٣٧/ الذهبي، دول الإسلام، ج(١)، ص١٣١/ ياسين العمري، مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء،ص٣٦٧-ص٣٦٨.

٧) المسعودي، التنبيه و الإشراف، ص٣٣٦/ ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء، ص١٠٤-ص١٠٥/ ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣٧-ص٢٣٨.

رائق، وكان ذلك سبباً في توليه منصب إمرة الأمراء، وفي سنة(٣٢٧هـ/٩٣٨م) كتب أبو عمر بن يحيى إلى القرمطي أن يطلق طريق الحج، فأذن لهم على أن يعطى خمسة دنانير عن كل جمل، وفي سنة (٣٢٩هـ/٩٤٠م) اعتل الراضي ومات."[١]"

تولى الخلافة بعده المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر(٣٢٩هـ/٩٤٠م)، وخلع وسملت عيناه في صفر سنة (٣٣٣هـ/٩٤٤م)."[٢]"

ثم تولى أبو القاسم عبد الله المستكفي بن المكتفي الخلافة سنة (٣٣٣هـ/٩٥٠م) إلى أن خلع وسملت عيناه على يد معز الدولة بن بويه سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م)، وكان أبرز حدث في خلافته انتهاء عصر إمرة الأمراء، وابتداء الحكم البويهي بدخول معز الدولة بن بويه واخوته بغداد."[٣]"

لقد مثلت الفترة الممتدة من عام (٢٣٢هـ -٣٣٤هـ)/(٨٤٦م-٩٤٥م) فترة ضعف حقيقية مكنت الرقيق والجواري من التدخل في أمور عديدة لم يكن يسمح لهم قبل هذه الفترة بالتدخل فيها.

إلا أننا لا نستطيع الحكم على مقدار تأثيرهم في الدولة وتراجعها بسبب ذلك إلا بعد دراسة ذلك الدور والعوامل التي أدت إليه.

---

١) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص١٦٢-ص١٦٤/ والذهبي، دول الإسلام، ج(١)، ص١٤٤-ص١٤٨/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٩٠-ص٣٩٢.

٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣٤٤/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٢٢٧/ ابن دحية، النبـراس فـي تاريخ خلفاء بني العباس، ص١١١-ص١١٢/ ابن منظور، المنتخب والمختـار فـي النـوادر والأشـعار، ص٥٨٢/ الذهبي، دول الإسلام، ط(٢)، ج(١)،ص١٤٨-ص١٥١.

٣) البغدادي، تاريخ، م(١١)،ص١٧٩-ص١٨٠/ وابن الجـوزي، المنـتظم، ج(٨)، ص٢٢٩-ص٢٣١/ ابـن الطقطقا، الفخري ، ص٢٥٧/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٦٦-ص١٦٧.

الفصل الأول

التعريف بالرقيق والجواري، ومصادر شرائهم

أولا: تعريف المصطلحات:

تعددت العناصر السكانية في بغداد في الفترة الممتدة من العام (٢٣٢هـ - ٣٣٤هـ)/ (٨٦٨م-٩٤٥م) وكان العنصر العربي هو العنصر الغالب في بغداد تلته عناصر أخرى أهمها الفرس، ثم الأتراك الذين استعان بهم المعتصم واستكثر منهم وشكل بهم جيشاً متكاملاً، وكانت هناك عناصر أخرى تتفاوت بالكثرة والقلة منهم الروم والصقالبة والزنوج والسودان وغيرهم، وانقسم المجتمع البغدادي إلى عدة طبقات تسمح بدخول أفراد من الطبقات الأخرى إليها فهو ليس نظاماً طبقياً مغلقاً، كما يمكن أن يقسم على أسس عديدة منها:

- الأساس القبلي: وهو انتماء الأفراد إلى قبائلهم.
- الأساس الاقتصادي: المبني على أساس الفقر والغنى.
- الأساس الوظيفي: الوظائف الإدارية والعسكرية.
- الأساس المهني والحرفي.

إلا أن هناك فئات اجتماعية تمثل أبرز عناصر السكان في بغداد، منها فئة الأشراف المتمثلة بالبيت العباسي والعلويين المنتسبين إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفئة الخاصة المقربة منهم.

ثم فئة العامة التي تمثل غالبية السكان، وكان هؤلاء يبرزون في مواقف معينة، كالفتنة التي كانت بين المستعين والمعتز وتضم أغلب الفئات الاجتماعية الموجودة في بغداد.

وللعلماء فئة خاصةٌ بهم وهم مقربون من رجال الدولة ومن عامة الناس كذلك.

وفئة الأثرياء من التجار وهم الأقل عدداً في عاصمة الخلافة العباسية حيثُ تكثر الأسواقُ، ويكثر الوافدون من كل بقاع الأرض ثم تأتي الطبقة التي ينتمي إليها

الرقيق والجواري."[١]" ويرى البعض أن الخدم من الإماء والرقيق ينتمون لطبقة العامة."[٢]"

لقد أسهمت المبادئ الإسلاميةُ التي تجعلُ من جميع الناس سواء لا فرق بينهم إلا بالتقوى في تهذيب نظرة الإنسان الى أخيه الإنسان في المجتمع الإسلامي. وكان امتلاك الرقيق منتشراً قبل الإسلام، بين أفراد المجتمع الجاهلي والمجتمعات الأخرى كاليونان، والرومان، ومصر"[٣]"، وكانت الدياناتُ الثلاثةُ اليهودية، والمسيحية، والإسلام، تَنْظُر إلى معاملة الرقيق وِفْقَ المبادئ المنصوص عليها في الكتبِ السماوية"وكان رجالُ الدين المسيحي يعاقبون تُجار الرقيق بالحرمان لان المسيح عليه السلام لا فرق عنده بين عبد وحر، كما لا يحقُ لليهود والنصارى التمتُع بإمائهم "[٤]"، وهذه المبادئ لها تفاصيلُ كثيرة يطول شرحها.

لقد انتشر الإسلام في الجزيرة العربية التي اعتادتْ منذُ القدم الاستعانة بالرقيق والجواري للقيامِ بالأعمال اليومية، وتعاملَ الإسلام مع الظواهرِ الموجودة في هذا الُمجتمع فَرفَض بعضها كالإشراك بالله، والربا، وبعضِ عقود الزواج، وغيرِها مما يخالفُ مبادئه،كما اتخذَ الإسلام موقفاً محدداً من الحربِ التي كانت بمثابة شرٍ لابد منه، قال تعالى:(كُتب عليكُم القتالُ وهو كره لكُم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكُم وعسى أن تُحبوا شيئاً وهو شر لكُم والله يعلَم وأَنْتُم لا تَعلمون)"[٥]".

وكان المسلم يخوض الحرب وِفقَ المبادئ الإسلامية التي تحض على عدمِ الإفساد في الأرضِ بالإساءة للأطفال والنساء وقطع الأشجار واحترامِ دورِ العباد.

أما أسرى الحربِ فقد اصطُلح على تَسميتهم "الرقيق" وعرف الفقهاء الرق بأنه: (عجز حكمي يصيب من يقع أسيراً في حربٍ مشروعة، فمصدره في الإسلامِ حرب مشروعة، وهي قتالُ من يحارب المسلمين بعد تَبلُغ دعوته، وهو عجز حكمي يصيب من يقع أسيراً في هذه

---

١) مليحة رحمة الله، الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع، ص٩-ص٥٥/ وجوستاف ا. فون جرونيباوم، حضارة الإسلام، ص٢١٨-ص٢٢٥.
٢) سوزان ياغي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ تأسيسها حتى ٣٣٤هـ (رسالة ماجستير - الجامعة الأردنية)، ص٣١.
٣) الترمانني، الرق ماضيه وحاضره، ص١٠-٣٠.
٤) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام،ج(١)، ص٢٧٧-٢٧٨.
٥) سورة البقرة، آية ٢١٦.

الحرب، فيفقد أهليته القانونيةَ ويكون مملوكاً لمن يؤولُ إليه، وهذا العجز مؤقتْ يزولُ بالفداء أو العتق...)"[١]".

وهناك أنواع للرق كما بينها مصطفى الجداوي:

- رقاً قانونياً وآخر واقعي.
- ورقاً دائماً وآخر موقوتاً.
- ورقاً كاملاً وآخر منقوصاً
- ورقاً يكون فيه السيد جماعة والرقيق فرداً أو السيد فرداً والرقيق جماعة."[٢]"

وهذه الحالات قد تنطبق على جميع الرقيق في هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، إلا أنها تنطبق أكثر على رقيق أوروبا. ويسمح ببيع هؤلاء الرقيق في الأسواق، وتتحدد صحةُ ذلك بصحة عقد البيع والشراء، وأصبحتْ تجارةُ الرقيق مصدراً تجارياً رئيسياً في بغداد، خاصةً مع تَركُزِ الأموال والثروات فيها، ولكن وقبلَ الحديث عن أهمِ مصادرِ شراء الرقيق علينا التعرفُ على أهمِ المصطَلحات المرتبطة بهم.

تعددتْ المصطلحاتُ التي أُطلقتْ على الرقيق والجواري في بغداد، وبعض هذه المصطلحات كان معروفاً لدى الجميع وكان متداولاً بين الناس، وبعضها استُحدثَ نتيجةً لتطورِ الحياة وتعدد استخداماتهم، فقد وجدت هذه المصطلحات تُقسم إلى قسمين هما:

أولاً: مصطلحات غير مباشرة تتلخص بمعرفة أصلَ الشخصِ المعني ونسبه من خلال البحث لِمعرفة في كونه عبداً أو حراً، وهي تُقسم إلى عدة أقسام هي:

---

١) الأمشاطي، القول السديد في اختيار الإماء والعبيد، ص٦٠./ والترمانينى، الرق، ص٣٣-ص٣٤.
٢) مصطفى الجداوي، الرق في التاريخ الإسلامي، ج(١)،ص١٩.

الجدول(١)

نسبة بعض الرقيق الى أوطانهم الأصلية	
المنطقة أو البلاد الأصلي للرقيق	اسم الشخص
بلاد فرغانة	أبو بكر الفرغاني
بلاد باذغس	إبراهيم الباذغسي
بلاد المغرب	راشد المغربي
تركستان	سيما التركي
كردستان	ابن الكردية
بلاد الأندلس	إسحاق الأندلسية "جارية المتوكل"
بلاد الروم	ابن الرومية

ويوضح هذا الجدول أن هؤلاء اكتسب بعضهم أسماء عربية وخاصةً الإسم الأول، إلا أن الإسم الثاني يتعلقُ بموطنهم الأصلي، ومع ذلك قد ينْسب المرء إلى موطنه عند العرب دون أن يكون من الرقيق إلا أن هؤلاء يذكرون اسمهم كاملاً فَنقُولُ مثلاً " أبو الفضل محمد بن جرير الطبري نسبةً إلى موطنه طبرستان، "بينما تُذكر أسماء هؤلاء قصيرة إذ يذكر اسمه الأول ثم يضافُ إليه موطنه الأصلي كراشد المغربي فلا نقولُ راشد ابن كذا المغربي بل نقول" راشد المغربي مباشرةً.

الجدول(٢)

وينسب بعضهم الآخر إلى لونه مثل	
اللون	النسبة
اللون الأسود	غلام أسود / خادم أسود/ الغلمان السودان/ الخدم السودان/ الأمة السوداء.
اللون الأبيض	غلام أبيض/ خادم أبيض/ الغلمان البيض/ الخدم البيض....
اللون الأصفر	جارية صفراء / جواري صفر/ مولدة صفراء/ غلام من بني الأصفر.

وقد تكون نسبتُ الجواري والرقيق إلى ألوانهم تَحملُ نظرةً فوقيةً من قبل المجتمع إليهم فلا يدعونهم بأسمائِهم التي اختيرت لهم، وإنما ينادونهم بألوانهم، وقد يمثلُ ذلك أيضاً إحساساً من قبل العامة بغرابة تلك الألوانِ التي لا تُشبه ألوانهم، "وقيل أن السود من الزنج والسودان، بينما كان من البيض الأتراك، واليونان، والصقالبة، والأرمن، والبربر"[١] أما في دارِ الخلافة فإن المسألةَ تختلفُ (فيختار البيض كبوابين للقصرِ والسودان مماليك الخلفاء ومن رسمهم (أي عملهم) أن ينوبوا في مصاف بابِ الخاصة وحوالي القصر ولهم وظيفةُ خَبز يميزون بها لِقلة أرزاقهم. ويعتبر العبيد البيض أرستقراطيي العبيد وأثمانهم عالية على عكسِ غيرهم من الرقيق)"[٢]".

وألف الجاحظ رسالةً تُعتبر من أهمِ الرسائل التي تتحدثُ عن الرقيق، وهي رسالةُ" فَخرِ السودانِ على البيضان" وفيها يتحيز الجاحظ إلى الزنوج أصحابِ البشرة السوداء ويصفُهم بصفات عديدة كالشجاعة وقوة الأبدان، والكرمِ، وإتقانهم الرقص، ويمدح هذه الصفات وغيرها للسودان، ويأتي بنقيض منها أو أسوأ منها للبيضان، وينسب اللون العربي للونِ الأسود ويعتبر العرب جزءاً من هذا اللون وهذه الصفات."[٣]"

الجدول(٣)

نسبة الرقيق والجواري إلى الأعمال التي مارسوها	
العمل	الاسم
الخدمة	وصيف الخادم
الحراسة الخارجية	الأتراك البرانيين
المسؤول عن الخزنة	مؤنس الخازن
العزف على آلة كالمزمار	زنام الزامر
المسؤول عن حراسة الحرم الخاص بالنساء	صافي الحرمي
المسؤول عن رسائل الحرم	الخادم الحرمي الرسائلي
حراسة الدار	الغلمان الدارية

1) Hitti. 1964. History of the Arabs. P. 341.

٢)الصابئ، الوزراء، ص١٥ - ص١٦. آدم متز، ...عصر النهضة في الإسلام، ج(١)، ص٢٥٢/وص٢٨٠-٢٨١.

٣) الجاحظ،"الرسالة الرابعة فخر السودان على البيضان"، م(١)/ ص١٣٥_ص١٣٨.

الجدول(٤)

نسبة الرفيق والجواري إلى مالكيهم:	
المالك	النسبة
المأمون	عريب المأمونية
المتوكل	ناشب المتوكلية
المعتز	المعتزية(الجند الأتراك ينتسبون الى المعتز)
ابن أبي الساج (أحد القادة في الجيش العباسي)	الساجية (فرقة في الجيش العباسي)

وهذه المفاهيم تتكرر معنا طوالَ العصرِ العباسي الثاني، لِذا لِزم الأمر الإشارةُ إليها.

ثانياً: مصطلحات مباشرة مرتبطةٌ بالرقيق والجواري وهي تُقسم الى قسمين: قسم خاص بالجواري وقسم خاص بالرقيق و يوضح الجدولُ التالي هذه المصطلحات:

الجـ ـ دول(٥)

الجواري	الرقيـ ق
الغلاميات	الغلمان
الوصيفة/ الوصائف	الوصيف
مولاة	مولى/ موالي
مملوكة	مملوك /مماليك
القهرمانة/ القهرمانات	القهرمان/ القهارمة
أم ولد	الخصي
حظية/ حظايا	الحظي
أمة/ إماء	العبيد
مولدة	الأبناء
قينة/ قينات/ قيان."	قن
السراري	

ولهذه المصطلحات العديدة معانٍ وأُصول عربية محددة، فجميع هذه المصطلحات تنتمي الى اللغة العربية باستثناء لفظ "القهرمان أو القهرمانة"، وهي كلمةٌ ذاتُ أصلٍ فارسي."[١]"وتعني البطل، ووكيل الخارج والداخل."[٢]" وتُجمع قَهارِمةٌ،وقهرمان موظفُ ضرائب.و قهرمانى: حام، حراسة، محافظة"[٣]".

وتستخدم هذه المعاني لكلمة" القهرمان" لِوصف الرقيق من الذُكور أي من ناحية الشجاعة والقوة، أما القهرمانات من الإناث فقد يكُون معنى وكيل الخارج والداخل أو موظفة الضرائِب هو أكثر المعاني ملائمةً لهن خاصةً أن بعض جواري العصرِ العباسي الثاني تَولين مهمةَ الجلُوسِ أَمام القصر للنظر بالمظالِمِ أو استقبال الهدايا المقدمة لسيدات القصرِ فأطلقَ عليهن هذا الاسم .

أما المصطلحات الأُخرى وهي ذاتْ جذورٍ عربية نبدأُ بِأول مصطلح فيها وهو "الغُلامياتْ - الغلمان" وهو من الجذرِ الثُلاثي(غَ لُ م): (الغُلمةُ، شهوةُ الضراب، غَلِم الرجلُ و غيره، بالكسر، أي هاج، وكذلك الجاريةُ. وفُلان غُلام الناس وإن كان كهلاً، والغُلام الطّاّر الشارِب، وقيل هو من حين يولد الى أَن يشيب، والجمع أَغلمة وغُلمة وغلمان)."[٤]" والغُلام معروف والغُلمة: شهوةُ الضراب، والغَيلم الجاريةُ المغتَلمةُ)."[٥]"

وذُكرتْ كلمةُ "غُلام" تسع مرات في القرآنِ الكريم مثالُ ذلك، قال تعالى:"قال ربِ أَنى يكُون لي غُلام وقد بلَغني الكبر وامرأَتي عاقر قالَ كذلك اللهُ يفعلُ ما يشاء" "[٦]" وجمع هذه الكلمة مذْكُور أيضاً في القُرآنِ في قوله تعالى" ويطُوفُ عليهم غلمان لهم كأنهم لُؤْلُؤ مكنون"[٧]"."[٨]"

ويتْضح من المعاني السابقة أن كلمةَ غُلام المقصود بها الفُتوةُ وهي مرحلةٌ عمريةٌ محددةٌ تُشير إلى مقْدرة الذَكر أو الأُنثى على القيامِ بأي عملٍ، (فإذا فُطم سمي غُلاماً إلى سبع سنين، ثُم يصير يافعاً إلى عشرِ سنين)."[٩]" والغُلام يطلقُ على الحرِ والعبد ويكون ذلك بهدف تحديد السن.

---

١) حنين، عبد النعيم محمد، قاموس الفارسية، ط١، [مادة: قواد-قيوم]، ص٥٢٠./ و مرتضى شيرازي، فرهنك اصطلاحات روز، ط(١)، [مادة: = ق ر ا]، ص٩٦/ وعلوب، عبد الوهاب، الواعد للألفاظ والتعبيـرات والتراكيب الفارسية المعاصرة، ط(١)[مادة: قماش- قهو خانة] ص٣١١.
٢) التونجي،محمد، المعجم الذهبي (فارسي- عربي)، [مادة: قوى استخوان - قيمة قيمة كردن]، ص٥١٠.
٣) شتا، إبراهيم الدسوقي، المعجم الفارسي الكبير، م(٢)، [مادة : قهرمان - قيام]، ص٢١٢٤.
٤) ابن منظور، لسان العرب، م(١٠)،[مادة: غ ل م]، ص١١١- ص١١٢.
٥) إسماعيل الجوهري، الصحاح، ج (٥)،[مادة : غطم - غمم]، ص١٩٩٧.
6) آلُ عمران، آية (٤٠).
7) الطور، آية (٢٤).
٨) محمد فؤاد عبد الباقي ،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،[مادة:غلم]، ص٥٠٤.
٩) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٩١.

كما نَستطيع أن نُضيفَ هذا الاسم إلى الجارية فنقولُ المغتلمةُ، ومصطلح " الغُلاميات اختُص بهن وسبب تسميتهن بهذا الاسم هو زبيدة زوجة الرشيد التي خَشيتْ من تقريبِ ابنها الأمين للخدمِ وإبعاده للجواري لِذا اتْخذتْ الجواري الحسان، وطرتْ* رؤوسهن وجعلتْ لهن الطُرر والأصداغ**وشُعور الأقْفاء وألبستهن الأقبية*** والمناطقَ**** وأرسلتهن إليه وأبرزتُهن لِلناس، فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات وسموهن الغُلاميات)."[١]"

ويقصد بِذلِك أنها قصة شعر الجارية بحيثُ تكون أقرب شبهاً بالذكرِ، ثُم ألبستها لِباساً لم يعتْد الناس رؤيته على النساء بل على الرجال، لِذلِك أُطلقَ عليهن الغُلاميات، وهي لفظةٌ تُفيد التأنيثَ إلا أن أَصلَها (غ َ ل ُ م) مذكر. والغُلاميات جوارٍ عرفهن العصر العباسي ولم يكُن معروفات لِلناس من قبل؛ لِذا تكُون زبيدة قد ابتكرت ذوقاً جديداً غير من هيئة الجارية .

ويرى البعض "أن هذا الذوقَ الجديد يمثلُ أُفولاً لِلذوق العربي المتمثل بجمال المرأة ذات الشعرِ الطويل الفاحمِ والبشرة البيضاء، وأن هذا الزي تعدى الجواري لِيصلَ إلى الحرائِرِ في قصورِ الخُلفاء والأمراء والقادة"."[٢]"

وأرى أن كلا الذَوقين استمر، وأن ذلِك الأفُولَ غير صحيح، فلا يعني وجود ظاهرة إلغاء أُخرى، وقد سمح وجود الغُلاميات إلى منح الجارية الحريةَ الكافية لِلتنقل وهو بمثابة تنكُر قد يتيح لهن الجلوس في مجالس وأماكن عامة لا يسمح لهن بدخولها عادةً .

أما المصطلح الثاني وهو مصطلح "الجارية" الذي ورد ثلاثَ مرات في القُرآنِ الكريم [٣]، قال تعالى:"و من آياته الجوارِ في البحرِ كالأعلام" "[٤]" وقال تعالى:" فلا أُقسم بالخُنس الجوارِ الكُنس""[٥]" والمقصود بالجواري في الآية الأولى (السفن التي تجري بالبحر)، أما في الآيةُ الثانيةُ

---

* الطرة : والطر الشق والقطع أي قص الشعر/ الجوهري، الصحاح، ج(٢)،(مادة: ط ر ر) ص٧٢٤-ص٧٢٥] .

** الأصداغ: الصدغ ما بين العين والأذن، ويسمى أيضاً الشعر المتدلي عليها صدغا، وصدغت الرجل: إذا حاذيت بصدغك صدغه في المشي/ الصحاح، ج(٤)، (مادة: صدغ - صمغ) ص١٣٢٣.

*** الأقبية: القباء الذي يلبس والجمع أقبية.[الجوهري، الصحاح، ج(٦)، (مادة: قوا - قبا]، ص٢٤٥٨.].=

**** المناطق: من نطق .... والنطاق، شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها، وكان يقال لأسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين، وانتطق الرجل أي لبس المنطق وهو كل ما شددت به وسطك/ الصحاح، ج(٤)، (مادة: نطق _ نعق)، ص١٥٥٩.].

١) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٢٧.

٢) عبد النور، جبور، الجواري ، ص١٦.

٣) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،[مادة: ج رى]، ص١٦٨.

4) الشورى، آية (٣٢).

5) التكوير، آية(١٦).

تعني (النُجوم التي تتأخر عن مطلعها وقيل الكواكب وقيلَ البقر الوحشي)."[١]"وتحمل جميع هذه المعاني مفهوماً واحداً وهو الحركةُ والتنقلُ المستمر .

ويقولُ ابن منظور في لِسان العرب عند الجذرِ (ج ر أ): (الجاريةُ الشمس لأنها تجري من المشرق الى المغربِ، وتعني النجوم، والسفينةَ وذَكر الآيتين السابقتين.والجاريةُ عين كُل حيوان، والجاريةُ النعمةُ، ومنه قولُك أَجريتُ عليه كذا أي أَدمتُ له. والجِرايةُ الجاري من الوظائف. والجاريةُ: الفتيةُ من النساء."[٢]"

ولفظُ الجارية كلفظُ الغُلام يطلقُ على الحرة والمملوكة، وللحرة يكون لِتحديد سنها، أما المملوكةُ فيكون المقصود بها أنها جاريةٌ متنقلةٌ أي تنتقلُ من ملكية شخصٍ الى ملكية شخصٍ آخر إذا عرِضتْ للبيع، و يدلُ ذلك على سنها أيضاً .

وقد أضافَ لنا الجاحظُ رسالةٌ هامةٌ تتحدثُ عن المفاضلة بين الجارية والغُلام أسماها " مفاخرةُ الجواري والغلمان" وفيها يسرد بائع الجارية فضائِلها، وعيوب الغلمان وكذلك يفعلُ بائع الغُلام."[٣]"وهذه الرسالة توضح أن المنافسةَ انتقلتْ من الاهتمامِ بالجواري، وتفضيل إحداهن على الأخرى أو تفضيل غُلام على آخر الى الانتقال لِلمفاضلة بين الغُلامِ و الجارية، وأن البعض قد يفضلُ شراء غُلامٍ على جارية رغم غلاء سعره مثلاً.

وفي مادة (رقَقَ) نجد معنى الرقيق بأنه: (نقيض الغليظُ .... والرِق بالكسر، الملك والعبودية، ورق صار في رق .... وعبد مرقوق ومرق ورقيق، وجمع الرقيق أَرقاء، وأَمةٌ رقيق، ورقيقةٌ من إماء رقائق، وقيل الرقيق اسم للجمع، واسترقَ المملوك فرقَ: أَدخله في الرق وهو نقيض عتقه، والعبيد رقيق لأنهم يرقون لِمالِكهم ويذلون ويخضعون وسميت السوق سوقاً لأن الأشياء تُساق إليها)."[٤]"

وبعد فإن الرقيق : (تجارةٌ من التجارات تقع عليه المساوماتُ والمشاراةُ بالثمنِ، ... وإن كان لا يعرفُ مبلغه بكيلٍ، ولا وزنٍ، ولا عدد، ولا مساحة، فيعرف بالحسنِ والقُبح....) "[٥]"

---

١) الطبري ،جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م(١٥)، ص٩٢-ص٩٧.
٢) ابن منظور، لسان العرب، م(٢)، [مادة: ج ر أ]،ص٢٦٤-ص٢٦٧./ الجوهري، الصحاح....، م(٦)، [مادة: ج ر ى]، ص٢٣٠١-ص٢٣٠٢.
٣) الجاحظ، الرسالة (١٣) مفاخرة الجواري و الغلمان، م(١)، ص٧٣- ص ٩٩.
٤) ابن منظور، ن.م، م(٥)، [مادة : رقق- رقق]، ص٢٨٦-ص٢٨٩/ الجوهري، الصحاح م(٤)، مادة: رقق- رقق، ص١٤٨٣.
٥) الجاحظ، رسالة (١٤) القيان، ط(١)، م(١)، ص١٢٤.

أما العبد: فهو من الجذرِ الثُلاثي(ع ب د) هو الإنسان، حراً كان أو رقيقاً، ويذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه عز وجل، والعبد المملوك خلافُ الحرِ، ويقالُ فُلان عبد بين العبودة، والعبودية، والعبدية، وأَصلُ العبودية الخضوع، والتذللُ، وفي حديث أبي هريرة:"لا يقُلْ أَحدكم لِمملوكه عبدي وأَمتي وليقُل فتاي وفتاتي؛" هذا على نفي الاستكبارِ عليهم وأن ينسب عبوديتهم إِليه، فإن المستَحقَ لِذلك اللهُ تعالى هو رب العباد كُلهم والعبيد، واجتمع العامةُ على التفرقة ما بين عباد اللهِ والمماليك فقالوا هذا عبد من عباد اللهِ وهؤلاء عبيد مماليك....) "[١]"

وعرفَ حنين بن إسحاق الطبيب النصراني العبادي بنسبته إلى العباد وهم من نصارى العرب.... وتَسموا بالعباد لأنه لا يضافُ إلا إلى الخالق، وأما العبيد فيضافُ إلى المخلوق والخالق."[٢]"

ووردتْ كلمةُ عبد في القُرآنِ الكريم بكافة إِشتقَاقاتها (٢٦٣)مرة "[٣]" قال تعالى:(إياك نَعبد وإياك نَستعين) "[٤]"وهذا يدلُ على أن هذه الكلمةَ يفضلُ استخدامها من الناحية الدينية أكثر من وصف الرق.

أما (مولاةٌ)، و(مولى)، و(موالي) وهي من الجذرِ الثُلاثي(ولَي): (ومن أسماء اللهِ الحسنى "الولي" وهو الناصر والوالي المتولي لأُمور العالم والخلائِق، والولايةُ السلطان، والموالي ورثَةُ الرجل بنو عمه، قال تعالى:" وإني خفتُ الموالي من ورائي" والمولى: المعتقُ انتسب بنسبِك، ولِهذا قيلَ للمعتقين الموالي أي أَنعم عليه بالعتق، فالولايةُ في النَسب، والنُصرة، والعتْق، والموالاةُ من وإلى القوم، والولاء: ولاء المعتق، وفي الحديث: نُهي عن بيع الولاء وعن هبته، يعني ولاء العتق، وهو إذا ماتَ المعتقَ ورثه معتقه، أو ورثَةُ معتقيه، وكانت العرب تبيعه وتهبه، فنهى عنه لأن الولاء كالنسبِ لا يزولُ بالإزالة والمولى المالِك والعبد"[٥]" أما الانتساب إلى أَميرِ المؤمنين، إنما ينتسب إلى ذلك الأعاجِم والموالي، وأما العرب الصرحاء فلا يفعلونه."[٦]"

وتَشملُ لفظةُ (مولى) ثلاثة جوانب مخْتلفةً وهي:

---

١) محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،ج(٨)،[مـادة: ع ب د]، ص٣٢٧-ص٣٤٥./ ابن منظور،لسان العرب، م (٩)، [مادة: ع ب د] ،ص١٠_ ص١٧.
٢) اليعقوبي، التاريخ، ج (٣)ص٢٢٢./وابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٤،/
٣) محمد فؤاد، المعجم المفهرس....، [مادة: ع ب د] ، ص٤٤١- ص٤٤٥.
٤) الفاتحة/ آية (٥).
٥) ابن منظور، لسان العرب، م (١٥)، [مادة و ل ي]، ص٤٠٠_٤٠٧.
٦) الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص١٢٢.

- أن العبد المعتق يصبح مولى لسيده إذا أعتقه.
- أن العربي من إحدى القبائل العربية يستطيع وفق العرف القديم أن يلتحق بقبيلة أخرى، متمتعاً بنفس الحقوق التي يتمتع بها أفراد القبيلة.
- غير العرب الذين دخلوا الإسلام كان يطلق عليهم كلمة (موالي) أيضاً."[١]"
- فهناك فرق بين مولى العتاقة وهم الأرقاء المعتقون وموالي الإسلام"[٢]" هم الأحرار الذين يعتنقون الإسلام ويرتبطون بعربي أو عشيرة عربية، والفرق بينهما أنه يحق لموالي الإسلام ترك الولاء بينما لا يحق لموالي العتاقة ترك الولاء."[٣]"

وأما القَينَةُ والقن فهي من الجذرِ الثُلاثي(قَ ن ن) و(القن العبد للتعبيدة، والعبد القن الذي ملك هو وأبواه، وكذلك الاثنان والجمع والمؤنثُ، والأُنثى قن بغيرِ هاء، والعبد القن ولد عندك ولا يستطيع أن يخرج عنك، ويقالُ لسنا عبيد قن و لكنا عبيد مملكة، مضافان جميعاً والقن الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه، فإذا لم يكن كذلك فهو عبد مملكة.)"[٤]"

ويربطُ د. الأسد بين الجذورِ الثلاثة لِلكلمة (قَنَن) و(قَين) و(قَنَا): (القَنا هي الرماح والعصا، ثم صار القَن يفتح القاف وتشديد النون الضرب بالعصا، ولما كان العملُ واحترافُ الصناعة مما يقوم به العبيد دون الأحرار والإماء دون الحرائرِ أُطلقت كلمةُ القين على العبد، والقينة على الأمة، والقينةُ الأمةُ المغنيةُ.)"[٥]"

ويبدو أنه قَصد من ذلك ربط القنا أو العصا المصنُوعة من الخشبِ بالعود (آلة الطربِ) المصنوع من الخشبِ، والتي تُمسك بها الجاريةُ التي أصبحت تمتلك اسم القينة إذا كانت تحملُ العود.(وكان الشخص الذي يمتلك جاريةً للبيع أو يستغلُ غنائها يسمى "مقين".)"[٦]"

---

١) جوستاف ا. فون جرونيباوم، حضارة الإسلام، ص٢٥٥.
4) Carmichael. 1967. The Shaping of the Arabs. P. 62.
٣) سوزان ياغي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ تأسيسها حتى ٣٣٤هـ (رسالة ماجستير - الجامعة الأردنية)،.ص٢٤.
٤) ابن منظور، لسان العرب، م (١١)،[مادة: ق ن ن]، ص٣٢٦- ص٣٢٩.
٥) الأسد، ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي، ١٩٦٠م. ص١٨-ص٣٢.
٦) ابن أبي عون الكاتب، الأجوبة المسكتة، ص١٦٧.

وأما المملوك والمملوكةُ فهي من الجذرِ الثُلاثي" ملَك" فالملك، والملك، والملك هي: (احتواء الشيء، والقدرة على الاستبداد به، وهذا ملك يميني أي ما أملكه، وكان آخر كلامِ الرسول صلى الله عليه وسلم" الصلاةَ وما ملكتْ أيمانُكُم" يريد الإحسان إليهم، وقيل هذا ملك يدي وما لأحد في هذا ملك غيري، والمملوك: العبد، ويقالُ عبد مملَكة الذي سبي ولم يملك أبواه، ونحن عبيد مملكة لا قن أي أننا سبينا ولم نملك قبلَ، وعبيد المملكة يغاب عليهم، ويستعبدوا وهم أحرار."[١]

لقد وردتْ كلمةُ مملوك في القُرآنِ الكريم بهذه الصورة، قال تعالى:"ضرب اللهُ مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء"[٢]". وقد وردتْ كلمةُ ملك اليمين في القُرآنِ الكريم خَمس عشرة مرة."[٣] قال تعالى: "فإن خفتُم ألا تَعدلوا فواحدة أو ما ملكتْ أيمانُكم"."[٤]

والخصي من (خَصا) و(خصي)وهي: (من الأعضاء التناسلية، وخُصي الفَحلُ خصاء، سل خصياه ويكون ذلك في الناسِ والدوابِ والغنمِ)."[٥] (وخُصتُه عن حاجته حبستُه عنها)."[٦]

وكان الخصي مكروهاً من قبل الناسِ مثالُ ذلك: (أن بعضهم كان جالِساً مع امرأته، فمر غُلام حسن الوجه فقالت المرأةُ : أُعيذُ هذا باللهِ، ما أحسنه، وأحسن وجهه؛ فقال الزوج: نعم لولا أنه خصي، فقالتْ: لعنه اللهُ ولُعن من خَصاه.)"[٧]

ويؤكد هذا الكره ما قاله الجاحظ: (أن عقلُ مائة صبي بعقل معلم (معلم الكُتّاب الذي كان مدار سخرية البعض)، وعقلُ مائة معلم بعقل خصي، وعقلُ مائة خصي بعقل امرأة وفي الخصي عشر خصالٍ متضادة لم يخرج من ظهرِ مؤمن، ولا يخرج من ظهره مؤمن،.... وهو أسوأُ الناسِ أدباً ويعلمهم الأدب، وهو أغزر الناسِ دمعةً، وأقساهم قلباً، ما خلا مع رجلٍ إلا حدثته نفسه أنه امرأةٌ، ولا خلا مع امرأة إلا حدثته نفسه أنه رجل. ووصفَ بعضهم الخصيان فقال: هم الأُمناء على الحرم البعداء عن التُهم، ولهم الوقارُ،وقلةُ الضحك، وهم طراز الملك،

---

١) ابن منظور، لسان العرب، م(١٣)،[مادة: م ل ك]، ص١٨٢- ص١٨٤.
2) النحل: آية(٧٥).
٣) محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، [مادة: م ل ك]، ص٩٣.
4) النساء/ آية (٣).
٥) ابن منظور ، لسان العرب، م(٤)، [مادة خ ص ى]، ص١١٤ - ١١٧/ الجوهري، الصحاح، م(٦)، [مادة: خ ص ى] ص٢٣٢٧_ ص٢٣٢٨.
٦) الزبيدي، تاج العروس....، ج (١٧)،[مادة:خ و ص]، ص٥٧٣.
٧) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب،١٩..م ج(٤)، ص٢٠.

وجمالُ الدول، وكثيراً ما أدبوا أولاد الملوك وهذبوهم وعرفوهم طُرقَ السياسة."[١]" والخصاء على ضروب ويكون في ضروب وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قبل الروم."[٢]"

وكان الناس بحاجة للخصيانِ لخدمة الحرم (النساء) إذ لا يجوز ِإدخالُ الرِجال والغلمانِ الغرباء إلى قُصورِهن؛ لذلك يفضلون الخصي لحراسة النساء."[٣]"

وأما لفظُ "الحظية" أو الحظايا فهو من الجذرِ الثُلاثي (حظَا) (وحظيتْ المرأةُ عند زوجها حظوةً بكسر الحاء وضمها أي أن تكون ذات منزلة ومكانة عنده)."[٤]" وكذلك الأمر بالنسبة للجارية المقربة لدى سيدها ففي القُصورِ الكثير من الجواري إلا أن هناك من تكون قريبة من سيدها ومن تكون بعيدةً عنه.

وأما " الوصيفةُ والوصيفُ": من الجذرِ الثُلاثي (وصفَ) (أي النعتُ عند النَحويين، والوصيفُ: الخادم غلاماً كان أو جارية، يقالُ وصفَ الغُلام بضم الصاد، إذْ بلغَ حد الخدمة، والجارية وصيفةٌ، والجمع الوصائف.)"[٥]"

بينما وردتْ كلمةُ "أمة" في قوله تعالى: (و لأمةٌ مؤمنةٌ خير من مشرِكة ولو أعجبتكُم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولَعبد مؤمن خير من مشْرِك ولو أَعجبكُم....)"[٦]"

والمقصود هنا (الأمةُ العبدةُ السوداء المؤمنةُ أفضلُ من الحرة الكافرة مهما كان شرفُ نسبها وكرم أَصلها وبقايلُها في نفسِ الآية العبد المؤمن وهو المملوك أيضاً غير الحر.)"[٧]"

ووردتْ أيضاً كلمةُ" إِمائكُم" في قوله تعالى: (وأَنكحوا الأيامي منْكُم والصالِحين من عبادكُم وإِمائِكُم)"[٨]".

---

١) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة و عرر النقائض الفاضحة، ص١٢٢- ص١٢٣.
٢) الجاحظ، الحيوان، م(١)، ج(١)، ص٦٨ - ص٧٠.
٣) التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة، ج(٣)، ص٤٣.
٤) الجوهري، الصحاح....م(٦)، [مادة: حصا - حضا]، ص٢٣١٥-ص٢٣١٦.
٥) الجوهري، الصحاح، م(٤)، [مادة: وخف - وصف]، ص١٤٣٨ - ص ١٤٣٩.
6) البقرة:آية (٢٢١).
٧) الطبري، جامع البيان....،١٩٩٨م. ج(٢)، ص٥١١- ص٥١٦.
8) النور: آية ٣٢ .

وأما كلمةُ "السراري"فهي من (سرر) والسريةُ: الأمةُ التي بوأتها بيتاً، وهو منسوب إلى السر، وهو الإخفاء، لأن الإنسان كثيراً ما يستُرها عن زوجته الحرة، والجمع السرارى، وهي مشتقةٌ من السرور، لأنه يسر بها.)"[١]"

وهناك عدد من المصطلحات التي أوردناها وهي: أُم ولد/ مولّد/ والأبناء، وهذه الكلماتُ ترد في المعجم على النحو التالي: أم/ ولد/ بنا، وهذه الجذور لن تفيدنا في هذا السياق،لأن هذه المفاهيم تدلُ على ظاهرة بارزة في العصرِ العباسي وهي عمليةُ التوليد والمقصود بها: تزاوج بين رجلٍ حرٍ وأَمة، فينشأُ بينهما نسلٌ يجري في عروقه دم الأُمتين ، وكانت هذه الظاهرةُ قويةً في تلك الفترة ، نَتَج عنها اختلاطُ الأجناس."[٢]"

و أُم الولد هي الجاريةُ التي تنجب الأطفالَ لسيدها وتصبح حرةً بالزواجِ أو بعد موت زوجها، والمولّد هو الطفلُ الذي تكون أُمه أَمةً.

وارتبطَ الرقُ بمفاهيم عديدة لعل أبرزها: السبي، والنخاسةُ، والحشم، والعتقُ.

والمقصود بالسبي، الأسر المعروفْ، فالسبي النهب وأخذْ الناس عبيداً و إماء، والسبيبةُ المرأةُ المنهوبةُ."[٣]"

وأما النخاسةُ فهي من الجذر (ن خَ س): (نخس الدابةَ نخساً ، غَرز جنبها أو مؤخرها بعود أو نحوه والنخاس هو بائع الدوابِ، وسمي بذلك لنخسه إياها حتى تنشط، وحرفته النخاسةُ، ويسمى بائع الرقيق نخاساً والأولُ هو الأصلُ.)"[٤]"ويبدوا أنه ربطَ بين عمل بائع الرقيق والدوابِ ،لأنهما يضعانِ علامات لتمييز بضاعتهم عن غيرها، أو لأن بائع الدوابِ تولى أيضاً مهمةَ بيع البشرِ.

وأما الحشَم فهي كلمةٌ مرتبطةٌ بشكلٍ كبيرٍ بقُصورِ الخلفاء وهي: من الجذْرِ الثلاثي (ح ش م)، و(الحشْمةُ: الحياء،والانقباضُ، والحشم الاستحياء، والحشَم المماليك، والحشم الأتباع، مماليك كانوا أو أحراراً ....)"[٥]"

---

١) الجوهري، المصدر السابق، م(٢)، [مادة : سرر - سرر]، ص٩٨٢- ص٩٨٣.
٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط(١٠)، ج (١)، ص١٠.
٣) ابن منظور، لسان العرب،[مادة: س ب ى]، م(٦)، ص١٦٦.
٤) ن.م، م(١٤)، [مادة: ن خ س]، ص٨٣-٨٤.
٥) ن.م، م(٣)، [مادة: ح ش م]، ص١٩٠-ص١٩٣.

وأما العِتْقُ فهو: من الجذْرِ الثلاثي(ع تَ قَ)، و(العِتْقُ خلافُ الرِق وهو الحريةُ، وكان الشراء سبباً للعتق فأُضيفَ إليه، والعتقُ أفضلُ ما ينعم أحد على أحد)."[١]

والخلاصة أن هذه المصطلحاتُ تثير أحياناً الإرتباك لدى القارئ، إلا أنه يمكن الربطَ بينها بسهولة وأن نميز كُلَّ واحد منها عن الآخر، فالإسم العام لهم "رقيق" حيثُ يعرض الجميع في الأسواق بوصفهم رقيقاً، ولكي نميز الذكور عن الإناث نقولُ رقيقٌ وجواري. فإذا كان الرقيقُ من سبي الحربِ نقولُ: مملوك ومملوكة، وإن كان هو و أبواه في الرق من زمنٍ بعيد نقولُ قِينةٌ وقن، ثم أصبح يطلق على من تَمتهن الغناء، فإذا كان الرقيقُ ذا لونٍ أسود نقولُ أَمةٌ وعبد، فإذا أَصبح قادراً على خدمة مولاه يسمى وصيفاً ووصيفة، فإذا كان أقرب رقيق سيده إليه يسمى حظّي ومحظّية، فإذا أعتَقَه سيده يسمى مولى ومولاة.

كما أن كلمة الغُلامِ وكلمة الجارية؛ تُطلقانِ على الحرِ والعبد لتحديد السن، و"الغُلامياتُ"و"أم الولد" و"الخصاء " ظواهر تمثلُ حالات محددة لا تنطبِقُ على جميعِ الرقيق المجلوبِ إلى البلاد الإسلامية.

إن هذه المصطلحات رغم تعددها فقد تميز كُل واحد منها عن الآخر بحيثُ أَصبح استخدام كل مصطلح واضحاً للجميع فيعرفون مثلاً أن مصطلح الموالي يستخدم للرقيق المعتقين الذين يحتفظون بالولاء لسيدهم حتى وإن تمتعوا بالحرية التي رغبوا فيها منْذُ زمن وهم مختلفون عن الموالي المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام ولم يكونوا عبيد، وهكذا بقية المصطلحات.

---

١) ن.م، م (٩)، [مادة: ع ت ق]، ص٣٦-٣٩.

ثانياً: الوضعية القانونية للرقيق في المجتمع الاسلامي:

إن الحديث عن معاملة الرقيق في الدين الاسلامي مسألة مهمة، خاصة أن نصوص القرآن والسنة النبوية يرد فيها العديد من النصوص، التي تبين كيفية معاملة الرقيق وتبين للمسلمين حقوق هذه الفئة وواجباتها،

فرغم أن هذه المسألة قد يقدم فيها العديد من البحوث، إلا أنه من الضروري تناول المبادئ الرئيسية حول معاملتهم في هذه الرسالة لأنها تبين لنا جزءاً هاماً من حقوقهم وواجباتهم في الفقه الإسلامي.

ونبدأ هذه المبادئ بما أوردها أبي عبيد بن سلام المتوفى سنة(٢٢٤هـ) في كتابه الأموال، فيقول:

"لو كانت أحكام المماليك كلها لاحقة بأحكام الأحرار، كان لكم أن تشبهو حكمه في ملك المال بها، ولكنا رأينا أحكام الفريقين مختلفة متباينة ألا ترون أن العبد لا ينكح من النساء إلا اثنتين، وأن الأمة تبين من زوجها بتطليقتين، وتعتد من الطلاق بحيضتين، أو شهراً ونصفاً، ومن الوفاة بشهرين وخمسة أيام، ويكون الإيلاء منها شهرين، وأنهما لا يجلدان في الزنا إلا خمسين جلدة، وفي الفرية إلا أربعين سوطاً، وفي أشياء كثيرة نقص فيها المماليك عن مراتب الأحرار : من المواريث، والفيء ، والمغنم، والشهادات، والإقرار بالديون، ووجوب الحج وغير ذلك، فلم قصرت أمور هؤلاء عن مبلغ تلك؟

قالوا: لأن هذه سنة المماليك، أن تكون أنقص من سنن الأحرار."[1]

لقد كان موقف الدين الاسلامي واضحاً في معاملة الرقيق، فقد حثت نصوص القرآن الكريم على الاحسان لهم، قال تعالى:" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين احساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين ... وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب منكان مختالاً فخوراً"."[2]

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم على التجاوز عن خطأ العبد ، ونهى عن ضربه إلا في معصية الله، وفي ذلك يقول: (اضرب عبدك إذا عصى الله واعف عنه إذا عصاك"

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق، وقال صلى الله عليه وسلم " لا يقل أحدكم عبدي وأمتي بل ليقل فتاي وفتاتي" فندب النبي السادة إلى مكارم الأخلاق وحضهم عليها وأرشدهم إلى

---

1) ابن سلام، الأموال، ص٤٩٤.
2) النساء، آية ٣٦.

الاحسان وإلى سلوك طريق التواضع حتى لا يروا لأنفسهم مزية على عبيدهم، إذ الكل عبيد الله والمال مال الله ، لكن سخر بعضهم لبعض، وملك بعضهم بعضاً، إتماماً لنعمه وتنفيذاً للحكمة".[١]

العتق: ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من ضرب عبده حداً لم يأته أو لطمه فكفارته أن يعتقه" ومعناه أن يضربه قدر الحد ولم يكن عليه حد".[٢]

طرائق العتق في الإسلام:

- العتق بأمر الشرع: أوجب الإسلام العتق في أربع حالات وهي: القتل الخطأ، الحنث في اليمين، والظّهار، والإفطار في شهر رمضان."[٣]"
- العتق بإرادة السيد: حث الإسلام على العتق وجعله قربى من الله تعالى وجعله من الأعمال التي توجب دخول المسلم الجنة."[٤]"
- العتق لقاء مال(المكاتبة): أن يشتري الرقيق حريته بمبلغ من المال يؤديه إلى مالكه، فيأذن له بالعمل ليحصل على المبلغ المتفق عليه."[٥]"
- العتق بالوصية (التدبير):يقع العتق بالوصية، بأن يقول السيد لعبده أنت حر بعد موتى ويسمى ذلك التدبير، ومن صور التدبير، أن يستولد السيد أمته ، فتحرر بعد موته حكماً."[٦]"
- العتق بأمر الحاكم: ويقع العتق بأمر الحاكم إذا آذى السيد عبده."[٧]" فقد حرر عمر بن الخطاب أمة آذاها سيدها في بدنها وأوجعها ضرباً."[٨]"

أحكام الزواج والطلاق: حض النبي صلى الله عليه وسلم على تأديب الأمة وتعليمها والتزوج بها وفي ذلك يقول: أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها فله أجران.""[٩]"

وقد طبق الرسول ذلك حين أعتق صفية بنت حيي بعد أن سبيت في غزوة خيبر وتزوجها وفعل مثل ذلك بجويرية بنت الحارث بعد أن سبيت في غزوة بني المصطلق."[١٠]"

---

1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ج(٥)، ص١٩٠.
2) ن.م.
3) الترمانينى، الرق ماضيه وحاضره، ص٧٥.
4) ان.م، ص٧٦-ص٧٧.
5) ن.م، ص٧٩.
6) ن.م، ص٨٠ – ص٨١.
7) ن.م، ص٨١.
8) ابن قدامة، المغني، ج(٧)، ص٦٠١.
9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ج(٥)، ص١٩٠ – ص١٩١.
10) ابراهيم قريبي، مرويات غزوة بني المصطلق، ص٣١٥.

ففي الدين الاسلامي يزوج المملوك إذا احتاج إلى ذلك فيجب على السيد إعفاف مملوكه إذا طلب ذلك، قال تعالى: " وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم" ولأن النكاح مما تدعوا إليه الحاجة غالباً ويتضرر بفواته فأجبر السيد على النفقة عليه، فالسيد مخير بين تزويجه أو تمليكه أمة يتسراها، وله أن يزوجه عند طلبه ، لأن هذا مما يختلف الناس فيه، وفي الحاجة إليه ولا تعلم حاجته إلا بطلبه و لا يجوز تزويجه إلا باختياره ، فإن إجبار العبد الكبير على النكاح غير جائز، فإما الأمة فالسيد مخير بين تزويجها إذا طلبت ذلك وبين أن يستمتع بها فيغنيها باستمتاعه عن غيره لأن المقصود قضاء الحاجة وإزالة ضرر الشهوة"."[١]"

إذن فإن تسري المسلمين بالجواري هو رد للفساد وحفظاً للمجتمع ولم يكن هدفاً مقصوداً لذاته.

وإذا كان للعبد زوجة فعلى سيده تمكينه من الاستمتاع بها ليلاً، لأن إذنه بالنكاح إذن في الاستمتاع المعتاد والعادة جارية بذلك ليلاً وعليه نفقة زوجته...، فإن امتنع أجبر على بيعه إذا طلب المملوك ذلك."[٢]"

لذا حذر النبي من قذف الإماء، فقال صلى الله عليه وسلم: " من قذف مملوكة بالزنى أقام عليه الحد يوم القيامة ثمانين" ."[٣]"

ولا يجبر السيد على طلاق المملوكة، حتى وإن رغبة هي في ذلك ما دام ينفق عليه ويتسرى بها."[٤]"

__نفقة المملوك:__ نفقة المملوك على ملاكهم ثابتة بالسنة والإجماع وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه ويسلم قال:" للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف لا يكلف من العمل ما لا يطيق" والكسوة له بالمعروف فعليه أن يلبسه مما يلبس، وأن يساوي بين عبيده الذكور في الكسوة والإطعام وبين إماءه إن كن للخدمة أو الإستمتاع ، فلا بأس بزيادة من يريدها للاستمتاع، بخلاف الخادمة."[٥]"

__الخراج:__لا يجبر المملوك على المخارجة أي أن يضرب عليه خراج معلوم يؤديه، قال النبي صلى الله عليه وسلم:" لا تكلفوهم ما يغلبهم"."[٦]"

---

1) ابن قدامة، المغني، ج(٧)، ص٦٣٢ – ص٦٣٣.
2) ن.م. ص٦٣٣.
3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج(٥)، ص١٩١.
4) ابن قدامة، المغني، ج(٧)، ص٦٣٣.
5) ابن قدامة، المغنى، ج(٧)، ص٦٢٩ – ص٦٣٠.
6) ن.م.ص٦٣١.

فنفقة المملوك على سيده فإذا استباعة المملوكة وهو يكسوها مما يلبس ويطعمها مما يأكل، لا تباع وإن أكثرت من ذلك إلا أن تحتاج إلى زوج فتقول زوجني، وإذا طلب عبد يحسن إليه سيده وهو يستبيع : لا يبعه؛ لأن الملك للسيد والحق له فلا يجبر على إزالته من غير ضر بالعبد...وإذا رهن المملوك أنفق عليه سيده. ...وإذا أبق العبد فلمن جاء به إلى سيده ما أنفق عليه."[1]"و الأبق أو ظاهرة الآباق وهي هروب المملوك من مالكه لأي سبب كان، وقد كانت هذه الظاهرة كبيرة في هذا العصر."[2]"

إن الأحكام الشرعية المرتبطة بالرقيق والجواري كثيرة وعديدة يستطيع المرء أن يزداد معرفة بها من خلال العودة إلى كتب الفقه المختصة بذلك، إلا أنني بحثت في جزء بسيطاً من تلك الأحكام حتى أبين بعض السلوكيات التي تظهر في بعض روايات العصر العباسي الثاني.

---

1)ابن قدامة، المغني، ج(٧)، ص٦٣٣/ و ص٦٣٤.
2)الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج(٣)، مادة (أ ب ق)،ص٢١٥.

ثالثاً: مصادر شراء الرقيق و الجواري:

تورد المصادر أرقاماً لأعداد الخدمِ والغلمانِ والجواري لدى بعضِ الخُلفاء، وهي أرقام يتوقفُ المرء عندها لِيتساءلَ، لماذا تَضم دار الخلافة كُل تلك الأعداد أو لماذا يحتاج القائِد مثلاً الى تلك الأعداد من الغلمان؟ ولعل الإجابةَ على هذا السؤال مبكرةٌ، إلا أَنه لا بد من الإشارة الى تلك الأعداد لمعرفة لماذا تَشكلتْ مراكز رئيسيةٌ لِشرائِهم؟.

ففي سنة (٢٣٥هـ/٨٤٩م) قُتلَ ايتاخ في ٣٠٠ من أصحابه وغلمانه..."[١]"، و ايتاخ من أبرز قادة المتوكل وابنه المنتصر. (وكان للموفق جميع أَمرِ الجيشِ وكان محبباً الى الناسِ عراه النُقرس * فبرِح يه وأَصاب رجله داء الفيل**وكان يقولُ في ديواني (١٠٠) ألفُ مرتزق ما أصبح فيهم أَسوأُ حالاً مني، واشّتد أَلمه حتى مات.)"[٢]"

وقيلَ كان في داره عشرة آلاف خادم خصي غير الصقالبة والروم والسودان....) "[٣]"(والإجماع واقع على أنه كان فيها أحد عشر ألف خادمٍ، منهم سبعة آلاف أسود وأربعة آلاف صقالبي، وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة، وأُلوفٌ من الغلمان الحجرية، وكانت النَوبةُ ممن يرسم لحفظ الدارِ من الرجالة المصافية خمسة آلاف رجل، ومن الُحراسِ أربعمائة حارس، و من الفراشين ثمانمائة فراش.)"[٤]"

وأما دارِ الخلافة في أيام المكتفي فيها(٢٠) ألفَ غُلامٍ دارية (المختصون بملازمة دارِ الخلافة)، و(١٠) آلاف خادمٍ سود وصقالِبة."[٥]"

إن هذه الأعداد هي بعض الأعداد المذكُورة لدى الخُلفاء والقادة، وهناك أَعداد أَقلُ من ذلك بكثير امتلكها أَشخاص من العامة ليسوا بقادة، فمن أين حصل هؤلاء على هذه الأعداد من الرقيق ؟

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٤٣٥.
* النقرس: مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم و في إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى داء الملوك، والهلاك، والداهية العظيمة وجمعها نقارس[المعجم الوسيط ،(مادة ن ق ر ص)، ج٢، ص٩٤٦].
** داء الفيل: تضخم في الجلد و ما تحته ينشأ عن سد الأوعية الليمفاوية، ويحدث جنس من الديدان الخيطية. [المعجم الوسيط، مادة: (ف ا ل)، ج٢، ص٧٠٨ - ص٧٠٩].
٢) الذهبي، دول الإسلام ، ج(١) ، ص١٢٣
٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٣٨٤.
٤) الخطيب البغدادي، تاريخ ، م(١) ، ص٤١٧/ الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص٨.
٥) الصابئ، رسوم دار الخلافة، ٢٠٠٣م، ص٨.

الحربِ: إن الحرب في الإسلامِ واضحةٌ ولها هدفٌ رئيسي هو إِقامةُ الشرعِ الإسلامي في البلاد المفتوحة، وكل ما يتحققُ من مصالِح بعد ذلك هو نتيجةٌ لِهذا الفتح، وهذه المصالح ليستْ الهدفَ الأساسي لِقيامهم بِالحربِ وليس كما يقال؛(بأن الاندفاع وراء الحدود كان لأخذ السبايا)."[١]"

إن الروايات التي تُخبرنا عن الفتح في العصرِ العباسي، وعن السبي الذي شكل المصدر الرئيسي لكثرة الرقيق في المجتمع الإسلامي تَقل في هذه الفترة، ولكن ليس قلةً في المعلومات بل تراجعاً في حركة الفتوح الذي يعد أمراً طبيعياً نتيجةً لِبلوغ الدولة الإسلامية قمة توسعها زمن الرشيد.

وقال أبو العيناء أن أَصلُ قومي من بني حنيفة من أهل اليمامة *، ولحقهم سباء في أيامِ المنصور، فلما صار ياسر في قيده أعتقه، فولاؤنا لبني هاشم... .)"[٢]"

وهذه الرواية عن أصل أبي العيناء ليست الوحيدة، إلا أنها تشير إلى اعتماد التجار في هذه الفترة على الحرب لشراء الرقيق.

(وفي سنة (٢٣٧هـ/٨٥١م) ولى المتوكل يوسف بن محمد أرمينية وأذربيجان ولما صار إلى أخلاط** أتى بقراط بن أشوط البطريق ***فأمر بأخذه وتقييده، وحمله إلى المتوكل فاجتمع بطارقة أرمينية، وتحالفوا على قتل يوسف... فقتلوه ومن معه فلما بلغ المتوكل الخبر وجه إليهم جيشاً طالِباً بدم يوسف، فقتل منهم زهاء (٣٠) ألف وسبى خلقاً كثيراً ....)"[٣]"

---

١) جبور عبد النور، الجواري،ص٢٤- ص٢٥.

* اليمامة: تقع في الجزيرة العربية قريبة للبحر(الأحمر) وقصبتها الحجر وهي، وليس بالحجاز بعد مكة والمدينة أكبر من اليمامة ويليها في الكبر وادي القرى، ويكثر بها الأعراب الذين ينتجعون في مراعيها ومياهها [انظر ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، قسم(١)، الصفحات: ٣١/ ٣٤/ ١٠٦.]

٢) القيرواني الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، م(١)، ص٣٣٦.

** أخلاط أو خلاط: هي بلدة صغيرة من بلاد أرمينية وأذربيجان خصبة عامرة كثيرة الخير[الاصطخري، المسالك والممالك، ص١١١)/ والمقدسي، محمد بن أحمد، رحلة المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ج٢، ص٣١٤/ وابن حوقل، صورة الأرض، قسم (٢)، ص٣٥٢- ص٣٥٣]

*** البطريق من بطرق: بلغة أهل الشام و الروم هو القائد معربة و يقال أن البطريق عربي وافق العجمي وهي لغة أهل الحجاز ، والبطرك من بطرك مقدم النصارى والبِطْرِك هو البِطريقُ [ابن منظور، لسان العرب، ج١، (مادة: بطرق – بطرك)، ص٤٣٠ - ص٤٣١].

٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٢- ص١٤٣.

وهذه الرواية لا تبين لنا أعداد هذا السبي رغم أنها تشير إلى حصول ذلك، وقد يدل عدم ذكره أعداد السبي رغم ذكره لأعدد القتلى إلى كثرتهم كما يرد بالرواية عند وصف السبي بأنه " خلقٌ كثير"، وقد يكون عكس ذلك وهو قلتهم مع الشك بالرقم الذي قدمه للقتلى.

(وفي سنة (٢٤١هـ/٨٥٥م) غارت البجة على حرس من أرض مصر فوجه المتوكل لِحربهم؛ والبجةُ ديار صغيرةُ العرضِ طويلةٌ تمر في الجنوبِ بين نهر النيل وبحرِ القلزم (البحر الأحمر)، وكانت البجة لا تغزو المسلمون ولا يغزوهم، وكانوا يؤدون إلى عمال السلطان في مصر في كل سنة عن معادنهم (٤٠٠) مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى، وامتنعتْ البجة عن أداء ذلك الخراج أيام المتوكل وقد ولى بريد مصر رجلاً من خدمه يقالُ له يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي مولى الهادي وهو المعروف بقوصرة... ووجه إليهم المتوكلُ جيشاً لمحاربتهم....)"[١]"(وقيل أنه أثخن في البجة قتلاً وسبياً لأن البجة استولت على قرية من قُرى الصعيد تُسمى "انبوا"....)"[٢]"

وهنا لا ذكر لأعداد إلا أن الرواية تؤكد حصول سبي خاصة أن هذه المنطقة كانت تعتدي على المناطق المحيطة بها وعلى سكانها.وفي سنة (٢٨٠هـ/٨٩٣م) ورد الخبر بغزو إسماعيل بن أحمد* بلاد الترك وقتْله خلقاً كثيراً من الترك وافتتاحه مدينة ملكهم، وأسره هو وامرأتُه ونحو عشرة آلاف وقتل الكثيرين، وغنم دواب كثيرة، وأصاب الفارس من المسلمين من الغنيمة في القسمِ ألف درهم.)"[٣]"

وهنا العدد محدد رغم أن الأعداد تدفعنا دائماً للبحث عن مدى دقتها، إلا أن عدم ذكر عدد القتلى وذكر عدد الأسرى قد يكون فيه نوع من الدقة، ففي المعارك لا تهتم المصادر بعدد القتلى إلا إذا أرادت أن تبالغ في شجاعة طرف وقوته، خاصة أن القتلى لا أهمية لهم بعدما يقتلون، بينما يحتاجون لذكر عدد الأسرى لأن المسألة تتعلق بتقسيم الغنائم، أو على الأقل تدخل ضمن أموال الدولة التي تنظم أمورها الدواوين .

---

١) ابن حوقل، صورة الأرض، القسم (١)، ص١٦/ والطبري، تاريخ، ج(٩) ، ص٢٠٣- ص٢٠٦.
٢) ابن حوقل ، صورة الارض، القسم (١)، ص٥٢- ص٥٣.
* إسماعيل بن أحمد السامانى ولد سنة ٢٣٤هـ بفرغانة، وهو من أحسن السلاطين السامانين سيرة، وكان يكتب الحديث و يكرم العلماء، وكانت وفاته في بخارى سنة ٢٩٥هـ [ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج(٥)، ص١٥٩ - ص١٦١.]
٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٢٦٨ .

(وفي أيام المكتفي فُتحت أنطاكية وكانت الروم قد استولت عليها، ففتُحت بالسيف وقُتل من أهلها آلاف وأُسر أمثالهم، واستُنقذْ من المسلمين (٤) آلاف رجل)."[١]" وأعداد الأسرى لم تحدد بدقة إلا أنه تم استنقاذ أربعة آلاف رجل من المسلمين. وعندما تغلب الجيشُ العباسي على أصحابِ صاحب الزنج أبادوهم قتلاً وأسراً."[٢]"

وهذه الرواية توضح أن الخلافات السياسية، والمذهبية داخلَ المجتمع الإسلامي قد ينتُج عنها سبي المسلمين لِبعضهم البعض رغم أن استرقاقَ العرب منع بقرارٍ من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد يكون فتح المسلمين لمنطقة منذ زمن أدت إلى فرض شروط معينة كتقديم عدد محدد من العبيد مثلما تفرض على منطقة أخرى أن تقدم مقدار معين من محصول الأرض أو من الذهب أو ما يقابل ذلك من أموال.

مثال ذلك ما كان الفاتحون المسلمون قد صالحوا النوبة على رؤوسٍ من السبي معلومة، وظلوا يتسلمون سنوياً حتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مئات من العبيد."[٣]"

وتشير هذه الرواية أنه رغم دخول المسلمين للنوبة منذُ زمن، إلا أن الضريبة التي بقي أهل النوبة يقدمونها منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن الرابع الهجري/ العشر الميلادي هي من الرقيق، ومعنى ذلك أن على هذه المنطقة أن تقدم الرقيق حتى وإن نفذ المصدر الرئيسي لذلك أو قد يفسر قيام مناطق مثلاً بسرقة أبناء بعضهم بعضاً، أو قيام البعض بتقديم أبنائِهم كرقيق.

ويبقى الأسر أهم مصدرٍ من مصادر الحصول على الرقيق المتوفرِ في أسواق الدولة آنذاك، وبما أن الحرب حاصلةٌ دوماً فإن الرقيق عنصر لا ينضب، واستعباد البشرِ كان منذُ القدمِ واستمر إلى هذه الفترة، إلا أن القوانين الإسلامية تُدخلُ "العتق" أي إطلاقُ حرية الرقيق كالتقرب لله تعالى أو تقديمه ككفارة لِعدة أسباب منها مثلاً ككفارةُ قتل مؤمنٍ خطأً، أتاحتْ المجال إلى إعتاق الكثيرين منهم رغم حاجة الناس إليهم، وبسببِ هذه الحاجة مع وفرة الأموال وازدياد الاهتمامِ بالمظاهرِ داخل المجتمع، والذي كان الرقيقُ وكثرتُهم جزء منه ومع وجود أسواق معينة تتاجر بالرقيق؛ ازدهرت تجارة الرقيق في العالم آنذاك.

---

١) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٨٩.
٢) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية ، ص٢٢٥.
٣) فيصل السامر، ثورة الزنج، ص٢٠.

كانت بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وحاضرة العالِم الإسلامي، وملتقى طُرق التجارة، والمركز الرئيسي لاستقبال البضائع التي تأتي من المدنِ المختلفة، فكانت بذلك مركزاً تجارياً هاماً.

يقول اليعقوبي:(وبغداد مدينةٌ تأتيها التجاراتُ والمير(القمح) براً وبحراً، حتى تكاملَ فيها كُل متْجرِ يحمل من المشرق والمغربِ، فإنه يحملُ إليها من الهنْد، والسند، والصين، والتبت، والترك، والديلم، والخزر، والحبشة، وسائر البلدان، حتى يكون بها من تجارة البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجاراتُ منها.... "[١]"

إن هذا الوصفَ لأسواق المدينة يقدم لنا أهم المدن التي تُتاجر مع بغداد في تلك الفترة.

إلا أني واجهتُ بعض الصعوبة في تقسيم تجارة الرقيق القادم إليها من البلاد الإسلامية ووجدت أن المقدسي قَسم الخدم إلى أربعة أجناس:

١. جنس يحملون إلى مصر وهم أَجود الأجناس.
٢. جنس يحملون إلى عدن وهم البربر وهم شر أجناس الخدم.
٣. جنس على شَبه الحبش.
٤. وجنس البيضان فجنسان الصقالبة، وبلادهم خلفَ خوارزم إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخْصون ثم يخرجون إلى مصر، والروم يقعون إلى الشام وانقطعوا بخراب الثغور."[٢]"

أما المراجع الحديثة تُقسم الرقيقَ بشكلِ مختلف إذْ وجدتُ أن البعض قَسم التجارة إلى خارجية مع الشرق، ومع أوروبا الشرقية والوسطى، ومع إفريقيا. وداخلية من أسواق، وإهداء، وعقود بيع وشراء وغيرها."[٣]"

والبعض الآخر قسم الرقيق القادم إلى اليلاد الإسلامية إلى نوعين وفْقَ اللون، فالأسود يجلب من ساحل إفريقيا الشرقي وهم الزنج، والأبيض، ويشملُ التُرك، والروم، والأرمن، وغيرهم."[٤]"

أما فيصل السامر فإنه قسمهم وفقَ أعمالهم داخل العراق إلى:

---

١) اليعقوبي، البلدان، ص٤.
٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ج(١)، ص٢٢٤.
٣) حسين علي أحمد محافظة، الرقيق في المجتمع العربي الإسلامي حتى ثورة الزنج (رسالة ماجستير/ الجامعة الأردنية) ، ص٧٦/ و ص١٠٥- ص١٠٦.
٤) مليحة رحمة الله، الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع، ص٢٢-ص٢٩.

- عبيد البيوت، وهم الخصيان وكانوا أحسن حالاً وربما شاركوا أسيادهم باهتماماتهم.
- كُتَل العبيد الكبيرة الذين سخروا للعمل في الإقطاعيات الزراعية في العراق الأدنى وكانوا في وضعٍ اجتماعي بائس."[1]"

ولقد وجدت أن التقسيم وفق الطرق التجارية الرئيسية أفضل تقسيم، إلا أن هناك أسواق رئيسية في الجزيرة العربية ومصر يصل إليها الرقيق قبل وصوله بغداد والتي سوف أتحدث عنها قبل الحديث عن الطرق التجارية الرئيسية التي يصل منها الرقيق إلى هذه الأسواق، ومن هذه الأسواق:

- أسواق اليمن: فهي من الأسواق الرئيسية في جلب العبيد، فاليمن موطن العقيق والرقيق"[2]".
- سوق عمان: وصفَ سوقُ عمان بأنه مركز لتجارة العبيد وتوزيعه على سائرِ البلدان."[3]"
- مكة والمدينة: إن أسواقَ الجزيرة العربية هي من أهم الأسواق منذ القدم وفي هذه الفترة، فالتجارات في هذا الإقليم مفيدةٌ لأن به فريضتي الدنيا وسوقُ "منى" والبحر المتصلُ بالصين و"جدة"، والجار خزانتي مصر، ووادي القرى مطرح الشامِ والعراق، واليمن موطن العقيق والرقيق."[4]" ووصفَتْ المدينةُ أن لها نخلاً كثيراً ومياهاً ونخيلُهم، وزروعهم من الآبار، ويستقون منها العبيد " ...."[5]"
- ولما حج محمد بن عبد الله بن طاهر• رأى في الطواف جاريةً في نهاية الحسن، فسأل عنها فقيلَ: إنها لرجلٍ من الأدباء قد رواها الأشعار، والأخبار، والنحو، والعروض، وقد أحسنتْ ضرب العود،

---

١) فيصل السامر، ثورة الزنج، ص٢٢.
٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ج(١)، ص١٠٩.
٣) الأمشاطي، القول السديد في اختيار الإماء والعبيد....، ص٩-ص١٠.
٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ج(١)، ص١٠٩.
٥) الإصطخري، المسالك والممالك، ص٢٣.

- • أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي، وكان شيخاً فاضلاً وأديباً شاعراً، وهو أمير بن أمير بن أمير، ولي إمارة بغداد أيام المتوكل، وكان مقرباً لأهل العلم و الأدب ومات سنة ٢٥٣هـ.[ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج(٥)، ص٩٢ - ص٩٣].

وطريـقَ الغنـاء فاشـتراها بـ ـ (١٠٠) ألـف درهـم) "١"، وهـذا يـدل علـى أن مكة من الأماكن التي يباع فيها الرقيق.

(وكان مخارق مملوكاً لعاتكة بنت شهدة ....وهي التي علمته الغناء ووضعت يده على العود ثم باعته، فانتقل من ملك رجل إلى ملك آخر حتى صار إلى الرشيد، وعاتكة بنت شهدة مدنية وأمها شهدة جارية الوليد بن يزيد الأموي، وكانت شهدة مغنية وأمها نائحة من أهل مكة. "٢"

كما ويتيح موسمي الحج والعمرة ِللناس القيام بعباداتهم، ويتيح لهم أيضاً شراء كل ما يلزمهم من أسواق مكة والمدينة خاصةً الرقيق، الذي قد يباع من قبل أشخاص عاديين يكون هدفهم الحصول على الأموال من خلال بيع الرقيق المدربِ إما على الغناء، أو على اللغة أو غيرها من المهارات، أو عن طريق تجار مكة المعروفين في أسواقها.

- اليمامـة: وكانـت اليمامـة إحـدى المـدن التـي يجلـب منهـا الرقيـقُ، "ففضل" الـشاعرةُ اليماميـة مولّـدةٌ مـن مولـدات اليمامـة، ونـشأتْ بالبـصرة قبـل أن تُهدى للمتوكل."٣" وفـي روايـة أُخـرى تتحـدثُ عـن نـسبِ أبـي العينـاء غيـر الروايـة الـسابقة (أن المنـصور أراد رجـالاً ليكونـوا بـوابين، فقيـل لـه: إنـه لا يضبطُ هـذا إلا قـوم لِئـام الأُصـول، أنـذالُ النفـوس صـلاب الوجـوه، ولا تجـدهم إلا فـي رقيـق اليمامـة، فكتـب إلـى الـسري بـن عبـد الله الهاشـمي واليـه علـى اليمامـة، فاشـترى لـه مـائتي غُـلام، فاختـار بعـضهم وصـيرهم بـوابين، وتـرك الآخرين وكان ممن تركه خلاد جد أبي العيناء)."٤"
- البـصرة: (مـن أسـواق تجـارة الرقيـق أيـضاً سـوقُ النخاسـين فـي البـصرة....)"٥" ومـن الروايـات التـي تـذكر البـصرة كمكـان لبيـع الرقيـق وتدريبهم الروايـة التـي تـذكر (أنـه كانـت بالبـصرة مغنيـةٌ جيـدةُ الغنـاء تُـسمى

١) الاتليدي، نوادر الخلفاء، ص٣٤٩.
٢) الأصفهاني، الأغاني، ج(٦)، ص٢٤٦ -ص٢٤٨.
٣) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٥٠- ص٥١.
٤)الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(٤)، ص٢٨٥.
٥) ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، ص٢٠.

"فضلة" وبيعت للمتوكل وحملت من البصرة إليه....)"[١]"(وكانت "محبوبة" جاريةُ المتوكل مولدة من مولدات البصرة أيضاً). "[٢]"

- سر من رأى: ويشير اليعقوبي إلى سوق الرقيق في سر من رأى"[٣]" وهو أقرب الأسواق إلى بغداد.

- مصر: ومصر كانت تتاجر بالرقيق كما أورد اليعقوبي سابقاً، أما في العصر العباسي الثاني فيقول سعيد الصغير: (إن المنتصر أرسله في مهمة إلى مصر فبينما هو مار في سوق النخاسين، رأى جاريةً علقَ بها، وطلب بها النخاس ألفَ دينار، ولم يكُن يملك ذلك، فعاد إلى المنتصر وأخبره بأمرها فأعرض عنه ... وكان قد أمر أن تُشْترى من مصر له دون أن يعلم فلما حضرتْ قدمها له)."[٤]"

- وهذه الرواية تدلُ على أنه قد يكون الشراء من المناطق المختلفة من دون الإستعانة بالوسطاء التجاريين والتجار، وأن المسافر إلى مصر مثلاً قد يشتري بعض الجواري اللواتي يعرضن في أسواقها، والعودة بهن الى دياره.

- طرق التجارة الرئيسية:

١) **<u>الطرق الشرقية إلى بغداد وتأتي البضائع إليها من عدة أسواق هي:</u>**

<u>أ- أسواق خراسان والخزر، وتُقسم إلى ثلاثة أقسام:</u>

- <u>خُراسان:</u> (وخُراسان وهو اسم الإقليم الذي يحيطُ به من الشرق نواحي سجستان وبلاد الهند ....)"[٥]"(وفيها من الدوابِ، والرقيق، والأطعمة...وأغلى الرقيق ثمناً ما يقع من بلاد التُرك، ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الأرض .... وتبلغُ الجاريةُ التركيةُ عندهم ثلاثةَ آلف دينار، ولا يوجد في جميع أقطارِ الأرض من الرقيق ما بلغَ هذه القيمةَ من

---

١) الصابئ، الهفوات النادرة ، ص٤٩.
٢) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٦٣.
٣) اليعقوبي، البلدان، ص٢٦.
٤) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٢٠٧-ص٢٠٨.
٥) الاصطخري، المسالك والممالك، ص١٤٥.

غُلامٍ ولا جارية رومية ولا مولدة إلا ما كان معه آلةُ السماع مع الحذَق البالِغ والأداء الصحيح ....)"[١]"

ويعد إقليم خراسان من أهم الأقاليم التي تتاجر بالرقيق، وكانت الجواري ذوات الأصل الفارسي يأتين من هذا الإقليم ثم أصبح الرقيق التركي هو الغالب على جنس الرقيق المجلوب من هذه المنطقة، وقد يمثل ذلك حالة طارئة تمثلت قي تغير الطلب في بغداد خاصة عندما تولى المعتصم الخلافة، فتغير أيضاً العرض داخل أسواق خراسان.

ومن المناطق الرئيسية التي تتبع منطقة خراسان وتسهم في تجارة الرقيق بشكل كبير منطقة الغور.

- الغور: (وأما الغور فإنها جبالٌ يحيطُ بها من كُل جانبٍ دار الإسلام، وأهلُها كُفار إلا نفر يسير من المسلمين، وهي جبالٌ منيعةٌ .... وأدخلناها في جملة خُراسان لأن ثلاثة من حدودها تحيط بها خراسان، وأكثر رقيق الغورِ يقع إلى هراةَ وسجستان ونواحيها)."[٢]" ومن المناطق التي تتاجر بالرقيق أيضاً منطقة الخزر أو منطقة بحر الخزر كما ترد في بعض المصادر.

- بحر الخزر: (يقع شرقي بلاد الديلم"[٣]"،وطبرستان، وجرجان ... وهذا البحر ليس له اتصال مع أي بحر على وجه الأرض .... ويركب إليه التجار من أراضي المسلمين إلى أرضِ الخزر.... وهم سود الشعر، وهم صنفان: صنف يسمى "قَراخزر"، وهم سمر يضربون لِشدة السمرة كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهروا الحسن والجمال، والذي يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثانِ الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضا ....)"[٤]" وهي من المناطق الرئيسية التي يجلب منها الرقيق التركي أيضاً.

- بً- أسواق بلاد ما وراء النهر، وتقسم إلى ثلاث مناطق:

- ما وراء النهر:(ما وراء نهر جيحون يحيط به من الشرق بلاد الغُزية والخزلجية، ويمتد إلى سمرقند ونواحي بخارى إلى خوارزم، حتى

١) ابن حوقل، صورة الارض، القسم (٢)، ص٤٥٢.
٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص١٥٧/ و ابن حوقل، صورة الأرض، القسم (٢)، ص٤٤٤- ص٤٤٥.
٣) بلاد الديلم، وهي بالغرب من بحر قزوين غالب جبالها شاهقة شامخة وأهلها أشر الناس/ انظر، محمد بن أحمد الحنبلي، كتاب نشق الأزهار في عجائب الأمصار، مخطوط مصور، مركز المخطوطات والوثائق - الجامعة الأردنية، شريط رقم (٣٥٨)، ص٥٠.
٤) الإصطخري، المسالك، ص ١٢٨/ وص١٣١/ وابن حوقل، المصدر نفسه، ص٢٩٤.

ينتهـي إلـى بحيرتهـا، وشـماله التـرك الخزلجيـة مـن أقـصى بلـد فرغانـة، وجنوبـه نهـر جيحـون إلـى بحيـرة خـوارزم، وخـوارزم مـدينتُها وراء النهـر، وهي إلى مدن مـا وراء النهـر أقـرب منهـا إلـى مـدن خراسـان... وأمـا الرقيـق فإنه يقع إليهم مـن الأتـراك المحيطـة بهـم مـا يفْـضلُ عـن كفـايتهم وينقـل إلـى الآفـاق مـن بلادهـم، وهـو خيـر رقيـق يحـيطُ بالمـشرق كُلـه وأكثـره ثمنـاً ....)."[١]

كان الرقيق التركي أيضاً هو السلعة الأساسية في أسواق ما وراء النهر، وقد تكون نظرية تغير الطلب في بغداد صحيحة إلا أنها لا تفسر بيع العناصر التركية بشكلٍ كبير في هذه الأسواق، إن ما يفسر ذلك أن الترك وقبل تشكيلهم الإمارات المختلفة ودويلاتهم في آسيا كانوا قبائل متنقلة تعتمد الحرب وسيلة للبقاء، فكانوا يأسرون بعضهم بعضاً لذا كانت الأسواق مليئة بهم خاصة في هذه الفترة، أما الأسباب التي دفعت الدولة الإسلامية للإعتماد عليهم منها ما ذكره الإصطخري بقوله:

(ورقيقهم من أَحسن الناس طاعةً لكُبرائِهم، وأَلطفهم خدمةً لِعظمائِهم وفيما بينهم، حتى أن الخُلفاء استعانوا برقيق ما وراء النهر، وكانت الأتراك جيوشهم، لِفضلهم على سائرِ الأجناسِ في البأسِ، والجرأة، والشجاعة، والإقدام، ودهاقين* ما وراء النهرِ قادتهم وحاشيتهم وخواص خدمهم للطفهم في الخدمة، وحسن الطاعة، والهيئة في الملبس والزي السلطاني فصاروا حاشية الخلافة، وثقاتها، ورؤساء عساكرها، مثل الفراغنة، والأتراك الذين هم شحنة** دار الخلافة، غلبوا لبأسهم ونجدتهم على الخلافة مثل الأفشين *** وآل أبي الساج_ من أشروسنة، والإخشيد من سمرقند، والمرزبان من تركسفى، وعجيف بن عنبسة من السغد ... وغيرهم من أمراء الحضرة

---

١) الإصطخري، ص١٦١-ص١٦٢/ ابن حوقل، صورة الأرض، ص٤٦٥.

* الدهاقين: كلمة فارسية مفردها الدهاقان و تعني رئيس القرية أو صاحب القرية.انظر عبد النعيم حسنين، قاموس الفارسية، ط(١)، ١٩٨٢م، (مادة: دهخدا - دهيو)،ص٢٧١.

** الشحنة: من شحن .... وفي البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان والعداوة/ القاموس المحيط، مادة: شجن - شطن، ج(٤)، ص٢٤١.

*** الأفشين محمد بن أبي الساج تولى أعمال أذربيجان و تنتسب إليه الأجناد الساجية ببغداد، توفي سنة ٢٨٨هـ/ انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج(٢)، ص٢٥٠ -ص٢٥١.

وقوادها وجيوشها ....)"[١]" ومن النواحي الرئيسية في بيع الرقيق في ما وراء النهر منطقة خوارزم.

- خوارزم:(أما خوارزم فخصبةٌ كثيرةُ الأطعمة وفي أهلها مروءةٌ، وهم أكثر أهل خُراسان انتشاراً وسفراً وليس ببلدهم معدن ذهبٍ ولا فضة ...وعامةُ يسارهم من متاجرة الأتراك واقتناء المواشي، وأكثر رقيق الصقالبة، والخزرِ وما والاهما مع رقيق الأتراك، والأوبارِ من السمور**** وثعالب ... يصدرونه ويتاجرون به.)"[٢]" (وفيها التُرك الغُزية، وبلاد الهند من ظهرِ الختَل وفي الختل، وهي دار كُفرٍ يرتفع منها المسك والرقيقُ). "[٣]" (وخوارزم مدينةٌ خصبةٌ .... وعامةُ يسارهم من متاجرة الترك واقتناء المواشي، ويقع إليهم أكثر رقيق الصقالبة، والخزر، وما والاها مع رقيق الأتراك...)."[٤]"

وفي منطقة خوارزم تنوع واضح في نوعية الرقيق المجلوب خاصة أنها تتاجر بالرقيق التركي والرقيق الصقلبي المجلوب من أوروبا، ويظهر من النص السابق أنها تتاجر أيضا برقيق الخزر؛ والمقصود هنا الرقيق ذو الأصل الخزري وليس المباع في أسواق الخزر، وتتاجر خوارزم أيضاً بسلع عديدة يوجد بعضها في النص.ومن المناطق الرئيسية في تجارة الرقيق سمرقند.

- سمرقند:....وفي سمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر، وخير الرقيق بما وراء النهر تربيةُ سمرقند "...."[٥]"

وكانت أكبر سوق لتُجارِ الرقيق الصقلبي الذي يجلب من بلاد البلغار القاطنين حول نهرِ الفولجا *، وكان الرقيق يتسرب إلى أسواق سمرقند وبخارى عن طريق فرغانة إلى بلاد الشاش،

---

١) الإصطخري، المسالك و الممالك، ص١٦٣- ص١٦٤/و ابن حوقل، صورة الأرض، القسم (٢)، ص٤٦٨- ص٤٧١.

**** السمور: دابة يتخذ من جلدها فراء مثمن /القاموس المحيط، مادة: السمرة - السمهدر، ج(٢)، ص٥٣.

٢) ابن حوقل، صورة الأرض، القسم (٢)، ص٤٨٢.

٣) ن.م.ص٤٧٦.

٤) الاصطخري، المسالك و الممالك، ص١٧٠.

٥) [الإصطخري، المسالك والممالك، ص١٧٧- ص١٧٨/ و ابن حوقل، صورة الأرض، القسم (٢)، ص٤٩٤- ص٤٩٥.

* الفولجا أو الفلجا : نهر يصب في بحر قزوين في المنطقة المعروفة ببحر الخزر/ انظر هاري . و. هازارد، أطلس التاريخ الإسلامي، ص١٢ - ص١٣.

فبلاد ما وراء النهرين. ثم إلى الممالك الإسلامية، خاصةً إمارةُ السامانين التي تُمارس تجارةَ الرقيق الصقلبي على نطاق واسع"[١]

ويتضح من النص السابق كيف تحصل المناطق الواقعة في آسيا على الرقيق الصقلبي القادم من أوروبا خاصة من منطقة بلاد البلغار، كما تظهر دور سمرقند الرئيسي في هذه التجارة في آسيا وخارجها إذ تمثل مجمع تلتقي فيه جميع أنواع التجارات.

٢) **الطرق الأوروبية إلى بغداد وتأتي البضائع إليها من عدة أسواق:**

أ-أسواق الفرنجة: (وبلاد إفرنجة في وسط الإقليم الخامس، وهؤاها غليظٌ لِشدة بردها .... وآخر حدودها بحر الشام، وآخر حدودها البحر المحيط بعد المغرب، وتتصلُ ببلاد روما أيضاً، وببلاد الصقالبة من الشرق ومن الغربِ تتصلُ بالبشكنس ....ومنها يرد الرقيقُ الصقالِبةُ، ولا يكاد يرى ببلاد إفرنجة زمن ولا ذو عاهة)."[٢]

وفي هذا القول مبالغة تدل على عدم معرفة الآخر، وقد يكون ذلك بسبب تعامل المسلمين مع رقيق مدرب لأن هذه المناطق تصدر هذا النوع من الرقيق فقط، أما المناطق التي يتم تدريب الرقيق فيها عديدة منها مناطق إسلامية كالأندلس لأن مسألة التدريب عامل مهم في سهولة بيع الرقيق، وفي رفع أثمانهم أيضاً.

- ب-أسـواق بيزنطـة: وكانـت الإمبراطوريـة الـشرقية البيزنطيـة الجـارة العـدو للمـسلمين تـصدر الرقيـق أيـضاً (ويـأتي الرقيـقُ ؟إلـى بيزنطـة حيثُ يقام سـوقٌ مـشهور يقـالُ لـه "بيلـة" يأتيهـا النـاس مـن الأطـراف البعيـدة مـن الـشرق، والغـربِ، والجنـوب، والـشمال، والتجـار يجهـدون غايـةَ جهـدهم حتـى يـدركوا ذلـك الـسوق، فمتـاع أهـل الـشرق يـشتريه الغـرب، وبـالعكس، ومتاع أهل الشمال يشتريه أهلُ الجنوبِ، وبالعكس)."[٣]

ج- مناطق البحر الأبيض المتوسط: يعد هذا البحر مصدراً من مصادر تجارة الرقيق، ويعود ذلك إلى كثرة الجزر الموجودة فيه، وكونه جزء من أوروبا في هذا التقسيم، فيعود إلى أن بعض الجزر التي كانت تورد الرقيق هي جزر تابعة لأوروبا لا للدول الإسلامية المحيطة به

١) الأمشاطي، القول السديد في اختيار الإماء و العبيد، ص١٠.
٢) البكري، المسالك والممالك، ص٩١٣- ص٩١٤.
٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٣١.

ووصف هذا البحر المسمى بحر الروم: بأنه خليج من البحرِ المحيط بين الأندلس وبين البصرة من بلاد طنجة، ويمتد إلى سواحل المغرب فيما يلي شرقي هذا البحر، حتى ينتهي إلى أرضِ مصر، ويمتد على أراضي مصر حتى ينتهي إلى أرضِ الشام ممتداً عليها ...، وفي هذا البحر جزائر صغار وكبار وجبال، فأما المعمورةُ بالناس أكبرها إقريطش، وقبرس، وجبلُ القلال، فأما صقلية فإنها قريبةٌ من الإفرنجة.... وبصقلية من الزروع، والمواشي والرقيق ما يفضل على سائر ممالِك الإسلامِ المتاخمة للبحرِ....)"[١]" وقد فتح المسلمون بعض هذه الجزر كصقلية، وحصلوا على الكثير من أسرى الحرب منها.

وأرض الروم غاية الاتساع وأهلها مسلمون ونصارى الغالب على ألوان أهلها البياض والشقرة ومن طباعهم مباشرة اللهو والضرب وشرب الخمر."[٢]"

د- أسواق المغرب والأندلس:

- أسواق الأندلس: يقول الإصطخري: (ومن مشهورِ جهازِ الأندلس الرقيقُ من الجواري والغلمان من سبي إفرنجة، وجليقية، والخدم الصقالبةُ، وجميع من على وجه الأرضِ من الصقالبة الخصيان - والصقالبة غلمان كان النخاسون يحملونهم من شمالي أوروبة، يتجرون ببيعهم في أنحاء العالم، وكان الاتجارِ بهم رائجاً، وكُلهم بيض البشرة على جانبٍ عظيمٍ من الحسنِ والجمال، وكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة، والحرب، والإناث للتسري، وغَلَبَ على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف، وكانت تُلفظُ عندهم "سكلاف" فعربها العرب" صقَلَب، ومنها صقلبي، وصقالبة فمن جانبِ الأندلس لأنهم عند قُريهم منها يخْصون، ويفعلُ ذلك بهم تُجار اليهود، والصقالبة ... وبلدهم واسعةٌ، ولِغُزاة خُراسان من ناحية البلغارِ بهم اتصال فهم إذا سبوا إلى هناك تُركوا فُحولة على صحة أجسامهم، والنصفُ الشمالي يسميه الأندلسيون من جهة جليقية ويبقون على حالِهم....)."**٣**"

---

١) الأصطخري، المسالك والممالك، ص٥٠- ص٥١.
٣) الحنبلي، محمد بن أحمد، كتاب نشق الأزهار في عجائب الأمصار، مخطوط مصور، مركز المخطوطات والوثائق - الجامعة الأردنية، رقم الشريط(٣٥٨)، ص٤٠.
٣) ابن حوقل ، صورة الأرض، قسم(١)، ص١١٠/ الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص٨.

ويظهر أن الحروب في أوروبا في تلك الفترة، كانت السبب الرئيسي في كثرة العبيد المجلوب منها، كما كان هناك العديد من العبيد داخل أوروبا نفسها يتبعون أسيادهم من النبلاء، أو الكنيسة.

يقول "محمد صالحية" في مقدمة كتاب "الأمشاطي" أن التجار اليهود في الأندلس تولوا مهمة جلْب العبيد من ألمانيا وفرنسا إلى موانئ البحرِ المتوسط، وكانت بلاد الصقالبة وتضم الخزر، والبلغار، والمجر، وبولونيا وبوهيميا، وبلاد الترك (التركستان)، وهي مستودع لِجابِ الرقيق إلى الأسواق العالمية ....)"[١]

- أسـواق المغـرب: (ويقـع مـن المغـرب الخـدم الـسود مـن بـلاد الـسودان، والخـدم البـيض مـن الأنـدلس، والجـواري المثمنـاتُ أي تُأخَـذُ الجاريةُ والخادم من غير صناعة على وجوههما بألف دينارٍ وأكثر...)."[٢]

- وتـشكل المغـرب الواقعـة فـي شـمال إفريقيـا، والقريبـة مـن الأندلس نقطة التقـاء وتجميـع للرقيـق القـادم مـن أوروبـا شـمال المغـرب ومـن إفريقيـا جنوبهـا، ثـم يـتم تـصدير الرقيـق المجمـع فيهـا إلـى مـدن العـالم الإسلامي.

<u>**الطرق الافريقية إلى بغداد وتأتي البضائع إليها من عدة أسواق:**</u>

- أ-الحبـشة: (وتجـاور الحبـشة أرض البجـة مـن الـشمال؛ وهـي أرض قريبـة لجزيـرة العـرب، وجملـة الحبـشة يتخـذون الإبـل ويكتـسبونها ويـشربون ألبانهـا، ويـستخدمون ظهورهـا.... ويـسرق بعـضهم أبنـاء بعـض ويبيعـونهم للتجـار، فيخرجـونهم إلـى أرض مـصر فـي البـر والبحـر)."[٣](ويعـد رقـيقهم مـن أجـود أنـواع الرقيـق)"[٤]وهنـاك رقيـق مـن هـذه المنطقـة مـن المسلمين لذلك يعاملون بشكل مختلف عن أنواع الرقيق الأخرى."[٥]

---

١)الأمشاطي، القول السديد في اختيار الإماء والعبيد، ص٩- ص١٠.
٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص٣٧.
٣)الإصطخري، ن.م، ص٦٢.
٤)حسين محافظة، الرقيق في المجتمع العربي الإسلامي حتى ثورة الزنج، (رسالة ماجستير- الجامعة الأردنية)، ص٨٢.
5) بابا، أبو العباس سيدي أحمد بن أحمد بن عمر، معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود، أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، مخطوط مصور، مركز الوثائق والمخطوطات - الجامعة الأردنية، رقم الشريط (٣٥٨)،ص٣٧.

• وتـشكل مـصر وبعـض المنـاطق العربيـة خاصـة الـيمن وعمـان أسواق لهذا الرقيق حيث تستورده ثم تقوم بتصديره إلى مناطق عديد.

• ب-بـلاد الـزنج: مـن أهـم المنـاطق التـي تـصدر الرقيـق الأسـود فـي إفريقيـا، ويـصف القزوينـي بـلاد الـزنج بقولـه: (بـلاد الـزنج مـسيرةُ شـهرين، شـمالها الـيمن، وجنوبهـا الفيـافي، وشـرقُها النُوبـة، وغربهـا الحبـشةُ وبلادهـم قليلـةُ الميـاه قليلـةُ الأشـجارِ، سـقوفُ بيـوتهم مـن عظـامِ الحـوت.... والزنج خُصـصوا بـأمورٍ عـشرة سـواد اللـون، وفلفلـةُ الـشعرِ، وفطـس الأنـف، وغلـظُ الـشفة، وتـشققُ اليـد، والكعـب، ونـتن الرائحـة، وكثـرةُ الطـربِ، وقلـةُ العقل، وأكل بعضهم بعـضاً، فـإنهم فـي حـروبهم يـأكلون لحـم العـدو فمـن ظفـر بعدو أكله، وأكثرهم عراة لا لباس لهم)."[١]"

وهذا نقيض للوصف الذي وصفَ به رقيقُ الأندلس، ولا أرى أن المسألةَ تتعلقُ باللون، و لكن أرى أن تدريبهم هو العامل الرئيسي في وصفهم، كما نُضيفُ عاملَ التقدمِ الحضاري، فرغم تراجعِ أوروبا حضارياً في العصورِ الوسطى إلا أنها كانت متقدمة أكثر من المناطق الإفريقية الوسطى والجنوبية، كما أن التدريب الذي كان يتم للرقيق في مراكز البيع في الأندلس كان عاملاً في تفضيله، بينما يأتي الرقيق الإفريقي الى الأسواق العربية مباشرة.

(والعبيد المستوردون من زنجبارٍ ومنها كلمةُ زنج، وزنجبار* أو زنزبار) "[٣]" (وهي كلمةٌ تُطلقُ على شاطئ إفريقيا الشرقي، وقد اشتهرتْ جزيرةُ زنجبار بين تُجارِ الرقِ بأسواقها التي كانت تعج بالعبيد السود الذين كانوا ينقلون بالمراكبِ إلى شط العربِ في جنوبي العراق). "[٤]"

وعندما أراد الجاحظُ أن يبين فضائلَ الزنجِ قال: (وأنتُم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط، وإنما رأيتم السبي يجيء من سواحل قنبلة وأوديتها، ومن مهنَتنا، وسفلتنا، وعبيدنا، وليس لأهل قنبلة جمالٌ ولا عقولٌ، لأن الزنج نوعان : قنبلة ولنجويه)."[٥]" ومن المناطق التي تصدر الرقيق بلاد السودان.

---

١) القزويني، آثار البلاد و أخبار العباد، ص٢٢ -ص٢٣.
* زنجبار كلمة عربية محرفة وتعني بر الزنج وهي في المحيط الهندي/انظر سعيد المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص١٥-ص١٦.
٢) فيصل السامر، ثورة الزنج، ص٢٣.
٣) فيصل السامر، ثورة الزنج، ص٢٣.
٤) تاليف ي . أ يلياف، العرب والإسلام والخلافة العربية، ص٣٢١.
٥) البكري، المسالك والممالك، ص٨٧٥.

- ج-بلاد السودان.[١] "وتعد منطقة زويلة المصدر الرئيسي للخدم السودان ووصفت بأنها (بلد في وجه أرض السودان، والخدم السود أكثرهم يقع إلى زويلة، وأرض المغرب ما كان منها في شرقي بحر الروم قُرب الساحل فتعلوهم سمرةٌ، وكلما تباعدوا فيما يلي الجنوب والمشرق ازدادوا سواداً، حتى ينتهوا إلى بلد السودان، فيكون الناس بها أشد الأمم سواداً، ومن كان في غربي بحر الروم بالأندلس فهم بيض زرق(أي لون العينين)، وكلما ازدادوا وتباعدوا إلى ما يلي المغرب والشمال ازدادوا بياضاً، حتى يقطع عرض الروم كله إلى ظهر الصقالبة)" ....[٢] ومن المناطق الإفريقية أيضا بلاد النوبة.

- د-بلاد النوبة: (وتنسب النوبة الى نوابة التي تمتد مع مجرى نهر النيل جنوبا إلى حدود مصر، وهي مدينة صغيرة وأهله ميسورون، وفي نسائهم جمالٌ فائقٌ وهن مختتنات ولهن أعراقٌ طيبةٌ ....والجارية منهن يبلغُ ثمنُها ثلاثمائة دينار وأقلُ من ذلك، ولهذه الخلال التي فيهن ، يرغب ملوك مصر فيهن ويتنافسون في أثمانهن، ويتخذونهن أمهات أولاد)."[٣]

٣- <u>مصادر أخرى لاستقدام الرقيق والجواري:</u>

وهناك مصادر أخرى للرقيق كانت الدولة العباسية تعتمد عليها في استقدام الرقيق منها:

- الخراج: والخراج ضريبةٌ تُقدمها بعض المناطق للدولة العباسية كضريبة بدلاً من وارد الأرض، أو الدراهم، والدنانير، إذ أرسلَ أحمد بن طولون* والي مصر إلى المعتمد على الله مع "نحرير" خادم

---

١) وهي بلاد واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر، وجنوبها إلى البراري، وشرقها إلى الحبشة، وغربها إلى البحر المحيط(المحيط الأطلسي) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٢٤.

٢) الأصطخري، المسالك والممالك، ص٣٦-ص٣٧.

٣) الادريسي، نزهة المشتاق، ص٤٦- ص٤٧.

* الأمير أبو العباس أحمد بن طولون(ت ٢٤٠هـ)، صاحب الديار المصرية والشامية والثغور في خلافة المعتز، وكان حسن السيرة، وكان أبوه مملوكا أهداه نوح الساماني إلى المأمون في جملة رقيق حمله إليه./انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، م(١)،ص١٧٣.

المعتمـد، مـن خـراج مـصر ألـف ألـف دينـار، ومـائتي ألـف دينـار، سـوى الرقيق، والكراع، وطرائف مصر."[١]

- المـصادرات: وكانـت تحـدثُ المـصادراتُ عنـدما يغـضب الخليفـةُ على أحد عمالِه وولاتـه فيرسـلُ مـن يحبـسه ويقـوم يأخـذ جميـع مـا يملـك مـن أموالٍ أو عبيـد، ومنهـا لمـا غَـضب المتوكـلُ علـى عمـر بـن فـرج فـي شـهر رمـضان، وأمـر إسـحاق بـن إبـراهيم بـن مـصعب بحبـسه عنـده، ومـصادرة أمواله وصار نجـاح بـن سـلمة الـى منزلـه فلـم يجـد فيـه إلا (١٥) ألـف درهـم وحـضر مـسرور سـمانه، فقـبض جواريـه، وقيـد عمـر (٣٠) رطـلاً، وأحـضر مولاه نصر من بغـداد، فحمـلَ (٣٠) ألـف دينـار، وحمـلَ نـصر مـن مـال نفـسه (١٤) ألــف دينـــار... وكـــان فـــي بيتـــه(١٠٠) جاريـــة...."[٢]وقـــد كثُـــرت المـــصادرات زمـــن المتوكـــل ولـــم تقتـــصر علـــى ابـــن فـــرج، واســـتمرت المصادرات طوال العصر العباسي الثاني.

أما غالِب طبيب الموفق أبي طلحة، الذي أصبح طبيباً للمعتضد بعده، وعالج الموفق من سهم كان أصابه، فأعطاه مالاً كثيراً وأقطعه، وقال لغلمانه: من أراد إكرامي فليكرمه، فوجه إليه مسرور بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب وكذلك فعل الغلمان .... ولما قبض على صاعد وعبدون، أخذ لعبدون عدة غلمان نصارى مماليك، فمن أسلم منهم أجرى له رزق وترك، ومن لم يسلم منهم بعث إلى غالِب، وكان عدد من أُنفذ إليه (٧٠) أزمة وغيرها "[٣]

<u>الميراث:</u> ومن الأمثلة على ذلك صالح المنتصر اخوته وأخواته من ميراث أبيه من الفَرس، والرقيق، والدوابِ....)"[٤]،"وفي سنة (٣٠٢هـ/ ٩١٤م) ماتتْ "بدعة" جاريةُ "عريب" مولاةُ المأمون .... وخلفت أموالاً كثيرةً وجوهراً، وضياعاً، وأمر المقتدر قبض ذلك كُله، وتُوفيت ولها ستون سنة ما ملكها رجلٌ قط) "[٥]".

١) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٣٧.
٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص١٦١.
٣) ابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٣١١- ص٣١٢.
٤) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٢٢٠.
٥) الصولي، ما لم ينشر من أوراق الصولي، ط(١)، ص١٠٢.

- الهـدايا: كـان تبـادل الهـدايا فـي العـصر العباسـي علـى نطـاق واسـع، وكـان لهـا مناسـبات عديـدة كالأعيـاد، والمـرض، والتقـرب إلـى الخليفة، أو قادته أو نسائه يهدف الحصول على امتيازات عديدة.

يقولُ الجاحظُ في الكتابِ المنسوبِ إليه" التاج": (على خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين الى الملك ما يؤثرنه ويفضلنه، غير أن نساء الملك إن كانت عندها جاريةٌ تعلم أن الملك يهواها ويسر بها أن تهديها إليه بأكمل حالاتها، وأفضل زينتها، وأحسن هيأتها، فإذا فَعلتْ ذلك فمن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه، ويخصها بالمنزلة، ويزيدها في الكرامة ويعلم أنها قد آثرته على نفسها، وبذَلتْ له ما لا تجود النفس به، وخصته بما ليس في وسع النساء إلا القليل منهن الجود به.) "[١]" وتُعد الجاريةُ المقدمةُ هدية من نساء الخليفة ذاتُ قيمة أكبر من أية هدية اُخرى، خاصةً من زوجته لأن ذلك يعني إيثارها راحته، وتلبيةً لرغبته.

(وأهدتْ السيدةُ قبيحة اُم المعتز هديةً إلى المتوكل من ضمنها (١٠) غلمان و(١٠) خدم في المناطق الذهب.... و(١٠) جوار معهن (٢٠) وصيفة.)"[٢]"،(وأهدت إليه أيضا يوم افتصد *جارية معها جام** مكتوب فيه شعر.)"[٣]" (أما "محبوبة" جارية المتوكل؛ فقد قُدمتْ له من ضمن أربعمائة جارية قدمها عبيد الله بن طاهر كهدية للمتوكل) "[٤]" وأهدتْ جاريةُ المتوكل "شجرةُ الدرِ" التي كان يميلُ إليها، ويفضلُها على سائرِ حظاياه إليه (٢٠) غزالا مع (٢٠) وصيفة)."[٥]"

(وأرسل عمرو بن الليث الصفار***إلى أبي أحمد لموفق بالله في سنة (٢٧٥هـ/٨٨٨م) (٥٠) حملا دراهم، ومائة فرسٍ رائقة من عتاق الخيل، وجماعة من الغلمان، وظُرفاً من هدايا خُراسان.)"[٦]"

---

١) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص١١٠.
٢) التنوخي،نشوار المحاضرة ، ج(٣)، ص٤٤.
* افتصد: فصد العرق فصدا أي شقه، ويقال فصد المريض أخرج مقدارا من دم الوريد بقصد العلاج/الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة: (ف ص د)،ج(١)، ص٣٣٤- ص٣٣٥/ المعجم الوسيط، ج(٢)،مادة: (ف ص د)، ص٦٩٠- ص٦٩١.
** الجام وجمعها جامات هو إناء للطعام والشراب من فضة وغلب استعمالها على قدح الشراب/ المعجم الوسيط، (مادة: ج ا م) ج١، ص١٤٩.].
٣) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٥٧.
٤) السيوطي، المستظرف، ص٦٣.
٥) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج(١)، ص٤٥٢.
*** عمرو بن الليث الصفار من خراسان، تغلب يعقوب على خراسان، وقصدته العساكر من كل ناحية، وتوفي سنة (٢٦٥هـ) وتولى الأمر بدلا منه أخوه عمرو، وكان حسن السياسة في خراسان/ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج(٦)،ص٤٢١ -ص٤٢٢.
٦) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٣٧.

(وفي سنة (٢٨٠هـ/٨٩٣م) وصلتْ إلى المعتضد في يوم النيروز**** هدية من "قطر الندى" (٣٠) وصيفة يرقُصن مع الفراغنة ومعهم هدايا كثيرة)."[١]"

(كما قدم إليه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون * .... مع أبي عبد الله الحسين بن أحمد الجوهري المعروف بابن الجصاص** (٢٠) جملا محملة مالا و (١٠) خدم بدوابهم وحلاهم)"[٢]" .

و(أُهدي للمعتضد في سنة (٢٨٠هـ/٨٩٣م) من فارس مع داود بن سليمان (٥٠) غُلاماً بدوابهم وسلاحهم و (٢٠) بعيراً بمحاملَ في كل محمل غُلامان وسبعون دابة). "[٣]"

و(أرسلَ إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب ما وراء النهر(٢٨٠هـ/٨٩٣م) .... (٤٩) جملاً عليها محاملُ فيها غلمان مرد***أتراك، وخزر بأقبية سمور، وقلانس سمور، و(٥٢) غلاماً أتراكاً وخزراً بدوابهم، وسلاحهم)." [٤]"

و(قدم إبراهيم بن أحمد الأغلب(٢٨٢هـ/٨٩٥م) هدايا من غنائِم فَتح صقلية (٥٠) جارية، و(١٠٠) خادم، و(١١١) فرساً....)."[٥]"

(كما أرسلَ إليه خمارويه بن أحمد سنة(٢٨٧هـ/٩٠٠م)مع عبد الله بن الفتح صاحبه.... نيفاً وخمسين دابةً عليها الغلمان السودُ(."[٦]"

و(أهدى إسماعيل بن أحمد الساماني الى المقتدر بالله سنة (٢٩٨هـ/٩١٠م) هدايا جليلة منها (١٢٠) غُلاماً بسيوفهم ومناطقهم، ودوابهم). "[٧]"

**** النيروز: اليوم الجديد من السنة الإيرانية ويوافق (٢١) آذار من كل سنة، وهو عيدان عيد عامة، وعيد خاصة، وكل عيد ستة أيام /محمد التونجي، المعجم الذهبي، ١٩٩٣م، مادة: نورز ، ص٦٤٨.

١) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٣٨-ص٣٩.

* أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، أمير الديار المصرية و كان على خلاف مع المعتمد على الله و أخوه الموفق، إلا أن هذا الخلاف انتهى في خلافة المعتضد على الله بسبب زواج المعتضد بابنته قطر الندى، و قتل خمارويه في دمشق على يد غلمانه سنة ٢٨٢هـ/ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، ١٩٧٨م. م(١) ،ص١٧٣.

** ابن الجصاص أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن الحسين، التاجر الجوهري وكان فيه غفلة وبله، توفى سنة ٣١٥هـ/انظر ابن خلكان،الوفيات ،ج(٣) ، ص٧٦ -ص٧٧.

٢) الرشيد بن الزبير، الذخائر ، ص٤١.

٣)ن.م. ص٤٢.

*** مرد و مرداء والأمرد الشاب طر شاربه ولم تنبت لحيته/ القاموس المحيط، مادة: المضد - مند، ج(١)، ص٣٥٠ -ص٣٥١

٤) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٤٢-ص٤٣.

٥) الرشيد ابن الزبير، الذخائر، ص٤٤.

٦) ن.م. ص٤٤.

٧) مجهول،٢٥٦هـ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج(٤)، قسم(١)،ص١٥٤/ والصولي، مالم ينشر من أوراق الصولي أخبار سنوات(٢٩٥هـ - ٣١٥هـ) ، ص٧١/ ابن الزبير، الذخائر، ص٥٩.

بينما تذكر مصادر أخرى لشراء الرقيق في خبر فضل الشاعرة اليمامية جارية المتوكل كانت جارية شاعرة ماجنة من أظرف أهل زمانها، ولها أخبار ملاح مدونة أخبرنا أبو الفرج الأصبهاني، قال: كانت فضل مولدة من مولدات البصرة وبها نشأت، وكان مولدها اليمامة وذكرها محمد (بن داود الجراح الأديب والوزير) فذكر أنها عبدية، وكذلك كانت تزعم هي وتقول: إن أمها علقت بها من مولى من عبد القيس وإنه مات وهي حامل بها، فباعها ابنه، فولدت على سبيل الرق. وذكر عنها من جهة أخرى أن أمها ولدتها في حياة أبيها، فرباها وأدبها، فلم توفي تواطأ بنوه على بيعها فاشتراها محمد بن فرج الرخجي أخو عمر بن فرج فأهداها إلى المتوكل... ."[١]

كانت تلك أهم المصادر التي يعتمد عليها في جلب الرقيق والجواري واقتنائهم عدا عن الأسواق التي ذكرناها سابقاً، وهي مصادر كان لها تأثير واسع وعميق في الحياة السياسية والاجتماعية، ولاسيما في قصور الخلفاء، والقادة، وطبقة الخواص. وكان للديوان المسمى ديوان الأحشام في قصور الخلفاء عند استجلاب الرقيق والجواري إليها، إما على شكل هدايا وإما بالشراء.

وديوان الأحشامِ مشتقٌ من كلمة حشم، وتعني مماليك قُصورِ الخُلفاء، وهناك ديوان آخر اعتمدتْ الدولةُ عليه في استقدامِ الرقيق وهو ديوان الموالي والغلمان.

وقد ذكر اليعقوبي: (أنه ديوان عسكري أنشأه المعتصم لابتياع الغلمانِ الأتراك، وبقي هذا الديوان الى زمنِ المتوكل، ويذكر دائماً عند وصف مدينة بغداد الدار المعروفةُ بدارِ الرقيق، وفي هذه الدار رقيقُ أبي جعفر المنصور الذين يباعون من الآفاق وكانوا مضمومين الى الربيع مولى المنصور). "[٢]

لقد أوجدت الدولة العباسية للرقيق المخصص للخلفاء وأمرائهم أماكن للسكن وهذا السكن المخصص لهم يوجد في منطقة الرحبة في بغداد حيثُ دار الخلافة ومنازلُ أولاد المنصورِ محيطةً بها، ودور العبيد والموالي، والدواوين الدولة. "[٣]

---

١) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص٨٤.
٢) اليعقوبي، البلدان، ص١٦/ وحسين الكساسبة، الدواوين المركزية في العصر العباسي الأول، رسالة جامعية، ص١٤٠-ص١٤١.
٣) اليعقوبي، البلدان، ١٩٥٧م.ط(٣)، ص٨.

كما تُعرض بعض الجواري على الخلفاء بقصد البيع دون الحاجة الى الاستعانة بالدواوين السابقة، إلا عند طلبِ الأموال ِلشرائِهن، وتعددت أساليب العرض ومن تلك الأساليب:

(قال أبو العيناء قال: لما دخلتْ "فضل" الشاعرة على المتوكل يوم ُأهديت ِإليه قال لها: َأشاعرةٌ أنت؟ قالتْ :كذا يزعم من باعني واشتراني، فضحك، وقال: أنشدينا شيئاً من شعرك... فاشتراها)."١" (وعرض على المتوكل جاريةٌ فسألها: بكر أنت أم ايش؟ فقالتْ: أم ايش فضحك وابتاعها)."٢"

(قال علي بن الجهم الشاعر: إني لعند المتوكل يوماً والفتح بن خاقان حاضر، إذ قيل فُلان النخاس فَأذن له، فدخل ومعه وصيفة فقال له المتوكل: ما صناعةُ هذه.... فأمر المتوكل بشرائِها، وتقديمها للفتح، وكانت أحظى جواري الفتح)."٣"

(أما أم المقتدر فهي؛ أم ولد يقالُ لها (شغب) أدركتْ خلافته، وسميتْ السيدةُ، وكانت لام القاسم بنت محمد بن عبد الله بن طاهر فاشتراها منها المعتضد)."٤"

قال أبا علي الفارسي: دخلتُ مع شيخنا أبي إسحاق الزجاج على القاسم بن عبيد الله*،فورد ِإليه خادم سره بشيء استبشر به، ثُم تقدم الى شيخنا أبي ِإسحاق بالملازمة الى أن يعود، ثُم نهض فلم يكن بأسرع من أن عاد وفي وجهه َأثر الوجوم(العبوس)، فسأله شيخنا عن ذلك لُأنس(ضد الوحشة) الذي كان بينهما، فقال: كانت تختلفُ** إلينا جاريةٌ لإحدى المغنيات، فسمتُها*** أن تبيعني ِإياها فامتنعتْ عن ذلك بما أشار عليها َأحد من كان ينصحها بأن تُهديها إلي رجاء أن ُأضاعفَ لها الثمن فلما وردت أعلمني الخادم.... "٥"

---

١) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٥١.
٢) ابن الجوزي، أخبار الظراف و المتماجنين،ص١٤٧/ والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر(٤)، ص١٨.
٣) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٧٠-ص٧١.
٤) الطبري، تاريخ، ج(١٠)، ص٤٢/ ص١٣٩.
* أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، وكان عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكا للدماء، وكان الكبير والصغير منه على وجل، لا يعرف أحد من أرباب الأموال، وتوفي سنة (٢٩١هـ) في خلافة المكتفي وعمره نيف وثلاثون سنة./ ابن خلكان، الوفيات، ج(٣)، ص٣٦١ - ص٣٦٢ .
** تختلف: والخاف ويقال هو خاف صدق من أبيه إذ قام مقامه، فإذا غاب عن أهله خالفه إليهم أي أنها تأتي وتغيب/انظر القاموس المحيط، مادة: خاف، ج(٣)، ص١٤٠ - ص١٤٣.
*** من سومة: وساومه مساومة، فاوضه بالبيع والابتياع والبائع بالسلعة غالى بها[المعجم الوسيط، (مادة: س و م) ج(١)، ص٤٦٥
٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص٤٨٠.

و""عرض"" على رجلٍ جاريتين بكر وثيب فاختار البكر، فقالت الثيب: ما بيني وبينها إلا يوم فقالت البكر (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) "فاشتراها."[١]"بينما استعرض رجلٌ جاريةً فقال لها في يديك عمل؟ قالت: لا، ولكن في رجلي(أي الرقص). "[٢]"

وتمثلُ طُرقُ العرض هذه وسيلةً من وسائل البيع، إذ كلما أحسن البائع عرض بضاعته زاد سعرها وكلما اهتم ببضاعته لفتتْ أنظار الجميع فتدافعوا على الشراء، فإن عرض الجارية أو الغلام وَأخبر المشتري أنه يحسن أو تُحسن عملاً ما اختُيرا في ذلك العمل من قبل المشتري.

ان هذه المصادر العديدة ومراكز البيع الكثيرة، وتلك الأسواق التي تمتلئُ بالكثير من الرقيق والجواري، رغم أنهم لا يمثلون السلعة الرئيسية في تلك الأسواق خاصة مع ارتفاع َأسعارهم التي لا تُمكن البعض من شرائِهم تدفعنا إلى التساؤل لماذا يحتاج الإنسان إلى شراء إنسانٍ مثله، وعن الضرورة التي دفعته إلى ذلك؟

ورغم أن هذا السؤال يتناول جانباً إنسانياً لا يمكن تجاهله إلا أنه أيضاً يوصلنا إلى الدوافع أو الأسباب أو الاحتياجات التي تكون سببا لبذل أموال طائلة في شراء الرقيق، وإيجاد أسواق مخصصة لذلك ومراكز بيع وبلدان تشكل مصادر لتوريدهم.

وهنا لا يهمنا أن نَبحثَ في ظروف تلك البلدانِ التي تُورد الرقيقَ أو لماذا تُقرر عائِلةٌ بيع ابنها مثلاً؟ أو نبحثَ في الأسباب التي تدفع مدينةً أن تُصالِح أعداءها على مقدارٍ معلومٍ من الرقيق، فرغم أهمية تلك الظروف على وضع الرقيق المجلوبِ ورغم أن تلك الظروفَ تُشكلُ دراسةً بحد ذاتها، ِإلا أن ما يهمنا هنا الأسباب التي تَدفع دولةً كالدولة العباسية إلى شرائِهم وإيجاد أسواق معينة لهم، وتدفع السكان القاطنين فيها رغم تفاوت مستوياتهم الاجتماعية لشراء للرقيق المتوفر في أسواقها وهل تلك الأسباب تمثل حاجة فعلية أم مظهرا من مظاهر الترف الناتج عن كثرة الأموال في أيدي الخلفاء والقادة والطبقة الاجتماعية الغنية.

١) ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، ط(٢)، ص١٤٧-ص١٤٨.
٢) النويري، نهاية الأرب في فنون الادب، السفر الرابع، ص١٩

الفصل الثاني

أسباب الاعتماد على الرقيق والجواري

يميل الإنسان البدوي إلى عدم القيام بمهام ينظر إليها باحتقار، ومثال ذلك أنه نظر لفترة طويلة إلى الزراعة باحتقار رغم احتياجه لها، فكانت أراضي السواد الواسعة ملكاً له إلا أن من كان يقوم بمهام الزراعة فيها الرقيق، ويكثر استخدام الخدم خاصة في قصور الخلفاء ومن ذلك ما تحدث عنه "أبو القاسم علي بن محمد الخوارزمي في وصف أيام المقتدر بالله، وكثرة الخدم في داره قال: "إذ اشتملت الجريدة(القائمة) على أحد عشر ألف خادم خصي، وكذا من صقلبي ورومي وأسود، وأنه كانت كل نوبة من نوب الفراشين في دار المتوكل على الله أربعة آلاف فراش، قالا: فذهب عنا أن نسأله كم نوبة كانوا "."[١]" ولكن ما هي الأسباب التي أدت إلى ازدهار تجارة الرقيق في بغداد، وما هي الأعمال التي مارسوها فيها؟.

ينسب الكثيرون الحاجة إلى الرقيق والجواري إلى الطبقة الخاصة أو الطبقة العليا في المجتمع، والتي تمتلك الأموال التي تمكنها من دفع الأثمان المرتفعة لشرائهم، ويبالغون في الحديث عن أعدادهم وتنوع استخداماتهم، وهذا التصنيف صحيح؛ إلا أنه لا ينفي أيضاً أن الطبقة العامة وباختلاف مستوياتها استعانت بهم، حتى وإن وقفت الأموال عائقاً في طريقهم. والحاجة لا تقتصر على عمل دون آخر، ولا على الغني دون الفقير، وإن كان الفقير يحسب للأموال التي يقدمها في شرائهم حسابات كثيرة، ومثال ذلك أن أحد العامة استأجر غلاماً ليخدمه، فقال له: كم أجرتك؟ فقال:" أشبع بطني، فقال: سامحني، فقال: أصوم الخميس والاثنين"."[٢]"

والتاجر الذكي هو الذي يوفر السلعة المطلوبة لكافة المستويات الفقيرة منها والغنية؛ على حد سواء. فالتجار لا يعرفون فقيراً ولا غنياً، بل يعلمون أن للجميع احتياجات قد تكون مشتركة وقد لا تكون، إلا أن عليهم أن يوفروا تلك السلع. كما يعيب البعض على الملوك والخلفاء امتلاكهم الجواري مثلاً؛ لذلك يقال: "هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار، وألباب الملوك مشغولة بكل شيء يجل، وألباب السوق مشغولة بأيسر الشيء، فالجاهل منهم يعذر نفسه بدعة ما هو عليه من الرسلة، ولا يعذر سلطانه مع شدة ما هو فيه من المؤونة، ومن هناك يعزز الله سلطانه ويرشده وينصره"."[٣]"

---

١) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٥)، ص٤٨./ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٦)، ص٤٠٤.
٢) المقري، المختار من النوادر والأخبار، ص٢٠٣.
٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م(١)، ص٥.

إلا أن هذا القول لا يمنح أحداً الحق في تجاوز الحدود والآداب والتقاليد العامة، حتى وإن كان خليفة المسلمين. يقول الجاحظ: "من أخلاق الملوك أن يجعل ندماءه طبقات ومراتب وأن يخص ويعم ويقرب ويباعد، ويرفع ويضع، إذا كانوا على أقسام وأدوات، فنرى الملك يحتاج إلى الوضيع للهوه كما يحتاج إلى الشجاع لبأسه، ويحتاج إلى المضحك لحكايته، كما يحتاج إلى الناسك لعظته، ويحتاج إلى أهل الهزل كما يحتاج إلى أهل العقل، ويحتاج للزامر المطرب كما يحتاج إلى العالم المتقن، وهذه أخلاق الملوك يحضرها كل طبقة...". "[١]"

فمجالس الخلفاء تضم فئات مختلفة، والحاجة للرقيق والجواري تبدأ من هذه المجالس الخاصة والعامة؛ فقد كان لدى المتوكل في يوم عادي ألف رجل، ويذكر أبو العيناء أنه ذكر موسى بن عبد الملك بن الزيات بسوء في مجلس المتوكل وأمره أن يعتذر منه، واستكتمه على ذلك بحضرة ألف رجل، فعجب أبو العيناء من استكتام المتوكل له بحضرة ألف رجل."[٢]" ألف رجل في هذا المجالس، فمن الذي يقوم على خدمتهم؟ وتلبية طلباتهم؟.

على أننا يجب أن لا نتجاهل أمراً هاماً، وهو أن الرقيق جزء من أفراد المجتمع اعتادوا على وجودهم فيه، إلا أن الأسباب التي أدت إلى إيجاد أسواق عامرة بالرقيق، والظروف التي أدت إلى جعل بلاد معينة تصدر الرقيق وأخرى تستقبله، وتفاوت الأسعار وازديادها مع تعدد مهارات المملوك هي التي دفعتني في البحث عن الأسباب والظروف العديدة التي أدت إلى إنشاء هذه الأسواق ودفعت الناس إلى شرائهم، فلا يمكن أن توجد سوق لسلعة كاسدة .

لذلك تعددت الأسباب التي أدت إلى استقدام الرقيق من البلدان التي ذكرناها سابقاً، وقد تختلف تلك الأسباب من بيت إلى بيت، ومن بلد إلى آخر، ومن فترة زمنية إلى أخرى، فالأسباب التي دفعت مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام إلى الاعتماد عليهم، وتتمثل بحاجتهم إلى من يرعى المواشي، والإبل ويهتم بها، ويقوم بالأعمال اليومية نيابة عنهم، "وكان بنو سليم بن منصور... يتخذون المماليك للرعي، والسقاء، والمهنة، والخدمة..."[٣]"، إضافة إلى المشاركة بالقتال، وازدادت أعدادهم في صدر الإسلام بسبب موجة الفتوح الإسلامية الكبيرة؛ مع ازدياد المهام التي تسند إليهم، وفي الفترة الأموية أدت زيادة الأموال إلى زيادة مظاهر الترف، خاصة مع استمرار وفود سبايا الحرب إلى العاصمة دمشق، ويختلف الأمر بين قرية ومدينة، فما بالك بعاصمتين كدمشق وبغداد يختلف سكانهما في الكثير من عاداتهم.واستمر هذا الترف وزاد في فترة الخلافة العباسية، وتعددت المهام المسندة إلى الرقيق والجواري، إلى جانب تغيرات مهمة

---

١) التاج في أخلاق الملوك كتاب منسوب للجاحظ، ص٢١.
٢) القيرواني، زهر الآداب، م(١)، ص٣٤٢.
٣) الجاحظ، فخر السودان على البيضان الرسالة الرابعة، م(١)، ص١٦١.

في النواحي السياسية، والاجتماعية، الاقتصادية، والثقافية، وهذه التغيرات التي طرأت على تلك الجوانب، تنبع منها أسباب الحاجة إليهم. وهذه الأسباب تتمثل في أربعة جوانب رئيسية هي: أسباب اجتماعية، وأسباب ثقافية، وأسباب اقتصادية، وأسباب سياسية، وهذه الأسباب العامة لها تفصيلات عديدة نبدأ بالجوانب الاجتماعية منها:

١. **الأسباب الإجتماعية :**

تشكلت مظاهر اجتماعية كبيرة ربطت الرقيق بأسيادهم سواء كان ذلك داخل المنازل أو خارجها وأبرزها:

الخدمة:

وتقسم الخدمة إلى قسمين هما خدمة العامة وخدمة الخلفاء، فقد تقف الأموال عائقا أمام العامة لتحقيق رغباتهم، إلا أن الأمر يختلف مع الخلفاء فالأموال كثيرة والحاجات مقاربة لحاجات العامة ومختلفة عنها في الوقت ذاته، فالدولة لها أعباء وحاجة تكمن في إظهار قيمتها الحقيقية ومدى قوتها، فهناك كماليات تضاف إلى الحاجات الأساسية لا تستطيع الدولة تجاهلها إذا كانت في مجال المنافسة مع غيرها من الدول الإسلامية التي سبقتها كالدولة الأموية أو مع دول معاصرة لها كدولة الأمويين في الأندلس، وحتى مع الولاة الذين يعينهم الخليفة على المناطق المختلفة، أو مع الأغنياء داخل بغداد،"وكان للإخشيد أبو بكر التركي الفرغاني والي المقتدر على دمشق ثمانية آلاف مملوك يحرسونه بالنوبة كل يوم ألف ويوكل الخدم بجوانب خيمته." "[١]، فهل نجيز ذلك لوالي دمشق ولا نجيزه لخليفة المسلمين؟!.

إلا أن الاهتمام بالكماليات ليس أساس المنافسة بين الدول، ولكن يجب أن نشير إلى أن البعض عاب على الخلفاء امتلاكهم للعديد من الجواري كما بالغ في تخيل علاقة الخلفاء بجواريه وزاد على الحقيقة فأخفاها؛ فإذا قام أحد الخلفاء بعملٍ يقوم به الخدم عابوا عليه ذلك أيضاً، لذا فإن تتبع الروايات التي تناولت أخبار الرقيق والجواري ستبين أسباب اعتماد الخلفاء والعامة عليهم.

ولتشابه الأعمال التي قام بها الرقيق للعامة وللخلفاء؛ قسمتُ هذه الأعمال وفق الخدمة المقدمة لهم لا وفق الطبقات. والرقيق قبل أن يقدم للخلفاء وللعامة يجب أن يكون مدرباً على أسس عديدة، تبين لهم كيفية التعامل داخل القصور وآدابها، كما أن على العامة معرفة حقوق هؤلاء الرقيق وأعمالهم التي يجب أن يمارسوها، وكيفية التعامل معهم؛ لذا وقبل الحديث عن الخدمات المقدمة لهم علينا أن نعرف تلك الآداب.

---

١) الصفدي، تحفة ذوي الألباب ، ج(١)، ص٣٤٤-ص٣٤٦.

آداب الخدمة والتدريب عليها:

لقد بذل الكثير من العلماء جهداً في تقصي الأخبار التي توضح كيف يدرب الرقيق على خدمة أسيادهم، لأن البعض عانى من صعوبة التعامل معهم، ويبدأ هذا التدريب لدى النخاس الذي يجب أن يتمتع بصفات معينة للقيام بهذا العمل، وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة "فيذهب أحدهم إلى دار الرقيق يبتاع الجارية يتوسم فيها الذكاء فيثقفها ويرويها الأشعار، أو يلقنها الغناء، أو الأدب، أو النحو، أو العروض، أو فناً من فنون المنازل ثم يبيعها"."[١]" وتباع الجارية بثمن قد يكون أكبر من الثمن الذي بيعة به عند النخاس، وكان ثمن الجارية يقدر بعدة أشياء وهي على الترتيب: "الجمال، الملابس، الحلي، وما تجيده من فن الغناء أو الشعر أو الأدب، وكلما نجحت في الاختبار ارتفع ثمنها"."[٢]"

والنخاسة مهنة محتقرة في المفاهيم العربية وكذلك من يعمل بها، كما أن الثقة بالنخاس متدنية؛ لذا " كان هناك عامل يراقب تجار الرقيق يسمى "قيم الرقيق"."[٣]" وذلك لاتصاف بعض النخاسين بالغش وسؤ معاملة الرقيق.

فمن الصفات التي يجب أن تتوفر بالنخاس: "أن يكون ثقةً أميناً عادلاً، مشهوراً بالعفة والصيانة، لأنه يتسلم جواري الناس وغلمانهم، وربما اختلى بهم في منزله، وينبغي أن لا يبتاع جارية ولا عبداً حتى يعرف البائع، أو يأتي بمن يعرفه، ويكتب اسمه وصفته في دفتره، لئلا يكون المبيع حراً أو مسروقاً، ومن أراد شراء جارية جاز له أن ينظر إلى وجهها وكفيها، فإن طلب استعراضها في منزله والخلوة بها فلا يمكنه النخاس من ذلك، إلا أن يكون عنده نساء في منزله، فينظرون جميع بدنها، ومن أراد غلاماً فله أن ينظر منه إلى ما فوق السرة ودون الركبة وهذا كله قبل عقد البيع، ولا يجوز أن يفرق بين الجارية وولدها قبل سبع سنين؛ ولا يجوز بيع الجارية أو المملوك إذا كانا مسلمين لأحد من أهل الذمة، إلا أن يعلم النخاس يقيناً أن المملوك ليس بمسلم، ومتى علم بالمبيع عيباً وجب عليه بيانه للمشتري، وينبغي أن يكون النخاس بصيراً بالعيوب، خبيراً بابتداء العلل والأمراض ؛... فإن كان المملوك مائل اللون إلى الصفرة أو الغبرة دل ذلك على مرض، أو علة في الكبد، أو الطحال، أو البواسير....."[٤]"

---

١) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص٣٣٩.
٢) هيام علي حماد، المرأة في ألف ليلة وليلة، ص١٤٢.
٣) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج(١)، ص٨٤.
٤) الشيرزي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٨٤ - ص٨٥.

وهذه الصفات الشاملة والدقيقة ترشدنا إلى أن هذه الآداب ترسخت من خلال الخبرة - لدى النخاسين - بأساليب البيع والشراء، وأن الناس أرادت أن تحمي حقوقها، وأن عقد البيع هو الفصل في هذه المسألة وهذه الآداب يتعامل بها النخاس مع العامة ومع الخاصة على السواء.

ويوصى "بعدم شراء مملوك كان سيده يكثر من ضربه، لأنه لن يطيع إلا إذا ضرب، والمملوك على ما يراه منك أول دخوله دارك، فإن أطعمته طمع، وإن هذبته انقمع، وان خالطه مفسد فسد"."[١]"

ويفضل أن يكون الرقيق من الصغار لتسهل طاعتهم وانصياعهم للأوامر؛ لذا يقال أجود المماليك الصغار لأنهم أحسن طاعة، وأقل خبثاً، وأسرع قبولاً، فيستخدم الصغير حتى يكبر والأعجمي حتى يفصح، والعبد الصالح خير من الولد؛ لأن العبد لا يرى استقامة أمره إلا بحياة سيده، بينما يرى الابن استقامة أمره بموت أبيه. "[٢]"

وأبيح للسيد ضرب خادمه، وكانوا يحثون على تأديب الرقيق فقيل:" لا يتأدب العبد بالكلام إذا وثق أنه لا يضرب، وأمر محمد بن الجهم أن يضرب غلامه ضربة وجيعة فقيل له في ذلك فقال: الواحدة الوجيعة تملأ صدره من التضاعيف، وإذا كان خفيفاً أحسن ظنه بالكثير قال المتنبي:

اجعـل عبيـدك أوتاداً تشجها   لا يثبت البيت حتى يقرع الوتد"."[٣]"

أما إذا استعان الخليفة بدواينه لشراء الرقيق الموجود في الأسواق، فإنه لا بد له من أن يكون في دار الملوك، من المؤدبين والمعلمين، من يعلم الغلمان والخدم والفتيان والحشم،ما يحتمله مال واحد منهم، من القرآن والدين ويذكرهم في الوقت بعد الوقت، ويعرفهم أصول الدين والشرائع، وإقامة الصلوات بتمام طهورها وركوعها وسجودها ويفسر لهم نوافلهم، ويعرفهم محاسن الأخلاق،ومحامد الأفعال، ويمنعهم من الفساد، وسوء الأدب، وارتكاب ما حرم الله من الكبائر ...."[٤]".

فكان الخدم لا يدخلون قصور الخلفاء قبل أن يخضعوا لتدريب قاس وكثيف وتعليمات وأوامر لا حصر لها، إلا أن التركيز على الآداب والأخلاق تعني الكثير، فهذه القصور لها قواعد

---

١) ابن عبدون البغدادي، المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات،ص٣٨٧ - ص٣٨٨/ الأمشاطي، القول السديد في اختيار الإماء والعبيد، ص٣٧.
٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ج(١)، ص٢٦٣.
٣) ن.م.ص٢٦٢.
٤) الماوردي، نصيحة الملوك، ص٣١٩ - ص٣٢٠.

معينة يقطنها أناس مسلمون يتحلون بآداب معينة، ولكل شخص منهم خصوصيته التي لا يجوز التدخل بها خاصة من قبل الخدم.

وفي ترتيب وقوف الرقيق والخدم "ينبغي وقوف الكبراء وغير الكبراء والعبيد والخدم وتعيين مكان وقوف كل منهم، ويجب أن يراعى نظام الوقوف مثلما هو الأمر في الجلوس، فيقف خاصة الملك من مثل حملة السلاح، والسقاة واضرابهم بالقرب من سرير الملك ويلتفون حوله، فإذا ما أراد شخص أن يندس بينهم أبعده حاجب البلاط؛ وإذا ما دلف شخص غريب وسط أي جماعة منهم صرخ في وجهه ومنعه من ذلك."[١]

كما أن خطأ الرقيق والخدم وغيرهم ممن تتاح لهم فرصة الدخول على أحد الخلفاء تكلفهم الكثير مثال ذلك:" أنه كان في البصرة مغنية تسمى فضلة، وتلقب خيط البرادة، وجذرها خمسة دنانير في كل ليلة، وكانت مفرطة في الجمال وطيب الغناء، وتقلب القاف كافاً في كلامها،... "وحكت أنها ابتيعت للمتوكل، وحملت من البصرة إلى سر من رأى، قالت: فكنت أُعلم آداب خدمة الخلفاء طوال طريقي، لأجل جهلي بها ونشوئي في خدمة العوام والسفهاء؛ فلما صعدت إلى دار المتوكل وقع علي من التهيب والخوف ما أنساني جميع ما علمتُ ولقنت؛... فلما قدم المتوكل سألني عن اسمي فقلت: فضلة، وسألني عن لقبي فقلت: خيط البرادة، فضحك، ثم قال بما تغنين؟ قلت: بالعود، فأحضر بعض الخدم عوداً فغنيت:

مـا نقموا من أمية إلا	أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما	تصلح إلا عـليهم العرب

فتغير لونه وقال: غني غير هذا لعنك الله، وأنا لا أعلم ما في ذلك ...وقال: يا خادم خذها فعلقها في خيط البرادة * ثم دخل شاب ظريف،وفي يده عود، فجلس بين يديه وغنى:

أقبـلى فالخير مقبل	ودع قـول المعلـل
وثق بالنجاح إذ أبـ	صرت وجه المتوكل

فرفع المتوكل رأسه إلي وقال لي: كذا يغني الناس، والله العظيم لا نزلت من مكانك حتى تحفظينه وتأخذينه عنه وتغنيه، فما زال الغلام يغنيه حتى حفظته ولقنته وحططت فغنيته."[٢]، لقد نسيت هذه الجارية آداب الخدمة ومدحت أحد أمراء بني أمية، وكان عليها أن تعلم أنه لا يجوز مدح خليفة آخر غير الجالس أمامه.

١) الطوسي، نظام الملك، سياسة نامه أو سير الملوك، ص١٦٢.

* البرادة: السحالة وهي لجام أو حلقتين في طرفي اللجام

٢) غرس النعمة الصابئي، الهفوات النادرة، ص٤٩ - ص٥٢.

وهذه الدقة في شرح هذه الآداب توضح أن المسألة لم تكن مسألة بيع وشراء فقط، بل إن الأمر يتطلب مهارات عديدة لدى الرقيق ليتم قبولهم في بيوت الناس وفي مجالس الخلفاء، وأن النخاس إذا أراد بيع جارية أو غلام وصف محاسنه وما يتقن من مهارات حتى يجد كل إنسان طلبه عنده؛ لذا نجد بعض الجواري تعلم مهارات معينة يفضلها الخلفاء، فمثلاً كانت "فضل جارية مولدة من مولدات البصرة، ونشأت في دار رجل من عبد القيس وباعها بعد أن أدبها وخرجها، فأشتريت وأهديت للمتوكل"."[١]"

أما الأعمال التي مارسها الرقيق والتي كانت من أسباب زيادة الطلب عليهم فهي كثيرة نذكر منها:

- <u>خدمة المنازل والقصور:</u>

يقول (صالح العلي) في حديثه عن دار الرقيق في بغداد أن الرقيق الموجود فيها كان لخدمة المنازل؛ لذا كان المنصور يأمر إذا ولد من أهل بيته مولود ذكر أمر له من هذه الدار بظئر وجارية تخدمه ووصيف، إلا أن المصادر لم تذكر أصول تربيتهم والتي تتناسب مع متطلبات الخدمة في القصور."[٢]"

وقد فاضل العرب بين الرقيق على أساس من يصلح منهم للخدمة ومن لا يصلح لذلك فقيل: "من أراد الجواري للكد والخدمة فالزنج والأرمن"."[٣]" و"الروميات عبيد طاعة وخدمة إلا أن الأرمنيات أفضل منهن لأنه متى نهنهت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره إلى خير، وليس فيهم فضيلة غير تحمل العناء، والأعمال الثقيلة"."[٤]"

وخدمة المنازل لها جوانب كثيرة منها الطبخ، وتقديم المائدة، وجلب الماء، وتهيئة المنازل لقدوم أي ضيف وغيرها مما يحتاج له الناس، وذكر البغدادي "أن دار الخلافة التي على شاطئ دجلة تحت نهر "معلّى" قديماً للحسن بن سهل، وتسمى القصر الحسني، فلما توفي صارت لبوران ابنته فاستنـزلها المعتضد بالله فهيأتها له، ورتبت فيها من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة إليه، وقيل أنها ماتت قبل المعتضد، وأن الدار أعدتها للمعتمد على الله..."[٥]" "إلا أن أول من سكنها

---

١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج(١٩)، ص٢٥٧.
٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج(٣)، ص١٩٧/ صالح العلي، بغداد مدينة السلام، ص١٨٥.
٣) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، ص٣٨٣.
٤) الخطيب البغدادي، تاريخ، م(١)، ص٤٠٨ - ص٤٠٩.
٥) البغدادي، تاريخ بغداد، م(١)، ص٤١٦-ص٤١٧.

المعتضد ورتبت فيها من الخدم والجواري ما تدعو له الحاجة، فلما فرغت من ذلك انتقلت وراسلته بالحضور فحضر ونزل فيها". "[١]"

لم تقدم بوران القصر إلا بعد أن أعدته بصورة تليق بالخليفة وهيأته بحيث تركت فيه ما يحتاج القصر إليه من خدم وجواري، وأما المقصود بالحاجة فهي تتضمن أشياء عديدة وقد نقول أن بعضهم مسؤول عن الطعام والموائد، وآخرين مسؤولون عن تهيئة غرف القصر ومواضع النوم، ومجلس الخليفة، وتقديم الأشربة، والاهتمام بالحمامات أو ما سمي (بالمستراح) وغيرها من الخدمات، وهذه الخدمات لها تفاصيل كثيرة نبدأ فيها:

- تقديم الموائد وإعداد الأطعمة و الأشربة:

"كان طعام العرب قبل الإسلام قاصراً على الألبان، وما يستخرج منها وعلى التمر والحبوب واللحوم، فلما جاء الإسلام وكانت الفتوح الكبيرة وقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها". "[٢]" أي أنهم تعرفوا على طرق عديدة لكيفية إعدادها.

ومع ذلك فقد طور العرب هذه الأطعمة، وأصبحت موائد الخلفاء وخاصة العباسيين تحظى بالكثير من الأطعمة المبتكرة، وساعد الخدم على تطوير تلك الأطعمة وتقديمها لسادتهم ومن ذلك أن "رجلاً أضاف رجلاً فقال المضيف: يا جارية هاتي خبزاً، وما رزق الله، فجاءت بخبز وكامخ، ثم قال: يا جارية هاتي خبزا وما رزق الله، فجاءت بخبز وكامخ، فقال الضيف: يا جارية هات خبزاً ودعي ما رزق الله". "[٣]" ولا يوجد في العبيد أطبخ من السندي. "[٤]" واختصت الجواري بالغناء والطبخ وتميزن به عن الرقيق الذكور. "[٥]"

أما الطبخ وتقديم الطعام عند الخلفاء فمختاف، إذ "حدثنا أبو منصور القشوري، وكان من الجند المولدين، قال: كنت أخدم وأنا حدث في دار نصر القشوري المرسومة بالحجبة من دار المقتدر بالله، فركب المقتدر بالله يوماً على غفلة وعبر إلى بستان الخلافة المعروف بالزبيدية، وأنا مشاهد لذلك في نفر من الخدم والغلمان، وتشاغل أصحاب الموائد و الطباخون، بحمل الآلات والطعام، وتعبيتها في الجون، فانفلت واعجل في طلب الطعام، فقيل له لم يحمل بعد، فيخرج الخدم محتارين، ليس يجسرون أن يعودوا، فيقولوا ما جاشي وهم يتشاورون فيما يفعلونه

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٢٦٩.
٢) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص٣٦٢ - ص٣٦٣.
٣) ابن الجوزي، الظراف والمتماجنين، ص٩٠.
٤) الجاحظ، فخر السودان على البيضان الرسالة الرابعة، م(١)، ص١٦١.
5) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، ص٤١٦.

فسمعهم جعفر، ملاح طيار المقتدر، الرئيس على الملاحين الذين برسم الخدمة، فنادى عليهم وقال معي طعام"."[١]"

وكان بعضهم يحدد نوعية الطعام المقدم للزائر، ووضعت (جبال) جارية محمود الوراق لرجل كان يحبها موائد باذنجان، فلم يأكل منها فقالت له: مالك؟ قال: لا أحب الباذنجان، قالت: أتحب أن أحبك بعقل لا يحب صاحبه الباذنجان."[٢]"

وكان من مهام الخدم أيضاً رفع المائدة وتدبير أمر ما يتبقى من طعام عليها بعد تقديمها، قال الصولي: "كنا يوماً نأكل بين يدي المكتفي، فوضعت بين أيدينا قطائف قد رفعت من بين يديه... وناوله سوسان غلامه قدحاً فشرب...."[٣]" "وكانت وظيفة المكتفي من الطعام عشرة ألوان في كل يوم، وجدي في كل جمعة، وثلاث جامات حلواء، ووكل بمائدته بعض خدمه، وأمره أن يحصي ما بقي من الخبز، فما كان من المكسر عزله للثريد، وما كان من الصحاح رد إلى مائدته من غد، وكذلك كان يفعل بالبوارد(التوابل) والحلواء"."[٤]"

وفي موقف آخر مع الراضي ذكره التنوخي عن ابن حمدون، قال: كنا نشرب مع الراضي بالله يوماً في مجلس مغمى بالفاكهة الحسنة الفاخرة فمل وضجر من الجلوس فيه فأمر بإقامة مجلس آخر، فلما رأى المجلس قال للشرابية: غيروا لون هذا الريحان بشيء من الكافور يسحق ويطرح فوقه، قال: فقدرت ما استعمل من الكافور، كان أكثر من ألف مثقال بشيء كثير فشربنا عليه معه، ثم أمر بنهبه فأخذ غلماني منه مثاقيل كثيرة، لأنهم كانوا في جملة الخدم والفراشين والغلمان الذين نهبوا ذلك."[٥]"

<u>الشرابية (جاب المياه):</u> وهم خدم يقومون بتقديم الماء وأنواع الشراب المختلفة إلى سادتهم وقد يقوم الخادم بهذا العمل دون أن يكون مختص بذلك، قال يحيى بن علي المنجم: اجتازت جارية بالمتوكل ومعها كوز ماء وهي أحسن من القمر، فقال لها: ما اسمك؟ قالت برهان، قال: ولمن هذا الماء؟ قالت: لستي قبيحة، قال: فصبيه في حلقي...."[٦]"

---

١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(٨)، ص١٢٨-ص١٢٩/ وانظر نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج٣، ص١٨٩-١٩١/ وابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص٢٣٣.
٢) ابن أبي عون، الأجوبة المسكتة ،ص١٢٤.
٣) إبراهيم القيرواني، المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور، ص٢٩٥.
٤) المسعودي، مروج الذهب،ج(٤) ص٢٩٩.
٥) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(١)، ص٢٩٦.
٦) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، م(٢١)، ص٤٦ - ص٤٧.

وهناك خدم مختصون بذلك، إذ يحتاج الخليفة إلى من تقوم ومعها الماء الذي تقدمه له كلما احتاج إلى ذاك، قالت عريب: كنت لمحمد الأمين وصيفة في عداد الوصائف، ألبس قباء ومنطقة وأقوم على رأسه وربما سقيته وعمري إذ ذاك سبع عشرة سنة..."[١]"

وقد عرفت هذه الجواري بالجواري الساقيات، تناولت قصائد هذه الفترة أخبارهن فوصفت جمالهن وجمال ملابسهن."[٢]"

لقد قام الخدم بتقديم موائد الخلفاء بصورٍ عديدة، كانت مبتكرة في طرق تقديمها، ومميزة بأسلوب خدمة متطورٍ يظهر فيه الخليفة مدى احترامه وتقديره لزائره. إن هذا النوع من الاهتمامات يبين مدى عنايتهم بالكماليات، ورغبتهم في إظهار الترف الذي أصبح جزءاً في كل ناحية من نواحي الحياة في بغداد.

- خدمة الندماء: إن الخادم الموكل بالندماء هو الخادم الذي يشرف على طلباتهم ويسعى إلى إيصالها للخدم المسؤولين عن كافة الخدمات المقدمة في مجلس الخليفة ليقوموا بتنفيذها ذكر القيرواني أنه كان للمعتضد خادم موكل بالندماء، إذ سكر هارون النديم عند المعتضد وانصرف الندماء سواه وقال له الخادم الموكل بالندماء: متى تنصرف، فلما رآه المعتضد قال: من هذا؟ قيل هارون بن علي فقال: للخادم الموكل بالندماء متى تقدم للجلساء المبيت هنا...."[٣]"

"حدثنا عبد العزيز بن أبي بكر المخرف العلاف الشاعر، وكان أحد ندماء المعتضد، قال حدثني أبي، قال: كنت ذات ليلة في دار المعتضد وقد أطلنا الجلوس بحضرته، ثم نهضنا إلى مجالسنا في حجرة كانت مرسومة بالندماء، فلما أخذنا مضاجعنا، وهدأت العيون، وأحسسنا بفتح الأبواب، ...، فدخل إلينا خادم من خدم المعتضد، فقال: إن أمير المؤمنين يقول لكم: أرقت الليلة بعد انصرافكم، فعملت:

ولما انتهينا للخيال الذي سرى إذا الدار قفر و المزار بعيد

وقد ارتج علي تمامه، فأجيزوه، ومن أجازه بما يوافق غرضي أجزلت جائزته وفي الجماعة كل شاعر مجيد مذكور، وأديب فاضل مشهور، فأفحمت الجماعة، وأطالوا الفكر فقلت مبتدراً لهم:

فقلت لعيني عاودي النوم واهجعي لـ ـعـ ـل خـ ـيالاً طارقاً سيعود

١) الشابشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ص١٦٥.
٢)محمد رجب السامرائي، المرأة في أدب العصر العباسي، ٢٠٠٣م، العدد ٣٢٣.
٣) القيرواني الحصري، ذيل زهر الآداب، ص١٤٧.

فرجع الخادم إليه بهذا الجواب، ثم عاد إلي، فقال: أمير المؤمنين يقول لك أحسنت وما قصرت، وقد وقع بيتك الموقع الذي أريده، وقد أمر لك بجائزة وهاهي، فأخذتها، وازداد غيظ الجماعة مني"."[١]"

وتبين هذه الرواية أن على الخادم المختص بخدمة الخليفة وندمائه أن يكون على علم باللغة العربية، وقدرة عالية على الحفظ تمكنه من نقل الرسائل بين الخليفة وندمائه كما في الرواية.

- <u>تصميم الأثاث والقيام بأعمال الفراشة:</u>

وكان الرقيق يقوم بأعمال شاقة مختلفة منها الفراشة "[٢]"وأعمال الفراشين عديدة تلمحها في العديد من الروايات ويستخدمون في أبسط الأعمال كطلب ابن الفرات من بعض الفراشين بإحضار النار ليحرق صندوقين فيهما أسماء من كان يعاديه في فتنة ابن المعتز..."[٣]"

ويذكر (دلويه) كاتب صافي الحرمي على لسان أحد فراشي القصر ما كان يقوم به من أعمال قال دلويه: إنه كان في دار المقتدر بالله بعض الفراشين كان يخدمه وصافياً إذا أقاما في دار الخلافة، ففقدته في الدار، فظننته عليلا، فلما كان بعد شهور، رأيته في بعض الطرق، بزي التجار وقد شاب فقلت فلان، قال: نعم عبدك يا سيدي، فقلت: ما هذا الشيب في هذه الشهور؟ وما هذا الزي؟ وأين كنت؟ فقلت لغلماني: احملوه إلى داري وقلت: حدثني حديثك، فقال: على أن لي الأمان، فقلت نعم؟ فقال: كان الرسم الذي تعرفه على كل غريب في الدار من الفراشين، أن يدخل يوماً من الأيام، هو ومن معه من الفراشين إلى دور الحرم، لرش الخيوش التي فيها، فبلغت النّوبة إلي، في يوم كنت فيه مخموراً، فدخلت ومعي رجالي، إلى دار فلانة، وذكر حظية من حظايا المقتدر بالله لرش الخيوش التي فيها فلعظم ما كنت فيه من الخمار، فطلبت من رجال إتمام الرش ونمت، وطلبت من الفراشين إيقاظي عند انتهائهم من العمل فخرجوا لما انتهوا ولم ينبهوني...فلما انتبهت فإذا صوت نساء في الخيش، فعلمت أني مقتول إن أحس بي، وتحيرت ولم أدرِ ما أعمل... وإذا بنسوة فراشات يكنسن الخيش، فلما فرغن من ذلك فرشنه، وعبي فيه مجلس الشراب، ولم يكن بأسرع من أن جاء المقتدر بالله وعدة جواري، فجلس وجلسن، وأخذت الجواري في الغناء، ولما انتهين من الغناء وخرجن... وجذب إليه حظيته التي هي صاحبة تلك الدار، انصرف باقي الجواري وخلا الموضع، ففكرت أني إذا خرجت قتلت حتى وإن خرجت

---

١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(٨)، ص٣٧٦-ص٣٧٧/علي الأزدي، بدائع البدائة، ص٩٨/ رياض قزيحة، الفكاهة والضحك، ص٢٨١ - ص٢٨٢.

٢) مليحة رحمة الله، الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، ص٢٤.

٣) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج٥، ص٧٣.

لبعض السطوح، فلما انتبه المقتدر وخرج، وكان من غد نصف النهار، جاء عريف آخر من الفراشين ومعه رجاله فرشوا الخيش فخرجت واختلطت بهم، فسألوني ماذا أفعل بينهم فأشرت عليهم بالسكوت، وقال بعضهم: ما بال لحيتك قد شابت، فقلت: لا أعلم فلما خرجت من هناك حلفت أن لا أخدم أبداً عند أحد، وعملت عند أحد التجار."[١]

وفي هذه الرواية تظهر عدد من المهام التي يقوم بها الرقيق والجواري، فصافي يأمر غلمانه بحمل الرجل إلى منزله، وفي القصر نوبات عديدة للفراشين، يقوم بعضهم برش الخيش بالماء بهدف تلطيف الهواء، بينما تقوم نساء فراشات بكنس ذلك الخيش، وتقوم فرقة من الجوار بالغناء بينما يجلس الخليفة إلى إحدى الجواري المحظيات.

وتظهر بعض الروايات أن الجواري أثرن في تطوير الأثاث، قال أحمد بن أبي إسرائيل: "احتجت ليلة أن أنام في بعض دور (قبيحة) لأعمال أرادوها وكان ذلك في كانون، والبرد أشد ما يكون، ففرشت لي فرشاً طرح عليه دواج واسع إلا أنه خفيف جداً، فقلت في نفسي: سينال البرد مني منالاً، ثم أخذته علي ونمت، فانتبهت وقد عرقت من الكرب، وكان لاشيء فوقي من خفة الدواج، وسألت الجارية التي جاءتني به عنه فقالت: ظهارته وبطانته ملحم خفيف، وبينهما وبر السمور يؤخذ عن جلده، ويجعل مثل القطن فيلطف ويخف، فما رأيت ذلك قبل ليلتي."[٢]

لقد عملت قبيحة على تطوير هذا الدواج بهدف التميز، إضافة إلى دقة الصنع.

- <u>خدمات أخرى خاصة بالمنازل والقصور:</u>

ومن هذه الخدمات التالي:

١. <u>التسوق:</u> وهذه المهمة قام بها الرقيق والجواري لتلبية طلبات أسيادهم فيفضل البعض أن تقوم الجارية بالتسوق نيابة عن سيدتها حتى لا تخرج إلى الأسواق، بينما يعتبر بعض الرجال وخاصة الأغنياء أن التسوق لا يليق بمكانتهم الإجتماعية، وقد يعاني البعض من العجز أو المرض المزمن الذي لا يمكنه من القيام بهذا العمل لذا استعانوا بهم للقيام بهذه المهمة ومثال ذلك ما قاله أبو العبر:

أيا أحمد الـ رقيع ومن أكلك الرجيع	أتنسى متى كان نصـ ـيرك قهرمـان
فيأتيك بالسويق من السوق والدقيق	فصرت الآن في الدار على رتبة البزار "[٣]"

١) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٩٥-ص٩٧.
٢) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٢٣٧.
٣) القيرواني، ذيل زهر الآداب ،ص١١-ص١٢.

فالقهرمان يأتي بما يلزم مولاه من السوق مهما كانت السلعة،إذ جاءت جارية إلى بقال في بغداد فقالت: تقول لك مولاتي: أحب أن تطيب فمي ببصلة فأعطاها بصلة، وقال لها ألم تجد مولاتك سوى البصل لتطيب به فمها."[١]"

وهذه المهمة ليست سهله على بعض الخدم خاصة إذ لم يجد ما يرغب به المولى أو ما ترغب به المولاة، ومثال ذلك أن امرأة أعطت جاريتها درهماً وقالت: اشتري به هريسة فرجعت وقالت: يا سيدتي ضاع الدرهم فقالت: يا فاعلة أتكلميني بفمك كله وتقولين ضاع الدرهم، فأمسكت الجارية بيدها نصف فمها وقالت بالنصف الآخر: وانكسرت الغضارة "."[٢]" وهذه المواقف قد تعرض الخادم للضرب أو الإهانة من قبل سيده حتى وإن كان لا يستحق ذلك.

ومن ذلك ما قاله أبو العيناء: قال لي عيسى بن زيد المراكبي وكان من أملح الناس، كان لي غلام من أكسل خلق الله فوجهته يوما ليشتري لي عنباً رازقيا وتينا، فزاد وأبطأ في العادة، ثم جاء بعد مدة بعنب وحده فقلت له: أبطأت حتى نوطت الروح ثم جئت بإحدى الحاجتين فأوجعته ضرباً وقلت: إنه ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضي حاجتين، لا إذا أمرتك بحاجتين أن تجيء بحاجة، ثم لم ألبث بعدها أن وجدت علة فقلت له: امض وجئني بطبيب وعجل، فمضى وجاءني بطبيب ومعه رجل آخر، فقلت له: هذا الطبيب أعرفه فمن هذا؟ قال: أعوذ بالله منك ألم تضربني بالأمس على مثل هذا، جئتك بطبيب ينظر إليك فان رجاك وإلا حفر هذا قبرك، فهذا طبيب وهذا حفار إيش أنكرت قلت: لا شيء يا ابن ...."[٣]"

وتبين هذه الرواية غيض الخادم من سيده الذي لم يستطع أن يرد عليه إلا بهذه الطريقة، وهناك أمثله عديدة توضح قيامهم بالتسوق نيابة عن أسيادهم و سيمر أمثلة أخرى في أغلب الروايات التي سنتطرق إليها لاحقاً.

٢. خدم المذبة: لقد بدأ خدم المذبة منذ أيام الأمويين ، واستمرت هذه الظاهرة زمن العباسيين، قال عبيد الله بن سليمان: كنت يوما بحضرة المعتضد وخادم من خدمه بيده المذبة، فبينما هو يذب إذ ضرب بالمذبة قلنسوة المعتضد، فسقطت فكدت اختلاط إعظاما لما حدث، والمعتضد على حاله لم يتغير ولم ينكر شيئا، ثم دعا غلاماً فقال له: هذا الغلام قد نعس فزد في عدد خدم المذبة، ولا تنكر عليه بفعله."[٤]"

---

١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، م(١)،ص١٢٨.
٢) ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، ص١٤٩ - ص١٥٠.
٣) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، م(١)، ص٨٨.
٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٢٥٩-ص٢٦٠.

٣. المستراحات (الحمامات): كان لهذه الحمامات من يشرف عليها كما يشرف على الوضوء وعلى الماء المستخدم، ومن ذلك أن حامداً كان عمل حجرة وجعل فيها مستراحاً، وكان يتقدم إلى وكيله أن يجيء بالدنانير، فكلما حصل له كيس أخذه تحت ثيابه وقام كأنه يبول فدخل ذلك المستراح، فألقى الكيس في البئر وخرج من غير أن يصب فيها ماء ولا يبول ويوهم الفراش أنه فعل ذلك، فإذا خرج قفل المستراح ولم يدخله غيره على رسم مستراحات الملوك، فإذا أراد الدخول فتحه له الخادم المرسوم بالوضوء وذلك الخادم لا يعلم السر في ذلك، فلما تكامل المال قال: هذا المستراح فسد فسدوه، فسد وعطل، فلما اشتدت به المطالبة أيام نكبته دل عليها فأخرج ما في بئر المستراح من أموال وهي أربعمائة ألف دينار عينا "......[١]"

٤. إن الغلام عليه أن يكون مستعداً لأي عمل يطلب منه فقد رأى الفتح بن خاقان، شيئا في لحية المتوكل، فنادى يا غلام مرآة أمير المؤمنين فجيء بها، فقابل بها وجهه حتى أخذ ذلك الشيء بيده."[٢]"

٥. ومن هذه الخدمات أبسط ما يستطيع المرء تصوره من عمل فيقال:" أنه من تمام خدمة الملوك أن يقرب الخادم إليه نعليه، ولا يدعه يمشي إليهما، ويجعل النعل اليمنى مقابلة الرجل اليمنى وكذلك اليسرى، وإذا رأى متكأ يحتاج إلى إصلاح أصلحه قبل أن يؤمر، فلا ينتظر في ذلك أمراً، ويتفقد الدواة قبل أن يأمره، وينفض عنها الغبار إذا قربها إليه، وإن رأى بين يديه قرطاساً قد تباعد عنه قربه ووضعه بين يديه على كسره"."[٣]" ورغم سهولة القيام بهذه الأعمال فإن الخليفة لا يقوم بها لأن هناك من يخدمه ويقوم بها نيابة عنه.

أسباب اجتماعية مرتبطة بالأسرة:

- التسري: وهناك حاجات اجتماعية أخرى دفعتهم إلى شراء الرقيق والجواري منها التسري. فقد أتخذ بنو سليم بن منصور وهم قبائل عرب سود المماليك من الروم...."[٤]" وقد يكون شراءهم للمماليك الروم بهدف تحسين ألوان نسلهم خاصة أن الجاحظ يذكر أنهم عرب ذوو بشرة سوداء، ويؤكد على هذه الصفة دون أن يذكر سبب طرحه لها سوى ما تحوي عليه من مدح للسود الذين خصص لهم إحدى رسائله.

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص٥٢-ص٥٣.
٢) ابن الجوزي، الظراف والمتماجنين، ص٥٩.
٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٢)، ص١٢٥.
٤) الجاحظ، فخر السودان على البيضان، م(١)، ص١٦١.

ورأى العرب أن هناك بعض الجواري ممن يصلحن للتسري والبعض الآخر يصلح لمهام أخرى "وقيل من أراد الجارية للذة فبربرية، ومن أرادها للولد ففارسية"."[١]"

وتورد روايات العصر العباسي الثاني الكثير من قصص التسري الخلفاء وغيرهم من الإماء وقد يبالغ من ينقل تلك الروايات في عدد الجواري خاصة في عدد النساء اللواتي يتخذهن الخليفة زوجات" وكان للمتوكل أربعة آلاف سرية وطئهن كلهن"[٢]"، وقد مر معنا ذلك في الروايات التي تحدثت عن الرشيد العباسي وهي تعاود الظهور مرة أخرى وبشكل أكبر في هذه الفترة لأنها فترة اتسمت بالضعف نسب فيها الكثير من الأدوار للنساء، فلننظر إلى هذه الرواية مثلاً التي تقول: "أنه كان للمتوكل خمسمائة وصيفة للفراش، ولم يكن فيهن أحظى من صبيحة (قبيحة) أم ولده المعتز،... وروى علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى المتوكل، أهدى له الناس على أقدارهم، فأهدى له محمد بن عبد الله بن طاهر ثلاثمائة جارية من أصناف الجواري، وكان فيهن جارية يقال لها محبوبة .... "[٣]" وقيل كانت ضمن أربعمائة جارية."[٤]"

قد يكون المتوكل حصل على هدية تضم أربعمائة جارية وأكثر من ذلك، وقد يكون يمتلك آلاف الجواري في القصر ولكن لا يعقل أن يتزوج من كل تلك النساء كما تبين الرواية التي تتحدث عن امتلاك المتوكل (٥٠٠) جارية للفراش، حتى وإن كان رجلاً لا عمل له سوى الزواج، فما بالك بخليفة المسلمين، الذي عليه القيام بالكثير من الواجبات كالحرب، والبناء، والمظالم، وإمامة الصلاة، والخطب، والدواوين، والوزراء، والكتاب، والقضاة، واستقبال الشعراء والندماء وغيرها من المهام العديدة التي يقوم بها.ويؤكد ذلك فاضل الأنصاري إذ يقول " من بين آلاف الجواري اللواتي امتلكهن الخليفة المتوكل، كان الخليفة متيما بقلة منهن أشهرهن فضل، ومحبوبة"[5]"؛ إذن لماذا يضم قصره كل تلك الجواري؟.

بعضهن زوجاته، وبعضهن جواري زوجاته، وبعضهن هدايا قدمت له، وبعضهن طباخات، أو مغنيات، أو فراشات، أو خادمات، ومهما تكن مهمة الجارية في القصر فإن هناك

---

١) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات،ص٣٨٣.
٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ،ج(٤) ١٣٥.
٣) الثعالبي لطائف المعارف، ص١٢٢ –ص١٢٣/ الرشيد بن الزبير، الذخائر، ص١١٥/و ١٢٣/ النويري، نهاية الأرب، ج(٥)، ص١١٢- ص١١٣/ الغزولي، مطالع البدور، ص٧٢/. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج(٢)، ص٢٥٢-ص٢٥٣..
٤) الأصفهاني، الأغاني، ج(٢٢)، ص٢٠٣ - ص٢٠٤/ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج(٢)، ص٢٥٢-ص٢٥٣.
5) فاضل الأنصاري، العبودية والرق والمرأة بين الإسلام الرسولي والإسلام التاريخي، ص٩٣.

عوائق كثيرة قد تحول بين الجارية وسيدها ومن ذلك ما هو أخلاقي فمن كلام لقمان: ... لا تطأ خادمة تريدها للخدمة، ولا تستلفن من مسكين استغنى.[١]

لذلك يطلق على الجارية التي يتزوجها الخليفة وتنجب له " أم ولد" فتعرف مثلاً أم المستعين مخارق، بأنها أم ولد...."[٢]"وشجاع أم الخليفة المتوكل كانت صالحة وماتت بعد قتل ابنها في سنة (٢٤٧هـ/٨٦١م)."[٣]" وقال محب الدين بن النجار أن إسحاق الأندلسية جارية مولدة كانت للمتوكل، فولدت له المؤيد إبراهيم، والموفق أبو أحمد وماتت في بغداد في جمادى الآخرة سنة (٢٧٢هـ/٨٨٣م)، وقال يحيى بن المنجم يعزي ولدها الموفق:

عـزاء فإن الدهر يعطي ويسلب	وصبرا فللدنيا صروف تقلـب
لـقـد أظلمت بغداد عند وفاتها	كإظلامها للشمس ساعة تغرب"[٤]"

ولكن قد يتمتع الخليفة ببعض جواريه دون أن تنجب له أولاداً؛ لذلك توجد جواري معينات اختارهن الخليفة ليكن أقرب جواريه إليه ويبين ذلك ما حدث مع المعتضد لما جلس مع قطر الندى في مجلس أفرده لم يحضره غيرها، فنام على فخذها فوضعت رأسه على وسادة، واستيقظ ولم يجدها، غضب ونادى بها فأجابت وقال: أخليتك إكراما اك، ودفعت إليك مهجتي دون سائر حظاياي، فتضعين رأسي على وسادة، فقالت: ولكن فيما أدبني أبي قال لي: لا تنامي مع الجلوس، ولا تجلسي بين النيام."[٥]"

وتبقى الكثير من الجواري مرتبطة بأهل سيدها وإن مات فلا يجوز أن تباع أو تؤخذ إلا بإذن ورثته، فـ (قرب) جارية (قبيحة) أم المعتز استرجعها المعتز من ابن طاهر بعد توليه الخلافة."[٦]"

وكما يختار الخلفاء والأشراف من النساء الإماء ما أرادوا، كذلك تفعل بعض الحرائر أو الجواري اللواتي أصبحن من الحرائر ممن تنتمي لقصر الخلافة، إذ أن بعض نساء القصر وخاصة في هذه الفترة بدأن يتزوجن من خارج القصر وهذا لم يكن مقبولاً قبل ذلك، بينما ازدادت هذه الظاهرة في المرحلة المتأخرة من حكم العباسيين، ومن ذلك ما حدثنا الأمير أبو الفضل جعفر بن المكتفي بالله أن بنت بدر مولى المعتضد كانت زوجة أمير المؤمنين المقتدر

---

١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١٩٨٣م،ط(١)، م(١)، ص٢٨٣.
٢) ابن حزم، جامع السير، ص٣٧٣.
٣) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٣٥.
٤) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص١٠ - ص١١.
٥) القيرواني، زهر الآداب، م(٣)، ص١٠١-ص١٠٢.
٦) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٤٩.

فقتل وأفلتت من النكبة، وحملت لها أموالها وذخائرها، وكان يدخل إلى مطبخها حدث يحمل على رأسه (أي أنه يقوم بعملية نقل الحاجات الخاصة بالمطبخ) يعرف بمحمد بن جعفر، وكان حركا فنفق على القهرمانة بخدمته فنقلوه إلى أن صار وكيل المطبخ، وترقى أمره حتى صار ينظر في ضياعها وعقارها وغلب عليها، فصارت تكلمه من وراء ستر، وزاد اختصاصه بها حتى علق بقلبها فاستدعته إلى تزويجها، وكانت سميت الحرة لأجل تزويج المقتدر بها، وهكذا عادة الخلفاء لغلبة المماليك عليهم، إذا كانت لهم زوجة قيل الحرة."[١]

وقد تكون هذه الرواية من الروايات القليلة التي تتحدث عن زواج إحدى الجواري التي كانت لخليفة عباسي من رجال من العامة، ولكن لا تعني هذه القلة أنها لم تحدث مع غيرها.

أما عامة الناس فهم على دين ملوكهم " وكانوا في كل عصر تابعين للخليفة يسلكون سبيله ويذهبون مذهبه، ويعملون على قدر ما يرون منه، ولا يخرجون عن أخلاقه وأفعاله وأقواله"[٢]، وقد دخلت الجواري أيضاً في حياة العامة، وفضلن على الحرائر في كثير من الأحيان وقد يكون ذلك لسهولة رؤيتهن، والنظر إليهن، فقد يجلس الرجل في السوق طيلة اليوم وهو ينظر إلى الجارية التي يريد شراءها، على عكس النساء الحرائر.

ولما رأى محمد بن طاهر الجارية التي بالطواف شغف بها واشتراها حتى أنه لم يستطع أن يفارقها عندما جاء (نرجس) الخادم لاصطحابها إلى المتوكل بعد أن بلغ سويد بن أبي العالية خبرها للمتوكل لخصومة كانت بينهما وكان إلا أن محمد طلب من نرجس أن يستمع إليه وإلى الجارية فجلست تبكي وهو يبكي فلما علم المتوكل بالأمر أعادها إليه."[٣]

وابن طاهر أحد الأغنياء الذي قدم للمتوكل ثلاثمائة جارية لم يستطع أن يتخيل بعد هذه الجارية عنه رغم مقدرته على شراء غيرها.

بينما نجد أحد العلماء وهو محمد بن جعفر بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة بن فروة بن قطن بن دعامة أبو بكر بن الأنباري، النحوي أعجبته جارية عند نخاس فأمر الراضي بأن تهدى، وكان يطلب مسألة قد اختلت عليه فاشتغل قلبه فقال لخادمه: خذها وامض بها إلى النخاس فليس قدرها أن تشغل قلبي عن علمي، فأخذها، فقالت: دعني أكلمه، فقالت: أنت رجل لك محل وعقل وإذا أخرجتني ولم تبين لي ذنبي لم آمن أن

---

١) ابن الجوزي، ذم الهوى ، ط١، ص٢٨٨- ص٢٨٩/ وانظر التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة ،ج(5)، ص١٠ -ص١٢.

٢) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ١٩٨٠م، ص٩.

٣) الاتليدي، نوادر الخلفاء..، ط١، ص٣٤٩-ص٣٥٣.

يظن الناس بي ظنا قبيحا، فعرفها الأمر."[١] ورغم أن العالم أعاد هذه الجارية إلا أنه فكر في اقتناء جارية ليتزوجها فصده العلم، كما أن هذه الرواية تظهر جانباً مهما من جوانب حرص الرقيق على عدم ردهم إلى النخاسين خاصة إذا كان في الجارية أو الغلام عيب من العيوب التي يرد لأجلها، والتي قد يصاحبها غضب النخاس عليها أو عليه ويضطره إلى خفض السعر.

نجد بعض المتفقهة لا يستطيع أن يتخلى عن جاريته رغم حاجته للمال وكان أبو حامد قليل الدخول على ابن أبي حامد صاحب بيت المال، وكان في مجلسه رجل من المتفقهة غاب عن المجالس ... فأحضره وسأله عن حاله، فذكر أنه اشترى جارية لنفسه، وأنه انقطعت به النفقة وضاقت يده في تلك السنة لانقطاع المادة عنه من بلده، وكان عليه دين لجماعة من السوقة، فلم يجد قضاء لذلك دون أن يبيع الجارية، فلما قبض الثمن تذكرها وتشوق إليها واستوحش من بعدها عنه حتى لم يمكنه التشاغل بفقه ولا بغيره من شدة قلقه، وتعلق قلبه بها وذكر أن ابن أبي حامد قد اشتراها فأوجبت حاجة الفقيه أن يذهب أبو حامد إلى ابن أبي حامد فأخبره الخبر بعدما أذن لهما ورحب بهما فسأل عن الجارية التي التمست فعلم أنه عنده فسر بذلك سروراً تاماً إذ كانت عنده رغبة في قضاء حاجة أبي حامد، فحين خرجت الجارية تغير وجه الفتى تغيراً شديداً، فعلم أن الأمر كما ذكره الفقيه من حبه لها وقال خذها بارك الله لك فيها فجزاه أبو حامد خيراً وشكره، وسأله قبض المال وأخبره أنه على حاله وقدره ثلاثة آلاف درهم فأبى أن يأخذه وطال الكلام في ذلك فقال ابن أبي حامد إن جاءه مال من بلده رد مالنا فأراد أبو حامد أن يأخذ ما على الجارية من حلي فقال هذا مال وهبناها إياه، فلا يجوز رده فحسن ذلك عند أبي حامد وانصرفوا ."[٢]

وقد لا يجد الأعمى من ترضى به زوجاً لذا يبتاع إحدى الجواري المعروضات في السوق، فقد تزوج بعض العميان بسوداء فقالت له: لو نظرت إلى حسني وجمالي وبياضي لازددت في حباً، فقال لها: لو كنت كما تقولين ما تركك لي البصراء."[٣]

وهذا الأمر لا يقتصر على العميان فإن الرجل القبيح المرفوض دوماً يبحث عن جارية كي يشتريها ومن ذلك أن رجلاً قبيح الوجه اعترض جارية مليحة، فرآها متكرهة له، فقال لها لنفسي أريدك، قالت: فمن نفسك أفر."[٤]

---

١) البغدادي، تاريخ بغداد، م(٤)، ص٢٩٩/و ص٣٠٤.
٢) ابن قيم الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص١٢٧-ص١٢٨.
٣) النويري، نهاية الارب، السفر الرابع، ص٢٢.
٤) ابن أبي عون ، الأجوبة المسكته، ص١٢٣.

لقد لبت الأسواق حاجات الخليفة والثري والعالم والفقيه والأعمى والقبيح، كان التسري السبب الرئيسي لهؤلاء وغيرهم ممن سترد أخبارهم وراء شراء بعض الجواري.

- الرضاعة: وهذه من العادات القديمة المعروفة عند العرب خاصة قبل الإسلام، إذ يختار الرجل امرأة أو جارية لرضاعة مولوده الجديد لأسباب عديدة" وعرفت الزنجيات بالرضاعة"[١]" وينبغي لمن يريد جارية بهدف الرضاعة أن يتأكد من سلامتها، "فيجب أن تكون شابة، سليمة المزاج والهيئة، ويكون سنها بين خمس وعشرين سنة إلى ست وثلاثين سنة، وأن تكون قريبة العهد بالولادة، وأن يكون لبنها يميل في لونه إلى البياض، وفي طعمه إلى الحلاوة، ورائحته طيبة...."[٢]"

- الغيرة والانتقام: إن الغيرة من الجوانب الإجتماعية المهمة المرتبطة في حياة الناس، وعند الحديث عن الجواري والرقيق نتساءل كيف تكون الغيرة سبباً لشرائهم؟.

ومثال ذلك: أن رجلاً غاب عن امرأته فبلغها أنه اشترى جارية، فاشترت غلامين وعندما علم بذلك أمرها ببيع الغلامين، فاشترطت عليه بيع الجارية، فتم لها ذلك وباع الغلامين."[٣]"وغيرة الرجل لا تكون على الجارية بل على المرأة الحرة قال الشاعر:

لا تغـارن على جارية	إنما الغيرة من سوء الخلق
اقض أوطارك منها ثم	قـل إنما أنت لمرار الطرق"[٤]"

لذا فضل الرجل بيع الجارية على أن لا تمتلك زوجته غلامين.

أما الانتقام فله جوانب عدة كأن تنسب إلى رجل حر إحدى صفات الرق وكذلك المرأة الحرة، وقد تشتري غلاما تلقنه ما يزعج خصمك فيكرره على مسامعه وعلى مسامع الجميع، أو قد تسعى إلى التخلص منه بالقتل وغيره فتشتري غلاماً لذلك، وقد تكون المسألة مسألة تهديد كما فعل حامد وزير المقتدر، فقال عندما هدد مفلح الخادم، وكان قد وقع بينهما مخاشنة: والله لأبتاعن مائة أسود أجعلهم قواداً واسمي كل واحد منهم مفلحاً، فأدى عنه مفلح إلى الخليفة ما لم يقله فأمر أن يقبض عليه ابن الفرات. "[٥]"ورغم أن حامد لم يفعل ما قال فقد جلب على نفسه غضب الخليفة ونكبته بهذا السبب وغيره.

---

١) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت- لبنان،ص٣٨٣.
٢) الأمشاطي، القول السديد في اختيار الإماء والعبيد، ص١١١.
٣) النويري، نهاية الارب، السفر الرابع، ص٢١.
٤) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ج(٢)، ص٢٥٤.
٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٥٣.

إن هذا الأمر لم يكن سبباً مباشراً لشرائهم بل كانت تلك حالات نادرة إلا أنه وجبت الإشارة إليه.

- الاحتفالات: وتمثل الاحتفالات مناسبات كبرى يظهر فيها اعتماد الخلفاء على الخدم بشكلٍ كبير ومن هذه المناسبات الزواج ولعل أشهر هذه الاحتفالات ما أقامه المأمون لبوران بنت الحسن بن سهل في العصر العباسي الأول، بينما تذكر الروايات في العصر العباسي الثاني زواج المعتضد بقطر الندى بنت خمارويه إلا أنها لا تذكر احتفالاً كبيراً وتركز عليه من الناحية السياسية ودور هذا الزواج في إقامة الصلح بين ولاة مصر والخلافة العباسية."[١]"

إلا أن أكبر المناسبات وأشهرها في العصر العباسي الثاني ما أقامه المتوكل من احتفالات لابنه المعتز وقد اعتبرت هذه المناسبة من أهم المناسبات بعد عرس المأمون وأكبرها في العصر العباسي الثاني،" فلما عزم المتوكل على اعذار* المعتز أمر الفتح بن خاقان بالتأهب لذلك وجلس المتوكل والأمراء، والقواد، وأصحاب المراتب، ووضعت بين أيديهم من الجانبين فرجة،... وللسماط** فرجة وجاء الفراشون بزمل*** غشيت بأدم مملوء دنانير ودراهم نصفين صب في تلك الفرجة، وقام الغلمان دونها وأمروا الناس أن يأخذ كل واحد منهم ثلاث جفنات بمقدار ما حملت يداه من ذلك المال، وكلما فرغ صب فيه من الزمل حتى يرد إلى حالته، ووقف غلمان في آخر المجلس وصاحوا: إن أمير المؤمنين أمر أن يأخذ من شاء ما شاء فمد الناس أيديهم إلى المال وأخذوه، وكان إذا أثقل الواحد منهم ما في كمه، ناوله إلى غلمانه، ثم يعود إلى مجلسه .... "[٢]"

ويبدو أن الخدم تأهبوا لهذا الاحتفال كما يرد بالنص وخدموا ضيوف المتوكل بتقديم الطعام والشراب لهم وتقديم الهدايا التي أمر المتوكل أن تقدم لهم ومنها الأموال الكثيرة التي وزعت عليهم، كما نظموا فقرات الحفل كما أراد ونجحوا في ذلك حتى أن البعض خرج من هذا الحفل وهو يتحدث عن جميع ما قدم فيه.

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٢٧٧.

* اعذار من أعذر وفي الشيء: قصر ولم يبالغ فيه، وللغلام والجارية: ختَنهما (الطهور)/ المعجم الوسيط، م(٢)، مادة (ع ذ ر)، ص٥٩٠.

** السميط، المسموطُ، والمطُ، الآجر القائم بعضه فوق بعض/ المعجم الوسيط، م(١)، مادة(س م ط)، ص٤٤٩.

*** الزمل: هو الحمل، المعجم الوسيط،م(١)، مادة(ز م ل)، ص٤٠١.

٢) الثعالبي، لطائف المعارف، ص١٢٢ -ص١٢٣/ الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص١١٢-ص١١٤/ انظر الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج(١)، ص٧١ - ص٧٢.

كان الغلمان في هذه الفترة أبرز من يحضر مناسبات الخلفاء لا كخدم بل كضيوف بسبب تحسن أوضاعهم وكان قربهم من الخليفة سبباً في احترام الناس لهم، فلما اعذر المكتفي بالله ابنه أبا أحمد في سنة (٢٩٤هـ/٩٠٦م) سأله وزيره العباس بن الحسن أن يجعل جمع الناس وإطعامهم عليه فكان له ذلك، وجميع القواد وغلمان المكتفي بالله مع الجلساء كلهم والمغنين بأجمعهم، وجعلت الخلع تجيء إلى الناس. "[١]"

"ويرى البعض أن الإقبال على شراء الرقيق لاستخدامه في الإنتاج الاجتماعي وفي الأعمال المنزلية على نطاق واسع أدى إلى رواج النخاسة"."[٢]" والإنتاج الاجتماعي جميع المهارات التي مارسها الرقيق كأن تقوم بعض الجواري بغزل النسيج مثلاً.

- الهدايا: والهدايا من الجواري تدخل ضمن الأسباب الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وما يهمنا هنا ما هو اجتماعي وكان أبو نصر بن أبي زيد وزير الراضي يقول: الهدية ترد بلاء الدنيا، والصدقة ترد بلاء الآخرة."[٣]"

وكانت الهدية من أبرز نواحي التواصل الاجتماعي، وكانت الهدايا تضم الغلمان والجواري، يتبادلها الخلفاء، والعلماء والأثرياء ومن يقدر على تقديم هدية بثمن الجارية أو الغلام، إذ أهدت جارية المتوكل شجرة الدر له وصيفة مع عشرين غزالاً. "[٤]"وتمثل هذه الهدية التواصل القائم بين الجواري وبين سيدهن.

- العتق: إذ ارتكب الإنسان المسلم أحد المحرمات فعليه أن يعتق من الرقيق ما ورد في نصوص القرآن والسنة، ولكن إذا أراد الإنسان التقرب إلى الله بفعل الخير خاصة في مجتمع يكثر فيه الرقيق، فعليه أن يقوم بالعتق وتحرير رقاب من هم في قيد العبودية، فعندما حج عبد الله بن جعفر _وكان يعرف بجوده _ وكان معه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات، فأعتق ثلاثين مملوكاً على ثلاثين راحلة، وأمر لهم بثلاثين ألفاً وقال: أعتقهم لله تعالى لعل الله يعتقني من النار."[٥]"

وأعتق المتوكل ألف عبد في إعذار المعتز وأمر لكل واحد منهم بمائة درهم، وثلاثة أثواب."[٦]"

١) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص١٢٣-ص١٢٤.
٢) بلياييف، العرب والإسلام والخلافة العربية، ١٩٧٣م، ٣٢١.
٣) الثعالبي، تحفة الوزراء، ج(٢٤)،ص١٢٥.
٤) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج(١)، ص٤٥٢.
٥) الحموي، ثمرات الأوراق، ص٤٦٨ – ص٤٦٩.
٦)الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف،ص١١٥.

وتمثل الجوانب السابقة أهم الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى تطور تجارة الرقيق داخل المجتمع الإسلامي، وهي جوانب مهمة توضح حاجات الناس وتبين أن معظم الرقيق كان له العديد من الأعمال والنشاطات المتنوعة التي كان عليه القيام بها داخل المجتمع البغدادي.

رعاية المرضى:

لقد أظهر العرب اهتماماً كبيراً بالطب فطوروه بالشكل الذي يناسب حاجتهم، وقد أظهر المسلمون وعياً كبيراً وفهماً أكبر تجاه أمراض عديدة فتعاملوا مع المرضى النفسيين بوعي كبير، وساعدوا أصحاب الإعاقات على اختلاف أسبابها، إلا أن المستشفيات الإسلامية أو البيمارستانات لا تستطيع أن تقدم العون لهم دائماً بل عليهم أن يتأقلموا مع أوضاعهم المختلفة وأن يجدوا من يعينهم على ممارسة حياتهم بشكل طبيعي سواء كان الذي يقدم العون لهم طبيباً أو ابناً أو خادماً، وتُظهر رعاية المرضى العمل الكبير الذي كان يقوم به الرقيق لمساعدة أسيادهم.

فإذا كان الإنسان مريضاً لا يستطيع أن يخدم نفسه فإن الخادم أو الجارية ستكون أهم من المال الذي قد يحصل عليه المرء من بيعهما، وهذا ما حدث مع محمد بن موسى بن حمار المعروف بالبربري، من أهل الجانب الشرقي،إذ دخل عليه القاضي أحمد بن كامل يقول:" ... ودخلت يوما عليه وهو مغموم، فقلت له مالك؟ فقال: فلانة امرأته حملتني على أن أعتقت هذه الجارية، وبقيت بلا أمة تخدمني وتعينني، فقلت: وأيش مقدار ثمن هذه؟ قال: إن امرأتي دفعت إلي دنانير أشتري لها بها الجارية، فاشتريت هذه الجارية، فقلت: وتعتق ما لا تملك؟ قال: كأنه لا يجوز، قلت: لا الجارية لها على ملكها، فقال لي: فعل الله وفعل يدعو لي وكانت وفاته سنة (٢٩٤هـ/٩٠٤م)"."[١]". وهذا الرجل لولا حاجته الفعلية لتلك الأمة لما شكا حاله بعدها.

وكان الضرير الذي لا يستطيع السير بالطرقات وحده يحتاج إلى من يخدمه أيضاً فهذا أبو العيناء اتخذ خادمين خصيين، أسودين، يقودانه."[٢]"

فالضرير يحتاج إلى من يقوده إذا توفر له المال اللازم لذلك وقد لا يكون الشخص مريضاً، بل قد يكون وحيداً ويحتاج إلى من يؤنس تلك الوحدة ومثال ذلك ما قاله الشاعر في الغلمان:

وإذا ما جهلت ود صديق   فاختر ما جهلت في الغـلمان

---

١) الخطيب البغدادي، تاريخ، م(٤) ، ص٤٩٧-ص٤٩٨.
٢) التنوخي، نشوار المحاضرة والمذاكرة، ص٤٤.

إن عين الغلام تنبئ عما   في ضمير المولى من الكتمان"[١]

فهو يؤنس وحدة المولى إذا كان وحيداً وهو أيضاً خبير بسيده وأخلاقه لذلك عندما تعرض ابن الزيات للحبس من قبل المتوكل، وجعل في التنور"[٢]" الذي صنعه قال له بعض الخدم: "لهذا وشبهه كنا نشير عليك بفعل الإحسان، وتقليد رقاب الرجال بالامتنان، واتخاذ الصنائع في حال القدرة لتجازى بها الآن عند الحاجة" ."[٣]"

بينما يعاني المرضى النفسيون مما هو أخطر من ذلك فالقاهر أول خليفة عباسي تعرض لكحل عينيه ففقدهما، وفقد الخلافة، فعاني من اضطرابات نفسية، إذ قالت "علم" الشيرازية القهرمانة، قالت: كان المستكفي لما أفضى إليه الأمر، يوصيني بتفقد القاهر بالله بنفسي وأنا لا أعول على أحد في ذلك يكرمه ويبره ويحسن إليه، وكان قد اختل عقله ... قالت: فراسلني في بعض أيام إفاقته (أي القاهر) فأمرني المستكفي أن أستعرض شهواته وحاجاته، فسألني تمكينه من جواريه فعرفته ذلك، فأمرني بحملهن إليه وأدخلت إليه جماعة منهن ...."[٤]"

ولما مرض الموفق كان يحمل سريره بالنوبة أربعين رجلا، فقال لهم يوماً: "ضجرتم من حملي بودي لو كنت كواحد منكم احمل على رأسي وآكل وأنا في عافية"."[٥]"وكانوا يتناوب على حمله عشرون عشرون"."[٦]" إذ اعتمد الموفق على خدمه لرعايته وهو مريض، وقد يدفع المرض صاحبه إلى مقارنة نفسه بغيره وإن كانوا رقيقاً، وكان الموفق يقول:"في ديواني مائة ألف مرتزق ما أصبح فيهم أسوأ حالاً مني واشتد ألمه حتى مات"."[٧]"

ومن يسقط مريضاً أو ميتاً فإن غلمانه سيتكفلون بنقله إلى بيته قال ابن النجار:أن عبيد الله بن يحيى دخل إلى ميدان داره سنة (٢٦٣هـ/٨٧٤م) ليضرب بالصوالجة فصدمه على ثلاث ساعات من النهار خادمه رشيق، فسقط عن دابته وبادر غلمانه فحملوه، فما نطق بحرف حتى مات بعد ثلاث ساعات من صدمته والناس في صلاة الجمعة"."[٨]"

لذلك تجد بعض الناس يعتبرون الخادم أهلاً قبل أن يكون مالاً أخبرني الصولي قال: إن بعض النخاسين احتال على البحتري في غلام له، فصار إليه وأنكر البحتري بيعه، وكان هذا في

---

١) ابن منظور، المنتخب والمختار في النوادر والأشعار، ص٢٢٠.
٢) وذكر أن محمد بن عبد الملك الزيات اتخذ التنور لابن السباط المصري وجعله كله مسامير فقيل من حفر حفرة لأخيه وقع فيها القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص١٤
٣) التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة، ج(١)، ص١٧.
٤) ن.م، ج٧، ص١٦٧.
٥) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول،ص١٤٨.
٦) ابن الجوزي، المنتظم،ج(٧)،ص٢٤٥.
٧) الطبري، تاريخ، ج(١٠)، ص٢٠/ الذهبي، دول الإسلام ،ج(١)، ص١٤٨.
٨) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد،ج(٢)، ص١٥٧-ص١٦٦/ انظر أيضاً الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٥٣٢.

أول أيام المعتضد بالله، فجعل يستعين بالناس في أمره فقال له القاسم بن عبيد الله: إن أنشدتني هجاءك لأخذ غلامك رددته عليك، فأنشده:

أخذت غـ ـلامي فقنعته وخوالك الجهل أهلي ومالي

فضحك القاسم، وقال يا أبا عبادة نعم هو مال، أفهو أهل؟ قال: لا ولكني حكيت قول الناس ثم غيره (فخولك الجهل بالجاه مالي)."[١]" وهذه الأمثال لا تصدر إلا من واقع معاش لا من التخيل، فكان الخادم بالنسبة لبعضهم أقرب إليه من ولده الذي قد تشغله أعماله عنه.

٢. **الأسباب الثقافية:**

يعتقد البعض أن لا علاقة لشراء الرقيق بالنواحي الثقافية داخل المجتمع خاصة أنهم ينتمون إلى مناطق عديدة، وتختلف ثقافاتهم عن الثقافة الإسلامية، إلا أنهم بمجرد وصولهم إلى بغداد يلقون أحمالهم الثقافية المختلفة، فيؤثرون ويتأثرون بالثقافة العربية، وهم يأتون صغاراً يسهل تعليمهم، فيدربون على ما يرغب به الناس، ولكن هذه الصورة لا تتيح لنا أن نتخيل ما هو أكثر من طاقة الرقيق على التعلم، كأن نتخيل مملوكاً هندياً عالماً بالرياضيات لأن العرب أخذوا الأرقام من الهنود كما أشار إلى ذلك الجاحظ في رسائله، فلا يمكن تخيل ثقافة مملوك روماني كثقافة أرسطو أو أفلاطون مثلاً.

وللأسباب الثقافية جوانب عدة يلخصها الجاحظ بقوله: "إن لكل نوع من العلم أهلا يقصدونه ويؤثرونه، وأصناف العلم لا تحصى منها الجزل، ومنها السخيف، فإذا أبدلت السخافة بالجزالة انقلب عن جهته، وصار الحديث الذي وضع على أنه يسر النفوس يكربها ويغمها، وكذلك الحديث الجاد الذي قد يحول بالسخافة عن معناه، ومن كان صاحب علم ممرنا ... لم يضره النظر في كل فن من الجد والهزل، ليخرج بذلك من شكل إلى شكل، فإن الأسماع قد تمل الأصوات المطربة، والأوتار الفصيحة، والأغاني الحسنة إذا طال ذلك عليها"."[٢]"

إذن فالأسباب الثقافية تقسم إلى قسمين هما:

١. أسباب ثقافية فنية. ٢. أسباب ثقافية علمية.

١-وتتضمن الأسباب الفنية ما يلي:

---

١) المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ص٣٠٥-ص٣٠٦.
٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ الرسالة (١٣) مفاخرة الجواري والغلمان، م(١)، ص٧٣

□ <u>الغناء:</u> الغناء قديم قبل الإسلام، وبقي بعد انتشاره؛ لأن القرآن لم يحرمه بل بقي من الأمور المتشابهة التي يختلف الناس على تحريمها أو تحليلها، كما ظهرت العديد من الكتب التي تبين حكم سماع الغناء. "وكان السماع لقوم كالغذاء، ولقوم كالدواء، ولقوم كالمروحة"."[١]

وقد وضعت للغناء قواعد وأصول محددة فهذه امرأة تقول لابنها: "يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه ففعل"."[٢]"والمغنون: هم عامة من الموالي رجالاً ونساء، وهم الذين عرفوا هذه الصنعة وحذقوها وجعلوها حرفتهم"."[٣]

وانتشر الغناء في بغداد انتشاراً كبيراً، وعلموا جواريهم الغناء، عد حاجة من حاجات الإنسان الضرورية، فترى المغنين والمغنيات في المحال العامة وفي الشوارع وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء والفقراء، ونما ذوق الناس بالغناء، وملئت الكتب بالحكايات عنه، شغف الناس به حتى ليغني مغن على الجسر فيجتمع السامعون حوله ويخاف من سقوط الجسر بهم."[٤]

وميز الناس بين الجيد والرديء من الغناء، وعرفوا ما يتناسب مع الإيقاع وما لا يتناسب، فهذا مسكويه يجيب أبا حيان التوحيدي عن سؤاله الغناء أفضل أم الضرب؟ فيجيبه مسكويه أن الموسيقى علم، وقد يقترن به عمل، وعامله يسمى موسيقاراً، وآلته أما أن تكون من البدن فهي طبيعية، وأما أن تكون خارجة من الطبيعة فهي آلات صناعية، والغاية من الغناء هي التي تحكم على جودته سواء كان من البدن أو من الآلة"."[٥]

ورغم أن هذا الحديث متطور في تفصيل الموسيقى فإن التجربة لم تبدأ في عصر مسكويه، والتوحيدي بل بدأت في المدارس المتفرقة التي عنيت بتدريب المغنين منها مدرسة إسحاق الموصلي، وإبراهيم بن المهدي وغيرهما، وكان تعلّم الغناء يرفع قيمة الجارية أضعاف ثمنها، فقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار على إبراهيم بن المهدي فلما علمها الغناء عرض في ثمنها ثلاثة آلاف دينار. "[٦]

---

١) هنري فارمر، الموسيقى العربية في ألف ليلة وليلة، ص١٣.
٢) الحموي، ثمرات الأوراق، ص١١٨.
٣) فايد العمروسي، الجواري المغنيات، ص٣٤.
٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج(١)، ص٨٩.
٥) أبو حيان التوحيدي، ومسكويه، الهوامل والشوامل، ص١٦٢ - ص١٦٤.
٦) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج(١)، ص٩١.

وأتقن عدد من الخلفاء العباسيين الغناء ونظم الشعر والعزف رغم أن بعض الروايات تشير إلى محاولة إخفائهم لذلك حتى لا يكون حبهم للغناء والعزف أحد المآخذ عليهم، ومنهم: المعتز بالله، والمعتمد بالله."[١]"

ومع ذلك تشير الروايات إلى أن بعضهم كان لا يستطيع أن يتم قصيدة كاملة إذا استثنينا ابن المعتز والخليفة الراضي ومن ذلك ما قالته بدعة: كان المعتمد يوجه شعره إلى عريب لتصوغ له الألحان فكانت تقول: ويلي لم أغني في حروف ألف، با، تا، ثا ."[٢]" فلم يكن شعره جيداً ولكنها اضطرت إلى غنائه.

وعرفت الجواري المكيات بجودة الغناء، "فمن أراد جارية للغناء فمكية"."[٣]" واشترى المتوكل الجواري والرقيق لإتقانهم الغناء، يقول علي بن الجهم: إنه كان عند المتوكل يوماً،والفتح بن خاقان حاضراً، إذ قيل إنه فلان النخاس، فأذن له، فدخل ومعه وصيفة فقال له المتوكل: ما صناعة هذه؟ قال: تقرأ بالألحان، فقال الفتح: إقرائي خمسة آيات فاندفعت تقول:

قد جاء نصر الله والفتح وشق عنا الظلمة الصبح

فأمر المتوكل بشرائها وأهداها للفتح وكانت من أحظى جواريه عنده."[٤]" وهذا النوع من الشعر يبين تأثر الجارية بالقرآن الكريم.

وكانت مجالس الخلفاء تعقد على أصوات الجواري: لما خرج عبيد الله بن طاهر من بغداد إلى سر من رأى وكان المعتز قد دعاه، وأقام عنده ذلك اليوم، أرسل المعتز إلى "شارية" أن تخرج، فتعالت عليه، فقال: عندي من يحب أن يسمعك وأحب لك وله ذلك، ولا بد من حضورك، فخرجت فجلست خلف الستارة، ثم قالت: لولا الزائر ما جئنا وغنت بشعر وصفه ابن طاهر بأن حظ العجب منه أكثر من حد الطرب، ثم أسمعه زمر زنام الزامر ... فكان أجمل ما سمعه ذلك اليوم غناء شارية."[٥]"

والغناء كما يظهر في هذه الرواية لا يقتصر على الجواري بل يشمل الرقيق الذين يتقنون العزف على آلات موسيقية معينة كالمزمار، وقد كانت آلة العازف جزءاً منه "وقيل لمغنية غني بغير عود، قالت: أنا فارسة لم أقاتل راجلة"."[٦]"

---

١) النويري، نهاية الأرب، السفر الرابع، ص٢٠٤ – ص٢٠٥.
٢) الشابشتي، الديارات،ص٩٩.
٣) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات،ص٣٨٣.
٤) السيوطي، المستظرف، ص٧٤.
٥) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، م(١٥)، ص٣٢٥./ الشابشتي، الديارات، ص١٠٩ - ص١١٠،
٦) ابن أبي عون ، الأجوبة المسكته، ص١٢١.

وفي مناسبة اعذار المتوكل لابنه المعتز أرسل في طلب عدد من المغنين منهم ...ثمرة، وسلمان الطبال، والمسدوس أو(المسدود)، وصالح الدفاف، وزنام الزامر، وتفاح الزامر، ومن المغنيات عريب، وبدعة جاريتها وسراب وشارية وجواريها، وندمان، ومنعم، ونجله، وتركية، وفريدة، وحدائق، وعرفان."[١]"

وتظهر في هذه الرواية العديد من آلات العزف كالطبل، والدف، والمزمار، والمسدوس، كما تظهر أن الكثير من الجواري اللواتي عرفن بعلاقتهن بخلفاء بني العباس كعريب هن من المغنيات، وتظهر الرواية أيضا أن جارية كشارية تمتلك فرقة من الجواري المغنيات.

ولم تكن مجالس الخلفاء محتكرة لسماع الغناء يقول بشار بن برد:" لا تجعلوا المجالس غناء كله، ولا شعراً كله، ولا سمراً كله، ولكن انتهبوه انتهاباً"."[٢]"

وكانت شهرة المغني أو المغنية تثير فضول بعض الخلفاء لسماع غنائهم، فيرسل في طلبهم كما أرسل المتوكل في طلب فضلة (خيط البرادة) وهي إحدى المغنيات المعروفات لدى الناس في البصرة كما ورد في الرواية سابقا، أو أن تكون معرفة المتوكل بخبر جارية في المدينة جميلة الصورة، وحسنة السيرة تحسن الغناء، وضرب العود، سبباً في أن يطلب من مولاها أن تحضر مجلسه، وكان مولاها يحبها وهي كذلك، ولما أدخلت على المتوكل قال لها: أقرئي شيئاً من القرآن، فقالت: (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) إلى تمام الآية، ففطن المتوكل إلى ما أرادت فردها إلى مولاها."[٣]"

وقصدت من ذلك قصة داود عليه السلام والخصمين الذين تسورا المحراب ليحكم بينهما داود، وقيل أن الخصمين ملكان أرادا أن يبينا له خطأه إذ كانت له فيما قيل تسعة وتسعون امرأة، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قتل امرأة واحدة، فلما قُتل نكح فيما ذُكر داود امرأته فضربا له مثلاً هذه النعاج، فعلم داود أن الله تعالى ابتلاه فسأل الله الغفران وسجد له وأناب."[٤]" وهذه الرواية تبين دقة الجارية وحسن أدبها وعلمها.

وكتب المعتضد إلى عبيد الله بن عبد الله بقُم أن يأمر جاريته ساجي بزيارته ففعل: قال جحظة، فحدثني من حضر ذلك المجلس من المغنيات، قالت: دخلت علينا وما فينا إلا من تَرفلُ بالحلي والحلل، وهي في أثواب ليست كأثوابنا فاحتقرناها، فلما غنت احتقرنا أنفسنا،

---

١)الرشيد بن الزبير، الذخائر، ص١٢٠- ص١٢٢/ الغزولي،مطالع البدور ..، ج١،ص٤٥٢.
٢) القيرواني، زهر الآداب، ج(١)، ص١٩٣.
٣) ياسين العمري، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، ص٣٦٠ - ص٣٦١.
٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م(١٢)،تفسير سورة (ص)،ص١٧٠- ١٧٢.

ولم تزل تلك حالنا حتى صارت في أعيننا كالجبل وصرنا كالا شيء، ولما انصرفت أمر لها المعتضد بمال وكسوة، ودخلت إلى مولاها فجعل يسألها عن الخبر وما رأت مما استظرفت وسمعت واستغربت، فقالت ما استحسنت هناك شيئا ولا استغربته من غناء ولا غيره إلا عوداً من عود محفوراً فإني استظرفته، قال جحظة: فما قولك فيمن تدخل إلى دار الخلافة، ولا تمد عينها إلى شيء تستظرفه وتستحسنه إلا عوداً ."(١)"

وهنا نجد أن المغنية في دار الخلافة تتمتع بترف كبير وتحصل على ما تريد من أثواب وحلي بينما من تغني خارجه لا تتمتع بهذا الحظ، ومع ذلك فقد أرسل في طلب (ساجي) التي تغني أفضل من مثيلاتها في القصر.

فالعامة أيضاً يمتلكون المغنيات رغم أن (ساجي) زوجة رجل من الأشراف المعروفين وهو ابن طاهر الذي ترد أخبار علاقاته الكثيرة بالجواري والمغنيات والمغنين، وقد دخل محمد بن عيسى الكاتب فقال أبو العباس محمد بن طاهر، أعطوه قدحا فأبى واعتذر، فقبل عذره وجلس وغنينا وشربنا، ثم تغنى (كنيز دبة) صوتاً:

أعياني الشادن الربيب أكتب أشكو فلا يجيب

فكيف أرجو دواء دائي و إنما دائي الطبيـ ب "(٢)"

والعامة تسعى إلى اقتناء الجواري المغنيات أو القينات، ولكن ذلك نادر؛ وقد وجدت منازل مخصصة لسماع القيان عرفت (بمنازل القيان) والتي كانت أماكن تعلم بها الجارية القراءة، والكتابة، والأدب، والشعر"(٣)"، وللجاحظ رأي في القيان كما له في غيرهن ففي رسالته "القيان" يقول: ... وإن في الجمع بين الرجال والقيان ما دعا إلى الفسق والارتباط والعشق، مع ما ينزل بصاحبه من الغلمة التي تضطر إلى الفجور وتحمل على الفاحشة، وأن أكثر من يحضر منازل القيان إنما يحضر لذلك لا لسماع ولا ابتياع."(٤)" ويرى أن ازدهار حركة التقيين " باعتبارها صناعة كريمة شريفة" والجمع بين القيان والمقينين والربيطين لم يتحقق إلا في العصر العباسي رغم وجود القيان في المجتمع العربي قبل الاسلام."(٥)"

ويعتبر الجاحظ أن هذه المنازل التي كان الهدف الأساسي منها الغناء تحولت عن هدفها وأصبحت أماكن للفساد تضر المجتمع أكثر مما تنفعه وتوضح الروايات ارتباط بعض

---

١) النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٥، ص٦٩.
٢) الجريري، الجليس الصالح الكافي و الأنيس الناصح الشافي، ج(١)، ص٣٨٣ - ص٣٨٤.
٣) الترمانيني، الرق ماضيه وحاضره، ص١٠١.
٤) الجاحظ، رسالة القيان، م(١)،ص١٢٦.
5) محمد العبيدي، التقيين في العصر العباسي بالاعتماد على رسالة القيان للجاحظ، حوليات الجامعة التونسية/ المطبعة الرسمية، ١٩٨٨م، (ع) (٢٨)، ص٢٥٤.

الرجال بمغنيات هذه المنازل. خاصة أن الربيطين المختصين بتقييم جمال الجواري وتفضيل إحداهن عن الأخرى، فهم يلزمون هذه المنازل لهذه الغاية فيختلطون بتلك النساء لفترات طويلة مما يشيع الفساد في تلك المنازل[١].

كما قد تحصل هذه الجواري على اهتمامٍ كبيرٍ ومكانة كبيرة لدى بعضهم ومن ذلك أن بعض القيان اقتصدت فاهدى لها محبوها هدايا كان من جملتها ثلاث سلاسل مخيطة ففتحت سلة منها فوجدتها مملوءة (ماشا) وفيها رقعة مكتوب فيها ماشا خير من لاش، وفتحت الأخرى فإذا هي فارغة لا شيء فيها إلا رقعة مكتوب فيها لو كان لنا شيء لأهديناه فضحك من كان حاضراً، ولم تدع القينة شيئا مما أهدى إليها إلا أعطته منه."[٢]"

وهذه المنازل العامة أيضاً قد يقصدها بعض المشهورين في بغداد، فكان محمد بن عبد الملك الزيات يتعشق جارية من جواري القيان، فبيعت من رجل من أهل خراسان، فأخرجها، فذهل عقل محمد بن عبد الملك حتى خشي عليه، فقال أبيات شعر فيها."[٣]"

واختار الناس والخلفاء لجواريهم أسماء تنطبق على صفاتهن أو نقيضها أو على أعمالهن: فسمى العباسيون بعض الجواري ثمل، وخمرة وهي من صفات النبيذ فهن ممن يعملن على سقاية الخمر أو ممن تجالس في شرب الخمر، ومن الأسماء شريرة الرائقية وهي مولدة سمراء حسنة الغناء كانت لابن حمدون اشتراها ابنه من أبي بكر محمد بن رائق بثلاثة عشر ألف دينار، (وشمول) جارية عبد الله الزيات، ويبدو من اسمها أنها كانت تتمتع بصفات شاملة مرضية، وهي مغنية من أحسن الناس غناء، أما (لهب) فمغنية اشتهرت زمن المتوكل وكانت لخالد بن يزيد بن هبيرة ويبدو أنها كانت من السودان لذا أطلق عليها ذلك أو لأنه كانت تملأ المجلس غناء فكأن من يسمعها يحترق لعذوبة صوتها، وخزامى جارية الضبط المغني، كانت تنادم عبد الله بن المعتز فراسلها مراراً بعد أن تابت ليحثها على العودة، والخزامى جنس نبات أنواعه عطره، ومكتومة مغنية من مغنيات بغداد في العصر العباسي، وكتم السقاء أي أمسك اللبن أو الشراب، والكتمان الستر والإخفاء*، ويبدوا أن هذا المعنى يدل على طريقتها في الغناء."[٤]"

لقد كثر المغنون في بغداد بهدف إمتاع الناس، وملء أوقات فراغهم وجعلوها زاهية جميلة فكانت حاجة من حاجات المجتمع يراها البعض غير ضرورية.

---

١) ن. م. ص٢٥٩.
٢) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ص٤٥١-ص٤٥٢.
٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(٤)، ص٢٩٩/و ص٣٠٤./ ابن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٤١٧.
* المعجم الوسيط، م(٢)، مادة: ك ت م، ص٧٧٦.
٤) رضوان دعبول، تراجم أعلام النساء، الصفحات: ١١٢/ ٢٣٣/ ٢٣٩/ ٣٩٨/٤٢٤.

□ الرقـ ـص: أما الرقص فإنه يوجد حيث يوجد الغناء وتباع الجواري إذا كن يمتلكن القدرة على الرقص، "وعرفت الزنجيات رغم سوادهن، وقلت الانتفاع بهن بالرقص، فالرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن، وليس في خلقهن الغم، ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الرقص والزمر"[١] وقيل: " إن الطرب غلب على الزنج لفساد أدمغتهم وعقولهم""[٢]؛ لذا عندما قال بعضهم لجارية رقاصة في يديك صناعة؟ قالت لا ولكن في رجلي"."[٣] وكان سؤاله لمعرفة إن كانت تحترف إحدى المهن كالغزل وغيره لا الرقص.

ودرس العرب الرقص كما درسوا الغناء وعرفوا السيئ من الجيد " وتجد زمن المعتمد طفيلياً يفصل لابن المدبر وندمائه الرقص حيث أخبرهم أن الراقص يحتاج إلى أشياء في طباعه، وأشياء في خلقته، وأشياء في عمله"[٤]، والرقص لا يقتصر على الجواري دون الرقيق، إذ قال عون بن محمد أنه التقى بادروجة المغني وسكباج الراقص بسر من رأى وأمرت لهم بمائدة وأقسم علينا بادروجة فكنا يومنا عنده في أطيب عيش."[٥] فإذا كان بعضهم يتقن الرقص في سر من رأى فكذلك الأمر في بغداد ويؤكد هذا القول أن قطر الندى بنت خمارويه أهدت إلى المعتضد في يوم النيروز هدية عظيمة كان فيها ذهب وعطور ... وأخرج من القصر ثلاثين وصيفة يرقصون(يرقصن) مع الفراغنة."[٦]

وهذه مجموعة من الراقصين من كلا الجنسين تتقن الرقص الجماعي.وهذا يذكرنا برقص الدستبندا وهو من أنواع الرقص المجوسي يأخذ بعضهم بيد بعض يدورون ويرقصون ."[٧] كما أن أم ولد الخليفة المقتدر عرفت باسم " دستنبويه" ويظهر من اسمها أنها كانت تتقن هذا الرقص وقيل أنها من دست أي (يد)ومن بوي أي(رائحة)*. ومن الأسباب الثقافية الهزلية ما عرف بـ:

□ السمـاجة أو الهزلـيون: ويظهر أن هذا الفن يتعلق بالمزاح وبإيجاد مواقف مضحكة تمتع الجلساء، والسماجة تشبه اليوم ما يعرف بالتمثيل الهزلي، فهم قوم يحاكون حركات بعض الناس ويمثلونهم في أصواتهم، ويظهرون في مظاهر مضحكة، إيناسا للناس،

---

١) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، ص٤٠٥.
٢) الأمشاطي، القول السديد في اختيار الإماء والعبيد، ص٥٩.
٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م(٤)، ص١١١/ابن أبي عون، الأجوبة المسكتة، ص١٢١/ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الرابع، ص١٩/ القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص١٦٢.
٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج(٤) ص٢٤٠ - ٢٤١.
٥) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص٦٠.
٦) ابن الزبير، الذخائر، ص٣٨-ص٣٩.
*)ادي شير، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، باب الدال، ص٦٣.
٧) النويري، نهاية الأرب، ج(٥)، ص٣٤ - ص٣٥.

فالنكت والمزاح وأخبار الظراف متنقله بين العوام، وقد استعان الخلفاء بمن يقوم بهذا العمل وكان أغلبهم من المماليك، إلا أن الإنسان الحر لا يقبل أن يكون عرضة لهذا المزاح، ومن ذلك ما ذكره عبد الله بن خردانبة قال: دخل إسحاق في يوم نيروز إلى المتوكل والسماجة بين يديه وجذبوا ذيل إسحاق أبا الحسين، فخرج مغضباً ورآه المتوكل وقد ولى مغضباً، فأرسل الحجاب والخدم خلفه فردوه، فقال: ما أغضبك، فقال: يا أمير المؤمنين، عساك تتوهم أن هذا الملك ليس له من الأعداء مثل ما له من الأولياء، تجلس في مجلس يبتذلك فيه مثل هؤلاء الكلاب يجذبون ذيلك، وكل واحد منهم متنكر بصورة، فما يؤمن أن يكون فيهم عدو وله نية فاسدة وطوية ردية، فيثب بك ؟ فقال: يا أبا الحسين، لا تغضب ! فوالله لا تراني على مثلها أبدا وبني بعد ذلك مجلس مشرف، وينظر منه إلى السماجة."[١]"

وتشير هذه الرواية إلى أنهم استعانوا بالرقيق لمثل هذه الأعمال، فكان المتوكل يأمر الغلمان والخدم أن يفزعوا الجلساء والمطربين والمساخر بأشياء يعملونها من الطين والشمع والخرق على أشكال الحيات والعقارب،لقد حاول إسحاق في الرواية أن يحذر المتوكل من خطر مثل هذه المساخر التي قد يتخفى خلفها أحدهم وطويته سيئة وكأن هذه الروايات تشير إلى حادثة قتل المتوكل "فلما أقبل العسكر بالشموع ظنوا أنهم يريدون إفزاعهم وكان ذلك ليلة مقتل المتوكل...."[٢]"

" واستسمج المكتفي، فعمل له "دميانة" غلام "يازمان" كرسياً، وركب الكرسي على ظهر الفيل، وكان ارتفاعه عن ظهر الفيل ذراعين ونصف ذراع"."[٣]"

وصار التهريج فناً يكسب صاحبه مالاً وفيراً، وله شروطه وأساليبه، وقد يكون بعض المضحكين من غير الرقيق فكان للرشيد مضحكان هما ابن مريم، والمرتمي، وعلي بن جنيد الإسكافي مضحك المعتصم، وعبادة المخنث، وأبو العبر من مهرجي المتوكل، وابن المغازلي مضحك المعتضد."[٤]"

وقد لا يحتاج الخليفة إلى هؤلاء السماجة بل قد يستعين بأحد الخدم الموكلين بأمر الخدمة لذلك، فقد أحب المتوكل أن ينادمه الحسين بن الضحاك، وأن يرى ما بقي من ظرفه، فأحضره وقد كبر وضعف، وقال المتوكل لخادمه شفيع وكان من أجمل الناس وآثرهم عنده فسقاه وحياه

---

١) الشابشتي، الديارات، ص٣٩ – ص٤٠.
٢) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١١٩.
٣) الطبري، تاريخ، ج(١٠)، ص١١٢.
٤) رياض قزيحة، الفكاهة والضحك في التراث العربي...، ص٢١٩.

بوردة وغمز عضده، فقال فيه شعراً استحسنه المتوكل فقال: لو كان شفيع ممن تجوز هبته لوهبته لك، والك يا شفيع بحياتي عليك إلا توليت سقيه وخدمته بواقي يومه ...."[١]"

وكانت الجارية أيضاً تشترى لظرفها وفكهاتها، " فكانت مولدات المدينة ممن عرفن بالدلال والميل إلى السرور والفكاهة والمجون، وحسن الاستعداد للنبوغ في الغناء"."[٢]"

لذلك قال البعض: "المزاح مزاح عن الحق" "[٣]" أي بعيد عن الحق لأن الفكاهة قد تنقلب إلى جد، أو قد تبالغ بصورة الإنسان فلا تقدم الحقيقة، وقد سخر الحسين بن الضحاك في مجلس من مغنية بعد أن استخفت به بالشعر فضحك من كان حاضراً وبكت المغنية وشاع الشعر فكسدت من أجل ذلك."[٤]" لذلك وغيره كان تشديد بعضهم على أن الملوك أحوج إلى مجالسة العلماء."[٥]" لا الراقصين والمغنين والملهين والسماجة.

ومع ذلك فإن للهزل وقتاً وللجد وقتاً؛ لذا نجد المتوكل يعاتب محمد بن الفضل وزيره يوما على اشتغاله بالملاهي من الأعمال السلطانية، فقال: يا أمير المؤمنين، إن مقاساة هموم الدنيا لا تأتي إلا باستجلاب شيء عن السرور."[٦]"

- <u>اللـعب والرياضـة والاهتمام بالحيوانات الخاصة بها:</u> وقد يستعين السلطان ببعض خدمه لممارسة ألعاب معينة كالشطرنج، والكرة وغيرها، ورعاية حيوانات الخليفة التي يستمتع برعايتها وتربيتها، ومما ورد في جملة الخرج والنفقات الخاصة ما حكايته: أن للأتراك في المطابخ الخاصة والعامة وما يقام خارج الدار وعلوفة الكراع والطير والوحش على ما استقر عليه الأمر في أصول الإقامات و الأسفار على المقاطعات شاهرات لشهر: أربعة وأربعون ألفا وسبعون دينارا ."[٧]"

فلرعاية الطيور والوحش أموال محددة لأن هناك من يقوم بهذه المهمة ولهم مسميات عديدة منها ما يذكره ابن الزبير عن بعض الأعمال التي يقوم بها الرقيق المجلوب من وجود " أرزاق الكلابزيين(الكلازيين)، والبازدارية، والفهادية، والفراشين، والصفاعنة، والمضحكين، والكباشين، والدياكين، وأصحاب الكلاب الهراش والضراطين" ."[٨]"

---

١) المسعودي، مروج الذهب،ج(٤) ١٣٥/ إبراهيم القيرواني، المختار من قطب السرور، ص٢٧٤/ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٦)، ص٤٠٠.
٢) فايد العمروسي، الجواري المغنيات، ص٤٥.
٣) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص٢٨.
٤) رياض قزيحة، الفكاهة والضحك في التراث العربي، ص٢٨٧ - ص٢٨٨.
٥) الماوردي، نصيحة الملوك، ص٢٢٣.
٦) الثعالبي، تحفة الوزراء، ج(٢٤، ص١٢١.
٧) الصابئي، رسوم دار الخلافة، ص٢٢.
٨) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ط(١)، ص٢٢٠.

وكانت دار الخلافة على دجلة وشكلها شبه نصف دائرة، وهي تتكون من أكثر من قصر ودار، وفي أحد هذه الدور أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي، وعلى كل فيل ثمانية رجال من أهل السند والزراقين بالنار " ....[1] ويذكر الصابئ في وزارة ابن الفرات للمقتدر العديد من الأعمال التي كانت تلزم دار الخلافة ويقوم بها بعض الخدم وهي كثيرة."[2]

أما الرياضة فقد مارسها الخلفاء ونصح بها لمن يشتري الرقيق " بأن من اشترى عبدا ينبغي له أن يستعمله في الرياضة .. "[3]وتمثل المظاهر السابقة أهم الأسباب الثقافية الهزلية والتي كانت سبباً للاعتماد على الرقيق والجواري.

٢-الأسباب الثقافية الجادة فهي تتمثل بالتالي:

- إجادة اللغة الأخرى: إن للترجمة أشخاص مختصون بها، إلا أنها قد تكون سبباً من أسباب اعتماد الدولة على الكثير من المماليك رغم أن ذلك لا يعمم، نظراً لعلاقة الدولة الإسلامية مع الكثير من المناطق المغايرة للغتها، كما أن الكثير من الغلمان والرقيق لا يتقنون اللغة العربية لذا وجب إيجاد وسيلة للتفاهم معهم، فعندما جلس المنتصر على بساط لم ير الناس مثله، وعليه كتابة بالفارسية، وقال لمن حضر هل تعرفون معناها: فأحجموا وقالوا: لا نعرف، فاستحضر رجلاً أعجمياً غريباً، وأمر بقراءتها، فأحجم الرجل، فقال له المنتصر قل وما عليك بأس، فليس لك ذنب، فقال الرجل على هذا البساط: أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر فتطير المنتصر ونهض من مجلسه مغضباً "[4]

وتكون اللغة المغايرة طريقة لنقل معلومات سرية فتكون لغة الخطاب بين الخليفة وخادمه إذا كان كل منهما يتقن هذه اللغة،قال الغزولي: جرى ذكر ثابت بن قرة بين يدي المكتفي بالله، وسلامة طرائقه، وما كان فيه من أدب النفس، فحدثنا خادم رومي قال: دخلت إلى المعتضد بالله لأخاطبه بالرومية، وكان المعتضد عارفاً بها، فخرج ثابت مبادراً ورده المعتضد بالله، وقال له لِم خرجت قبل أن ينقطع الكلام بيني وبينك؟ فقال: لأني أحسن الكلام بالرومية، وكرهت أن أسمع من سر أمير المؤمنين ما اعتمد المتكلم به كتمانه عني، فاستحسن هذا الفعل منه وزاد استرجاعه إياه "."[5]

---

١) مصطفى جواد، بغداد، ص٣١.
٢) انظر الصابئ، الوزراء، ص١٥ - ص٢٧.
٣) محمد الغزالي، هداية المريد في تقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات، ج(١)، ص٤٤١ - ص٤٤٢.
٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج(٤)ص١٤٢/ التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة،ج(٥)، ص١٨٣ - ص١٨٤/ الخطيب البغدادي، تاريخ، م(٢)، ص٤٨٥ - ص٤٨٦/ القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص١٧١ -ص١٧٢/ ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٥ -ص٢١٧.
٥) الصابيء، رسوم دار الخلافة، ص٨٨ - ص٨٩.

كما أن ترجمة الكتب القادمة من ملوك الدول الأخرى تحتاج إلى من يترجمها، وعندما وصل الى المكتفي كتاب ملكة الافرنج "برتانيت الأوتارية"* أراد أن يترجم له قال أبو عبد الله الأصبهاني، كاتب أبي ليلى الحارث بن عبد العزيز: كنت مع المكتفي في المعسكر...، فطلب من يترجم الكتاب، وكان في خزانة الكسوة مع بشر الخادم، فرنجي يقرأ كتابة أهلها، فأحضره ذلك الخادم، فقرأ الكتاب وترجمه بكتابة رومية، وأحضر إسحاق بن حنين فترجمه بالعربية من الرومية."[١]"

- الأدب والشعر: رغم أن الكثير يرون أن المماليك أثروا على اللغة وكانوا سبباً في وجود اللحن والخطأ في اللغة العربية كما أنهم، كانوا السبب وراء وضع العرب النقاط على الحروف، إلا أن منهم من أتقن اللغة وأجاد، وقيل "أن أول الجواري اللواتي برزن في الشعر بنات الفرس"."[٢]"وكانت الجواري على أنواع، فأغاب الجواري وصلن بلاد الإسلام وهن كبيرات بالسن فلا مجال إلى تعليمهن اللغة العربية ولا حتى علوم العرب، ومن كانت تتقن العربية منهن جلبت صغيرة بالسن قابله للتعلم والحفظ."[٣]"

وكانت فضل الشاعرة لرجل من النخاسين بالكرخ يقال له حسونة، فاشتراها محمد بن الفرج أخو عمر بن الفرج الرخجي وأهداها إلى المتوكل، فكانت تجلس للرجال ويأتيها الشعراء وتجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء وكانت فصيحة، سريعة الهاجس، مطبوعة في الشعر، أحسن خلق الله حظاً، وأفصحه كلاماً، وأبلغه مخاطبة، وأثبته في المحاورة."[٤]"

وكانت الجارية التي أراد شراءها محمد بن عبد الله بن طاهر لرجل من الأدباء، قد رواها الأشعار والأخبار والنحو والعروض، وقد أحسنت ضرب العود وطريق الغناء فاشتراها."[٥]"

وتمتحن الجارية بما تمتلك من خبرة فعرضت جارية على المتوكل فقال لأبي العيناء: هذه عرضت على أنها شاعرة فقل شيئا لتجيز، فقال أبو العيناء: أحمد الله كثيراً.

فقالت: حيث أنشأك ضريراً.

---

* وقيل برتفيليا الأوتارية ابنة شارل مان ملك الفرنجة الذي واجه المسلمين في معركة بلاط الشهداء في الأندلس.

١) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج(١)، ص٤٥٢/ وانظر ابن الزبير، الذخائر والتحف، ٥٣.
٢) كرم البستاني، النساء العربيات في الغناء في الحرب وفي الكهانة، ص٣١.
٣) جبور عبد النور، الجواري، ص٥٨ - ص٦٢.
٤) الأصفهاني، الأغاني، ج(١٩)، ص٢٥٧ - ص٢٥٨/ السيوطي، المستظرف، ص٥٠./ جمال بدران، الجواري والحظايا، ص٨٣ - ص٨٤.
٥) الاتليدي، نوادر الخلفاء، ص٣٤٩-ص٣٥٣.

فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إسائتها."[١]"

وكان خادم المتوكل المعروف " بعرق الموت" قد شدا أشياء من الأدب وحفظ الكثير من الشعر... ."[٢]" فقد اكتسب من المهارات اللغوية ما جعله مقرباً للمتوكل.

قال علي بن الجهم:" لما أفضت الخلافة إلى جعفر المتوكل على الله، أهدى إليه ابن طاهر من خراسان هدية جليلة فيها جوار منهن جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت في الطائف وكان لها مولى قد عني بها، فبرعت في فنون الأدب وأجادت في الشعر وكانت راوية ظريفة، مجيدة للغناء فقربت من قلب المتوكل"."[٣]"

و(نبت) جارية المعتمد على الله التي قبل وجودها عنده لإتقانها الكتابة والغناء، كانت مغنية حسنة الغناء، شاعرة سريعة الهاجس، عرضت على المعتمد فامتحنها في الغناء والكتابة فرضي بما ظهر له من أمرها " "...[٤]

والشعر ديوان العرب، وهم يستمتعون بنظمه ومنافسة الآخرين فيه، ويجدون من خلاله وسيلة لنقل الأخبار، ويقدرون من يتقنه ويكون الشعر الحاضر الأبرز في مجالسهم على اختلافها، وكان من يتقن الشعر من الرقيق والجواري من عبيد القن الذي يملك لأن أحد أبويه أو كلاهما كان مملوكاً.

وكان اختلاق القصص المتعلقة بالجواري مادةً جيدةً للتسلية، فبدل أن تختلق قصة على امرأة حرة أو رجل حر قد تسبب لك الأذى أحيانا، إذ يحدثنا بعض وجوه الكتاب ببغداد قال: رأيت في المنام جارية كانت لامرأة أبي العباس بن الفرات تسمى " همة" وفي يدها عود تغني به:

السـلاح السلاح   إن أتان الصـباح
أين سادات قومي   ذو الأكف السماح

ثم حدثت الحادثة على أبي الحسن بن الفرات بعد ذلك بأربعة أشهر واستتر أهله، وحصلت هذه الجارية عندي، فسألتها هل تغني بهذا الشعر، قالت نعم فغنته له"."[٥]"

---

١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، م(٢)، ص٢٦٥/رياض قزيحة، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، ص٢٧٢.
٢) الجريري، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، ج(٢)، ص٤١٧.
٣) ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، ص٦٢-ص٦٤/ النويري، نهاية الأرب، ج(٥)، ض١١٤/جمال بدران، الجواري والحظايا، ص٨٧ - ص٨٩/ كرم البستاني، النساء العربيات في الأدب..، ص٤٤- ص٤٥.
٤)السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٦٩ - ص٧٠.
٥) الصابئي، الهفوات النادرة، ص١٦٥ - ص١٦٦.

وبعضهم كان يتمتع بالحكمة فهذا خادم لابن الزيات وهو في الحبس وأنه لم يستمع الى نصحهم بالإحسان إلى الناس، فأجابه ابن الزيات أن لو كان ذلك صحيحاً لنفع الإحسان البرامكة، فقال له الخادم: لو لم ينفعهم إلا ذكرك لهم في مثل هذه الحالة التي أنت فيها لكان ذلك أكبر نفع."[١]

وهذا جانب من جوانب الحاجة إليهم وهناك جوانب أكثر أهمية خاصة العلم، ولقد ذكرنا أن بعضهم أتقن اللغة والنحو والشعر وغيره، لكن ما هي الأسباب العلمية التي دفعت الناس للاعتماد عليهم؟.

- خدمـة العـلـم: العلم مسألة في غاية الأهمية إذ قد تفاجأ في أحد أسواق بغداد أن النخاس يعرض لك من الرقيق من يحفظ من الأشعار والقرآن أكثر مما يحفظ أحد الأحرار، وأنهم يجيدون القراءة أو الكتابة، ولكنك ستفاجأ إذا رأيت أن من يشتري تلك الجارية أو الغلام عالم معروف وصاحب مذهب معين، فلماذا ينفق العالم أمواله على تلك الجارية أو الغلام؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في الروايات التي تظهر ما يقوم به الرقيق من أعمال ويوضح ذلك، ما وصف أحمد بن صالح بن شيران جارية كاتبة فقال: "كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بنانها سحر مقلتها، وكأن سكينها غنج لحظها، وكأن مقطعها قلب عاشقها"."[٢]

وهذا الوصف يشير إلى إتقان بعضهن للكتابة والنسخ وهذا ما يحتاج إليه عالم متفرغ لعلمه.

كما يحتاج من يمتلك مكتبة في منزله إلى من يهتم بها، وكأنه يقوم بدور قيم المكتبة فيساعد العالم في إظهار الكتب التي يريد متى شاء مثال ذلك،حدثنا عبد الله بن جعفر بن خاقان المروزي السلمي، قال: سألت إبراهيم بن سعيد الجوهري عن حديث لأبي بكر الصديق، فقال لجاريته: أخرجي إلي الثالث والعشرين من مسند أبي بكر فقلت له: لا يصح لأبي بكر خمسون حديثا، من أين ثلاثة وعشرون جزاءاً ؟ فقال كل حديث لم يكن عندي منه مائة وجه فأنا فيه يتيم."[٣]

وهذه الجارية تمتعت بثقافة عالية مكنتها من مساعدة العالم، ولهذا نرى بعضهم يطلب من جاريته حضور مجلسه العلمي قال ابن السماك لجارية كانت له:" لِمَ لا تصيرين إلى مجلسي فتسمعين كلامي ومواعظي، فصارت إلى مجلسه فلما انقضى قال لها: كيف رأيت؟ قالت:

---

١) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة،ج(١)، ص١٧.
٢) القيرواني الحصري، زهر الآداب،م(٣)، ص١٠٩.
٣) الخطيب البغدادي، تاريخ، م(٦)، ص٦١٨-ص٦١٩.

سمعت كل شيء حسن، غير أني رأيتك تكرر الكلام وتعيده، قال: ليفهمه من لم يكن فهمه، قالت: فإلى أن يفهمه الغبي، يكون قد ثقل على مسامع الذكي"."[١]

ولم يقتصر استخدام الخصيان على الأعمال اليومية بل امتد إلى أمور أخرى منها "ما وصف بعضهم الخصيان مادحا لهم فقال: هم الأمناء على الحرم البعداء عن التهم، ولهم التظرف والتلطف والوقار وقلة الضحك وهم طراز الملك وجمال الدول وعنوان النعم وكثيرا ما أدبوا أولاد الملوك وهذبوهم وعرفوهم طريق السياسات ودربوهم"."[٢]

لقد كان بعض الخصيان مؤدبين لأبناء الخلفاء، وفي الوقت نفسه مثلوا شكلاً من أشكال هيبة الدولة. وشارك بعضهم في نقل ما سمعه من أحاديث ومسائل فقهية عديدة فكان لعلم الحديث جانب كبير من الأهمية.

وكانت جارية الإمام أحمد بن حنبل التي اشتراها بعد زوجته أم عبد الله، وولدت له خمسة أولاد، وروت عن مولاها مسائل كثيرة."[٣]"فقد ساعدت هذه الجارية وأم أولاده على نشر علمه بعد موته، علماً بأن هذه الرواية لا توجد إلا في كتاب السيوطي، لأن ابنه عبد الله هو الذي نقل فتاوى والده وأخباره إلا أن استخدامها هنا بغرض بيان قدرة بعض الجواري تلقي العلم ونقله.

وكان محمد بن إسحاق بن يحيى، أبو الطيب النحوي يعرف بابن الوشاء، وكان من أهل الأدب حسن التصانيف، مليح الأخبار .... روت عنه (منية) جارية (خلاّفة) أم ولد المعتمد على الله، أخبرني أبو الفرج الحسين بن علي الطناجيري، قال: حدثني أبو محمد عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن هارون ابن البزاز الأنباري قال: حدثتني منية جارية أم ولد المعتمد إملاء من لفظها قالت حدثني عبد الله بن عمر الوراق....قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " السخاء شجرة من الجنة."[٤]

واستعان بعض المؤرخين بالخدم والرقيق في نقل الروايات الخاصة بأخبار الخلفاء والأمراء الرقيق ومثال ذلك:

قال أبو محمد الحسن بن محمد الصلحي، حدث أحد الخدم المختصين بخدمة المعتضد قصة حلم المعتضد برجل قتل امرأة بالنهر وسرق أموالها عند الفجر فأرسل من يأتي به من

---

١) ابن أبي عون، الأجوبة المسكته،ص١٢٥/ رياض قزيحة، الفكاهة والضحك في التراث العربي، ص٢٧٨.
٢) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ص٤٧/ فاضل الأنصاري، العبودية والرق، ص٩٦ - ص٩٧.
٣) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٢٠ - ص٢١.
٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(٢)، ص٦٣ - ص٦٤.

النهر."[١] "وكان سبب البيعة للمستكفي"ما حكاه بعض خواص توزون قال: دعاني صديق لي فمضيت إليه فذكر لي أنه تزوج إلى قوم وأن امرأة منهم قالت له ... خبر البيعة."[٢]

لقد كان لنقلهم بعض الأخبار آثار كبيرة ستظهر فيما بينته من آثار لاحقاً، ولقد كانت هذه الأسباب الثقافية هي أبرز الممارسات الثقافية التي مارسوها في بغداد وهي تلتقي مع الأسباب الاجتماعية بما تمثله من حاجات الناس وثقافتهم.

٣ .الأسبـاب الاقتـصادية:

الأسباب الاقتصادية عديدة ومتنوعة تبدأ بالمهن التي لا يمارسها السكان رغم حاجتهم إليها، وحتى إن مارسها بعضهم فهو لن يقبل بأن يكون أقل من رئيس تلك المهنة وتتمثل الأسباب الاقتصادية بما يلي:

- الـتـرف: كانت مظاهر الترف سبباً رئيسياً لشراء الرقيق والجواري فقد يكون عتق الرقيق مظهراً من مظاهر ترف السيد، لذا كان السيد حريصاً على إظهار خادمه بشكل جميل يدل على صاحبه، فعندما أعتق المتوكل ألف عبد في إعذار المعتز أمر لكل واحد منهم بمائة درهم، وثلاثة أثواب، وتقدم إلى صاحب الباب أن ينثر على خدام الدار والحاشية ما كان أعد لهم من أموال ...".[٣] لقد ظهر الخدم في كل موقف من مواقف هذه المناسبة، فكانوا جزءاً من تلك الأخبار التي نقلها من حضر هذه المناسبة وعبر عن إعجابه بما قدم، وبما حوى القصر من خدمٍ ومن مظاهر ترف عديدة بينتها هذه الرواية.

وكان وجوه بغداد يتشبهون بالخلفاء، فلما استوزر المقتدر حامد بن العباس سنة (٣٠٦هـ/٩١٨م) وكان موسراً له (٤٠٠) مملوك يحملون السلاح لكل واحد منهم مماليك، وكان يحجبه ١٧٠٠ حاجب ... وكان حامد ظاهر المرؤة كثير العطاء ... "[٤]

- أسباب مهنـية وحرفـية: كان العرب ومنذ العصر الجاهلي يأنفون من ممارسة المهن وان مارسها البعض، فرغم أن العرب مارسوا العديد من الحرف خاصة في بغداد إلا أنهم أيضا استعانوا بالرقيق للقيام بهذه الأعمال، بل إن بعضهم استثمر تلك الأعداد الضخمة من الرقيق في مشاريع كبيرة أبرزها:

---

١) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٤)،ص١٢٥-ص١٢٦.
٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٦٦.
٣)الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص١١٤ - ص١١٥.
٤) مجهول، العيون والحدائق، ج(٤)، قسم (١)، ص١٩٦./ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص٤٩-ص٥٠.

- العمل في الأرض والحدائق الخاصة والعامة: وهذه المهنة من أهم المهن التي مارسوها، ويظن البعض أن هذه المهنة لا تمارس في بغداد لأن الأراضي الزراعية تكون بعيدة عن المدن، إلا أن البساتين الملتصقة بالمنازل والحدائق التي أقامتها الدولة داخل هذه المدينة اضافة للاستثمارات الكبيرة التي قام بها أغنياء بغداد خارجها قد أدت إلى ازدهار هذه المهنة، " لقد امتلاك العديد من الملاكين الكبار أراضي محيطة بالبصرة، والتي تخربت نتيجة الفيضانات المتكررة، فاستخدموا أعداداً هائلة من الرقيق الأسود الذي جلبه النخاسون".[١]" وتزايدت أهمية الرقيق في نظام الإنتاج وبنية المجتمع مقابل قوت ضئيل من الدقيق والتمر"[٢]".

والرواية التي تتحدث عن بنت بدر مولى المعتضد وزوجة المقتدر وسبب تسميتها بالحرة، وكيف أن محمد بن جعفر الملقب بزوج الحرة تدرج من طباخ في مطبخها إلى أن تقرب لقهرمانها فصار وكيلاً للمطبخ، وترقى أمره حتى أصبح ينظر في ضياعها وعقارها وغاب عليها ... . "[٣]" لقد كان طباخاً لدى سيدته ثم أصبح المسؤول عن وارد أرضها وعمالها وما ينقص من أدوات للعمل وكل ما يرتبط بها من تسويق وغيره.

وعندما أراد ابن الجصاص أن يبحث عن جوهره المفقود بالبستان، استعان بغلام خبير في العمل بالبستان، وكان ابن الجصاص قبل أن يداهم ويصادر من قبل المقتدر، كان يلعب بجوهر قيمته خمسون ألف دينار، وهو ببستانه، إذ كان من عادته إذا ضاق صدره أن يلعب به. فلما دخل الناس بالزعقات والمكروه نفض ما في حجره من الجوهر، وبعد أن حبس وخرج قام إلى البستان ومعه غلام ينثر بين يديه، وهو يفتش ما ينثره، وأخذ الواحدة بعد الواحدة، إلى أن وجد الجميع و لم يفقد منه شيئاً."[٤]"

ولعل حركة الزنج التي كانت بعيدة عن عاصمة الخلافة بغداد قد أثرت بشكل أو بآخر عليها، فدفعت الخليفة المعتمد وأخاه الموفق لمواجهتها وهي توضح لنا أن أغلب الرقيق الذين شاركوا في هذه الحركة هم من رقيق الأرض، ففي النصف من شوال في سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨م) ظهر في نواحي البصرة، رجل زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب...،جمع الزنج الذين كانوا يكتسحون السباخ فاستغواهم،

---

١) فيصل السامر، ثورة الزنج، ص٢٧.
٢) فاضل الأنصاري، العبودية والرق، ص٨٧.
٣) ابن قيم الجوزية، ذم الهوى ، ص٢٨٨-ص٢٨٩/ وانظر التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة ، ج(5)،ص١٠-ص١٢.
٤) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٧)، ص٢٣١-ص٢٣٢.

ودعا الناس إلى طاعته فتبعه جماعة وأباه جماعة فوقع بينهم قتال ... فلقيه غلمان، ثم صار إلى مكان آخر فأخذ منه خمسمائة غلام، ثم صار إلى موضع آخر فأخذ منه مائة وخمسين غلاماً وجمع من الغلمان خلقاً كثيراً، وقام فيهم خطيباً فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم الجواري والغلمان، واجتمع إليه السودان وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، وسرا على قرية فإنتهب منها مالاً وجوهراً وغلماناً ونسوة وذلك أول سبي سباه."[١]وتبين الرواية حاجة مالكي الأراضي الكبيرة للرقيق، فالأعداد التي جمعها صاحب الزنج في أيام تبين ضخامة هذا العدد.

وهذا الرجل حصل من كل مكان نزله على عدد من الغلمان سواء كان ذلك في البصرة أو غيرها من مدن العراق، فأثار الرقيق على أسيادهم، ووعدهم بما يحلمون به أن ينقلب وضعهم من رقيق إلى أسياد، ولهذه الحركة أسباب عديدة منها الظلم الذي كان يقع من السيد على غلامه أو جاريته، إضافة لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية عديدة يطول شرحها.

- <u>أعمال البناء:</u> وقد يكون هذا الأمر غير واضح في الكثير من الروايات إلا أن "الخلفاء والأمراء بالغوا في توسيع أبنيتهم وتأنقوا في زخرفتها"[٢]"، ونستطيع أن ندرك أن المتوكل الذي بنى الكثير من القصور في بغداد وسامراء استخدم الكثير منهم ومن غيرهم ممن يتقنون عمل البناء، وتذكر الروايات أن المتوكل بنى قصوراً كثيرة منها الجعفري المعروف بالماحوزة وقصور المختار والبديع ...وغيرها. "[٣]"

وخرج حامد بن العباس وزير المتوكل يوما يريد التنزه في بستان له فمر على شيخ يولول هو وعياله فسأل عن الأمر فقيل أن دار الرجل التاجر احترقت بكل ما فيها، فرق له حامد فأمر وكيله بأن يعيد بناء البيت، ويرتبه، ويشتري لهم كسوة الشتاء والصيف، وأن ينهي كل ذلك قبل أن ينهي نزهته، وإلا فعل به أفعال قبيحة، فقام الوكيل بكل ما أمره وكان الوقت صيفا، فكانوا ينقضون بيتا ويقيمون فيه من يبنيه، وقيل لصاحب الدار اكتب جميع ما ذهب منك حتى المكنسة والمقدحة، وأنهى البيت في ذلك اليوم وأحضر كل ما طلبه، فتقدم حامد إلى الجهبذ* وهو محاط بالدعاء له بخمسة آلاف درهم يدفعها إلى الشيخ."[٤]"

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٦٠-ص٧٨.
٢) طه الراوي، بغداد مدينة السلام، ص١٠٦.
٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص١٢١.
* الجهبذكلمة مدلولها تغير بمرور الزمنولا يصح لها معنى واحد، ويقال أنه النقاد الخبير بغوامض الأمور، العارف بطرق النقد، أو محاسب أو كاتب./ انظر الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٥٧.
٤) ابن الجوزي، المنتظم،ج٨، ص٥١-ص٥٢

وفي قصة الخليفة المعتضد ودقة ملاحظته عندما رأى غلاماً أسود مع الصناع الذين يبنون له بيتاً وكان يحمل ضعف ما يحملونه فشك في أمره، فسأل عنه، وعلم أنه كان يعمل في أتاتين ** الآجر سنين، وأنه وهو يعمل في ذلك رأى رجلا يحمل هميان*** فيه دنانير، فقتل الرجل، ووضعه في الأتون وطينه، وكان المعتضد قد أحس أن ورآه حكاية، ولم يخبره بها إلا بعد أن ضربه مائة مقرعة."[١]"

- الـصرافة (الصيرفة): ويعد العمل بالصرافة من أخطر الأعمال التي قد يمارسها الرقيق لأن الأمر يحتاج إلى دقة لتمييز العملة الزائفة من الجيدة، ومعرفة بالأوزان المعتمدة من قبل الدولة، وما يقابل الدنانير من الدراهم مثلاً، وغيرها من قواعد خاصة بالصرافة ويقول الجاحظ:"... ومن مفاخر السند أن الصيارفة لا يولون إلا منهم ومن أولادهم"."[٢]" ويبدو أن الرقيق السندي يتمتع بأمانة عالية وخبرة جيدة في هذا المجال، واستخدام الرقيق من الأعاجم وغيرهم في سك النقود، وجباية الخراج وفي الدواوين منذ العصر الأموي وقد استمر في العصر العباسي أيضا."[٣]"

وعرف أيضا الهند والنوبة بحفظ الأموال."[٤]"

وهناك أنواع من الرقيق يقومون بحفظ الأموال ويتمتعون بالأمانة أكثر من غيرهم، وقيل: ومن أراد الجارية خازنة وحافظة فرومية"."[٥]"

- العـمل في المـخابـز: لعل الرواية السابقة التي تتحدث عن المعتضد والخادم الأسود ترشدنا إلى أن العمل في المخابز كان من مهمة العبيد خاصة من يمتلكون القدرة البدنية الجيدة على ذلك العمل من الرقيق الأسود وغيرهم.

- الـغـوص: إن الغوص للبحث عن اللؤلؤ مهمة شاقة وخطيرة يفقد المرء بها حياته أحياناً ليحصل على ما يريد، وهذه المهنة عرفها ساحل الخليج العربي منذ القدم خاصة العراق المطل على مساحة كبيرة من هذا الخليج، ومثال ذلك: " أن شخصاً من بعض التجار في أصناف الجوهر يجهز كل سنة جماعة من مماليكه إلى المغاص ليغوصوا على اللؤلؤ في

** مفردها آتون، وهو الموقد الكبير أي الفرن الخاص بالخبز/ انظر المعجم الوسيط، م(١)، مادة (أ ت ن)، ص٤.

*** الهميان: شداد السراويل، وكيس للنفقة يشد في الوسطوالجمع هماين وهمايين/ المعجم الوسيط، م(٢)، مادة(هـ م ي)، ص٩٩٦.

١) التنوخي، نشوار المحاضرة ، ج٧، ص٦٨-ص٦٩.
٢) الجاحظ، فخر السودان على البيضان الرسالة الرابعة، م(١)، ص١٦١.
٣) صالح العلي، بغداد مدينة السلام، ١٩٨٥م، ص٨٦.
٤) ن. م.
٥) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، ص٣٨٣.

الوقت المعتاد وهو في شهرين في السنة فاتفق أنه أنفذ جميع ما يملكه في ذلك ولم يحصل على طائل."[١] وهذا الرجل يجلب هذا العدد الكبير من المماليك ليكون ثروة ومهما تكن الخسارة فقد حاول أن يستثمرهم في عمل اعتقد أنه مربح، وقد يقول البعض إن البحر بعيد عن بغداد وأن هذه الأعمال يمارسها أهل تلك المنطقة فقط، ولكن من يملك المال يستطيع أن يستثمر في مثل هذا العمل، وإن كان من سكان بغداد وبعيدا عن الخليج.

- التزيين (الحلاقة) والحجامة: ومهمة التزيين والحلاقة مهمة قديمة إذ طالما اعتنى الإنسان بمظهره وطوره خاصة مع حث الإسلام على الطهارة والنظافة مثال ذلك، قال بعض النخاسين: ربع درهم حناء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة"[٢]" ومع ذلك فقد أتقن العديد منهم فن التزيين وقال أبو الحسين: "دخلت إلى ابن الجصاص في داره ببغداد فرأيت خصياناً بيضاً مزينين(المزين الحلاق والحجام)". "[٣]" لقد جمع المزينون بين مهنة التزيين والحجامة خاصة من كان منهم خبيراً بالحجامة.

- أسباب مالية إدارية:

وتتعلق هذه الأسباب في إدارة أموال الناس والخلفاء التي يدخل الرقيق ضمنها أو يقومون بأعمال إدارية نيابة عنهم منها التالي:

- الثروة: يعد الرقيق ثروة مهمة لدى سيده ومتى احتاج إلى ثمنهم باعهم وهذا ماحدث في قصة المتفقه التي أخبرنا بها الدارقطني فرغم حبه لجاريته اضطر إلى بيعها عندما ضاقت به الأمور."[٤]"

وتقدر أثمانهم كما يقدر سعر الذهب والفضة، لذلك عند الحديث عن ثروة أحدهم، يذكرون الرقيق الذي قد يوزع بين الورثة أو يباع، ويوضح ذلك ما خلفته السيدة (شجاع) والدة المتوكل ومقداره خمسة آلاف ألف دينار عينا وورقا، وجوهرا قيمته ألف ألف دينار، ومن الفرش والرقيق والدواب وغيره ما قيمته ألف ألف دينار، وخلفت ١٤ ضيعة مبلغ غلتها في السنة أربعمائة ألف دينار وماتت سنة (٢٤٧هـ/٨٦١م)."[٥]"

"وقتل المتوكل "وحاصل بيت ماله من العين ألف ألف دينار، ومن الورق خمسون ألف ألف درهم، وخلف من الخدم والجواري أحد عشر ألفا منهم ستة آلاف خادم، وخلف من الغلمان

---

١) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج١، ص٤٧٤-ص٤٧٥.
٢) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، ص٣٨٧.
٣) التنوخي، نشوار المحاضرة ، ج(٣)، ص٤٣. ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٥١.
٤) ابن قيم الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص١٢٧-ص١٢٨.
٥) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٢٣٥.

المماليك ثمانية آلاف... وللسيدة شجاع أمه ستمائة ألف دينار... وأرزاق الحشم عشرة آلاف ألف درهم ونفقات ذوات الخاصة خمسة آلاف ألف درهم ... وما يبتاع من الرقيق مائة ألف دينار، وأرزاق الفراشين ٨٠٠ألف دينار... ."[١]" وهذه الأموال سنوية.

وقال إبراهيم بن نوح أن الذي خلفه المكتفي مما جمعه المعتضد: وهو من بعده مائة ألف ألف دينار من ذلك العين والورق، والأواني المعمولة منهما عشرون ألف ألف دينار، الكُراع والسلاح والغلمان عشرون ألف ألف دينار، والعقار، والأملاك عشرون ألف ألف دينار"."[٢]" ويظهر الرقيق عنصراً رئيسياً من عناصر تركة كل خليفة بعد موته يتم توزيعهم كالعقارات والأموال بين الورثة.

- المـصادرات: لقد كان حكم الخليفة على عماله وغيرهم ممن يخالفون أوامره لا يكتمل إلا بمصادرة أموالهم التي كان الرقيق جزءاً منها، ففي سنة (٢٣٣هـ/٨٤٧م) قبض المتوكل على عمر بن فرج في رمضان فوجد في منزله خمسة عشر ألف درهم وقبض جواريه وفرشه... ولأخيه محمد بن فرج مائة ألف دينار، وأخذ عياله فكن مائة جارية."[٣]"

وغضب المتوكل على أبي الوزير سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م وأمر بمحاسبته فحمل نحواً من ستمائة ومائة ألف وأخذ له من متاع مصر اثنين وستين سفطاً، واثنين وثلاثين غلاماً وفرشاً كثيراً."[٤]"

ولما ولي المتوكل أغراه ابن أبي داؤد مع الأحقاد القديمة فتقدم إلى ايتاخ بالقبض عليه، فأرسل إليه إيتاخ فلما دخل أخذ سيفه وقلنسوته ودراعته، فدفعها إلى غلمانه، وقال انصرفوا، وبعث إلى داره فأخذ جميع ما فيها من متاع وجوار وغلمان ودواب، وأمر أحمد بن أبي خالد بقبض ضياعه وضياع أهل بيته فكان الذي أخذ منه (٩٠) ألف دينار..."[5]" وفي سنة (٣٠٢هـ/٩١٤م) قبض على أبي عبد الله بن الجصاص الجوهري، وأخذ منه ما قدره ستة عشر ألف ألف دينار عينا وورقا وآنية وثياباً وخيلاً وخدماً."[٦]"

وكما كان الرقيق عنصراً من عناصر تركة الخليفة، بسبب أثمانهم، فقد كانوا أيضاً جزءاً من المصادرات.

---

١) ابن الزبير، الذخائر، ص٢١٨ -ص٢٢٠.
٢) الثعالبي، لطائف المعارف، ص١١٨.
٣) ابن الجوزي، المنتظم،ج٦، ص٤١٢.
٤) ن.م ، ج٦، ص٤١٤.
5) ن.م ، ج٦، ص٤١٨-ص٤١٩.
٦) ن.م، ج(٧)،ص٤٤5.

- الهدايا: وتظهر الهدية في الجوانب الاقتصادية بشكل كبير رغم أنها تكلف صاحبها الكثير من الأموال إلا أنه قد يحصل على أضعافها ومثال ذلك ما نقله ابن الجوزي عن أبي علي الفارسي قال: دخلت مع شيخنا أبي إسحاق الزجاج على القاسم بن عبيد الله الوزير، فورد إليه خادم وساره بشيء استبشره ... ثم قال لأبي إسحاق الزجاج أنه كانت تختلف إلينا جارية لإحدى المغنيات، فسمتها أن تبيعيني إياها فامتنعت من ذلك، ثم أشار عليها أحد من كان ينصحها بأن تهديها إلي رجاء أن أضاعف لها ثمنها فلما وردت أعلمني الخادم بذلك .... "[١]"

والهدية تشمل في العصر العباسي الكثير من الجواري والرقيق مع تعدد طرق تقديمهم، وكانت الهدية تكلف الكثير من الأموال خاصة إذا كانت إلى شخص مهم أو للخليفة، وكما ذكرنا سابقا أفضل الهدية من نساء القصر سواء كن سيدات حرائر أم جواري هي إهداء الجواري، فهذه جارية المتوكل شجرة الدر، أهدت المتوكل عشرين وصيفة مع عشرين غزالاً."[٢]" وكانت (فريدة الصغرى) جارية الواثق لعمرو بن بانة، فاهداها للواثق ثم صارت للمتوكل...."[٣]"

"وقال علي بن الفتح المعروف بالمطوق، أهدى زيادة الله بن الأغاب صاحب المغرب إلى المكتفي بالله في سنة (٢٩١هـ/٩٠٣م) هدايا لها قدر جليل، فيها مائة خادم ومائة جارية"."[٤]"وكذلك إرسال الخليفة الهدية لمن يريد، فيكلف الخليفة خدمه بإرسالها كما فعل الراضي بالله عندما أرسل راغب الخادم بهدية إلى أبي الحسن بجكم في بعض نزهه سنة (٣٢٨هـ/٩٣٩م)."[٥]"

وتعد الهدية من الرقيق أفضل هدية في ذلك العصر لان مسألة استثمارها بأشكال عديدة ممكنة، كما أنها توفر على الدولة شراء ما تحتاجه منهم في بعض الأوقات.

- حمل أموال الخلفاء وجواهرهم الثمينة: ويقوم الخدم أيضاً بحمل الجواهر الخاصة بمنصب الخلافة من مثل الخاتم والبردة والسيف، فعندما أراد ابن طاهر خلع المستعين بعد اتفاقه مع المعتز أشهد عليه القضاة والفقهاء، ثم أدخل عليه البوابين والخدم، وأخذ منه جوهر الخلافة بمعاونة الخدم."[٦]"فكان بعضهم من المؤتمن على أموال الخلافة.

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٤٨.
٢) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج(١)، ص٤٥٢.
٣) السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص٤٩.
٤) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص٤٧.
5) ن.م ، ص٤٦.
٦) الطبري، تاريخ،ج٩، ص٣٤٥/ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج(٤) ص.١٧٨

وكان الخليفة إذا أراد أن يقدم أموال للناس خاصة في مناسبة عامة كالصلاة يوم الجمعة فإنه قد يستعين بأحد خدمه لذلك، فعندما خطب الراضي بالله خطبة الجمعة وكان آخر خليفة يخطب على منبر بعدما خطب خرج وتبعه خادم بخمسمائة دينار وثياب ففرقها."[١]"

- تحصيل الأموال: وهذه المهمة قد تحرج السيد أن يقوم بها بنفسه؛ لذا يختار من يقوم بها عنه لذلك استعانت الحرة بطباخها ليكون وكيلا لعقارتها، وقام القهرمانات في هذه الفترة بتحصيل الأموال لسادتهم بشكل أكبر، حدث هشام قال:" كنت بحضرة حامد بن العباس، وقد نظر في وزارة المقتدر بالله إذ خرجت أم موسى القهرمانة وقالت له: أنفذني أمير المؤمنين إليك وأمرني أن أقول لك في مجاس عمالك كان ابن الفرات يحمل إلي في كل يوم خريطة فيها ألف دينار...""[٢]"

"أنبأنا علي بن محمد بن أبي جعفر بن البهلول قال: طلبت السيدة أم المقتدر بالله كتاب وقف ضيعة من جدي وكانت تريد إلغاء ذلك الوقف فأرسلت القهرمانة في هذه المهمة"."[٣]"

- أسباب اقتصادية عسكرية: لقد ظهر في هـذا العـصر فئـات اسـتغلت تجـارة الرقيق بشكل كبير فكان بعض القادة أو الأشـخاص يـشتري الرقيـق المـدرب عـسكرياً، أو الذي يدربه عسكرياً لكي يقاتل إلى جانبه فـي بعـض الحـروب ولـم يكـن جميـع أفـراد الجيش غير العرب من الرقيق بل كانـت هنـاك فئـة معينـة مـن الرقيـق أصـولها غيـر عربية وكان بعض غير العرب أحراراً وقـادة فـي الجـيش العباسـي، خاصـة أنـه يقاتـل مقابل مبلغ من المال ومثال ذلك ما حدثنا به أبو الحسين علي بـن هـشام، قـال حـدثنا أبـو جعفر محمد بن يحيى بن زكريا بن شيرازاد قال: "لما خـرج المقتـدر هـارون بـن غريـب الخال (خال المقتدر) مع مؤنس ونـصر، والقـادة لمحاربـة القرمطـي حـين وافـى مـن الكوفة عرضا الجيش لأنه كان ديوان العرض علـى صـاحبي ابـن الخـال، وكنـت أكتـب عليه وعلى أمره كله، فأمره المقتدر بعرض الجيش بالكوفـة، لـئلا يكـون قـد أخلـى ممـن جرد إلى الحرب أحداً، فتقدم إلي ابن الخال بـذلك، فعرضـتهم، فكانـت العـدة مـن سـائر الفرسان، والرجالة، مع من جرد من الحجرية وخـدم الـدار اثنـان وخمـسون ألـف رجـل مرتزق أو واحد وخمسين (الشك من ابن شيرزاد)، وهذا سـوى مـن يتـبعهم ممـن لا رزق

---

١) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص١٠٦.
٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج(٤) ص١٤٤/ الاصفهاني، الديارات، ص٢١٤/ / التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٨)، ص٨٥ - ص٨٨.
٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص١٠٥-ص١٠٦.

له على السلطان وإنما رزقه على صاحبه، قال أبو جعفر: وكان قد تخلف في بغداد نازوك (قائد تركي) وعسكر برسمه، ورسم الشرطة وسبعة آلاف فارس، وراجل، بقي في دار الخليفة ممن لم يخرج، ألف غلام من الحجرية، وألف خادم أقل أو أكثر ممن ترك لحراسة الدار، وهذه العدة سوى من ترك في النواحي من الشحن إلا من استدعي ممن كان في السواد لمعاون بغداد، مثل طريق خراسان، وطريق دجلة، وسقي الفرات وهذه النواحي القريبة."[١]

فحرب القرمطي تظهر أن الدولة اعتمدت على رقيق رزقهم ليس على السلطان بل على أسيادهم المشاركين في هذه الحرب والمشاركين مقابل ما يدفع لهم من مال، وتبين أن الأعداد الكبيرة من الرقيق المخصص للحراسة في القصور قد يتم استخدامها في الحروب.

وهذه الأسباب الاقتصادية الكثيرة تلتقي مع الأسباب السياسية وتتشابك معها، فإذا كان بعضهم اشترى الرقيق لتحقيق مكسب اقتصادية، فإنه أيضا سيشتريهم لتحقيق مكاسب سياسية.

٤. **الأسباب السياسية:**

استعانت الدولة العباسية منذ نشأتها بالرقيق، خاصة في الجيش، واستقدم الرقيق التركي قبل تولي المعتصم الخلافة زمن المأمون الذي استكثر من العناصر التركية، وبقي الترك رافدا رئيسيا من روافد الجيش العباسي حتى مجيء الحكم البويهي إلى بغداد وبعد قدومهم فما هي الأسباب السياسية التي دفعتهم إلى شراء الرقيق التركي وغيره من أنواع الرقيق؟.

- **أسباب سياسية خارجية تتمثل بالتالي:**

- الحرب: خاضت الدولة العباسية الكثير من الحروب رغم أن أغلبها كان داخل نطاق الدولة الإسلامية، كما تصدت للعديد من الفتن؛ لذا كان لا بد لهم من الاعتماد على الرقيق، خاصة أن الرقيق تسهل قيادتهم وينفذون أوامر قائدهم الذين لا يعرفون غيره بعكس الرجل العربي الذي ينتمي إلى قبيلته قبل أن ينتمي إلى هذه الدولة أو غيرها، ومع ذلك فأننا لا نستطيع

---

١) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج٨، ص١٨١-ص١٨٢.

أن ننفي وجود قادة من أصول عربية في الجيش العباسي بل كانت لهم فرق محدده ينتمون لها ولعريب في المستعين قصيدة من أبياتها بيت في الموالي تقول فيه:

والموالي فإنهم عصمة الملك وخير الكـفاة والأنـ ـصار "[١]"

وميز العرب بين الرقيق الذي يصلح للقتال وبين من يصلح لأعمال أخرى "ومن أراد العبيد للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة"."[٢]" لما عرف عنهم من صفات البأس والقوة. ومن الغزوات التي بينت حاجة الدولة إلى الرقيق ما كان سنة (٢٤٨هـ/٨٦٢م) إذ أغزى المنتصر وصيف التركي صائفة أرض الروم وأرسل مع وصيف رجالاً من الشاكرية، والجند والموالي زهاء عشرة آلاف رجل فكان على مقدمته مزاحم بن خاقان، أخو الفتح بن خاقان، وعلى الساقة محمد بن رجاء، وعلى الميمنة السندي بن بختاشة، وعلى الدراجة نصر بن سعيد المغربي."[٣]"

وفي فترة الضعف هذه امتلك عدد من القادة في الجيش الرقيق لتنفيذ سياسات معينة، فكان كل قائد من القادة يمتلك مجموعة من الغلمان الأتراك وإن كانوا لا يزالون لا يعرفون اللغة العربية فهذا (باغر) أحد الذين تآمروا على قتل المتوكل يجمع الجماعة الذين بايعوه على قتل المتوكل أو بعضهم مع غيرهم، فلما جمعهم وناظرهم ووكد البيعة عليهم كما وكدها في قتل المتوكل، قالوا نحن على بيعتنا، فقال: إلزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفاً في الوقت الذي يعاتب فيه بغا وصيفاً في أجابته لرغبة المستعين بنقل أموال إيتاخ إلى باغر بقوله:

"أردت أن تزيلني عن مرتبتي، وتجيء بباغر فتصيره مكاني، وإنما باغر عبد من عبيدي ورجل من أصحابي. "[٤]"

وفي الفتنة التي حدثت زمن المهتدي والتي أدت إلى انقسام الجيش كان بعضهم مع المهتدي والقسم الآخر ضده وأكثر الفرسان الذين مع المهتدي من الفراغنة، وأكثر الرجالة من المغاربة وفي القسم الثاني كانت الغالبية من الأتراك "[٥]".وإذا أراد خليفة تعيين أمير على منطقة أرسل معه من الرقيق ما أراد فقد عقد المعتز لموسى بن بغا الكبير على الجبل، ومعه من

---

١) ا، الحدائق الغناء في أخبار النساء، ص١٠٦ - ص١٠٧.

١) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، ص٣٨٣.

١) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٤٠ -ص٢٤١.بن جميل، الحدائق الغناء في أخبار النساء، ص١٠٦ - ص١٠٧.

٢) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، ص٣٨٣.

٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٤٠ -ص٢٤١.

٤) الطبري، تاريخ،ج٩، ص٢٧٩.

٥) ن.م،ج٩، ص٤٦٦.

الجيش يومئذ من الأتراك ومن يجري مجراهم ألفان وأربعمائة وأربعون رجلا، منهم مع مفلح ألف ومائة وثلاثون رجلا."[١]

وكان كل قائد يحاول إظهار سطوته في بغداد على غيره من القادة، وفي سنة (٢٥٣هـ/٨٦٧م) توفي محمد بن عبد الله بن طاهر فوقع بين عبيد الله أخو محمد بن طاهر وبين حشم أخيه محمد بن طاهر تنازع حتى سلوا السيوف...."[٢]

وفي سنة (٢٦٩هـ/٨٨٢م) وثبت العامة بإبراهيم الخليجي، فانتهبوا داره، وكان السبب في ذلك أن غلاماً له رمى امرأة بسهم فقتلها، فاستعدى السلطان عليه، فبعث إليه في إخراج الغلام، فامتنع ورمى غلمانه الناس، فقتلوا جماعة وجرحوا جماعة، فمنهم من أعوان السلطان رجلان، فهرب وأخذ غلمانه ونهب منزله ودوابه."[٣]

- <u>التـجسـس</u>: أما التجسس فله تاريخ قديم واستعان الخلفاء بالخدم للقيام ببعض مهام التجسس سواء كان التجسس على عدو أو على أحد موظفي الخليفة، أو داخل دار الخلافة، "واستخدم بعض الرقيق المقدم كهدية للمراقبة والتجسس على الأعوان، وينسب للمأمون أنه كان يرسل بعض وصفائه الموثوقين كهدايا لعماله للتجسس عليهم"."[٤] فمثلاً كثرت الاستخبارات بين الطولونيين والعباسيين زمن المعتمد والموفق وفي بلاط كلا منهما ."[٥]

فربما كان خادم الرجل أو جاريته عينا عليه، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده أو اخوته، أو قد يقيم ولاة العهد رقباء على الخلفاء من الخدم والندماء."[٦]

وتمثل المراسلات جانبا مهما من جوانب التجسس، ففي حرب الموفق بالله للزنج وحصاره لهم، رأى الموفق أن يتابع الإيقاع بهم ليزيدهم بذلك ضراً وجهداً، فخرج إلى الموفق في هذا الوقت في الأمان خلق كثير، فتفرقوا عن عسكرهم إلى القرى والأنهار النائية، فأمر الموفق جماعة من قواده وغلمانه السودان أن يقصدوا القوم ويستميلوهم، فمن أبى قتلوه، فواظبوا على ذلك فحصلوا جماعة كثيرة."[٧] فكان لوجود الزنج في جيش الموفق دور كبير في تحقيق انتصاره في الحرب، إذ استخدم عناصر من الزنج التابع له ليدخلهم في جيش صاحب الزنج ويحرض من بقي معه على تركه بتخويفهم بقوة الموفق وجيشه كما يظهر من هذه الرواية.

---

١) ن.م، ج٩، ص٣٧٣.
٢) ن.م، ج(٩)، ص٣٧٦ - ص٣٧٧.
٣) ن.م، ج٩، ص٦١٣.
٤) فاضل الأنصاري، العبودية والرق، ص٨٩.
٥) (محمد خريسات، وحسن محمد النابودة)، صاحب الخبر في الدولة الإسلامية، ص٣٨٥ - ص٣٨٦.
٦) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص٢٩٥.
٧) ابن الجوزي، المنتظم،ج(٧)،ص١٧٧.

- الـفـداء: إذ استخدم المقتدر بعض الرقيق المخصص لحراسة قصره للقيام بافتداء أسرى مسلمين عند ملك الروم."[١]"
- الهدايـا: وتبقى الهدايا من العناصر الرئيسية في السياسة الخارجية، فبعضهم قد يقدم الهدية لدفع الشر عنه وهذا لم يحدث في العصر العباسي الثاني إلا بعدما أظهر أبو أحمد الموفق، وابنه المعتضد قوة جعلت ولاتهم يخافون على أنفسهم فأهدى عمرو بن الليث إلى أبي أحمد الموفق بالله في سنة (٢٧٥هـ/٨٨٨م) خمسين حملا دراهم، ومائة فرسٍ رائقة من عتاق الخيل، وجماعة من الغلمان، وطرفاً من هدايا خراسان."[٢]" وكانت خراسان مضطربة بسبب حركة الصفار في تلك الفترة.

وبعد موت الموفق كثرت الهدايا السياسية المقدمة للمعتضد، فهذا والي مصر أبو الجيش خمارويه قدم إلى المعتضد مع ابن الجصاص عشرين حملاً مالاً، وعشرة خدم بدوابهم."[٣]" وهو ممن أظهر عداءه للدولة العباسية.

واهدي إلى المعتضد سنة(٢٨٠هـ/٨٩٣م) من فارس مع داود بن سليمان خمسون غلاما بدوابهم وسلاحهم، و(٢٠) بعيرا بمحامل في كل محمل غلامان، وسبعون دابة ... .وأهدى إليه إسماعيل بن أحمد السامانى صاحب ما وراء النهر في هذه السنة بعينها (٤٩) جملاً عليها محامل فيها غلمان مرد أتراك وخزر، بأقبية سمور و(52)غلاماً أتراكاً وخزراً بدوابهم وسلاحهم."[٤]"

وقدم إليه إبراهيم بن أحمد الأغلب وكانت الهدايا من غنائم فتح صقلية خمسون جارية، ومائة خادم ومائة وإحدى عشرة فرساً. وأهدى أبو الجيش خمارويه إلى المعتضد مع ابن الجصاص ...عشرة خدم."[٥]"

وأهدى إليه خمارويه بن أحمد سنة (٢٨٧هـ/٩٠٠م) مع عبد الله بن الفتح صاحبه نيفاً وخمسين دابة عليها الغلمان السود."[٦]"وقدم زيادة الله بن الأغلب للمكتفي سنة (٢٩١هـ/٩٠٣م)مائة خادم ومائة جارية ... ."[٧]"

وتمثل هذه الهدايا شكلاً من أشكال البيعة وإظهار الولاء، وهذه الهدايا تعتبر عنصراً من عناصر التقريب السياسي بين المختلفين سياسياً، أو لكسب ود الخليفة والتقرب إليه.

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٧-ص٨.
٢) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص٣٧.
٣) ابن الزبير، الذخائر، ص٤١.
4) ن.م، ص٤٢.
٥) ن.م. ص٤١.
٦) ن.م. ص٤٢-ص٤٤.
٧) ن.م. ص٤٧.

وكانت الهدايا عاملاً للتقرب بين الدول المختلفة إذ أهدت "برتانيت الأوتارية" ملكة الإفرنجة وما والاها إلى المكتفي بالله مع علي الخادم، أحد خدم زيادة الله بن الأغلب سنة (٢٩٣هـ/٩٠٥م) خمسين سيفاً وعشرين خادماً صقلبياً وعشرين جارية صقلبية حساناً لطافاً، مع هذا الخادم الذي أسر مع جماعة أرسلهم ابن الأغلب لغزو بلاد الفرنجة فقربته الملكة واصطفته وفي هذه الرسالة تطلب الملكة الزواج من المكتفي."[١]"

وفي هذه الرواية رغم تفاصيلها الكثيرة نقاط تثير الشك لأن الملكة تبدأ الرسالة بالبسملة، إضافة إلى أن الهدية لم تصل للمكتفي، وأن رسالة جواب المكتفي تكرر ما جاء في رسالة الملكة، مع موت الخادم في الطريق، وفي هذه الفترة كانت الدولة العباسية ضعيفة حتى مع تحسن وضعها في فترة حكم المعتضد، إضافة إلى وجود قوة جديدة مجاورة للفرنجة ظهرت في الأندلس وهي الخلافة الأموية التي أعلنها عبد الرحمن الناصر سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م)، وكانت فترة حكمه التي استمرت خمسين سنة أزهى فترات التاريخ العربي الإسلامي في الأندلس.

- <u>أسباب سياسية داخلية:</u>

- <u>الـمراسلات:</u> وكان عمال البريد في المناطق المختلفة جواسيس للخلفاء على الولاة، وكان الذي يقوم بمهمة إيصال بعض الرسائل المماليك، وسنلاحظ دورهم في الكثير من الروايات التي سنذكرها في نقل الرسائل، إذ كانوا عنصراً هاماً لنقل الرسائل الشفوية والمكتوبة بين الخليفة وقادته ، أو عماله ، أو غيرهم، تكون بعض تلك الرسائل سرية ويكون ذلك الخادم ممن يحفظ ذلك السر، ومن ما حكاه الصولي قال كنت يوما بين يدي أمير المؤمنين الراضي بالله إذ دخل عليه بعض الخدم برقعة دفعها صاحب الخبر الملازم لمجلس أبي عمر القاضي."[٢]" ويقول ولهاوزن: أن الطبري في الأعوام المتأخرة لا يؤرخ الحوادث وحدها بل يؤرخ أيضاً موافاة أخبارهم إلى دار الخلافة."[٣]"

وكانت الجواري تقوم بتبليغ رسائل الخلفاء، عندما يحتاج الخليفة إلى ذلك،وذكر أن (قرب) جارية (قبيحة) جاءت برسالة إلى المستعين من المعتز يسأله أن ينزل عن ثلاث جوار كان المستعين تزوجهن من جواري المتوكل فنزل عنهن وجعل أمرهن إليه فوجه إليه محمد بن عبد الله بقرب خاصة المعتز وجماعة."[٤]"

---

١) ن.م. ص٤٨-ص٥٠.
٢) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص١٥٨-ص١٥٩.
٣) الدولة العربية وسقوطها،ص٤٤٤.
٤) الطبري، تاريخ ،ج٩، ص٣٤٩.

لقد كانت العديد من الرسائل المرسلة في العصر العباسي الثاني من الرسائل الشفوية، بسبب الفوضى السياسية والأمنية في هذه الفترة وعدم ثقة الخليفة بمن حوله، أو عدم ثقته بأن ما يرسله لا يصل للآخرين أو تزوير ختمه، فاعتقد بعضهم أن الرسائل الشفوية هي الحل الأنسب لتجنب ذلك، ولم يلتفت إلى كون بعض من يضع ثقته فيه من الخدم قد يخون هذه الثقة ويوصلها إلى من لا يرغب أن يعرف مضمونها.

-الـحراسـة: كانت الحراسة مرتبطة لفترة طويلة بالخلفاء وبالأشخاص المعروفين في بغداد خاصة من الأثرياء الذين يخافون على منازلهم من السرقات، أو من الاعتداءات، إلا أن الحاجة للحراسة ازدادت في هذه الفترة خاصة مع ازدياد الفوضى داخل بغداد بسبب كثرة الجند التركي الذي كان يجهل أعراف المدن ويستبيح كل شيء؛ لذا استعان الجميع بمن يقدم له الحماية فكان الرقيق في مواجهة الرقيق،كما أن الطرق لم تعد آمنة بسبب القرامطة خاصة طريق الحج "إذ خرج أعراب على الحاج المنصرفين إلى مكة سنة (٣٠٢هـ/٩١٤م) فأخذوا ما معهم من العين والأمتعة واستاقوا من جمالهم ما أرادوا وأخذوا من النساء ٢٨٠امرأة من الحرائر سوى المماليك وكان الذي حج بهم الفضل بن عبد الملك"."[١]"

وقام الرقيق بحراسة القصور وكان من يتولى الحجابة بالقصر الغلمان المعتقون، وهم مماليك الخلفاء."[٢]"

وقام بعضهم بمهمة حراسة السجون وفي سنة (٢٧٢هـ/٨٨٥م) حبس عدد من قادة الزنج في دار محمد بن عبد الله بن طاهر بمدينة السلام، في يد غلام من غلمان الموفق."[٣]"وحبس الموفق ابنه المعتضد، فأخرجه يأنس الخادم ومؤنس الخادم، وصافي الحرمي، وغيرهم من خدم الموفق وغلمانه، وساروا به إلى الموفق."[٤]"

وفي سنة(٢٨٤هـ/٨٩٧م) ظهر شخص في يده سيف في دار المعتضد بالله بالثريا فمضى إليه بعض الخدم لينظر من هو فضربه الشخص بالسيف، وبلغ السيف إلى بدن الخادم الذي هرب."[٥]" لذا كان البعض يشدد على غلمانه بضرورة التيقظ في أثناء الحراسة، ومثال ذلك أن عمرو بن الليث، كان له بيت ينام فيه، ويحرسه غلمان له ليلا فانتبه ليلة، فوجد بعض

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٤٤٦.
٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص٢٥٢.
٣) الطبري، تاريخ، ج(١٠)، ص١١.
٤) المسعودي، مروج الذهب،ج(٤) ص٢٤٣.
٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٣٠١/ الطبري، تاريخ، ج(١٠)، ص٦٣ - ص٦٤.

الغلمان، قد استند إلى الحائط، ونام قائما، فجعل مرفقه على صماخه، وغمز عليه، حتى قتله فما رؤي في داره نائما، ممن كان يحرسه بعد ذلك."[١]"

لقد قام بعضهم أيضاً بحراسة الخلفاء أو حجزهم ومثال ذلك أن وزير المعتمد التركي احتجزه بعدما أراد الانضمام إلى الطولونيين، لحين عودة الموفق من حربه مع الصفاريين."[٢]"

وكان الحراس كالحجاب عناصر تريح سيدها من عدم استقبال من لا يرغب في استقباله قال المحسن: وكان لأحد التجار على أحد القواد في أيام المعتضد بالله مال، قال التاجر: فماطلني، وكان يحجبني إذا حضرت بابه، ويضع غلمانه على الاستخفاف بي، والاستطالة علي إذا رمت لقاءه وخطابه وتظلمت إلى المعتضد بالله."[٣]"

وكان الرقيق وخاصة الخصيان منهم يقوم بحراسة النساء، خاصة الذين اعتادوا على التنقل من مكان إلى آخر. ومثال ذلك أن حراس حراقة الحرم الخاصة بالوزير حامد بن العباس من الخصيان. "[٤]" إلا أن البعض لا يجيز إظهار الحرم على الخصيان ومن ذلك ما ورد من أنه دخل بعض الملوك على أهله ومعه خصي فاستترت منه فقال لها: تستترين منه وإنما هو بمنزلة المرأة، فقالت: "ألموضع المثْلة به يحل له ما حرم الله عليه"."[٥]"

وفي هذه الفترة أيضا أصبح لكل شخص مجموعه من الرقيق يقاتلون معه إذا قاتل، وينصرونه يوم يحتاج إليهم فيكون ولاؤهم لسيدهم أكثر من ولائهم لأي شخص آخر. وكانوا يكلفون بحراسة السجون، ومن ذلك أنه "لما حبس المعتز والمؤيد في الجوسق في حجرة صغيرة، كان مع كل واحد منهما غلام يخدمه وموكل بهم رجل من الأتراك يقال له عيسى خليفة بليار، ومعه عدة من الأعوان"."[٦]"

-<u>مواكـب الخـلفاء:</u> كانت مواكب الخلفاء تظهر في مناسبات معينة، وعرف الحرس الذين يرافقونه في تلك المناسبات "بحرس الخاصة أو صبيان الخاصة"[٧]" وكان للمعتضد مماليك يقيمون في القصر والحجرات تحت رعاية الخدم ويختارون من بين الفرسان الذين يحسنون الركوب والرمي ويسمون "الغلمان الحجرية، أو عسكر الخاصة "[٨]"، ويسميهم القلقشندي "صبيان

---

١) التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة، ج٣، ص٩٩.
(٢ Ahsanullah. 1996. History of the Islamic World. P. 62
٣) ابن الجوزي، المنتظم،ج(٧)،ص٢٥٤-ص٢٥٥.
٤) التنوخي، نشوار المحاضرة ، ج(٣)، ص٤٣. ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٥١/ انظر سوزان ياغي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ تأسيسها (رسالة ماجستير - الجامعة الأردنية)، ص٣٩.
٥) الجاحظ، مفاخرة الجواري والغلمان، م(١)، ص٩٩.
٦) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٢٨٤.
٧) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ج(٣)، ص٥٥٢.
٨) آدام متز، الحضارة الإسلامية، ص٢٥٣.

الحجر مقيمين في حجر منفردة"[١] ويفيد المعنيان أنهم مسؤولون عن كل حجرة من حجر القصر سواء كانت هذه الحجرة لأمير أو أميرة وقد يكون لهم أماكن معينة للوقوف بها كأن تكون محفورة بالحائط يقيمون بها للقيام بالحراسة،وقيل "من أراد العبيد لحفظ النفوس فعليه بالهند والنوبة"[٢]؛ لذا فإن الخليفة أو غيره من أمراء القصر يحتاج إلى من يحرسه خوفاً من تعرض العامة لموكبه، ولإظهار هيبة الخلافة، وهذه المناسبات عديدة منها البيعة للخلفاء والتي يحضرها الأشراف والقضاة والشهود والعدول وغيرهم ممن يحضر لمبايعة الخليفة، وبعد تقليد الخليفة ودخوله القصر يتم استقباله كما استقبل المستعين ففي مراسم تقليده وضع صفان من الأشروسنية والمغاربة لاستقباله قبل دخوله دار الخلافة ... ."[٣] وهذا الأمر لا يتعلق بالمستعين وحده بل يشمل جميع الخلفاء العباسيين، والأشروسنية والمغاربة من الرقيق المشترى للخدمة في الجيش.

وقد يحصل عدد من الأمراء على حراسة ترافقه إذا ما خرج إلى الطرق العامة، ففي سنة (٣١٠هـ/٩٢٢م) اعتل علي بن عيسى، فركب لعيادته هارون بن المقتدر ومعه مؤنس ونصر القشوري ووجوه الغلمان، وفرش له الطريق من الشط إلى المجلس ...."[٤]

وكذلك في استقبال الوفود الأجنبية وهذه المناسبة فرصه ليظهر فيها الخليفة عظمة دولته، ومقدار ما يملك من جند وخدم، حتى وإن كانت الدولة في فترة ضعف وعلى الخدم أن يحسنوا تقديم هذا العرض لتظهر الدولة كما أراد لها الخليفة أن تظهر بأحسن صورها، إذ قال البغدادي عن الوزير أبو القاسم علي بن الحسين المعروف بابن المسلمة، قال حدثني أمير المؤمنين القائم بأمر الله، قال حدثني أمير المؤمنين القادر بالله، قال حدثتني جدتي أم أبي إسحاق المقتدر بالله، وقال هلال وسمعت هذا القول من جماعة آخرين عارفين خبيرين خبر رسولي الروم "[٥] ورد رسول ملك الروم إلى المقتدر بالله في سنة (٣٠٥هـ/٩١٧م) لطلب الفداء يلتمسان منه الهدنة والوزير يومئذ أبو الحسن علي بن الفرات في وزارته الثانية، فأنزلا في الدار المعروفة بصاعد، وأعد فيها كل ما يحتاجان إليه، وتقدم بأن يكون الجيش مصطفاً من دار صاعد إلى الدار التي يسكنها ابن الفرات في المخرم، وأن يكون غلمانه وجنده وخلفاؤه الحجاب المرسومون بداره منتظمين من باب الدار إلى موضع مجلسه ثم أن المقتدر بالله أدخلهم قصر التاج في اليوم التالي وقد أعده أحسن إعداد ... وقد أقيم الخدم السودان يمنة ويسرة مقدار ألفي

---

١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج(٣)، ص٥٥٢.
٢) ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة جامعه لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، نوادر المخطوطات، ص٣٨٣.
٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥٦.
٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٣٥-ص٣٦.
٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(١)، ص٤١٨-ص٤١٩.

خادم، ثم أخرجوا بعد أن طيف بهم ثلاثة عشر قصراً إلى الصحن التسعيني، وكان فيها الغلمان الحجرية بأتم سلاح وأحسن زي وفي أيديهم من الأعمدة والطبرزينات عدد جم ثم مروا بمصاف عليهم السواد من الخلفاء الرجالة والجند وخلفاء الحجاب ثم أدخلوا دار السلام ووكل بالرسل خدم معهم الأشربة بالثلج، وكانت جميع تلك الصحون والممرات محشوة بالغلمان والخدم إلى أن قُربا من المجلس الذي فيه المقتدر وأبو الحسن بن الفرات بين يديه بالقرب من مؤنس الخادم، ومن دونه من الخدم وقوف عن يمينه وشماله فلما دخلا قبلا الأرض ووقفا بحيث استوقفهما نصر الحاجب وكل ذلك أدهشهم وحارت له عقولهم. "[١]"

ومهما كان رد فعل رسولي ملك الروم على هذا العرض الكبير الذي يتخذ من الخدم شكلاً من أشكال هيبة الدولة وفخرها، فإن مهمات عديدة يوضحها النص موكلة بهم من ضمنها الشكل الذي يثير خوف الزائر ورهبته، وتقديم الطعام والشراب للحضور، وحراسة الخليفة.

- <u>الاغتيالات:</u> كثرت الاغتيالات في هذه الفترة، وكان المنفذ الرئيسي لها الأتراك، سواء كانت هذه الاغتيالات لصالح الخليفة، أو غيره ففي رجب سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨م) خلع المعتز وكان السبب أن الكتاب الذين أخذهم صالح بن وصيف وهم أحمد بن إسرائيل، والحسن بن مخلد، وأبو نوح، وعيسى بن إبراهيم، وقيدهم وطالبهم بأموال وقبضت ضياعهم ودورهم لم يقروا بشيء، فصار الأتراك إلى المعتز، وقالوا له أعطنا أرزاقنا لنقتل لك صالح بن وصيف، فأرسل المعتز إلى أمه يسألها أن تعطيه مالاً...."[٢]" إذ طالب الأتراك أرزاقهم مقابل اغتيال صالح، فقد كانت هذه الاغتيالات تحقق مكاسب سياسية ومادية كثيرة، فلما أخرج المعتز وصيفاً لمواجهة الأتراك الغاضبين المطالبين بالمال، وقد أجابهم بعدم توفر المال قتلوه، فجعل المعتز ما كان إليه الى بغا الشرابي."[٣]" فقد كان رزق الأتراك المحرك الرئيسي لهم.

وفي سنة (٣١٥هـ/٩٢٧م) ظهر ببغداد أن خادماً من خواص خدم المقتدر بالله حكى لمؤنس المظفر أن المقتدر تقدم إلى خواص خدمه بحفر زبية (حفرة للأسد) في الدار المعروفة بدار الشجرة من دار السلطان، وأنها مغطاة والمقصود منها أن يقع بها مؤنس وأن ينزل الخدم ويخنقوه ...."[٤]"

---

١) الخطيب البغدادي،تاريخ، م(١)، ص٤١٨-ص٤٢٤./ الصابيء، رسوم دار الخلافة، ص١١ – ص١٤/ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٧-ص٨./ ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص١٣٠-ص١٣٨/ السيوطي، تاريخ الخلفاء ، ص٣٨١./ ياسين الخطيب العمري، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، ص٣٦٨/

٢) ابن الجوزي، المنتظم،ج(٧)، ص٧٣-ص٧٤.

٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٦٥-ص٦٦.

٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص٧٦.

لم يكن هذا السبب سبباً مباشراً لشرائهم بل كان سبباً طارئاً فرضته الأوضاع السياسية على الخلفاء والناس في العصر العباسي الثاني، وكانت هذه الاغتيالات بالنسبة للخليفة تتعلق بحمايته من سطوة الأتراك، وبالنسبة للعامة كانت بسبب شعورهم بعدم الأمان فاستعانوا بمن يقدم الحماية لهم من الرقيق المدرب إن وجد في الأسواق.

- تنـفيذ العـقوبة: ويقوم بتنفيذ العقوبة التي يفرضها الخليفة على أحد المذنبين أحياناً أحد الرقيق، وكان المعتضد معروف بقسوته واتخذ السجون، وجعل عليها (نجاح الحرمي) المتولي عذاب الناس"[١]، وأقبل المقتدر على (نذير الحرمي) وقال له: بحقنا عليك لم ضربته مائة مقرعة، أشدد الضرب إلى أن يصدق عن الصورة الحقيقية."[٢]"

ويدل لقبهما أنهما كانا مختصين بخدمة الحرم في قصر الخليفة، وأنهما كانا يقوما بتنفيذ أوامر الخليفة في العقاب.

"ولعل الجلاد كان أبرز شخصية بين الموظفين في العصر العباسي، ولم يكن العرب يعرفون الجلادين ولم يتخذ الأمويين جلادين، أما العباسيون فالجلاد عندهم شخصاً لا بد منه؛ وكان النطع يقام قريباً من العرش فيستخدم للإعدام ...."[٣] ومع وجود هذه الأسباب العديدة لاستقدامهم فإن هؤلاء ورغم الحاجة لهم وما قدموه من خدمات فإن لهم آثار كثيرة بعضها إيجابي وبعضها الآخر سلبي يضاف لها العديد من التطورات التي تبينها هذه الرواية، فعندما أمر المعتز عبيد الله بن طاهر بنصب رأس بغا على الجانبين ووزيره آنذاك أحمد بن إسرائيل فأراد أن ينصح ابن طاهر المعتز بعدم نصب رأس بغا لأن ذلك يثير الأتراك عليه فرد عليه ابن إسرائيل أنه نصحه بذلك وفي آخر كتابه: واعلم أنه قد حدث بعدك وهو ما لا نعرفه نحن ولا أنت رأي للحرم والخدم يقبل ويعمل عليه وهذا فتح للخطأ وإخلاف للصواب فانصب الرأس قليلا، ثم أنفذه إلى خراسان."[٤]".

وهذا مؤشر واضح الدلالة على أثر الرقيق والجواري في حياة العامة والخاصة في بغداد في هذا العصر وهو ما سنتحدث عنه بتوسع في الفصل الثالث.

---

١) المسعودي، مروج الذهب،ج(٤) ص٢٤٧.
٢) التنوخي، نشوار، ج(٤)، ص٣٣.
٣) ولهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ١٩٥٦م،ص٤٤٤.
٤) الآبي ، نثر الدر، ج٣، ص٢١٤- ص٢١٥.

الفصل الثالث

دور الرقيق والجواري في الحياة الاجتماعية والثقافية في بغداد في العصر العباسي الثاني

ظهر الرقيق والجواري في حياة الناس في بغداد بالأعمال التي كانوا يقومون بها، وقد أتاحت لهم هذه الأعمال مجالاً للتدخل في حياة الناس وفي شؤونهم المختلفة والتأثير فيها. وهذه الآثار كثيرة وتلتقي مع الأسباب أحياناً، ولم يكن الرقيق والجواري المسؤولين عنها فقط، بل إن سكان بغداد يقع عليهم جزء كبير من تلك المسؤولية، لأن عليهم اختيار الأنسب للخدمة والطاعة، والتدقيق في صفاتهم قبل تسليمهم البيوت والأموال والأنفس، والحذر من طمعهم، وهذا الطمع ناتج عن أسباب تخرج عن إرادتهم، ومعظم هذه الأسباب متصلة بمبادئ العقيدة الإسلامية التي وضعت قيوداً في تعامل السادة مع رقيقهم، وهذه المبادئ ورغم أنها سبب في تقدير هذا الدين وفي رفعته، وفي اعتناق الكثيرين من الرقيق والجواري الإسلام، إلا أنها جرأت بعض الرقيق على أسيادهم، فتجاوزوا حدود حريتهم وفهموا ما منحه الدين لهم من حقوق وفق ما أرادوا.

ولظاهرة الاعتماد على الرقيق آثار سلبية وأخرى إيجابية، إذ تركت هذه الظاهرة في بغداد آثارها على هذه العاصمة الإسلامية، في هذه الفترة وما تلاها، وكانت كثرة شراء الرقيق والاستسلام لطاعتهم وخدمتهم أشبه بسمٍ دس في الدسم، إذ كان وجودهم سلبياً في أغلب الظروف، وزادت آثاره السلبية مع ازدياد أعمالهم وواجباتهم، والحرية الممنوحة لهم بإرادة أسيادهم أو رغم إرادتهم، وتمثل هذا الجانب السلبي بحدث رئيسي كان أبرز سمات العصر العباسي الثاني إلى نهاية حكم هذه الأسرة في بغداد وهو ضعف الحكام العباسيين، إذ جعلهم صورة هشة في دولة اتسمت بالقوة في نشأتها وبالضعف في فترات حكمها الطويلة اللاحقة.

ورغم أن هذه المقدمة تقود إلى البحث في صراع مبكر مع ما خلفه الرقيق والجواري من آثار سياسية، إلا أن هذه الآثار تتجاوز هذه الصورة إلى حياة الناس الاجتماعية والثقافية، وإلى ما ورثوه من تاريخ عظيم صنعه أسلافهم، وأثر ذلك أيضاً في اقتصادهم وفي ثروتهم تأثيراً سلبياً يوازي تأثيرهم الإيجابي ويفوقه في أغلب الأحيان، وعلينا أن نثبت تلك الآثار أو ننفيها بجانبيها السلبي والإيجابي من خلال ما تركه المؤرخون لنا من روايات تشهد على هذه الفترة وتشهد على حقيقة دورهم في تراجع الدولة العباسية ومقدار هذا الدور، فهل يعقل أن يكون لغلام أو لجارية في قيود الرق دور أو أدوار في ضعف دولة كبيرة؟ وهل نتجاوز الواقع إذا منحناهم أدواراً أكبر من قدراتهم ومن تلك الحرية الممنوحة لهم؟ وهل هناك خلط بين دورهم

ودور العسكر التركي أما أنهما يلتقيان؟ ولماذا رأى العديد من المؤرخين ممن درس هذه الفترة وما تلاها أن للجواري والرقيق أدواراً كبيرة تكون واضحة في الكثير من الأحداث، وغير واضحة في أحداث أخرى.

فبعضهم يشير إلى هذا العصر بأنه العصر التركي الأول لغلبة الأجناد التركية عليه، ويشير إلى العصر العباسي الأول بالعصر العباسي الفارسي."[١]" ويقول البعض إن العصر العباسي الأول أسس لدولة قوية لكن الانصراف إلى اللذات والبذخ في العصر العباسي الثاني أدى إلى ضعفها."[٢]".

وكان وجود الأتراك وسيطرتهم على مقدرات الدولة منذ أيام المعتصم أفدح ضربة وجهت للعرب."[٣]"ويرى البعض أن الدولة بدأت تضعف والخليفة يفقد هيبته مع التدخل التركي في الحكم بعد أن كان له الجيش كله"[٤]". كثر عدد الأتراك في دار الخلافة وفي قصور الخلفاء والأمراء وزاد نفوذهم في بلاط الخليفة وكانوا يتعهدون حراسة قصور الخلفاء وسلامتهم الشخصية."[٥]" "ولم يفلح العباسيون في الحصول على الاستقلال من سلطة الخراسانيين، فهم عندما اقتنوا عدداً كبيراً من البربر والكرج والسغد والترك وجهزوهم ونظموهم ليقابلوا بهم الخراسانيين، لم يحصلوا إلا على نتيجة واحدة وهي أنهم وقعوا تحت طغيان هؤلاء المماليك"."[٦]"

تكاد تجمع المصادر والمراجع الحديثة على خطورة تدخل الجيش التركي في سياسة الدولة، وهذا واقع فرض عليها لا يمكن تجاهله، ولكن ما العلاقة التي ربطتهم برقيق الخلفاء وجواريهم؟ وما هو دورهم في هذه الأحداث وفي الحياة العامة في بغداد؟.

- **<u>الآثار الاجتماعية:</u>**

عاش الرقيق والجواري في بغداد وخالطوا السكان فأثروا بهم وتأثروا، والآثار الاجتماعية كثيرة، يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

١) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص٢٩٧.
٢) فاضل الأنصاري، العبودية والرق والمرأة بين..، ص١٠١.
٣) صادق جودة، الرحلة المتوكلية إلى دمشق، ص١٠.
٤)حتامله، المعتمد في خلافة المعتضد بالله العباسي أحمد بن الموفق،ص١٣.
٥) زكريا كاتبجي، الترك في مؤلفات الجاحظ،ص١٠٨.
٦) ولهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ص٤٤٧.

- **التأثير على العلاقات الأسرية وعناصر المجتمع:**

يطرح الجاحظ في رسالة القيان مشكلة رئيسية من مشاكل النساء في العصر العباسي ككل وهي تسري الرجال بالإماء، وعدم زواجهم من المرأة العربية الحرة التي يعتبر الكثيرون منهم الزواج بها قيداً يلزمه احترام وضعها ومكانتها الاجتماعية وقبيلتها التي تنتمي إليها فيقول:

"ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن في الحوائج، ويدخلن في الدواوين، ونساء يجلسن للناس مثل خالصة جارية الخيزران،... وهم اليوم يعافون المرأة الحرة إذا نكحت زوجاً واحداً، ويلزمون من خطبها العار، ويعيرونها بذلك، ويتحظون الإماء، وقد تداولهن من لا يحصى عدده من الموالي، فمن حسن هذا في الإماء وقبحه في الحرائر، ولم لم يغاروا في الإماء وهن أمهات أولاد وحظايا، وغاروا على الحرائر"."[١]"

و هذه الأسئلة التي طرحها الجاحظ تعبر عن روح ذلك العصر، وأبرز مشاكله الاجتماعية، فلماذا تفضل الجارية التي ارتبطت بالعديد من الرجال، وترفض المرأة الحرة إذا سبق لها أن تزوجت، ولم يغار الرجل على المرأة الحرة ولا يغار على الجارية وقد وصلت إلى مكانة عالية؟

انتشر في العصر العباسي الأول تسري العباسيين بنساء غير عربيات، وكانوا يفضلون نساء من العائلات الفارسية."[٢]" أما في العصر العباسي الثاني استمر تسري الرجال بالجواري، وبقيت الكثير من النساء الحرائر بلا زواج، وليس في خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا السفاح، أمه ريطة بنت الحارث، والمهدي، أمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله. والأمين؛ أمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر، أما الآخرون أبناء إماء خذ مثلاً: "المنصور أمه أمة تسمى: سلامة.والخيزران أم موسى وهارون أمة.وأم المأمون مراجل أمة، وأم المعتصم ماردة أمة، وأم الواثق قراطيس أمة، وأم المتوكل شجاع أمة، وأم المنتصر حبشية أمة، وأم المستعين مخارق أمة."[٣]" ومنهن أيضاً أم المعتز قبيحة أمة، وأم المهتدي فردة وهي أمة يونانية "[٤]"، وأم المعتمد قينان أمة، وأم المعتضد ضرار"[٥]" أمة،"[٦]" وأم المكتفي

---

١) الجاحظ، رسالة القيان، م(١)، ص١٢١ - ص١٢٢.

2) Rahmatallah. 1952. The Women of Baghdad. P. 46.

٣) وأم المستعين مخارق، قيل أم ولد، وقيل أنها من أهل دوسرة وهي من قرى الموصل ابن حزم، جامع السير، ص٣٧٣/ ويقول مصطفى جواد، في سيدات البلاط العباسي، ص٦٣/ أنها روسية الأصل وكانت للأمير محمد بن المعتصم فولدت له المستعين.

4) Hitti. 1964. History of the Arabs. P. 332. .

٥) ضرار جارية الإمام الموفق بن المتوكل، حظية عنده وولدت له الإمام المعتضد بالله وكان اسمها قبل ذلك خفير وكانت كثيرة البر لمواليها، وقال ماتت في سنة ٢٩٨هـ، ولم تدرك خلافة ولدها بل توفيت قبله بستة أيام/ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١٠٤.

٦) ابن حبيب، محمد بن أمية، المحبر، ١٩٤٢م، ص٤٥ - ص٤٦. ذكر أمهات الخلفاء من المتوكل للمعتضد فقط.

جنجك أمة، وأم المقتدر شغب أمة، وأم القاهر قينة أمة، وأم الراضي ظلوم أمة، وأم المتقي زهرة أمة، وكذلك أم المستكفي أملح الناس أمه."[١]"

وهذه أمهات إماء لرجال أصبحوا خلفاء فيما بعد،" ومع ذلك فقد تزوج بعض الخلفاء حرائر من الأسرة العباسية فبعد زواج المأمون من أم عيسى ابنة الهادي، تزوج المستعين العباسة ثم عائشة ابنتي الواثق."[٢]"

وكان هناك أمهات إماء لرجال لم يصبحوا خلفاء في قصور العباسيين، منهم ابن المقتدر بالله عبد الواحد توفي (سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م) ...، واستكمل أربعاً وثلاثين سنة، وأمه أم ولد اسمها مصابيح. "[٣]" وكانت إسحاق الأندلسية جارية مولدة للمتوكل حظية عنده فولدت له المؤيد إبراهيم و الموفق أبا أحمد بن أبي طاهر في سنة (٢٧٠هـ/٨٨٣م)، وماتت "إسحاق" بمدينة السلام، ودفنت بالرصافة وقال أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم يعزي الموفق بأمه:

لقد أظلمت بغداد عند وفاتها كإظلامها للشمس ساعة تغرب"[٤]"

ويرى البعض أن "قلة المصاهرات بين أفراد البيت العباسي تعود إلى بعدهم عن بعضهم بعضاً، فبعضهم نزل حلب، وبعضهم البصرة، وبعضهم بغداد"."[٥]"إلا أن تمركزهم الرئيسي كان في بغداد، إلا أن عدم زواج الخلفاء من النساء الحرائر والتسري من الإماء يمثل ظاهرة في العصر العباسي عند الخلفاء وعند العامة، وأصبحت جزءاً من عادات الناس، وكان ذلك يثير غيرة المرأة الحرة، ومع ذلك فإن المرأة العباسية قدمت لزوجها الخليفة هدايا من الجواري، وكان يعني ذلك ازدياد مكانتها عنده لا إبعادها، وكان ذلك في الكثير من الأحيان في صالحها إذ أن زيادة الجواري حول الخليفة سيسبب غيرة الجواري من بعضهن لا من النساء الحرائر، ومثال ذلك ما حدث مع "شجرة الدر جارية المتوكل وكان يميل إليها ميلاً كبيراً ويعجب بهداياها، فحسدنها الجواري وعملن على قتلها بشيء سقينه لها فماتت."[٦]" وقال البعض أن الغيرة ذهبت من قلوب الرجال لذا كانوا يتبادلون الهدايا من الجواري."[٧]"

---

١) الثعالبي، لطائف المعارف، ص١٢٤ - ص١٢٦/ ذكر جميع أمهات الخلفاء.
٢) صالح العلي، بغداد مدينة السلام، ص٥١.
٣) ابن النجار،ذيل تاريخ بغداد، ج(١)، ص٢١٤.
٤)السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، مخطوط مصور، مركز الوثائق والمخطوطات - الجامعة الأردنية، شريط رقم(٣٧٤)، ص٢٧./ انظر ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص٨٢-ص٨٤/ يذكر أن هذه القصيدة تتكون من ثمانية عشرة بيت.
5) فيصل بني حمد، بنو العباس ودورهم في الحياة العامة ...، (رسالة جامعية - الجامعة الأردنية)، ص١٥٠.
٦) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج(١)، ص٢٥٢.
٧) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص٣٥٨.

ويرى البعض أن الخلاف كان يقع بشكل كبير بين الحرائر والسراري."[١]" وهذا الأمر لم يبرز إلا مرة واحدة في العصر العباسي الأول بين الخيزران وزبيدة، بينما لم يكن الأمر كذلك في العصر العباسي الثاني لأن الخلفاء لم يتزوجوا بحرائر، فكان الصراع بين الجواري، وكان التنافس بين بعضهن خطيراً في الكثير من الأحيان ينتج عنه القتل، وكان الخلاف على الخلافة وما يلحقه من قتل وأذى ومشاكل ينعكس على أمهات الخلفاء أو جواري القصر" فلما أشارت (قبيحة) على ابنها المعتز بقتل أخيه المؤيد بعثت (قبيحة) إلى أمه في شهر رمضان بسبحة در قيمتها أربعة آلاف دينار وقالت لها، سبحي بها يا أختي فسحقتها في الهاون ولفتها في كاغد وردتها إلى حاملتها وقالت: أقرئي عني أختي السلام وقولي لها السبح لا تذهب بحرارات الدماء"."[٢]" ورغم أنه لا دور لقبيحة في مقتل المؤيد كما أنه لا دور للمعتز بذلك إلا أن ذلك انعكس على علاقات أفراد البيت العباسي وخاصة النساء.

وكانت الجارية تحصل على حريتها من سيدها بصعوبة حتى وإن أنجبت بعضهن أولاداً له، وقد تحصل على الحرية والتقدير بعد تدخل الآخرين في ذلك، ذكر الجاحظ أن نخلة جارية الحسين الخلال كانت قبل أن يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه وتغنيه فولدت للحسين ابناً، فلما ولي المتوكل الخلافة طرقه ليلاً فقال الحسين: زرتنا جعلت فداك، قال: اشتهيت أن أسمع غناء نخلة فأخرجها إليه مطمومة الشعر فقال: يا خلال أليس قد ولدت منك ابناً قال: بلى! قال: فأنا احب أن تعتقها قال فإنها حرة قال: فاشهد أني تزوجتها، قومي يا نخلة فاشتد ذلك على الحسين فعوضه منها خمسة عشر ألف دينار وحول إليه نخلة."[٣]"

وتعمقت علاقة الجواري بسادتهن، وارتبط بهن هؤلاء السادة وخاصة من تمكنت من قلوبهم، فقد ماتت للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها فقال له عبيد الله: مثلك يا أمير المؤمنين تهون المصائب عليه، لأنك تجد من كل مفقود عوضاً...."[٤]"

وتشبه هذه الرواية ما حدث مع ابن طاهر، إذ ذكر ابن قدامة قال: حضرت جنازة شاجي، فلما انصرفنا دخلت مع عبيد الله مساعداً له ومؤنساً، وهو مطرق ودموعه تجري على خديه، فلم أرى باكياً أحسن منه، ثم رفع رأسه وأقبل علينا... ."وقال جحظة أنه دخل عليه يوماً

---

١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج(١)، ص٨١.
٢) البيروني، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، ص١٤٨.
٣) الجاحظ، المحاسن والمساوئ، ص١٥٦.
٤) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٩ – ص٢٣٠/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)،ص٢٦١ – ص٢٦٢.

فجاءه عدد من الأحداث وآبائهم الكهول وآباء الكهول من المشيخة فسأل عنهم فقال أنهم أبناءه من شاجي، وأحفاده وأبناء أحفاده."[١]

وكان لارتباط الجواري بأسيادهن وغيرهم من الرجال الذين يخالطنهم أثر في تشابك العلاقات الاجتماعية، الأمر الذي يثير غضب بعضهم ويكون سبباً للخصومة أو أن الخلاف عليهن جزء من خلاف أكبر كالخلاف على السلطة مثلاً "فعندما تنازل المستعين عن الخلافة للمعتز ذكر أن (قرب) جارية (قبيحة) جاءت برسالة إلى المستعين من المعتز يسأله أن ينزل عن ثلاثة من جوار كان المستعين تزوجهن من جواري المتوكل فنزل عنهن وجعل أمرهن إليهن ...". "[٢]

ولا تمثل هذه رغبة منه باستعادة جواري والده بل تمثل صورة للصراع إما أن يكون المعتز قصدها، أو وضعتها المصادر بهدف التأكيد على هذا الصراع.

وكان ذكر واحدة منهن في قصيدة شاعر سبباً في غضب سيدها، إذ غضب المعتضد على ابن بسام بسبب قصيدة ذكر فيها محبوبته (دريرة) وأمر بسبب ذلك بتخريب عمارة البحيرة التي كان يجلس فيها معها."[٣]

واتصف بعض الخلفاء بقلة عدد من تزوجهن على عكس تلك الصورة التي تقدم لبعضهم بكثرة امتلاكه للجواري "وكان المتقى بالله يتصف بحفظ العهد؛ لأنه كانت له جارية قبل خلافته فلم يتغير عليها ولا ابتاع غيرها"."[٤]"وقد يعود ذلك لأسباب عديدة لقلة الأموال في فترة خلافة المتقي، وازدياد تسلط الأتراك عليه، وهذا قد يكون صحيحاً إلا أننا لا نستطيع إنكار كثرة الجواري عند بعض الخلفاء أيضاً في هذه الفترة وقد يعود ذلك في الغالب إلى طبيعة الشخص وما اعتاد عليه .

وحال العامة كحال الخلفاء من حيث تأثير الجواري في حياتهم، فإذا أحب أحدهم امرأة فإنه يبذل جهده لشرائها، وكان فتى من أبناء الكتاب يصحب علي بن الجهم، فعلق جارية من القيان وشغف بها، حتى أنفق عليها ماله، وساءت حاله، فسأل عنه علي بن الجهم يوما فأخبره الخبر، فركب إليه وعاتبه على ذلك فحلف عليه الفتى واحتبسه عنده يومه ذلك وأحضر الجارية فغنت بين يديه فأعجب بها، فلما كان اليوم التالي أرسل الفتى إليه أبيات من الشعر فيها فأرسلها

---

١) الأصفهاني، الديارات، ص١٢٢ - ص١٢٥/ الشابشتي، الديارات، ط(٢)، ص١١١ - ص١١٣.
٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٤٩.
٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٦٩ – ص٣٧٢/القيرواني الحصري، زهر الآداب، ص٢١٧.
٤) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٥٣.

للمتوكل فأعجب بها وطلب أن يغنى بها، وأرسل للفتى أربعة آلاف دينار ليشتريها، وأدخله المتوكل في جملة الندماء."[١]"

لقد أدى انتشار تسري الرجال بالجواري في العصر العباسي الثاني، إلى بقاء الكثير من النساء الحرائر بلا زواج بسبب رغبة الرجال بالتسري بالإماء؛ لأسباب عديدة منها:

١. سهولة رؤية الرجل للجارية المعروضة بالأسواق، وصعوبة رؤيته للمرأة الحرة.

٢. تغير طبيعة التركيبة السكانية للمجتمع لوجود الكثير من العناصر الفارسية، والرومية، والصقلبية، وغيرهم بسبب ما خلفته حروب المسلمين في أواسط آسيا وأوربا؛ مما ساعد في تغيير نظرة العرب لغيرهم وانتشار بعض مفاهيم تلك المناطق في بغداد، ومن ذلك ما قاله الجاحظ: " إن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار، واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبناتهن، وأهل الشام أشهى النساء عندهم الروميات، وكل قوم فإنهم يشتهون جلبهم وسبيهم"."[٢]"

٣. كان للجمال دور في اختيار الرجل للجارية التي يحرص النخاس على أن تكون جميلة، خاصة التي تتمتع بصفات المناطق التي جلبت منها مثل الجواري التركيات والصقلبيات.

٤. كانت المرأة الحرة قيداً على الرجل، فهو ملزم بتقدير وضعها الاجتماعي ومكانتها في قومها، بينما لا أهل للجارية ولا مكانة إلا ما يمنحه لها سيدها، وأراد المتوكل الزواج فعرضت عليه عدد من الهاشميات فتزوج ابنة لسليمان بن القاسم بن عيسى بن موسى الهادي وكانت تساوي (قبيحة) بالمنزلة، ووصفت له (ريطة) بنت العباس بن علي فحملت إليه فتزوجها، ثم سألها أن تطم شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه فأعلمها إن لم تفعل فارقها فاختارت الفرقة فطلقها"[٣]"

٥. لم يعد يهتم الخليفة العباسي بنسب المرأة لأنه هو الذي يمنح شرف النسب للمرأة التي سيتزوجها ويقول ولهاوزن:" بل ان العباسيين لم يعودوا يعتدون بالنسب عند نسائهم، فليس أصل الإنسان هو الذي يعطيه شرفه، بل الخليفة"[٤]". إلا أن ذلك في نظر البعض كان خاطئاً، لقد أدى تسري الرجال بالكثير من الجواري إلى خلط الأنساب داخل المجتمع

١) إبراهيم القيرواني، المختار من قطب السرور في أصناف الأنبذة والخمور، ص٢٧٢.
٢) الجاحظ، الرسالة الرابعة(فخر السودان على البيضان، ص١٥١ - ص١٥٥.
٣) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٥٧.
٤) ولهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ص٤٤٣.

العباسي خاصة داخل دار الخلافة ورأى البعض أنه من أسباب انهيار الدولة العباسية (أشباه الأخوة والأخوات) أي أن الرجل لارتباطه بأكثر من امرأة لم يعد يميز بين أبنائه وغيرهم، وكانت الدسائس والغيرة داخل البيت العباسي أحد تلك الأسباب."[١]"

إن المرأة العربية تحظى بمكانة وكرامة تميزها عن غيرها من النساء، ولذلك إذا أراد أحدهم أن يهنيء ببنت قال: أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار وقيل:

فلو كان النساء كمثل هذي   لفضلت النساء على الرجال."[٢]"

وكان للترف سلبيات كثيرة خاصة في الناحية الاجتماعية، إذ رافق الترف ارتفاع مهور الزواج، لذا وجد البعض أن تكاليف شراء الجارية أقل من تكاليف الزواج من المرأة الحرة وما يصاحبه من احتفالات وولائم، وبالمقابل فإن كثرة الأموال في يد الرجل مكنته من شراء الجواري.

- **<u>التأثير في أخلاق الناس وفي انتشار الجريمة وفساد الأخلاق:</u>**

تنسب الكثير من الأخلاق الفاسدة إلى الجواري والرقيق سواء كان ذلك فيما حوته الروايات أو في الأشعار التي نظمت، وكان فيها وصف للرقيق والجواري، وحتى في ما يأخذونه على سبيل الدعابة والمزاح، ومنها أن بعضهم اشترى جارية فقيل له: "اشتريتها لخدمتك أو لخدمة النساء! فقال: بل لنفسي، ولو اشتريت للنساء لكنت اشتري مملوكا فحلاً "."[٣]"، إن الأخلاق الفاسدة لا تشمل جميع الرقيق، بل بعضهم، بينما كان البعض الآخر يتحلى بصفات حسنة.كما أن معاشرة الفاسدين من الناس تؤثر في سلوك خدمهم وفي أخلاقهم، وتؤكد "واجدة الأطرقجي" على ضرورة تصويب الرأي القائل بأن العصر العباسي كان عصراً شمله تيار التفسخ والتحلل، وقد كانت المرأة صورة لذلك التحلل خاصة في شعر بشار بن برد، وأبي نواس، لأن الصورة التي أشيعت كانت في الغالب صورة الجواري الأجنبيات، لا صورة الحرائر العربيات."[٤]" وهذا صحيح إلا أنه لا يعمم عليهم.

كان الترف عاملاً رئيسياً من عوامل الفساد في المجتمع، لأن زيادة الأموال توفر كل شيء ومن ذلك الراحة والفراغ الذي قد يكون مدخلاً للفساد، وهذا الفساد يؤثر في الصغار قبل الكبار، إذ كان البعض لا يحسب لوجود الجواري أثراً على الأطفال في القصور وخاصة قصور

---

٣) Hitti. 1964. History of the Arabs. P. 485.

٢) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج(٣)، ص٢٩٠.

٣) الآبي، نثر الدر، السفر الرابع، ص٣٢٦ - ص٣٢٧.

٤)محمد السامرائي، المرأة في أدب العصر العباسي، مجلة الفيصل، أبو ظبي - الإمارات، ٢٠٠٣م، (ع) ٣٢٣.

الخلفاء، قال صافي الحرمي الخادم مولى المعتضد: إن المعتضد كان يمشي في دور الحرم يوماً فرأى وهو يتطلع من خلل في الستر،... وإذا هو بالمقتدر وله إذ ذاك خمس سنين وحواليه مقدار عشر وصائف من أقرانه في السن وفي يده عنقود عنب في وقت العنب فيه عزيز جدا."[١]

ورغم أن صورة المقتدر في هذه الرواية بريئة، إلا أنها تستغل من قبل البعض لإظهار المقتدر بصورة الفاسد منذ الصغر فما بالك عندما كبر وأصبح خليفة، إلا أنه من المهم أن نشير إلى أن وجود الجواري قد يؤثر بالأطفال داخل القصور.*

وكان وجودهم من أسباب الاتكالية في المجتمع والركون للكسل ومن ذلك ما قيل لسهل بن هارون: خادم القوم سيدهم فقال: هذا من أخبار الكسالى."[٢] وهذا الأمر لا يحتاج إلى روايات بقدر ما يرجعنا للفصل السابق الذي فصل أعمالهم التي قاموا بها نيابة عن أسيادهم.

إلا أن بعضهم اشتهر بعبادته وتقربه لله عز وجل وتثبيت وترسيخ القيم والأخلاق، فكانت (شجاع) أم المتوكل نموذجاً للمرأة الصالحة التي تعطي بلا حساب كل محتاج يحتاج إلى مساعدتها أو طارق طرق بابها."[٣]وقد حجت في سنة (٢٣٦هـ/٨٥٠م)، فشيعها المتوكل إلى النجف وفرقت مالاً كثيراً، وكانت امرأة وافرة السماح شديدة الرغبة في فعل الخير وتوفيت بالجعفري، وصلى عليها المنتصر، وفيها يقول جعفر بن عبد الواحد:

تذكرت لما فرق الدهر بيننا فعزيت نفسي بالنبي محمد."[٤]

وكان بعضهم صاحب خلق كغلام ثمامة الذي قال لثمامة: قم صل يا مولاي واسترح قال له: أنا مستريح إن تركتني."[٥]فإذا قابلنا هذه الرواية بتلك الرواية التي يمتنع فيها الرجل عن الصلاة ليرى الجارية، علمنا أن هناك توازناً اجتماعياً يدفعنا إلى عدم التعميم وإطلاق أحكام قد تكون خاطئة على كثير منهم.

١. <u>منـازل الـقيان سبب في فـساد الأخلاق</u>: إن سوء الأخلاق لا يصدر عن الجواري والرقيق إلا إذا فرضت عليهم ظروف معينة تدفعهم إلى ذلك فالجارية في بيت العالم قد

---

١) التنوخي، نشوار ، ج(١)، ص٢٨٧ - ص٢٩١/ الخطيب البغدادي، تاريخ، ج(٨)، ص١٢٩ - ص١٣١.

* هذه الرواية وردت رواية مماثلة لها في التاريخ الأندلسي عن الخليفة الأموي المستضعف هشام المؤيد الذي استولى عليه مؤدبه محمد بن أبي عامر منذ صغره بسبب قربه من أمه صبح، إذ قرب إليه الجواري وأحاطهن به منذ صغره ففسدت أخلاق المؤيد، وتمكن ابن أبي عامر من تأسيس الدولة العامرية في الأندلس.

٢) التوحيدي، البصائر والذخائر، م(١)، ص١٩٧.

٣) الجريري، الجليس الصالح الكافي،ج(٢)،ص١٥٣- ص١٥٦/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٦)، ص٥٣٨ – ص٥٤٠

٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٦)، ص٥٤٠ – ص ٥٤١.

٥) ابن أبي عون الكاتب، الأجوبة المسكته، ص٨٢.

تصبح عالمة لما علمها، والمغنية في بيت المغني مغنية إذا دربها على الغناء، وفساد الأخلاق لا ينحصر في الجواري والرقيق كما لا ينحصر في العامة إنما يتوزع بينهما، فقد يكون المملوك فاسداً ويحتار سيده في كيفية التعامل معه، وقد يكون المملوك صاحب خلق يجبر على الفساد، إلا أن ضعف الخدم كان وسيلة لتمرير الفساد وسؤ الأخلاق؛ يقول أبو العيناء: رأيت جارية مع نخاس وهي تحلف أن لا ترجع إلى مولاها، فقلت لها: ما باله؟ قالت: يا سيدي ...يصلي من قعود، ويشتمني بالإعراب، ويلحن في القرآن، ويصوم الاثنين والخميس، ويفطر شهر رمضان، ويصلي الضحى، ويترك الفجر."[١]"

وكان لمنازل القيان أثر في فساد أخلاق الفتية والرجال وهنا لا نعتبر عشق الفتى للجارية فساداً بقدر ما نرى تأثير تلك المنازل على الناس، إلا أن ذلك لا ينتهي مع الجميع على هذا النحو بل قد ينتهي ارتباطهم بمنازل القيان إلى مجالس القضاء، قال مكرم بن بكر، وكان من فضلاء الرجال وعلمائهم، قال: كنت في مجلس أبي خازم القاضي"[٢]"،فتقدم رجل شيخ ومعه غلام حدث، فادعى الشيخ عليه ألف دينار عيناً ديناً، فقال له: ما تقول؟ فأقر، فقال للشيخ: ما تشاء؟ قال: حبسه، فقال للغلام: قد سمعت، فهل لك أن تنقده البعض وتسأله إنظارك؟ فقال: لا، فقال الشيخ: إن رأى القاضي أن يحبسه قال: فتفرس أبو خازم فيهما ساعة تلازما وقال: إلى أن أنظر بينكما في مجلس آخر، فقلت لأبي خازم وكانت بيننا أنسة: لِم أخر القاضي حبسه؟ فقال: ويحك إني أعرف في أكثر الأحوال في وجه الخصوم وجه المحق من المبطل، وقد صارت لي بذلك دربة لا تكاد تخطئ وقد وقع لي أن سماحة هذا بالإقرار هي عن بلية وأمر يبعد من الحق وليس في تلازمهما بطلان حق، ولعله ينكشف لي من أمرهما ما أكون معه على وثيقة مما أحكم به بينهما، أما رأيت قلة تقاصيهما في المناظرة، وقلة اختلافهما، وسكون طباعهما، مع عظم المال، ... قال: فبينما نحن كذلك نتحدث إذ استؤذن على أبي خازم لبعض وجوه الكرخ من مياسير التجار، فأذن له فدخل فسلم وشبب لكلامه فأحسن، ثم قال: قد بليت بابن لي حدث يتاقين كل ما يظفر به من مالي في القيان عند فلان المقين، فإذا منعته مالي احتال بحيل تضطرني على التزام غرم له، وإن عدوت ذلك طال، وأقر به أنه قد نصب المقين اليوم ليطالبه بألف دينار عيناً ديناً حالاً، وبلغني أنه تقدم إلى القاضي ليقر له فيحبس، وأقع مع أمه بما ينغص عيشي إلى أن أزن عنه ذلك للمقين فإذا قبضه المقين حاسبه به من الجذر. ولما سمعت بذلك بادرت إلى القاضي لأشرح له الأمر فيداويهما يشكر الله له، فجئت فوجدتهما على الباب، قال:

١) التوحيدي، البصائر والذخائر، م(١)، ص٣٣٠.

٢) عبد الحميد بن عبد العزيز أصله من البصرة وسكن بغداد وكان أحد قضاتها/ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(١٣)، ص٣٣٨.

فحين سمع أبو حازم ذلك تبسم فدعا بالغلام والشيخ، فدخلا فأرهب أبو خازم الشيخ، ووعظ الغلام، قال فأقر الشيخ بأن الصورة كما بلغ القاضي وأنه لا شي له عليه، وأخذ الرجل بيد ابنه وانصرفوا."[١]

إن هذا الفتى يسعى إلى إجبار والده لدفع نقود له من خلال اتفاقه مع صاحب القيان ويلجأ لأساليب غير أخلاقية للحصول على المال لسماعهن، إذن فإن الرجل يهلك أمواله ونفسه وحتى سمعته ليحضر مجالسهن، كما يكون سبباً في إزعاج من حوله، لقد كانت أحاديث الناس تدور حول القيان وحول أفعالهن، يسخرون منهن ويبذلون المال والوقت في مجالسهن.

وقد يكون هذا الفساد الخلقي أيضاً سبباً في إزعاج الدولة وفي اشتغال جندها بقضايا غير مهمة بالنسبة للدولة، ففي سنة (٢٨٤هـ/٨٩٧م) ظهر شخص في يده سيف في دار المعتضد بالثريا فمضى إليه بعض الخدم لينظر من هو فضربه الشخص بالسيف وبلغ السيف إلى بدن الخادم، فهرب الخادم ... ويقال إن هذا الخادم لم يعرف إلا في أيام المقتدر، وكان خادماً أبيض يميل إلى بعض الجواري اللواتي في داخل دور الخدم ليخاطب تلك الجارية حين يظهرن"."[٢]

٢. **تبادل التهم بين الناس بسبب اعتمادهم على الخدم:** وبدأ الناس في هذه الفترة أيضاً بإلصاق العديد من التهم لبعضهم بعضاً فاتهم بعضهم باللواط وحب الغلمان خاصة أن هؤلاء الغلمان من الرقيق يخضعون لأوامر سادتهم، جاء في "أخبار القضاة" أنه لما قدم أحمد بن المعدل على المتوكل قصده يحيى بن أكثم، وقضيته عند المتوكل، فرجع أحمد، قال: فذكر ليلة يحيى بن أكثم لحضرة أحمد بن المعدل، فقال بعض القوم: ذاك صاحب غلمان قال: فستر أحمد وجهه بثوبه، وقال: سبحانك هذا بهتان عظيم"."[٣] ويرى البعض أن الشعراء بالغوا في غزل المذكر حتى غلب على غزلهم للمؤنث، وكان مجونهم وغزلهم بالمذكر من المجون ومن وسائل الإضحاك"."[٤]

كما كان اللواط سبباً لدخول الخصيان المؤسسة العسكرية وشكلوا هرماً محدداً فيها وذلك لمنع الرجال العسكريين من التعرض للغلمان المنضمين للجيش فإذا اكتشفوا حدوث أمر مثل ذلك قتلوا من قام به."[٥]

١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(١٢)، ص٣٤٢ – ص٣٤٣.
٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٣٠١/ وص٣٣٩ – ص٣٤٠.
٣) وكيع، أخبار القضاة، ج(٢)، ص١٦٥.
٤) طه الراوي، بغداد مدينة السلام، ص١٤٤ .
٣) Bosworth, & et.al. 1987. The Encyclopaedia of Islam. By Suluk P. 317.

لقد انتشر اللواط في بغداد لكن ليس بالقدر الذي تصفه بعض روايات تلك الفترة، فقد كانت هذه التهم توجه أحياناً، بهدف الضحك والمزاح، أو للفت الانتباه، أو بهدف التشهير ببعض الناس للإساءة لهم لذا نجد البعض يدفع تلك التهم عنه حتى قبل أن يتهم بها، قال إسماعيل بن إسحاق القاضي: دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث صباح الوجوه، فنظرت إليهم، فلما أردت القيام قال لي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط."[١]" إذن فإن هذه التهم تلصق بهم في الكثير من الأحيان لمجرد اعتمادهم على الغلمان، وهو يشبه ما قاله أبو العيناء سابقاً تعليقاً على شرائه خصيين أسودين فقال: لكي لا يتهما بي ولا اتهم بهما.

ووجهت النساء إلى بعضهن بعضاً تلك التهم أيضاً وذكر ابن المعتز: أن بعض جواريه حدثته أن عريباً كانت تعشق صالحا المنذري، وتزوجته سراً فوجه به المتوكل في حاجة له إلى مكان بعيد فقالت فيه شعراً وصاغت لحنه وغنته يوماً بين يدي المتوكل، فاستعاده مراراً وجواريه يتغامزن ويضحكن، ففطنت فأصغت إليهن سراً من المتوكل، وقالت: يا سحاقات (سحاقيات)، هذا خير من عملكن."[٢]"

وكانت هذه التهم توجه للتسلية خاصة إذا وجهت إلى نديم ظريف أو شاعر فصيح قال أبو العباس بن طومار: كنت أنادم المتوكل فكنت عنده يوماً، ومعنا البحتري، وكان بين يديه غلام حسن الوجه يقال له راح، فقال المتوكل للفتح: يا فتح: إن البحتري يعشق راحاً، فنظر إليه الفتح وأدمن النظر، فلم يره ينظر إليه، فقال له الفتح: يا أمير المؤمنين، أرى البحتري في شغل عنه، فقال: ذاك دليلي عليه، ثم قال المتوكل: يا راح خذ رطل بلور فأملأه شراباً وادفعه إليه، ففعل، فلما دفعه إليه بهت البحتري ينظر إليه فقال المتوكل: للفتح كيف ترى؟ ثم قال: يا بحتري، قل في راح بيت شعر ولا تصرح باسمه: فقال:

حـاز بالود فتى أمسى رهيناً بـك مـدنـف

اسم من أهواه في شعـ ـري مقلوب مصحف."[٣]"

فحرف (الزاي) في حاز تصحيف عن (الراء)، فتصبح (حار) وتقلب هذه الكلمة وتصبح راح.إن هذا السلوك انتشر بين فئة محدودة داخل هذا المجتمع، فلا يمكن تعميم ذلك على مجتمع تحت تعاليم دينه على تحريم مثل تلك السلوكيات.

---

١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(٦)، ص٨٠./ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٦٩.
٢) ابن جميل، الحدائق الغناء في أخبار النساء، ص١٠٥.
٣) البغدادي، تاريخ بغداد، م(١٥)، ص٦٢٣ – ص٦٢٤/ وهذه الرواية تشبه رواية ابن الضحاك مع شفيع خادم المتوكل القيرواني، زهر الآداب، م(٢)، ص٢٦٤-ص٢٦٥.

٣. <u>الانشـغال عـن العـبادة:</u> وكان جلوس بعضهم مع القيان والجواري سبباً لانشغاله عن العبادات خاصة الصلاة، إذ قال ابن أبي طاهر أيضاً: كنت مع علي بن عبيدة يوماً ونحن عند قيان، وحان وقت صلاة الظهر، والجارية قاعدة ونحن في حديث فأطلنا حتى كادت الصلاة أن تفوت، فقلت: يا أبا الحسن! الصلاة، فقال: حتى تزول الشمس، أي حتى تقوم الجارية."[١]" وهذا الجانب السلبي خطير لأنه أدى إلى تساهلهم بالعبادات وهذا يعني تساهلهم في واجباتهم تجاه دينهم ودولتهم وأسرهم، فإن وجود فئة كبيرة تهمل أعمالها وواجباتها وتضيع وقتها في الجلوس مع الجواري في أي وقت وإن كان وقت الظهر كما يظهر بالرواية وهو وقت عادة لا يجلس أحد فيه لسماع المغنيات، فمعنى ذلك تراجع الدولة وهدم أركانها الاجتماعية الصلبة.

٤. <u>التلـصـص:</u> وقام بعضهم بالكثير من السرقات التي أزعجوا بها السكان، فلما انتهت الفتنة بين المستعين والمعتز وتولى المعتز الخلافة انصرف أبو الساج ديوداد بن ديودست إلى بغداد ووجه محمد بن أسد في خمسمائة فارس إلى السواد لطرد الأتراك والمغاربة عنها وقد عاثوا في النواحي وتلصصوا."[٢]" وقد تكون ظروف الحرب سبباً في هذا التلصص والتطفل على الفلاحين البسطاء، إلا أن هذه الحرب لا تبرر فعلهم فهم يحصلون على أرزاق معينة من عملهم بالجيش، إلا أن يكون هؤلاء من أتباع القادة فيحصلون على أرزاق قليلة، وفي هذه الفترة بالذات نهب الأتراك أموال الدولة فتركزت الأموال في أيدي القادة ممن يتمكنون من احتواء الخليفة والسيطرة عليه، وبقي الغلمان الصغار تابعين لهم.

٥. <u>ارتـكـاب الجـرائـم:</u> وقام بعضهم بارتكاب جرائم داخل بغداد إما تنفيذاً لأمر، أو بسبب طبيعته وأخلاقه، ففي صفر (سنة ٢٦٩هـ/٨٨٠م) "وثبت العامة بإبراهيم الخليجي، فانتهبوا داره، وكان السبب في ذلك أن غلاماً له رمى امرأة بسهم فقتلها، فاستعدى السلطان عليه فبعث في إخراج الغلام، فامتنع ورمى غلمانه الناس، فقتلوا جماعة وجرحوا جماعة، منهم من أعوان السلطان رجلان، فهرب وأخذ غلمانه ونهب منزله ودوابه"."[٣]" ورغم أن الرواية لا تبين أن الخليجي أمر الغلام بقتل السيدة إلا أنه تجرأ على الدولة والنظام بحماية هذا الغلام والهروب به، فقد يكون ذلك نموذجاً يقتدي به من يحاول إظهار سلطته وقوته.

---

١) أبي حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، م(٤)، ص١٦٢.
٢) الطبري، تاريخ،ج(٩)، ص٣٥٣.
٣) الطبري، تاريخ،ج(٩)، ص٦١٣..

وفي قصة العبد الأسود الذي كان يعمل إلى جانب عمال المعتضد والذي كان يقوم بعمل أضعاف ما يقومون به ثم شك المعتضد به وأن وراءه شيئاً فضربه حتى أقر بأنه هرب من جريمة ارتكبها بحق رجل يحمل هميان * فيه ألف دينار وأنه بعد أن قتله وضعه في الآتون وطينه ثم أخذ عظامه ورمى بها في دجلة."[١]"

وهذه صورة لجريمة بشعة إذ انتشرت بين الناس سيكون لها أثر سلبي في نظرتهم للرقيق، وفي الخوف منهم حتى وإن كان من قام بها شخص واحد، فتناقل هذه الأخبار بين الناس والمبالغة فيها سيشجع الناس على كرههم وإلصاق التهم فيهم سواء قاموا بها أم لم يقوموا.

وأحيانا يرتكب بعضهم الجرائم ضد غيره من الرقيق، قال المحسن: بلغني أن المعتضد بالله قام في الليل لحاجته، فرأى بعض الغلمان المردان، قد نهض عن ظهر غلام أسود، ودب على أربعته حتى اندس بين الغلمان... وقد قتل ذلك الغلام."[٢]"

٦. الاعتداء على حقوق الآخرين: وتجاوزاً عن الحديث عن الجرائم فهناك أنماط من السلوك تتمثل بتجاهل الناس وحقوقهم، خاصة إذا كان بعض قادة الترك ذوي أخلاق سيئة ومن ذلك ما قاله القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي أن أحدا التجار كان له دين على أحد القواد في مال، فماطل به، وكان يحجب بابه ويحض غلمانه على الاستخفاف به، وتظلم إلى عبيد الله بن سليمان منه، فما نفعه ذلك، فقال له بعض أصدقائه: إن من سيخدمه في هذا الأمر خياط شيخ في سوق الثلاثاء يقرئ القرآن في مسجد هناك، ويخيط بأجرة فقص عليه قصته، وسأله أن يقصد القائد ويخاطبه في الخروج إليه وفي سداد الدين، فنهض معهما ومشوا .. فلما وصلوا تلقاه الغلمان وأعظموه فأعطى القائد للرجل خمسة آلاف دينار وخرجوا، فلما بلغوا مسجد الخياط قال له الرجل: أحب أن تخبرني عن سبب طاعة هذا القائد لك مع إقلاله الفكر بأكابر رجال الدولة .. فقال: كنت أصلي المغرب منذ مدة وخرجت أريد منزلي فاجتزت على تركي .. وإذا امرأة جميلة الوجه قد اجتازت عليه، فعلق بها وهو سكران فطالبها بالدخول إلى داره وهي تمتنع وتستغيث وتقول في كلامها: إن زوجي حاف بطلاقي..، وإن أخذني هذا خرب بيتي، ولحقني من العار مالا تدفعه الأيام عني، ولا أحد يمنعه منها، فجئت إلى التركي ليخلي عنها فضربني بالدبوس، فصار وقت العشاء والمرأة عنده فدعوت الناس إلى إخراجها من عنده فأخرج إلينا عدداً من

---

* الهميان: كلمة فارسية هو كيس تجعل فيه النفقة من النقود ويشد على الوسط/ ادي شير، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، باب الهاء، ص١٥٨

١) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٧)، ص٦٨ – ص٦٩.

٢) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٧)، ص٧٠.

غلمانه فأوقع بنا وقصدني من بين الجماعة بالضرب الشديد فحملت إلى منزلي ونمت وسهرت مفكراً بالمرأة وأنها متى أصبحت طلقت، فقلت: هذا رجل لا يعرف الأوقات، فلو أذنت لوقع له أن الفجر قد طلع فربما أخرج المرأة فمضيت إلى المسجد وأذنت فما مضت ساعة حتى امتلأ الشارع خيلاً ورجالاً ومشاعل وهم يقولون: من أذن الساعة فقلت: أنا ...قالوا انزل وأجب أمير المؤمنين، فلما حضرت عند المعتضد طلبت أن يؤمنني فأمنني فقلت: له خبر التركي والمرأة فأحضرهما وأرسل المرأة مع شرطي إلى زوجها يخبره الخبر ويأمره بالتمسك بها ثم استدعى التركي، فسأله عن رزقه وجواريه وهو يجيب بأعداد ذلك فقال له المعتضد: ألم يكفك ذلك عن محارم الله.. ثم قال: يحضر الجوالق* ومداق الجص، وقيود وأغلال وأحضر جميع ذلك فقيده وغله وأدخله الجوالق، وأمر الفراشين فدقوه بمداق الجص وهو يصيح إلى أن خفت صوته وانقطع حسه وأمر به فطرح بدجلة، وأمرني أن أؤذن في غير وقت الأذان إذا رأيت منكراً، فلما شاع الأمر بين الغلمان كفوا عن ذلك."[١]

وفي هذه الرواية جريمتان لا جريمة واحدة وأصعبها الثانية، التي تدل على عظم فسادهم، خاصة من تمتع منهم بسلطة عسكرية أو إدارية.

- السخـريـة: وهذه السخرية ليست كالمساخر التي كان يصنعها الرقيق لإسعاد الخلفاء بل كانت العامة تقوم بالسخرية من الرقيق والجواري، ومن أي عمل يقومون به، وقد يكون لهذه الظاهرة نظرة فوقية، أو احتقار لمن كان عبداً وأصبح حراً وحاول أن يقوم بما يقوم به الأحرار من أعمال، فضربت أمثال كثيرة عن الإماء والعبيد منها: استعنت عبدي فاستعان عبدي عبده/ الحر يعطي والعبد يألم قلبه/ يا عبد من لا عبد له/ عبد أرسل في سومه/لا تفش سرك إلى أمة/ لا تغز إلا بغلام قد غزا."[٢] وهذه الأمثال تدل على تجربة ودراية بسلوك الرقيق، يصاحب بعضها سخرية من بعض الغلمان.

وسخر العامة من الرقيق ومن ألوانهم إذ نظر عبادة المخنث إلى جارية سوداء على رأسها وقاية حمراء فقال: كأنها فحمة في رأسها نار."[٣]

وقال عبد الله بن عمر الحارثي: "اجتزت ببغداد في أيام المقتدر وأنا حدث في جماعة من مجان أصحاب الحديث، وإذا بخادم خصي جالس على دكة في الطريق وبين يديه أدوية ومكاحل ومباضع وعلى رأسه مظلة خرق كما يكون الطب فتقدم بعض أصحابنا إليه يعبث به

---

* الجوالق: عدل كبير منسوج من صوف أو شعر وهو لفظ فارسي/ انظر ادي شير، الألفاظ الفارسية المعربة،١٩٠٨م، باب الجيم، ص٤٣.

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٢٥٤- ص٢٥٧.

٢) الآبي، نثر الدر، السفر الرابع، ص٨١ - ص٨٣.

٣) التوحيدي، البصائر والذخائر،م(٢)، ص٣٥.

فتغاشى وتماوت، وقال يا أستاذ يا أستاذ (دفعات) فضجر الخادم، وقال: فقولي لا شفاك أن ايش أصابك، أي طاعون ضربك، فقال يا أستاذ: أجد ظلمة في أحشائي ومغصا في أطراف شعري ...فقال الخادم أما ما تجد من مغص في أطراف شعرك فاحلق لحيتك ... قال فعطعط بنا العامة القيام وضحكوا منا وانقلب الطنـز(السخرية) الذي أردنا بالخادم فصار طنـزاً بنا فصار قصارانا الهرب فهربنا"."[١]"

لذا قابل بعضهم السخرية بسخرية مماثلة، فلما دخل الضبي على عبد الله بن طاهر وأنشد شعراً حسناً وبحضرته أعرابي، فقال الأعرابي: ممن تكون؟ قال: من العجم، قال: وما للعجم والشعر؟ إنما الشعر للعرب، وكل من قاله من العجم فإنما نزا على أمه أعرابي، فقال: وكذلك من لا يقول الشعر منكم، فإنما نزا على أمه أعجمي إذا؟ فأفحمه."[٢]" ومن السخرية أيضاً أنه سمع رجل يقرأ: الأكراد أشد كفراً ونفاقاً، فقيل له: ويحك الأعراب، فقال: كلهم يقطعون الطريق. "[٣]"

إن هذه الأقوال تقال للتسلية، وقد يعبر بعضها عن مواقف سياسية يتبناها أفراد المجتمع، فسخر البعض من تصرفات الجند التركي ومن سلوكهم الشائن، فكتب ابن الكلبي صاحب الخبر إلى المتوكل: أن المعروف بابن المغربي القائد اجتاز البارحة بالجسر سكران، فشخر ونخر، وبربر وزمجر وجرجر، وبأبأ بفيه، وخرق الشريحة ومر منصلتا، وقال: أنا الكركدن فاعرفوني، فضحك المتوكل حتى استلقى، وقال: قد عرفنا ما كتب به البغيض إلا حرفاً واحداً فعلي به، فلما جاء قال: يا مولاي توسط الجسر، وقال بفيه: بب بب، فقال له المتوكل: انصرف في غير حفظ الله."[٤]" والكلمات السابقه تفيد أنه كان يتكلم بكلام غير مفهوم، مع ارتفاع الصوت وعلوه بشكل مزعج وهو معنى تشترك فيه جميع الكلمات السابقة *.

لقد كانت حركة الزنج أيضا سبباً في زيادة احتقار الناس للرقيق وكرههم، ففي سنة (٢٨٤هـ/٨٩٧م) أولعت العوام بأن يقولوا لمن رأوه من الخدم السود: "يا عقعق، فبالغوا في أذى الخدم، فتقدم المعتضد بأخذ جماعة وضربهم"."[٥]" والعقعق هو صوت لطائر من الفصيلة الغرابية له ذنب طويل ومنقار طويل والعرب تتشاءم منه**. وكان تدخل الدولة سبباً في الحد من هذه التصرفات.

---

١) ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، ض١١١ – ص١١٢.
٢) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص٩٧.
٣) ابن منظور، المنتخب والمختار في النوادر والأشعار، ص٥٥٧.
٤) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص٩٩.
*المعجم الوسيط، م(١)، الصفحات:٣٩٩/١١٤/٤٦.
٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٣٠٠.
** المعجم الوسيط، م(٢)، مادة(عقعق)، ص٦١٦.

- نقل الأخبار: لقد كان نقل الرقيق للأخبار مشكلة خطيرة، لم تنتقدها كتب التاريخ بقدر ما اعتمدت عليها في التوثيق لتلك المرحلة، وإذا كان الخلفاء قد عينوا من يأتي لهم بأخبار ولاتهم وقادتهم، فإنهم لم يحرصوا على منع سكان قصورهم من الخدم والوصائف والمغنيات من نقل أخبارهم، خاصة في هذه الفترة التي أصبحت الثقة فيها بالآخرين تكلف الخليفة حياته، فكان خدم الخلفاء أعيناً عليهم لمن سيستفيد من أخبارهم.

ففي خبر موت المؤيد (أخو المعتز) والذي كان محبوساً تذكر رواية الطبري أن امرأة من نساء الأتراك جاءت محمد بن راشد المغربي، وأخبرته أن الأتراك يريدون إخراج إبراهيم المؤيد من الحبس فأخبر المعتز."[١]

لقد كانت هذه المعلومة التي نقلت من خلال امرأة تركية أحد الأسباب التي عجلت في الحكم على المؤيد بالقتل من قبل الأتراك المسيطرين في هذه الفترة، فمهما كانت دقة هذا الخبر وصحته فإنهم لم يلتفتوا إلا إلى خطورة وجود المؤيد وأن وجوده قد يدفع الترك إلى توليته الخلافة الأمر الذي سيسبب فتنة جديدة.

بينما قد يكون غناء إحداهن بشعر قد يساء فهمه بحضرة سيدها سبباً لقتله أو نفيه، ومن ذلك أن صاحب الخبر، بمدينة السلام كتب إلى إسماعيل بن بلبل في وزارته الأولى للمعتمد بأن مغنية من جواري (بدعة الكبرى)، غنت عند الحسن بن مخلد، وهو إذ ذاك معطّل بهذا الصوت، فاستعاده وطرب عليه:

عادة طيء في بني أسـ ـد   ري الـ ـقنا وخضاب كل جسام
لا تهلكي جزعا فإني واثق   بـ ـرمـ ـاحنـ ـا وعواقب الأيام

فأنهى إسماعيل ذلك إلى المعتمد، وقال هذا يسعى عليك، ويتربص بك الدوائر، وأمر بنفيه إلى مصر فكانت مغنية سبب تلفه."[٢]

لقد كان من الطبيعي، وفي ظل التنافس الشديد بين الخلفاء والعناصر التي سيطرت على الدولة العباسية أن يبقى للأجهزة الاستخبارية مكانتها لتزويد الفئات المتصارعة بالأحداث والمستجدات على الساحتين الداخلية والخارجية، ... لذا نجد أن هذه العناصر أخذت تتفنن أكثر وأكثر في اختيار المخبرين وتدريبهم، فكان منهم الخدم والنساء والتجار والزراع...."[٣]

---

١) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٦١/ القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج(١)، ص٢٤٦.
٢) التنوخي، نشوار، ج(٨)، ص٣٠ - ص٣١.
٣) (محمد خريسات، حسن النابودة)، صاحب الخبر في الدولة الإسلامية، ص٣٧٣.

إن نقل الأخبار من خلال الجواري والرقيق من الخدم سواء قصدوا نقلها أم لم يقصدوا كان وسيلة لإيذاء سادتهم، وكانت من أهم سمات العصر العباسي الثاني، ولم يكن تأثيره مقتصراً على الجانب الاجتماعي بل كان أخطر في الأثر السياسي.

- التـطفـل: كان التطفل سمة من سمات أشخاص معروفين ببغداد ألفت حولهم الكتب ككتاب التطفيل للخطيب البغدادي، وكان قرب الخدم من أسيادهم وحبهم الاطلاع على أخبارهم سبباً في التدخل في حياتهم بقصد أو دون قصد، قال أبو العيناء: إن سبب خروجه من البصرة إلى بغداد أنه مر بسوق النخاسين يوماً فرأى غلاماً ينادى عليه، بثلاثين ديناراً وهو يساوي ثلاثمائة دينار فاشتراه، فقال: كنت أبني داراً فدفعت إليه عشرين ديناراً على أن ينفقها على الصناع فجاء في بعد أيام يسيرة، فقال: نفدت النفقة قلت: هات حسابك فرفع حسابا بعشرة دنانير، قلت: فأين الباقي؟ قال: اشتريت به ثوباً مصمتاً، وقطعته، قلت: ومن أمرك بهذا قال: مولاي لا تعجل فان أهل المروآت لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعلا يعود بالزين عليهم، فقلت في نفسي: أنا اشتريت الأصمعي، قال: وكانت في نفسي امرأة أردت أن أتزوجها سراً من ابنة عمي، فقلت له يوما: أفيك خير؟ قال إي لعمري فأطلعته على الخبر، فقال: أنا نعم العون لك فتزوجت ودفعت إليه ديناراً فقلت له: اشترِ لنا كذا وكذا، وليكن فيما تشتريه سمك هازبي[جنس من السمك]، فمضى ورجع واشترى ما أردت إلا أنه اشترى سمكا " مارماهي" فغاظني، فقلت: أليس أمرتك أن تشتري هازبي؟ قال: بلى، ولكني رأيت بقراط يقول: أن الهازبي يولد السوداء، ويصف المارماهي، ويقول إنه أقل غائلة فقلت: أنا لم أعلم أني اشتريت جالينوس، وقمت إليه وضربته عشر مقارع فلما فرغت من ضربه أخذني وأخذ المقرعة، وضربني سبع مقارع وقال: يا مولاي الأدب ثلاث والسبع فضل، وذلك قصاص فضربتك هذه السبع خوفاً عليك من القصاص يوم القيامة فغاظني جداً فرميته، فشججته، فمضى من وقته إلى ابنة عمي، فقال لها: يا مولاتي الدين النصيحة وأنا أعلمك أن مولاي قد تزوج واستكتمني فلما قلت له: لا بد من إعلام مولاتي ضربني قال أبو العيناء: فمنعتني ابنة عمي من دخول الدار، فلم أر الأمر يصلح إلا بأن طلقت المرأة التي تزوجت، فصلح أمري مع ابنة عمي، وسمت الغلام الناصح، فلم يتهيأ لي أن أكلمه فقلت: أعتقه وأستريح لعله يمضي عني فأعتقته فلزمني قائلا: الآن وجب حقك علي، ثم إنه أراد الحج فجهزته وزودته وخرج وغاب عني عشرين يوماً، ثم رجع فقلت له: لمَ رجعت؟ قال قطع الطريق، وفكرت فإذا الله تعالى يقول (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) وكنت غير مستطيع، وفكرت فإذا حقك علي أوجب، فرجعت ثم أراد الغزو فجهزته

فشخص فلما غاب عني بعت كل ما أملكه بالبصرة من عقار وغيره وخرجت خوف أن يرجع."[١]

وتبين الرواية أن بعضهم تجرأ على مالكه وتدخل في حياته الشخصية وفي بعض قراراته، فرغم أن هذه الرواية تبين حدثاً بسيطاً قد يمر في يوميات الشخص العادي إلا أنه سيكون مؤثراً في حال كان الأمر يتعلق بنقل أخبار تخص الخليفة نفسه، كما ورد معنا في الرواية السابقة.

كما أن إقامة علاقة جيدة مع خادم المنزل قد توصلك إلى جميع أخبار ذلك المنزل، لذا من نصائح بنان الطفيلي على الموائد ما يلي... وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومديريها، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم."[٢]

- المجالـس: كانت المجالس من أبرز مظاهر الحياة في بغداد، لم تقتصر على فن دون آخر، وكانت بعض هذه المجالس مخصصة للعلماء، ومجالس أخرى مخصصة للأدباء، وبعضها للغناء، وبعضها مجالس يلتقي حولها الأصدقاء أو أهل البيت أو غيرها من المجالس، وكانت مجالس الخلفاء لا تكتمل إلا بحضور من يعمل على الخدمة أو من يطربهم، أو من يمتلك قدرة على طرح مختاف الحديث من مضحك ومسل بما يحمل من مواعظ وخبرات، ومن يتمتع بتلك الصفات فإنه سيكون زينة المجالس، مثال ذلك ما حدثنا به عمر بن محمد بن عبد الملك قال: شرب المعتز ويونس بن بغا بين يديه يسقيه والجلساء والمغنون حضور قد أعد الخلع والجوائز، إذ دخل بغا فقال: يا سيدي والدة عبدك يونس في الموت وهي تحب أن تراه ،فأذن له فخرج، وفتر المعتز لبعده ونعس، فقام الجلساء وتفرق المغنون إلى أن صليت المغرب وعاد المعتز إلى مجلسه ودخل يونس وبين يديه الشموع فلما رآه المعتز دعا برطل فشربه وسقى يونس رطلاً، وغنى المغنون وعاد المجلس أحسن ما كان، فقال المعتز:

" تغيب فلا أفرح فليتك لا تبرح"

ثم قال غنوا فيه... وقال المعتز لابن القصار الطنبوري، ويلك ألحان الطنبور أملح وأخف فغن لنا، فغنى فيه لحنا، فقال: "دنانير الخريطة"، وهي مائة دينار، ثم دعا بالخلع

---

١) ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، ص٧٠ - ص٧٣ / الآبي، نثر الدر، السفر الثالث، ص٣٩٢ - ص٣٩٥/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٢٨٦ – ص٢٨٧/ ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان بصورة أخرى، م(٢)، ج(٦)، ص٥٢٩ -. ص٥٣٠.

٢) الخطيب البغدادي، التطفيل، ص١٧٦ - ص١٧٧.

والجوائز لسائر الناس وكان ذلك المجلس من أحسن المجالس."[١]" أن شخصاً واحداً يتمتع بشخصية مميزة قد يثري المجلس ويغني المجالس.

وكان القاسم بن عبد الله يخفي لهوه عن المعتضد كي لا يظن أنه رجل متوفر على لذاته، فأراد أن يقيم مجلسا يسمى " شاذكلي" وهو الشرب مع وجود دراهم مخلوطة بالورد ولم يوجد سواه والمغنيات وحظيته التي لبس هو وهي ثياب قصب مصبغات من ملابس النساء، وأنهى الاحتفال في نصف الليل لكي لا يظهر عليه أثر الخمر في اليوم التالي، وأقام في الخدمة حتى وقت الانصراف فلما دخل على المعتضد، قال له يا قاسم: لو دعوتنا البارحة فكنا نلعب معك شاذكلي، ولكنك احتشمت لأجل المصبغات التي لبستها أنت وعشيقتك، فكاد القاسم أن يموت جزعاً، فقال له المعتضد: مالك قد جزعت، لو علمنا أنه يلحقك ذلك ما أخبرناك بشيء امض في ودائع الله وعاد القاسم إلى داره كئيباً وجمع نصحاءه وقال: إن المعتضد أراد أن يعرف أن هذا القدر من أخباري ليس يخفى عليه، وان كان على الحقيقة قد عرف هذا فكيف تخفى عليه مرافقي ... وقال لهم إن لم أعرف من أوصل هذا الخبر انشقت مرارتي.. فقال أحدهم مبتدراً، أنا أكفيك هذا وجعل هذا الصاحب يدور حول دار الخلافة ليخمن من يشبه صاحب الخبر فرأى رجلاً شاباً يحبو على ركبتيه بسبب مرض مر على جميع خدم البيت يسألهم المال ويسألهم عن أخبار القاسم وجواريه ومر على كل غرف البيت، وجاء إلى باب الحرم فدعا بالخادم الموكل بالباب فتصدق عليه ودعا له وهو يقول: "وسلوا ستي القهرمانة عن خبرها وأقرئوها مني السلام، حتى استنفد من أخبار جواري القاسم ومبيته وعند من بات منهم البارحة وما بين الجواري من السرور والأنس، "وقال له خاصة خدم القاسم:"إن الوزير مغموم غماً شديداً منذ يومين لا نعرف سببه، فسألت البوابين من يكون هذا فقالوا: إنه رجل طيب يأتي ليتصدقوا عليه ويكلم حاشية الدار كلها فخرجت وراءه ... ودخلت خاناً صغيراً فأرسلت غلامي خلفه فإذا به يدخل داراً وقد خرج فيها بأحسن مظهر وهو مختلف كلياً عما رأيته فلما مضيت وراءه دخل دار ابن طاهر وقد أخرج رقعة سلمها لخدمه، فلما كان اليوم التالي جاء الرجل بمثل هيئته الأولى وجعل يدخل حجر البيت إلى أن دخل دار الخلوة، فأغلق الباب عليه إلى أن جاء الوزير وسأله عن خبره فقال أنا صاحب خبر المعتضد عليك منذ كذا وكذا أعمل إلى نصف النهار ثم أكتب رقعة بما أعرفه إلى خادم في دار ابن طاهر وهو الوسيط الذي يرسلها للمعتضد، وأخبره ماذا كان يوصل من أخبار فلما كان الليل قتله ودفنه فانقطعت أخبار القاسم عن المعتضد"."[٢]"

---

١) الجريري، الجليس الصالح الكافي، ج(١)، ص٣٦٥ - ص٣٦٦.
٢) التنوخي، نشوار المحاضرة ، ج(٣)، ص٢٧٦ – ص٢٨٣/ التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٢٨٧ – ص٢٩١.

ويظهر من هذه الرواية أن محاولة إخفاء الوزير هذا الاحتفال عن المعتضد، يكمن بأن جلوس عمال الخليفة مع الجواري هو مما يؤخذ عليهم، ويعتبر جانباً من جوانب تقصيره في الخدمة؛ لذا سعى إلى إخفاء الأمر بكافة الوسائل، كما تبين هذه الرواية أيضا دور الخدم الكبير في إخراج أخبار سيدهم للعامة وإن لم يكونوا يقصدون ذلك مما قد ينعكس سلبياً في الكثير من الأحيان عليهم وعليه.

وتؤنس هذه المجالس من كبر في السن من الناس، ومن الجواري والخدم رغم أنه لا يبقى للجارية المغنية في آخر الأمر سوى التوبة والكف عن الغناء؛ لذا يقول إبراهيم بن المدبر: كنت أتعشق عريباً دهراً طويلاً، وأنفقت عليها مالاً جليلاً، فلما قصدني الزمان، ولزمت البيت، كانت هي أيضا قد أسنت وتابت من الغناء وزمنت، فكنت جالساً يوماً، إذ جاءني بوابي وقال: طيار عريب بالباب وهي فيه تستأذن...."[١]" وأقاما مجلساً غنت فيه جواري عريب في ذلك اليوم.

كانت تلك المجالس وسيلة، للقاء الناس والترفيه عن النفس، والخطأ يكثر فيها لكثرة الكلام وسهولة نقل الأخبار، وكانت هذه المجالس لا تقام إلا على صوت مغنية أو آلة عازف، أو حديث مسلٍ.

- <u>تطـوير الطعـام والعـطور والأزيـاء</u>: أثر الرقيق والجواري في تطوير أزياء الناس في بغداد وفي الاهتمام بأنفسهم، حتى في بعض التصرفات، فمن ذلك أن علي بن يحيى المنجم قال: خرجت يوماً من حضرة المعتمد فصرت إلى عريب، فلما قربت من دارها أصابني مطر بلّ ثيابي إلى أن وصلت إلى دارها فلما وصلت إليها أمرت بأخذ ثيابي عني وأتتني بخلعة فلبستها، وأحضر الطعام فأكلنا..."[٢]"

هيأت عريب لزائرها ملابس احتاج إليها في يوم ماطر، لقد كان الاهتمام بالمظهر بشكل مفرط بسبب عناية الجواري بملابسهن وجمالهن وحتى هيئة من يجالسهن، وكان لباس جواري القصور نموذجاً يحتذى به، فكان ابتكار زبيدة لشكل الجواري المطمومات سبباً في تقليد عام في الهيئة والثياب الخاصة بهن، كما أن الرواية التي تحدثت عن ساجي ودخولها قصر المعتضد، ووصف هيئتها مقابل هيئة جواري القصر تدلنا على حقيقة هذا التأثير"[٣]". وقيل أن الغلمان من

---

١) التنوخي، نشوار،ج(١)،ص٢٧٠ -ص٢٧٣.
٢) ابن جميل، الحدائق الغناء في أخبار النساء، ص٩٩ - ص١٠٠.
٣) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج(٥)، ص٦٩ – ص٧٠/ الشابشتي، الديارات، ص١١٣ - ص١١٧.

خدم وخصيان كانوا يحصلون على امتيازات خاصة من أسيادهم ويلبسون ملابس غالية تبين ثرائهم ولكي تبينهم أكثر أنوثة."[١]

وكانت بعض النساء يبتكرن أزياء قد لا تستطيع المرأة المتوسطة الحال شراءها، فكان بعض بني إسحاق الشيرازي المعروف بالخرقي ممن كان يعامل أم المقتدر قد طلبت منه أم المقتدر في يوم يقرب من نيروز المعتضد ألف شقة زهرية خفافاً جداً قال: فبعثت في جمعها، والرسل تكد في بالاستعجال، والقهارمة يستبطؤوني، حتى تكاملت، وصرت بها إلى الدار، فخرجت القهارمة، فقالت: اجلس في الحجرة التي برسمك، واستدع الخياطين قال، وقال لي: كنت أشتري لها ثياباً دبيقية يسمونها ثياب النعال، قال: وكانت نعال السيدة من هذا المتاع، لا تلبس النعل إلا عشرة أيام، أو حواليها، حتى تخلق، وتتفتت وتذهب جملة دنانير في ثمنها وترمى، فيأخذها الخزان أو غيرهم، فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك فيأخذونه، وهو يساوي جملة دنانير."[٢]

لقد كانت الكثير من هذه الملابس تكشف عن محاسن المرأة خاصة الجواري منهن، ورأى البعض أن المجتمع العربي الذي طفح بذلك الفيض الغزير من الجواري كان من الممكن أن تبتذل المرأة فيه إلى درجة كبيرة لولا النظرة الإنسانية ولولا التنظيمات الاجتماعية التي وضعت لحفظ حقوق النساء خاصة الحرة منهن."[٣]

أن العامة أيضاً مطبوعة على تقليد من هو أرفع منها مكانة، ولا سيما تقليدهم بالملابس والأزياء، ويغلب حب التقليد عند النساء أكثر من الرجال، وصادف أن وجدت بعضهن تجوع لتلبس لبس فلانة، وكانت هذه الظاهرة واضحة في العصر العباسي، وكان ما يفرضه الخليفة من ملابس تفرض على جميع من في داره من نساء وخدم وجواري، فلما أظهر المتوكل لبس ثياب الملحم وهو ثوب مسدود لا فتحة فيه، فرض ذلك على من في بيته، وانتشرت بين العامة فسميت هذه الثياب بالثياب المتوكلية."[٤]

وقامت الجواري برسم أبيات من الشعر على ثيابهن بهدف لفت الانتباه فإذا لم ينظر إلى وجهها نظر فضولاً لمعرفة القصيدة، التي تعبر عنها وعن مكنونات نفسها:

قال علي بن الجهم : خرجت علينا" عالج" جارية خالصة، وعلى طرتها مكتوب بالغالية:

---

4) Hitti. 1964. History of the Arabs. P. 341.

٢) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة،، ج(١)، ص٢٩٣ - ص٢٩٤.

٣)محمد السامرائي، المرأة في أدب العصر العباسي، مجلة الفيصل، أبو ظبي- الإمارات، ٢٠٠٣م، (ع) ٣٢٣، ص١١٤.

٤)صلاح الدين المنجد، بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، ص١٥٠- ص١٥٣.

يا هلالا من القصور تجلى صام قلبي لمقلتيه وصلى."[١]"

وحدث الحسن بن وهب قال: كتبت "شغب" على قلنسوة جاريتها شكل:

لم ألق ذا شجن يبوح بحبه إلا حسبتك ذاك المحبوبا

وكتبت "وصيف" جارية الطائي على عصابتها:

الكفر والسحر في عيني إذا نظرت فاغرب بعينيك يا مغرور عن عيني

وكان على عصابة " مزاج" وهي من مواجن بغداد وفتاكها:

قالوا عليك درع الصبر قلت لهم حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً."[٢]"

وهذه الطريقة بتزيين الملابس والعصائب بأبيات من الشعر، تفتح مجالاً للحوار والحديث بين الجارية ومن يهتم بما كتبته من أبيات بحيث تربطهما بسببه علاقة قوية.

وكان لباس الخدم العمامة الحمراء، وكانت القلنسوة وهي غطاء الرأس طويلة، فلما جاء المستعين قصرها، وكانت النساء تلبس الأردية، وكانت الجارية تلبس الأنواع الجيدة من الأردية لمكانتها المرموقة بالقصر، أما الجلباب فقد كان يلبس في مجالس الوعظ والقضاء وهو ثوب تغطي المرأة به صدرها وظهرها يرتدى في تلك المناسبات، وهناك تفاصيل دقيقة لنوعية الألبسة التي ترتديها الجواري في هذه الفترة."[٣]"

وصارت نساء بغداد نموذجاً في الأزياء في العالم الإسلامي وتحولت أنظار النساء إليها ليقلدن نساءها ونابغات جواريها في ملبسهن."[٤]" يقول الشيرازي إن أهل بغداد قلدوا الفرس بأسلوب لبسهم سواء كان ذلك بالقلانس الفارسية أو تعليق السيف في وسط اللباس، وفي السواد، وأخذوا الخضاب من الهنود ثم طوروه فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة، وبالزعفران للصفرة، فضلاً عن الخضاب الأسود، وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت."[٥]"

إن هذه الأنواع من الصباغ تبين نقلة كبيرة في اهتمامهم بالجمال خاصة الرغبة لدى البعض في جعل الشعر أشقر كالجواري الروميات باستخدامهن للزعفران في الخضاب.

لقد طورت نساء بغداد من أساليب التزيين المتبعة فيها وظهر ذلك من خلال ما ذكر في شعر تلك الفترة، وما نقل من أخبار وما نحت من تماثيل وآثار باقية إلى اليوم فيما خلفه العصر العباسي من عمارة شاهدة على تطور حضارتهم. وتشير باحثة الآثار "زكيه العلي" إلى أن الوشم كان نوعاً من أنواع الزينة وهو معروف لدى العرب، كما أُشير إلى تزيين الشعر الذي كان

---

١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٦)، ص٤٢٥.
٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٦)، ص٤٢٦.
٣) صلاح العبيدي، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي الثاني،١١٧/ ٢٩٨/١٣٧ - ٢٩٩.
٤) علي إبراهيم حسن، نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ص١٤٣.
٥) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص٣٦٥.

بعضه قصيراً وبعضه طويلاً، وتتساءل الباحثة في كون الإشارات التي ترد بالمصادر التاريخية عن تزييق(الزينة) المرأة في العصر العباسي بكونها صورة واقعية أم أنه خيال نابع من الرغبة لديهم في زيادة التزييق لدى المرأة، وكانت المرأة تزين خدها بالواو(وهو طي النهاية السائبة من شعر الصدغين بشكل حلزوني، ومن ضروب الأصداغ ما عرف بالقاف أي أن تضع المرأة فوق السالفتين خالين (الشامة) تبينهما كحرف القاف، وكانت المرأة تستعمل الخضاب وتضيف إليه "الكتم" وهي مادة تزيد لون الحناء سواداً، وكانت تخضب أرجلها وأيديها، كما لونت حاجبها بتلك الأصباغ، ومن مواد التلاوين الأخرى(الاسفيذاج) وليس له معنى دقيق بالمعاجم اللغوية * وهي كلمة ما زالت تستخدم في العراق وتطلق على مادة كلسية بيضاء، تحرق ثم تسحق ويطلى بها الوجه بعد أن يبل بالماء ليكسبه لوناً أبيض، وهي مادة أيضاً استخدمت في طلاء الجدران، وأطالت المرأة أظافرها كضرب من الزينة، واستخدمت الأدهان (الدهن) لترطيب البشرة والشعر."[١]"

ومن مظاهر الترف في العصر العباسي الثاني مبالغة النساء في زينتهن، فكن يلبسن ثياب السندس والإستبرق والوشي النفيس من كل لون وكنا يتحلين بالجوهر من كل صنف وأمشاطهن من الصدف والصندل وكن يتفنن في وضع شعورهن على رؤسهن وجباههن، وقد يلوينها على أصداغهن في هيئة حرف النون أو على هيئة العقرب، وفي ذلك يقول ابن المعتز:

لوى صدغه كالنون من تحت طُرة ممسكة تزهى بعاج جبين

وكنا يتعطرن بالطيب والمسك والغالية والزعفران والعنبر."[٢]"

وكان هناك نساء مزينات ورجال مزينون اعتمد الناس عليهم في تحسين مظهرهم وقد اعتمد المنتصر على قيمة جواريه لتصلح من شأن الجارية التي يريد إهداءها لسعيد الصغير."[٣]"

وطورت صناعة العطور وكان لرغبة بعض الجواري بالتميز دور في تطوير تلك الصناعة، فوصف ند كانت أم الخليفة المقتدر بالله تصفه وتبخر به الكعبة وصخرة بيت المقدس."[٤]"

---

* الإسبيداج والإسفيداج: بياض الرصاص والآنك وهو أبيض/ ادي شير، الألفاظ الفارسية المعربة، باب الهمزة، ص٢.

١) زكية عمر العلي، التزييق والحلى عند المرأة في العصر العباسي، ١٩٧٦م، الصفحات: ٢١/ ٤٦/ ٤٧/٤٩/٦١-٦٥/٧٠.

٢) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ط(٤)، ص٧٣.

٣) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٢٠٧ – ص٢٠٨.

٤) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، سفر (١٢)، ص٦٣ – ص٦٤.

وكان لوجود عدد من الرقيق الطباخين في قصور الخلفاء وبيوت الناس أثر في تطوير أنواع الأطعمة المقدمة على موائدهم.فجاء رجل لثمامة بغلام سندي يزعم أنه طباخ فلما اشتراه، فإذا هو أحسن الناس خبزاً وأطيبهم طبخاً."[١]"

إن هذه الصورة للآثار الإجتماعية غير كاملة بالقدر الذي يحتاجه الباحث لدراسة علاقة الرقيق والجواري بالعامة، إلا أنها كافية لتبين لنا آثارهم السلبية والإيجابية على مجتمع بغداد في هذه الفترة، لقد كانت الآثار الإجتماعية صورة لحياة مترفة ومنفتحة، أدخلت مفاهيم كان التطرق إليها في الفترة الراشدة والأموية والعالم الإسلامي المعاصر لهذه الفترة من المحرمات، ولا يعني التطرق لهذه المحرمات الوقوع بالخطأ لكنها تعني انفتاح الإنسان في بغداد على كافة الثقافات التي جاء منها الرقيق والجواري ومزجها بالمفاهيم والتقاليد العربية التي نتج عنه عادات جديدة شكلت جزء من تاريخ بغداد وحضارته.

- **الآثار الثقافية:**

للرقيق والجواري آثار ثقافية على المجتمع العباسي، سواء كانت هذه الآثار عميقة أو سطحية، وتلتقي الكثير من الآثار الاجتماعية مع الآثار الثقافية فالمجتمع هو الذي يخلق هذه الثقافة ويطورها أو يكون سبباً في تراجعها، وكان الرقيق والجواري جزءاً من هذه الثقافة ومن تكوينها، لذا نجد صورة الجواري التي جاءت من العصر العباسي الثاني شبيهة بذاك الوصف الذي وصف به البحتري بركة (الجعفري)- وهو قصر ابتناه المتوكل في سر من رأى - بقوله:

يا من رأى البركة الحسناء رونقها والآنسات إذا لاحـ ـت مغانيهـ ـا
ما بـ ـال دجلة كالغيرى تـ ـنافسها في الحسن طوراً و أطواراً تباهيها."[٢]"

فلا يكتمل بهاء صورة القصور في هذا العصر إلا إذا جلست تلك الجواري حول البرك يغنين أفضل ما نظم من شعر وأحدثه، فقبل أن يصف البحتري بهاء القصر وجماله وما كان فيه من صور ذلك اليوم فإنه وصف الجواري ليلفت انتباه من يسمعه لأول مرة إلى ما تحويه بقيت الأبيات، ومعنى أن يستخدم الجواري في لفت النظر، أن أي حديث عن الجواري أو أي وجود لهن في أي مكان بطبيعة الحال سيلفت النظر.

---

١)الجاحظ، الحيوان، م(٢) ج(٦)، ص٥٢٨.
٢) القيرواني، زهر الآداب، ج(١)، ص٢٣٠.

وكانت أغلب الجواري القيان يظهرن العشق لمن يجالس معهن، ولكن في حقيقة الأمر لا يعشقن أحداً بل كانت غايتهن المال فكانت تحصل عليه كأجر أو كهدية أو كجائزة، أو تطالب به مقابل أن تكون قريبة من أحدهم، كتب علي بن الجهم إلى جارية كان يهواها بأبيات من الشعر منها:

دعي البخل لا أسمع به منك غنما   سألتك شيئا ليس يعري لكم ظهرا

فكتبت إليه على ظهر الرقعة: إنه إن لم يعرِ لنا ظهراً، فانه يملأ لنا بطناً."[١]"

إن للرقيق والجواري آثاراً ثقافية عديدة في ذلك العصر، وقد كانت كتبهم وأشعارهم تحتوي أخبار الرقيق والجواري في هذا المجال، فما هي أبرز الآثار الثقافية للرقيق والجواري على العصر العباسي الثاني؟.

- التسلية: أشرت فيما سبق إلى اعتماد الناس على الرقيق والجواري بغرض التسلية، إلا أن ذلك مختلف عن التسلية التي ينتج عنها الإساءة إلى إنسان وتاريخه، حتى وإن كان ذلك الإنسان كثير الأخطاء.

وقد بالغ البعض في صورة جواري العصر العباسي الثاني، وأصبح يخلط بين الروايات فينسب لهن ما لم يقمن به.

مثال ذلك ما "أخبر به التنوخي: إن الغوالي من المسك والعنبر، وما كان في الخزائن، استعمل كله في الوحل الذي كانت السيدة أم المقتدر عملته، وخبر الوحل مستفيض على ألسنة العوام، فلا وجه للإطالة بذكره ورأيت أهل العلم والخبرة بأمور الخلافة وأخبارها يكذبون ذلك تكذيباً شديداً فلم أورده لهذا السبب"."[٢]"

وهذه الرواية التي فضل التنوخي عدم الإطالة بها تدفعني للإطالة، لأن خبر الطين أو يوم الطين هو يوم أقامه المعتمد بن عباد أحد أمراء الأندلس لزوجته اعتماد الملقبة بالرميكية، وكانت من الجواري قبل أن تتزوج به، وهذه الرواية المكررة والمنقول من التاريخ الأندلسي ليست الوحيدة فالرواية التي تتحدث عن المقتدر وهو صغير وحوله الجواري كما بينت تشبه خبر إبراهيم المؤيد مع جواريه.

لقد قامت بعض كتب التاريخ المتأخرة بالخلط بين روايتين لفترتين مختلفتين في الأندلس وربطتهما بالمقتدر وأمه (شغب) بينما لم أجد كتب التاريخ التي تتحدث عن هذه الفترة تذكر هذه

---

١) التوحيدي، البصائر والذخائر،م(١)، ص٢٢٢/ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٦)، ص٧١.

٢) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(١)، ص٢٩٢ / وإبراهيم القيرواني، المختار من قطب السرور، ص٢٩٦ ص٢٩٧/ يذكر أن خبر الوحل وخلطه بالمسك والعنبر هي قصة تحاكي نساء العامة اللائى يملأن جرارهن من شاطئ النهر فأمرت أن يتخذ لها مثل شكل الشاطئ ، وأنها وجواريه قمن بالمشي حافيات على هذا الطين وملأن جرارهن.

الأخبار، إذن فإن أخبار الجواري اللواتي ارتبطن بالمقتدر كـ(شمل) و(نظم) أثرن في الناس فأرادوا أن يزيدوا على ما علموا من أخبارهن لا من أجل مهاجمة المقتدر بقدر ما هو نوع من أنواع التسلية، وإيجاد مواضيع تشغل مجالسهم وتطيلها.

وهذا النوع من التسلية ينطبق على كل الفترات، إلا أننا لا نستطيع أن نعتمد على هذه الروايات، لأنها تخالف الواقع وتلقي على الخلفاء والناس صفات ليست لهم، وتجعلنا نغالط في إطلاق أحكام على الناس من خلال روايات لا غرض منها إلا التسلية.

وهذا الأمر يجعل الباحث يحذر أيضاً من الروايات التي تطرقت إلى ذكر جوار من هذا العصر بقصص مختلفة لا لأنها لم تحدث بل لأن الكذب والمبالغة ستكون جزءاً منها، ما دام الحديث عنهن يلفت النظر.

- الـجـهـل والـعـلـم:

يعتبر بعض الرقيق والجواري سبباً من أسباب نشر الجهل في المجتمع، وفي المقابل يعتبرون سبباً لنشر العلم وأحد أسبابه في المجتمع، وهذه ليست صورة متناقضة بقدر ما هي صورة لنوعين من الرقيق نوع كان سخرية الناس لجهله ونوع قدر واحترم لعلمه، ولهذا الباب الواسع جوانب عديدة منها:

- التأليف: التأليف قبل أن يكون أثراً أنتجه الرقيق كانوا سبباً فيه، إذ دفعت الكثير من الظواهر المرتبطة بالرقيق والجواري إلى تأليف كتب وانشاء شعرٍ وأخبارٍ كثيرة تتحدث عنهم أو تتناول أساليب بيعهم وشرائهم أو المناطق التي يباعون فيها، كما تناولت العديد من المؤلفات صفاتهم وعادتهم وطبائع أقوامهم، ولم يكن للمسلمين أن يؤلفوا في مواضيع لم تكن غير مهمة بالنسبة لهم لذا ألفوا في المواضيع التي تتعلق بالرقيق والجواري؛ لأن هذا الصنف من الناس كان له أدوار واضحة في شتى مناحي حياتهم، وانقسمت هذه المؤلفات إلى قسمين هما:

١. مؤلفات مباشرة مرتبطة بالرقيق أو الجواري أو القيان أو الأغاني منها:

-ألف الجاحظ عدداً من الرسائل الخاصة بالرقيق والجواري:

- أبرزها الرسالة الرابعة عشرة في القيان،منها نسخة في مكتبة داماد وأخرى في مكتبة نور الدين مصطفى باستنبولأيضاً، نشرها يوشع فنكل سنة ١٣٤٤هـ، ثم عبد السلام هارون في رسائل الجاحظ.

- والرسالة الرابعة في فخر السودان على البيضان للجاحظ، والتي حققها عبد السلام هارون أيضاً وخصص هذه الرسالة لهم لأنه لم يذكرهم في رسالته الت كتبها حول" محاجة الصرحاء للهجناء ورد الهجناء وجواب أخوال الهجناء*).
- والرسالة الثالثة عشرة وهي رسالة مفاخرة الجواري والغلمان، وفيها يبين كل من تاجر الجواري وتاجر الغلمان مميزات كل واحد منهم.
- والرسالة الأولى في مناقب الترك.ويرى البعض أن الجاحظ ألف هذه الرسائل وخاصة رسالة القيان بسبب إقبال الخلفاء والوزراء ممن عاصره على حياة اللهو والمجون وشرائهم."[١]

-الأمشاطي المتوفى سنة (٩٠٣هـ/١٤٩٧م) وهو مخطوط القول السديد في اختيار الإماء والعبيد." وحققه الدكتور محمد صالحية عام ١٩٩٦م، والذي يبين فيه صفات الرقيق والجواري

وبعض أساليب بيعهم وشرائهم، والمناطق التي يجلبون منها[٢]"

-رسالة ابن عبدون البغدادي أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، رسالة نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد.

-ابن الساعي المتوفى (٦٧٤هـ)ألف كتاب "نساء الخلفاء" والصادر عام ١٩٩٣م عن دار المعارف في مصر، والذي حققه مصطفى جواد، والذي يذكر فيه أخبار نساء الخلفاء من حرائر وإماء دون أن يقوم بترتيبهم على أساس حروف المعجم.

-السيوطي المتوفى(٩١١هـ) والذي ألف كتاب "المستظرف من أخبار الجواري" والذي حققه د. صلاح الدين المنجد عام ١٩٦٣م عن دار الكتاب الجديد في بيروت ورتب محتواه على أساس حروف المعجم والتي اعتمد في مادته على عدد من المصادر الرئيسية منها:

- الأغاني للأصفهاني (ت ـ٣٥٦هـ).
- طبقات الشعراء لابن المعتز(ت ـ٢٩٦هـ).
- أخبار النساء لاسامة بن المنقذ(ت ـ٥٨٤هـ).
- النساء الشواعر لابن طراح(ت ـ٧٢٠هـ).

---

* الصرحاء جمع صريح وهو الرجل الخالص النسب، والهجين هو العربي ابن الأمة.

١)محمد العبيدي، التقيين في العصر العباسي بالاعتماد على رسالة القيان للجاحظ، حوليات الجامعة التونسية، ١٩٨٨م، (ع) (٢٨)، ص٢٥٦.

٢) ابن الأمشاطي، القول السديد في اختيار الإماء والعبيد، ص٢٣.

-أبو الفرج الأصفهاني ولها كتابين في غاية الأهمية يتناول فيهما موضوع الرقيق والجواري ففي كتاب "القيان" يفصل لنا أخبار الجواري المغنيات في العصور الإسلامية المختلفة، أما كتاب الأغاني فيتطرق به إلى أخبار المغنيين والمغنيات ومن أتقن هذه المهنة في التاريخ الإسلامي ويقع هذا الكتاب في (٢٥) مجلد.

وهذه المؤلفات مرتبطة بشكل مباشر بالرقيق والجواري ويرد فيها الكثير من أخبارهم في هذا العصر.

٢. وهناك مؤلفات غير مباشرة ترد أخبار الجواري والرقيق فيها متفرقة أو تفرد لها أبواب خاصة ككتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها من كتب التاريخ،والديارات، والذخائر، والطفيليين، وأخبار الظراف، وغيرها مما استخدمته من مؤلفات في هذه الأطروحة.

لقد كانت الثقافة التي عمل الرقيق على تعلمها والإسهام في نتاجها، هي الثقافة العربية من شعر وأدب وغناء وما إلى ذلك من جوانب ثقافية ارتبطت بطبيعة حياة الجواري والرقيق في قصور وبيوت سادتهم "ويرى البعض أن الجواري نشرن نوعاً من الثقافة المتمثل بالفنون الجميلة، ورقي الذوق الفني، بما قدمنه من غناء وشعر."[١]

-ضرب الأمثال: وضرب العرب العديد من الأمثال المرتبطة بالرقيق والجواري وفي صفاتهم المختلفة وقد ذكرت بعضها سابقاً، ومن هذه الأمثال:

(عبد العين) هو الذي يخدمك ما دامت عينك تراه،فإذا زال عن عينك زال عن خدمتك. و(غلام الخالدي): يضرب به المثل في الكياسة والشهامة والنفاذ في حسن الخدمة وجمع محاسن المماليك ومناقب العبيد...."[٢]

وهذان المثلان يدلان على شكوى الناس من خدمهم الذين يستغلون انشغالهم لكي لا يقوموا بواجباتهم، كما يضرب المثل بالخادم الملتزم بعمله والذي يرضي سيده.

ومنها(ابن الخصى) يضرب مثلاً لما لا يجوز أن يكون، كما قال أبو تمام:

وذاك له إذا العنقاء صارت　　　مربية وشَب ابن الخصى"[٣]

أما (مولى الموالي): فيضرب به المثل في القلة والذلة، قال الجاحظ: أنشدني أبو زيد وأبو عبيدة:

فلو كان عبد الله مولى هجوته　　　ولكن عبد الله مولى مواليا"[٤]

---

١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج(١)، ص٩٢

٢) الثعالبي، ص٥٣٠ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص٢٢٩.

٣) ن.م.ص ٢٦٧.

٤) ن.م، ص٦٩٠.

ومن أمثال العرب أيضاً (التسلط على المماليك دناءة).(والحر حر وإن مسه الضر والعبد عبد وان ملك الدر)."[١]" وفي المثل الأول تحقير من يسيء للرقيق، أما المثل الثاني فهو يصب في حفظ الطبقية ومنع مساواة الحر بالعبد، ويتفق ذلك وما قاله شعر محمد بن أمية الذي يقول:

تتـيه جهلا بلا دين ولا حسب　　على ذوي الدين والأنساب والحسب

من هاشم أنت بخ بخ وأنت غدا　　مولى وبعد غد فرد مـن العـرب

إن صـح هذا فأنت الناس كلهم　　يا هاشمي ويا مولى ويـا عربي"[٢]"

لقد دفع هذا التمييز إلى إحداث خلاف بين العرب وغيرهم من الفئات التي تمثل سكان بغداد وتمثل بخلاف مفكري الفئات الأخرى خاصة الفارسية مع المفكرين العرب في بغداد حول حقوق كل طرف منهم، وهو من الآثار الأساسية التي كانت نتيجة لكثرة الموالي وغيرهم من العناصر في بغداد.ويرى البعض أن الشعوبية بلغت أوجها في القرن الثالث الهجري، وساعد على ذلك الخلفاء العباسيون الذين تعصبوا للإسلام ولم يتعصبوا كثيراً للعربية، ولم يحاربوا الزندقة والنزعة العجمية، وذلك طبيعي لأن أكثرهم مولدون(أي الخلفاء)."[٣]"

ويقول شوقي ضيف: (إنه يجب أن لا يتبادر إلى الأذهان عند الحديث عن الزندقة والشعوبية والمجون في العصر العباسي الثاني أنه عصر ملحد غلبة عليه العنصرية كما غاب المجون وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع في طبقات خاصة، أما المجون فكان يشيع في الطبقة المترفة، وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم وبالمثل الزندقة... فقد كان المجتمع مجتمع إسلامياً، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام ... كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت في بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية...."[٤]"

لقد كانت الشعوبية في العصر العباسي الأول ناتجة من شعور الفرس بأنهم أصحاب ثقافة وحضارة يعتقدون أنها الأقوى وإن ظهرت الثقافة العربية عليها، وأن على العرب أن يطبقوا ما نص عليه القرآن بأن الله خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ومثلت الشعوبية فكراً قبل أن تمثل عصبيات معينة، لقد كان أصحاب الشعوبية من الفرس على مستوى علمي وثقافي لا يمكن مقارنته بالثقافة التي كانت لدى الترك والتي كانت أبرز سمات العصر العباسي الثاني، إذ أن هذه الثقافة لم تكن بذلك المستوى العلمي والحضاري الذي تمتع به أهل بغداد، وكانت

---

١) الأبشيهي، المستظرف من كل فن مستظرف، ط(٢)، ١٩٣٥م،ج(١)،ص٢٩.
٢) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٥)، ص١٨٢.
٣) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج(١)، ص٦٣.
٤) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص١٠٥.

ثقافتهم تدور حول السلاح والحرب والغنائم، ومن أصبح منهم متحضراً استنـزف جهد الدولة ووقتها وكيانها قبل أن يكون بذلك المستوى الثقافي." إذ لم يكن للأتراك تقاليد حضرية سابقة لذا(يسميهم الجاحظ بدو العجم)، أو إدراك لشؤون السياسة والإدارة، أو فهم لأسسها النظرية (كما كانت الحالة عند الفرس)."[١] "والترك أمة قديمة من أقدم الأمم ظهرت في آسيا الوسطى وكان لهم تأثير على الأمم والشعوب في العالم القديم، والترك قبائل عديدة، وكان العرب يتصورون الترك قبل اتصالهم بهم أمة خشنة بعيدة عن الحضارة والمدنية، تميزوا بالعداوة والشدة والقسوة كما تتطلب الفروسية ذلك"."[٢]

- <u>آثار الرقيق والجواري العلمية:</u> كان للرقيق والجواري آثار على الثقافة العربية بصورة عامة، ومن هذه الآثار آثارهم العلمية، وكما ذكرنا سابقاً في فصل الأسباب عن دورهم في الترجمة، ونقل بعضهم روايات ساعدت المؤرخين،كان لهم دور في خدمة مجالات أخرى فجارية الإمام ابن حنبل قامت بنقل الكثير من المسائل الفقهية، وكذلك ما روته منية جارية خلافة أم ولد المعتمد من حديث، وكان الطيب بن يمن بن عبد الله، أبو القاسم مولى المعتضد بالله، سمع عبد الله بن محمد البغوي وأبا حامد محمد بن هارون الحضرمي ومحمد بن منصور الشيعي، وإسماعيل بن العباس الوراق، وعبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري ، ونهشل بن دارم المقرئ، حدثنا عنه أحمد بن محمد العتيقي، والحسن بن علي الجوهري، والقاضي أبو عبد الله الصيمري، وعلي بن المحسن التنوخي وغيرهم. وسمعت العتيقي ذكره، فقال كان ثقة صحيح الأصول، وحدثنا التنوخي، قال: توفي الطيب بن يمن مولى المعتضد بالله في شوال سنة أربع وثمانين وثلاث مئة، وكان مولده على ما أخبرني في سنة سبع وتسعين ومئتين لثلاث خلون من رجب. قال لي التنوخي مرة أخرى: مات في ذي القعدة."[٣]

وأسهمت نساء الخلفاء بإنشاء عدد من البيمارستانات، إذ "قال ثابت بن سنان أنه لما كان في أول يوم من المحرم سنة (٣٠٦هـ/٩١٨م)، فتح والدي(أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة) بيمارستان السيدة اتخذه لها بسوق يحيى وكان ثابت يلحق بأبيه في معرفته بالعلوم واشتغاله بها وتمهره في صناعة الطب وله قوة بالغة في علم الهيئة وكان في خدمة المقتدر بالله، والقاهر، والراضي بالله، وقال ثابت بن سنان:كانت النفقة على البيمارستان، الذي لبدر المعتضدي بالمحرم من ارتفاع وقف سجاح(شجاع) أم المتوكل على الله..."."[٤]

١) الدوري، النظم الإسلامية، ج(١)ص٥٠.
٢) زكريا كاتبجي، الترك في مؤلفات الجاحظ،الصفحات: ١٩/ و٣٠/ ٤٩.
٣) البغدادي، تاريخ بغداد، م(١٠)، ص٤٩٧.
٤) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص٣٠٠ – ص٣٠١.

فكان هذا الأثر إيجابياً بدأته أمهات الخلفاء ثم أصبح تقليداً عند بعض نساء الخلفاء، وظهر عدد من الأطباء من الرقيق مثل الخصي الذي أتقن مهنة الطب وكان سخرية لذلك هو نموذج لأطباء لم يعرفوا ولم تنقل لنا أخبارهم إلا إذا صادف ذكرهم في حدث ما بصورة عابرة، وكان من الأطباء المشهورين زمن المعتمد "ديلم " وطبيب آخر يدعى داؤد بن ديلم الذي خدم المعتضد."[1]"

-تأديب أبناء الخلفاء: كانت ثقافة الخلفاء تنبع من ثقافة أمهاتهم، وكانت أم الخليفة مسؤولة عن اختيار أفضل المؤدبين لابنها، "وكان أحمد بن سعيد يؤدب ابن المعتز فتحمل البلاذري على قبيحة أم ابن المعتز بقوم سألوا أن تأذن له أن يدخل إلى ابن المعتز وقتا من النهار، فأجابت أو كادت تجيب، قال ابن سعيد: فلما اتصل الخبر بي جلست في منزلي غضبان لما بلغني عنها، فكتب إلي ابن المعتز وله ثلاث عشرة سنة أبياتاً من الشعر تنفي ذلك وتدعوه إلى استئناف تأديبه."[2]"

وهنا نلاحظ أن الخليفة كان يحرص على اختيار أم ولد عالمة لا جاهلة لأنها ستؤثر في ثقافة ابنها، ونلاحظ أن النساء المحظيات من أكثر النساء ثقافة في تلك الفترة، وقد تتمتع المحظية بثقافة قد لا تحظى بها امرأة حره ذات حسب. بينما يعتني النخاس أو من يريد بيع الجارية بثمنٍ مرتفع بإكسابها نوعاً من الثقافة قد تكون أكثر من الغناء والشعر ومن أجوبتهن المسكتة ومعلوماتهن الكثيرة، أن الجواري التي اشتهرن بالغناء في قصور الخلفاء لم يكن أمهات أولاد بل كن فقط مغنيات، بينما من وردت أخبارهن بوصفهن أمهات خلفاء لم نسمع الكثير من أخبارهن، لنحدد مقدار ثقافتهن، إلا أن أخبار (شجاع) وصفاتها مثلاً قد تبين بعض تلك الصفات وكأن الجارية التي تصبح أم ولد يصبح من الصعب أيضاً معرفة أخبارها.

- أثر الرقيق والجواري على اللغة العربية: ويبدوا أنه لم يكن للرقيق والجواري فضل على اللغة العربية سوى من نشأ منهم في المناطق الإسلامية، وأنه إذا كان لهم فضل فهو نابع من مشاكلهم التي حاول العرب أن يجدوا لها حلولاً، فكان اللحن باللغة سبباً لوضع النقاط على الحروف، لذلك يقول أبو عبيدة: مر الشعبي بقوم من الموالي يتذاكرون النحو، فقال لهم: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده، وقال أبو عبيدة ليته سمع لحن صفوان وخالد بن صفوان وخاقان والفتح بن خاقان، والوليد بن عبد الملك."[3]"

---

١) ن.م ، ص٣١٥.
٢) القيرواني، زهر الآداب، مجلد(٢)، ص٢٩٩-ص٣٠٠.
٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٢)، ص٤٧٨.

وسبب هذا اللحن أنهم لم يعرفوا هذه اللغة من قبل وكان عليهم تعلمها لفهم ما يريد المولى، ومن الأسباب التي يوردها التوحيدي للحن في اللغة أنه فشا بسبب السبايا التي كثرت في الإسلام، من الأعاجم وأولادهن، فانهم نزعوا في اللكنة إلى الأخوال ...."[١]

لذلك التمس لهم بعض العرب العذر في عدم إتقانهم للغة العربية، كما أنه برر بعض سلوكهم غير المقبول، فعندما ترك المستعين سامراء إلى بغداد لحقه عدد من الأتراك فعاتبهم لأنه قدم لهم الكثير ومع ذلك ازدادوا فسادا وضرا، ثم رضي عنهم فقال له بايكباك: "فإن كنت قد رضيت عنا وصفحت، فقم واركب معنا إلى سامرا، فإن الأتراك ينتظرونك، فقال له محمد بن عبد الله: هكذا يقال لأمير المؤمنين قم فاركب معنا، فضحك المستعين من ذلك وقال: هؤلاء قوم عجم، ليس لهم معرفة بحدود الكلام."[٢]

حتى من أتقن اللغة منهم فإنه لم يستطع أن يدرك تفاصيل هامة فيها ومن ذلك ما ورد عن خادم المتوكل "عرق الموت" الذي عرف بالأدب وحفظ صدراً من الشعر إلا أنه حلّ بقلبه من النقص نحو ما حل بجسمه، فظن أنه اضطلع بأفانين الأدب، واطلع على بلاغات العرب، ونسب امرأ القيس إلى ذهابه في بعض شعره عن صحة ترتيب نظمه، ووصل الشكل بشكله، وإلحاق المثل بمثله، وحمل الفرع على أصله، وتوهم عليه هذا الباب من العيب، ونعاه عليه، وتكلف بإغفاله إصلاحه عند نفسه بخطأ أتى به من عنده، وذكر هذا في البيتين من كلمة امرئ القيس التي أولها:

ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالي	وهل يعمن من كان في العصر الخالي
كأنـي لـم أركـب جوادا للذة	ولم أتبطـّن كـاعـبا ذات خَـلخَال
ولم أسـبأ الزق الروي ولم أقل	لخيلي كُري كـرة بـعـد إجـفال

فظن أن امرأ القيس قلب وجه الترتيب، وعدل عن محجة التأليف، وأتى بذكر الجواد في صدر البيت وقرن به تبطن الكاعب ثم صدر البيت الثاني بسبه الخمر وجعل عجزه في حثه الكر وتوهم أن هذا متنافر غير متشاكل، ومتخالف غير متماثل، وأن الوجه في هذا لو تنبه عليه هو أن يقول:

كأني لم أركب جوادا ولم أقلْ	لخيلي كُري كرة بعـد إجفال
ولـم أسبأ الزق الروي للذة	ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

قال القاضي رحمه الله: ولو ثاب إلى هذا الخادم عازب لُبه، وفتح له القُفْل الضاغط عليه، لتيقظ للوقوف على فساد توهمه، ولتجلى له الخلل فيما آثره وقدمه، وتعلّم أن ترتيب امرئ

١) التوحيدي، البصائر والذخائر، م(٢)، ص٢١٦.
٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٨٣ - ص٢٨٤.

القيس في هذين البيتين من أصح الترتيب وأحسنه وأوضح التأليف وأبينه وأنه متسقٌ مستَتب ..." [1].

وكان بعضهم وإن تولى مناصب عليا في الدولة يتصف بالجهل الذي يوقعه بفخ جهل الثقافة العربية ويحرجه أمام الناس، "فكان ابن الخصيب وزير المستعين غبياً جاهلاً قال إبراهيم بن المدبر: أنهما جلسا للشرب يوما عنده فغنت بعض القيان" إن العيون التي في طرفها حور" فقال ابن الخصيب: هذا الشعر لأبي، فقال ابن المدبر: قاتل الله جريراً ما كان أسرقه لشعر أبيك" [2].

وهذا الجهل وإن كان لدى بعضهم، فإنه لا يمنع الآخرين من التثقف وإمتاع الخلفاء بما يحفظون من أدب عندما يشعرون بالغضب أو الحزن، قال علي بن يحيى: كنت واقفا بين يدي المعتضد وهو مقطب، فأقبل بدر فلما رآه من بعيد تبسم وأنشد:

في وجهه شافع يمحو إساءته ... من القلوب وجيه حيث ما شفعا

فسأل المعتضد: لمن هذا الشعر؟ فقال بدر: للحكم بن قنبر المازني البصري...." [3]

فالأثر الثقافي كبير يكون تارة سلبياً وتارة إيجابياً، لكن البيئة العربية باهتمامها بالثقافة والأدب وبتطوير العلوم خاصة في هذه الفترة التي شهدت تراجعاً سياسياً وتقدماً علمياً كبيراً، لم يكن للرقيق والجواري تأثير علمي كبير، فهذه الروايات تظهر أشخاصاً تميزوا في بعض الجوانب إلا أنها لا تبين لنا أنه ظهر منهم علماء نابغين في العلوم الإسلامية المعروفة آنذاك، وعلينا أن ننبه مرة أخرى على أن هؤلاء الرقيق والجواري يختلفون عن علماء مسلمين كثيرين ظهروا في المناطق التي جلب منها الرقيق والجواري.

كما كان وجودهم عاملاً من عوامل ظهور التصوف في بغداد والعالم الإسلامي، وتمثل التصوف في عدد من الأشخاص أمثال ذي النون المصري والحلاج ورابعة العدوية." [4] يقول أحمد أمين أن هذه الحياة في بغداد أنتجت حركتين ظاهرتين في تاريخ هذا العصر هما: فرقة المتطوعين للنكير على الفساق في بغداد، وثانيهما حركة الزهد وذلك أن قوماً يئسوا من الغنى، ورأوا أن نفوسهم لا تطاوعهم للقرب من ذوي الجاه، فقنعوا بما عندهم." [5] ونجد أنه مع نهاية

---

١) الجريري، الجليس الصالح الكافي ...،ج(٢)،ص٤١٦ -ص ٤٢٢.
٢) القيرواني، ذيل زهر الآداب ، ص١٧١.
٣) الجريري، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، ج(١)، ص٣٢٣ – ص٣٢.
٤) فاضل الأنصاري، العبودية والرق بين..، ص٤٢٠.
٥) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط(١٠)، ج(١)، ص١٣١ - ص١٣٣/ صادق جودة، الرحلة المتوكلية إلى دمشق، ط(١)، ١٩٨٥م، ص٨.

العصر العباسي الثاني ظهرت جماعة تدعى الحنابلة (أتباع مذهب الإمام أحمد بن حنبل) تمثل الفرقة الأولى، بينما الزاهدون هم من المتصوفة.

- العشق في أدب العصر العباسي الثاني: هو موضوع من الموضوعات الرئيسة الموروثة في الثقافة العربية، فلا أحد يتكلم عنه إلا ويتكلم عن شعراء الغزل العذري ومعاناة كل واحد منهم في الوصول إلى محبوبته، أو عن الغزل المادي الذي يمثله الشاعر الأموي عمر بن أبي ربيعة الذي أظهر فيه أن النساء يسعين إليه وأنه يجيب دعوتهن له وهو غير صادق في الكثير مما ادعاه.

وتظهر مفاهيم جديدة للعشق في العصر العباسي الثاني كأن يعشق المعتز صاحب الهيئة الجميلة جارية قبيحة، حكى النميري قال: كنت عند الأمير عبد الله بن المعتز وعنده قينة قبيحة الصورة، فجعلت أتبرم بها، وجعل يظهر شغفا بها وعشقا لها، ليغيظني بذلك، فلما اشتد غيظي منه خلوت به فقلت له: نشدتك الله أيها الأمير، أعشقتها؟ فقال: مضاحكا: نعم، فقلت: ألست ترى قبح وجهها وسماجة خَلقها! فارتجل:

قلبـي وثاب إلى ذا وذا   ليس يرى شيئا فيأبـاه
يهيم بالحسن كما ينبغي   ويرحم القبح فيهـ ـواه

فسكت عنه تعجبا من سرعة بديهته."[١]

وصاحب العشق جرأة تجلت في سهولة صد الجارية لمن لا ترغب فيه، حتى وإن سمعت عنه ما هو جميل، إذ "كان أبو العيناء قبل العمى أحول، فقال: ذكرت لبعض القينات فاستظرفتني واستحسنتني، فلما رأتني استقبحتني، فقلت لها:

وشـاطرة لـما رأتني تنـكرت   وقالـت قبيح أحول ماله جسـم
فإن تنكري مـ ـنى احـ ـولالا   فإنني أريب أديب لا غبي ولا فدم

فقالت: أنا لم أردك لأوليك ديوان الزمام."[٢]

وأصبح عشق بعضهم للجواري سبباً لانتظارهن إذا خرجن في الأعياد والمناسبات، إذ قال أبو الفرج الأصفهاني: كان عبد الله بن العباس يهوى جارية نصرانية، لم يكن يصل إليها ولا يراها إلا إذا خرجت إلى البيعة، فخرجنا يوما معه إلى الشعانين فوقف حتى جاءت فرآها... ."[٣]

١) الأصفهاني، الأغاني، م(١٠)،ص٢٩٤ - ص٢٩٥/ علي الأزدي، بدائع البدائة، ص٣٤٥.
٢) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص٢٣١./ وزهر الآداب، م(١)، ص١٩٦.
٣) أبي الفرج الأصفهاني، الديارات، ص١٨١ - ص١٨٢.

وهناك من عبر عن عشقه للجواري بشتمهن وإهانتهن، إذ قال أبو علقمة النحوي لجارية كان يهواها (كلاما يشتمها به)، فقالت: ما رأيت أحداً يحب أحداً ويشتمه سواك"."[١]

وكان بعضهم يظهر أنه يعشق الجواري وهو يخفي عكس ذلك فهذا سعيد بن حميد قد "اتصل بعدد من الجواري والقيان، فكان له معهن ذكريات ومطارحات، وكانت أهم واحدة اتصل بها فضل الشاعرة، وكان يختلف إلى مجالسها الأدبية" ."[٢]

وكانت فضل كثيرة الغضب منه لعلاقته بغيرها من الجواري، "قال: حدثني محمد بن عبد الله بن يعقوب بن داود قال: تغاضب سعيد بن حميد وفضل الشاعرة أياماً فكتب إليها:

تعالـي نجـدد عهـد الرضـى ونصفـح بالحـب عمـا مضـى

فصارت إليه وصالحته"."[٣]

وكان من الجواري اللواتي يحبهن أو يظهر لهن ذلك ما ذكره اليوسفي الكاتب:"أنه حضر سعيداً في منزل بعض إخوانه وعندهم (هبة) المغنية وكان سعيد يتعشقها ويهيم بها، فغضبت عليه يوما لبعض الكلام، ودخلت وهو في القوم فسلمت عليهم سواه، فقالوا لها: أتهجرين أبا عثمان، فقالت: أحب أن تسألوه أن لا يكلمني، فقال سعيد شعراً فوثبت إليه وقبلت رأسه وقالت: لا أهجرك والله أبداً ما حييت، وكذلك كان يهوى مظلومة جارية الدقيقي فهجرها لأنها كانت تتصل ببعض أعدائه"."[٤]

لقد كان تشابك العلاقات بين الرجال والجواري، والصراحة بينهم، وتمسك الجارية بإرضاء من تجالس حتى وإن كانت غاضبة منه سبباً في تغير نظرة الرجل للمرأة، وإن ما يراه الرجل في المرأة الجارية هو نفس ما يريد أن يرى في زوجته، لذا لم يكن من الغريب أن نرى رواية تتحدث عن طلب المتوكل من زوجته ريطة بنت العباس أن تطم شعرها كالجواري، لأن ذلك ما يحب أن يراه، وهذا الأمر ينطبق على الجميع لا على المتوكل فقط.

إن العشق والحب من المظاهر الإجتماعية الموجودة في كل فترة ويتطور بتطور ثقافة الناس إن تعقيدات الحياة والترف الزائد ينعكس على الناس، فكما يكثر المال يكثر الإسراف ومثلما تزداد الكماليات تتعقد هيئة اللباس، ومثلما وصف الحجازي محبوبته بلباسها البسيط وبيئتها الصحراوية والأطلال، فإن شعراء بغداد وصفوا النساء من خلال الجواري اللواتي كن مظهراً من مظاهر الترف، فهي كالمسك أو الكافور أو ما خطر على باله من عطور، وهي لا

---

١) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص١٨٣.
٢) ابن حميد، الرسائل، ص١٨ - ص١٩
٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، م(١٨)، ص٩٤ - ص٩٥.
٤) الأصفهاني، الأغاني، م(١٨)، ص٩٦ - ص٩٧.

توجد إلا في القصور محاطة بوصائفها كوردة محاطة ببستان من الزهور، وكل شيء فيها ملفت له الأشعار على عصائبها أو الخلخال في قدميها أو نقش الحناء على يديها.

وفي هذه الفترة كان لظهور الجواري وحرية تحركهن وجلوسهن في المجالس واشتهار بعضهن بمنازل القيان أدى إلى ازدياد هذه الظاهرة؛ لذلك نجد بعض الناس يعشق الجارية ويشبب بها وهي عند النخاس قبل أن تباع مما يثير غضبه أو يسبب كساد تلك الجارية.

وعبرت الجواري عن أنفسهن من خلال نظمهن الشعر، فأظهرن حباً لمن أردن وأنكرن على من رغبن أن ينكرن ذلك، مما ساعد الرجل على فهم المرأة بصورة أفضل، لأن هناك من يعبر عنها وينقل أحاسيسها في كافة المواقف، لذا سنجد بعضهن قد عبر عن مواقف عديدة كالحب، والحرب، والخيانة، والوفاء، والحزن، والمرض وغيرها من مشاعر تسيطر على المرأة في ذلك العصر.

- الغناء والموسيقى: هذا جانب مهم من جوانب نشر الثقافة في بغداد، فبيئة أهل بغداد العلمية المحاطة بالالتزام والجدية، يلازمها أيضاً الترفيه والإضحاك وإن كان بسماع الغناء أو رؤية الراقصين مثلاً، وهذا الجانب هو الجانب الأهم الذي ظهر فيه الرقيق والجواري فحسنوه وطوروه، وثبت وجوده في مجتمع ما زال مختلفاً بين كون الغناء حلالاً أم حراماً، وحتى من يسمع الغناء في هذا العصر نجده يرى الغناء منكراً، إذ قال أبو محمد بن حمدون النديم قال: كنت قد حلفت وعاهدت الله تعالى، أن لا أعتقد مالاً من قمار، وأنه لا يقع في يدي شيء منه إلا صرفته في ثمن شمع يحرق، أو نبيذ يشرب أو جذْرِ مغنية تسمع ... ."[1]"

إذن فإن أموال القمار تسرف في سماع الغناء لدى البعض لأن سماعه حرام كلعب القمار.

وعرف الزنج من بين ما يجلب من رقيق بإتقانهم الرقص لذا قيل:"(طرب الزنج) وهم مخصصون من بين الأمم بشدة الطرب وحب الملاهي والأغاني، وإيثار الخلاعة والتصابي، والمثل سائر بإطرائهم لا سيما إذا دب الشراب فيهم، وانضاف حره إلى حر أمزجتهم المكتسبة من حرارة أهويتهم. ووصف بعض البلغاء رجلا بالطرب، فقال: والله إنه لأطرب من زنجى عاشق سكران"."[2]"

ومع ذلك كان الغناء يشجع من قبل الناس والخلفاء الذين كان بعضهم محباً له وكان المعتمد مشغوفا بالطرب، والغالب عليه المعاقرة ومحبة اللهو و الملاهي ...."[3]"

---

١) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج(١)، ص٢٦٦ - ص٢٦٧.
٢) الثعالبي، ثمار القلوب، ص٥٤٨.
٣) المفضل بن سلمة، كتاب الملاهي وأسمائها من قبل الموسيقى، ص٤.

ولقد تفنن الرقيق والجواري ممن دربوا على الغناء فيه. لذا نرى أنهم شكلوا فرقاً منظمة في العزف تطرب السامعين وقد أشرنا سابقاً إلى فرقة (شارية) وجواريها اللواتي حضرن إعذار المعتز وشاركن بالغناء، بينما نرى من يشكل ثنائياً في العزف على الآلات وقد ضرب المثل (بعود بنان، وناي زنام) فكان بنان وزنام مطربي المتوكل، وكان كل منهما منقطع القرين في طبقته، فإذا اجتمعا على الضرب والزمر احسنا وفتنا وأعجبا وعجبا، وكان المتوكل لا يشرب إلا على سماعهما وفيهما قال البحتري:

وعود بنان حين ساعد شدوه   على نغم الألحان ناي زنام"[١]"

وكان حبهم للعزف يدل على ذوق رفيع، وكان العازف منهم يصف آلته بأجمل وصف يحضره، فعندما قال المتوكل لزنام الزامر: تأهب للخروج معي، فقال:" الناي في كمي والريح في فمي، فاعزم إذا شئت"."[٢]"

وكان لكل مغنٍ أصوات معروفة يغني بها أي طريقه وأسلوب خاص باللحن، إذ قالت (خشف الواضحية): تماريت أنا و عريب في غناء (علية) بحضرة المتوكل وغيره من الخلفاء، فقلت أنا: هي (٧٣) صوتا، وقالت عريب: هي (٧٢) صوتاً...."[٣]"

وكان على من يتعلم منهم الغناء أن يتعلم أخلاق المغنين بمعنى أن ينسب اللحن إلى من وضعه للقصيدة وترد جملة: (ونسب إليه أو إليها الصفة في صوت كذا) ومثال ذلك "أن (فريدة) زوجة المتوكل كانت جارية مغنية محسنة، وذكرها أبو الفرج الأصبهاني، ونسب إليها الصفة في صوت لأبي العتاهية وهي قوله:

يـا ويح قلبي لو أنه أقصر   ما كان عيشي كما رأى أكْدر

بـيـن ندامى تحت كأسهم   عليهم كف شـادنٍ أحـور

وكانت عند الإمام الواثق وكانت حظية عنده، مقربة لديه، وكانت على مُلْك عمرو بن بانة المغني فلما مات الواثق بالله وبويع المتوكل على الله أهداها له، فتزوجها وحظّيت عنده، وقيل بل أهداها مولاها عمرو المذكور للواثق، ثم صارت إلى المتوكل فتزوجها"."[٤]"

و يشبه ذلك ما غنته (ناشب المتوكلية) وكانت من المغنيات المذكورات بالحذْق وجودة الصنعة، أخبرنا أبو الفرج المعافي بن زكريا الجريري قال حدثنا أحمد بن كامل قال: سمعت ناشب المتوكلية تغني لإبراهيم بن المهدي:

---

١) الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٥٥/ القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج(٣)، ص٣٦٧ - ص٣٦٨.
٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ج(١)،ص٨٢٣.
٣) النويري، نهاية الأرب، السفر الرابع، ص٢١٦ - ص٢١٧.
٤) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١٠٠-ص١٠١/ صالح المهدي، الموسيقى العربية تاريخا وأدبا وبحثا، ص٦٨- ص٦٩.

أنت امرؤ متجن ولست بالغضبان

هبني أسأت فهلا مننت بالغفران."[١]"

فقبل أن تغني تنسب الصوت إلى من تعلمت منه الغناء وهو إبراهيم بن المهدي صاحب المدرسة الغنائية المنافسة لمدرسة إسحاق الموصلي، وهما من أشهر مغني العصر العباسي الأول، بينما ظهر في العصر العباسي الثاني العديد من الجواري المغنيات واللواتي كانت صناعتهن تأليف الشعر ووضع الألحان المناسبة له."لقد عملت القيان على تثقيف أنفسهن بالإطلاع على ثقافة المجتمع لكي يفرضن وجودهن في مجتمع انتشر فيه الغلمان والجواري وتداخلت فيه الأجناس والحضارات"."[٢]"

- <u>أشهر الجواري المغنيات والشاعرات في العصر العباسي الثاني:</u>

لقد بالغت جواري العصر العباسي الثاني في مدح أنفسهن وفي شهرتهن وكانت (مواهب) قينة ببغداد مشهورة بالإحسان، وجارية لأبي علي الحسن بن هارون الكاتب باعها، فاشتراها، أبو العباس بن الحسين الوزير فلما تزوج ابن الوزير أبي محمد المهلبي، زينة بنت الحسن، دفعها إلى أبي محمد، فأعتقها وزوجها غلاما من غلمانه يسمى غالب، ويعرف بالشارزادي أنشدت في نفسها:

تمام الحج أن تقف الركائب على دار تحل بها مواهب."[٣]"

وهناك العديد من الجواري غير المشهورات ممن ورد لهن بعض الأخبار فيما سبق وممن امتلكهن رجال من أصحاب السلطة والنفوذ، أخبرنا التنوخي قال: قال لنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن العباس الإخباري: حضرت في سنة (٣٢٦هـ/٩٣٦م)، مجلس (تحفة القوالة) جارية أبي عبد الله بن عمر البازيار."[٤]"

وكان لعبد الله بن محمد بن عبد الملك الزيات، جاريه تسمى "شُمول" وكانت من المحسنْات، وكان الناس يقصدونها لسماعها...."[٥]"

---

١) ابن الساعي، نساء الخلفاء،ص٩٨-ص٩٩.
٢) محمد العبيدي، التقيين في العصر العباسي بالاعتماد على رسالة القيان للجاحظ، ١٩٨٨م، (ع) (٢٨). ص٢٦٢.
٣) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(١)، ص٢٧٧ _ ص٢٧٨.
٤) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٧)، ص٣٠ – ص٣١.
٥) القالي، ذيل الأمالي والنوادر، ص٩٧.

فهذه جارية ممن لم تُكثر كتب الأدب والتاريخ من ذكرها تُمدح وتُقدم، بينما تمر الركائب قبل الرحيل على بيت (مواهب) لأن حجهم في نظر مواهب لا يكتمل إلا إذا مروا بها، فماذا عن المشهورات من الجواري؟

عريب: هي صلة الوصل في تاريخ الجواري بين مرحلتين العصر العباسي الأول بخلفاء أربعة من الأمين إلى الواثق، والعصر العباسي الثاني من المتوكل إلى المعتمد، وعريب قيل إنها ابنة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أمه ماتت وهي صغيرة فدفعها إلى امرأة نصرانية نشأت عندها"[١]، وتعرف بعريب المأمونية عاصرت عشرة خلفاء وهم :"الأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدي، والمعتمد".وقد عاصرت عشرة من الخلفاء لا كزوجة لكل واحد منهم بل مغنية سمعوا غناءها وطربوا له وأحبوه فكانت مغنية الخلفاء بحق، وكانت عريب نموذجاً مهماً للتعبير عن المشاعر المختلفة، فلما مرضت (قبيحة) قال المتوكل لها: قولي في علة (قبيحة) شيئاً وغني فيه، وليكن قولك الشعر على لساني يذكر قلبي بها فقالت:

بثت قبيحـة في قلبي لها حرقا ... وبدلت مقلتي من نومهـ ـ ـا أرقا
كـأنها زهـ ـرة بيضاء قد ذبلت ... أو نرجس مس مسكا طيبا عبـ ـقا
إني لأرحم من حبي لها- سلمت ... من كل حادثة - يا قوم من عشقا

وغنت به من خفيف الرمل فاستحسنه المتوكل وأمر بأن تدخل إلى (قبيحة) فتنشدها الشعر وتغنيها به، فقالت لها قبيحة فأجيبه:

يا سيدي أنت حقا سمتني الأرقا ... وأنت علّمت قلبي الوجد والحرقا
لـ ولاك لـ م أتـ ـألم عـ ـلة أبدا ... لكن على قلبي أسرفت فاحترقـ ـا
إذا شـ ـكوت إليه الوجـ ـد كذبني ... وإن شكا قال قلبي خيفة صدقـ ـا

وخرجت إليه فأنشدته الشعر الأول والثاني لحنا واحداً. "[٢]"

ولعريب في المستعين وأمه شعر إذ قالت فيه:

بوجه المستعين يزيـ ـد حسنا ... بناء جـ ـل عن كنه الصفات
وأم الـ ـمسـ ـتعين لها أيـ ـاد ... سوابـ ـق في الندى متتابعات"[٣]"

---

١) ابن الساعي، نساء الخلفاء،ج(٣)، ص٥٥./ النويري، نهاية الأرب، ج(٥)، ص٩٥.
٢)الأصفهاني، الأغاني، م٢١، ص٨٠ - ص٨٨/ ابن جميل، الحدائق الغناء في أخبار النساء. الصفحات:١٠٢/٩٨/ ١٠٤-١٠٦.
٣) ابن جميل، الحدائق الغناء في أخبار النساء، ص١٠٦ - ص١٠٧.

فضل: هي الشاعرة اليمامية جارية المتوكل، كانت جارية شاعرة ماجنة من أظرف أهل زمانها، ولها أخبار ملاح مدونة. قال أبو الفرج الأصبهاني: كانت (فضل) مولدة من مولدات البصرة وبها نشأت، وكان مولدها اليمامة وذكرها محمد (بن داود الجراح الأديب والوزير) فذكر أنها عبدية، وكذلك كانت تزعم هي وتقول: إن أمها علقت بها من مولى من عبد القيس وإنها ماتت وهي حامل بها، فباعها ابنه، فولدت على سبيل الرق. وذكر عنها من جهة أخرى أن أمها ولدتها في حياة أبيها، فرباها وأدبها، فلم توفي تواطأ بنوه على بيعها، فاشتراها محمد بن فرج الرخجي أخو عمر بن فرج فأهداها إلى المتوكل، فكانت تجلس على كرسي في مجلسه تعارض الشعراء.

وقال الأصبهاني: قال الخليفة المتوكل لعلي بن الجهم "قل بيتا وقل لفضل الشاعرة تُجزه" فقال علي: أجيزي يا فضل:

لاذ بها يشتكي إليها فلم يجد عندها ملاذا

فأطرقت هنيهة ثم قالت:

ولم يزل ضارعا إليها تهطل أجفـانه رذاذا
فعـاتبته فزاد عشقا فمات وجدا فكان ماذا

فطرب المتوكل وقال أحسنت وحياتي يا فضل وأمر لها بألفي درهم.

وقال إبراهيم بن المدبر: كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله عز وجل خطا، وأفصحهم كلاما، وأبلغهم في المخاطبة، و أبينهم في المحاورة، فقلت يوما لسعيد بن حميد: أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها وتخرجها فقد أخذت نحوك في الكلام، وسلكت سبيلك، فقال لي وهو يضحك: ما أحسن ظنك، ليتها تسلم مني، لآخذ كلامها ورسائلها، والله يا أخي لو أخذ أفاضل الكتاب وكبراؤهم وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك. وأنشد أبو علي الرازي، وأنشدتنا فضل الشاعرة لنفسها:

الصبر ينقص والبلاء يزيد والدار دانية وأنت بعيد

وذكر محمد بن داود بن الجراح أن فضل مولاة المتوكل كانت أشعر نساء زمانها."[١]

وقد قدمت فضل لسعيد الهدايا لكونها قريبة منه."[٢]

---

١) ابن حميد، الرسائل، ص٦٢ - ص٦٨/ الأصفهاني، الأغاني، م(١٩)، ص٢٥٧ - ص٢٦٩/ التوحيدي، البصائر والذخائر، م(٢)، ص١٤٩ – ص١٥٠ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص٨٤ - ص٩٠/ علي الأزدي، بدائع البدائة، ص١١١ – ص١١٢.
٢) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص١٩.

ولفضل أخبار كثيرة كما لعريب ترد في المصادر التي تحدثت عنهما وهي أخبار طويلة تتعلق بالشعر والمجالس الأدبية خاصة تلك التي وردت في رسائل ابن حميد.

محبوبة: قال أبو الفرج: كانت مولدة من مولدات البصرة شاعرة، سريعة الخاطر مطبوعة، لا تكاد فضل تتقدمها وكانت أجمل من فضل وأعف. وكانت تغني غناء فاخراً.

قال علي بن الجهم:كانت لعبد الله بن طاهر أهداها إلى المتوكل في جملة أربعمائة جارية قيان وسواذج، وكانت بارعة الحسن والظرف والأدب، مغنية محسنة، فحظيت عند المتوكل حتى كان يجلسها خلف الستارة وراء ظهره إذا جلس للشرب فيدخل رأسه إليها ويحدثها في كل ساعة."[١]"

ويبدو أنها حظيت بالاحترام لذلك تصفها بعض المصادر بصفات جيدة رغم أنها من المغنيات، وكان علي بن الجهم قريباً من المتوكل، وكان لا يكتمه شيئا من سره مع حرمه وأحاديث خلواته فقال له يوما: أنه دخل على قبيحة ورآها كتبت اسمه على خدها وقال: فلا والله ما رأيت شيئا أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد، فقال: قل في ذلك شيئاً، وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء الستارة فدعا علي بن الجهم بدواة فإلى أن أُتي بها وابتدأ يفكر قالت محبوبة على البديهة من غير فكرة ولا روية:

وكـاتبة في الخد بالمسك جعفرا | بنفسي مخط المسك من حيث أثرا
لئـن كتبت في الخد سطرا بكفها | لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فـ ـ ـيا من لمملوك لملك يمينه | مطيـعا له فيمـ ـا أسر وأظهـ ـرا
ويا من هواها في السريرة جعفر | سقى الله من سقيا ثناياك جعـفرا

فبقي علي بن الجهم واجماً لا ينطق بحرف، وأمر المتوكل بالأبيات فبعثت إلى (عريب) وأمرها أن تغني فيها. قال علي بن الجهم : فتحيرت والله وتقلبت خواطري فوالله ما قدرت على حرف واحد أقوله. "[٢]"

وقال أيضا: غضب المتوكل يوما من (محبوبة) ومنع جواريه جميعا من كلامها، ثم نازعته نفسه إليها وأراد ذلك، ثم نازعته العزة منها وامتنع من ابتدائها، وامتنعت من ابتدائه دلالاً عليه لمحلها منه فرأى في منامه أنه صالح محبوبة وكان يخبر علياً بذلك المنام فإذا

---

١) إبراهيم القيرواني، المختار من قطب السرور..، ص٢٧٦ – ص٢٧٧/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص١١/ النويري، نهاية الأرب،ج(٥)،ص١١٢/ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص٩٢/ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج(٢)، ص٢٥٢ – ص٢٥٣/ صالح المهدي، الموسيقى العربية،ص٧٢ – ص٧٤.

٢) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ط(١)، ص٢٤٧ - ص٢٤٨/ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج(٦)، ص٤٠٢./ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص٩٤ - ص٩٥/ النويري، نهاية الأرب، ج(٥)، ص١١٢ -ص١١٣/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥١.

بوصيفة جاءت فأسرت إليه شيئا، فقال لعلي: أتدري ما قالت هذه؟ قلت: لا، حدثتني أنها إجتازت بمحبوبة الساعة وهي تغني، أفلا تعجب من هذا؟ أنا مغاضبها وهي متهاونه بذلك، لا تبدؤني بصلح ثم لا ترضى حتى تغني في حجرتها، فقم بنا حتى نسمع ما تغني وإذا هي تغني:

أدور في القصر لا أرى أحدا　　　أشكو إلـ ـ ـيه ولا يكـ ـلمني

فهـ ـل لـنا شافـع إلى ملك　　　قد زارني في الكرى وصالحني

فعجب المتوكل وأحست بمكانه فأمرت خدمها فخرجوا، وخرجت إليه فحدثته أنها رأته في منامها فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنت فيها فحدثها هو أيضا رؤياه واصطلحا، فلما مات المتوكل سلاه جميع جواريه غيرها، فإنها لم تزل حزينة هاجرة لكل لذة حتى ماتت ولها فيه ميراث، حكى أبو الفرج أن وصيفاً بعد المتوكل أحضرها يوماً وأحضر الجواري، فجئن وعليهن الثياب الملونة المذهبة والحلي وقد تزين وتعطرن، وجاءت محبوبة وعليها ثياب بيض غير فاخرة حزنا على المتوكل فغنى الجواري جميعا وشربن، وطرب وصيف وشرب، ثم قال يا محبوبة، غني فأخذت العود وغنت وهي تبكي:

أي عـ ـ ـ ـيش يطيـ ـ ـ ـب لـ ـ ـ ـي　　　لا أرى فيـ ـ ـ ـ ـه جعفـ ـ ـ ـ ـرا

فاشتد ذلك على وصيف وأمر بقتلها فاستوهبها بغا منه فوهبها له، فأعتقها وأمر بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد فخرجت إلى بغداد من سر من رأى. "[١]"

شارية: كانت شارية مولدة من مولدات البصرة، يقال إن أباها كان رجلاً من بني سامة بن لؤي المعروفين ببني ناجية وأنه جحدها، وكانت أمها أمة فدخلت في الرق وقيل بل سرقت فاشترتها امرأة من بني هاشم فأدبتها وعلمتها الغناء ... وأمر المعتز شارية يوماً أن تغنيه في مجلس حضره عبيد الله بن طاهر فاستحسنا غنائها. وقال يعقوب بن بنان: كانت شارية خاصة بصالح بن وصيف، فلما بلغه رحيل موسى بن بغا من الجبل يريده بسبب قتله المعتز أودع (شارية) جوهره فظهر لها جوهر كثير بعد ذلك فلما أوقع موسى بصالح اختفت شارية عند هارون بن شعيب العكبري، وكان المعتمد قد وثق بشارية فلم يكن يأكل إلا طعامها."[٢]"

---

١) الأصفهاني، الأغاني،م(٢٢)، ص٢٠١ - ص٢٠٥/ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص٩٥ -ص٩٨/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)،ص١١ – ص١٢/ النويري، نهاية الأرب، ج(٥)، ص١١٣ - ص١١٤/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠ -ص٣٥١.

٢) الأصفهاني، الأغاني،م(١٥)، ص٣٢٥ - ص٣٢٨.

وتدخلت شاري في الأحداث السياسية على عكس عريب وفضل اللتين حرصتا على الابتعاد عن تلك الأجواء والالتزام بخط الغناء والشعر فلا حب مع الخلفاء ولا زواج إنما هي مجالس تزهو بهن.

بنان: كانت بنان شاعرة قال الفضل بن العباس الهاشمي، قال: حدثتني بنان الشاعرة قالت: خرج المتوكل يوماً يمشي في صحن القصر، وهو متوكئ على يدي ويد فضل الشاعرة فمشى شيئا ثم أنشد قول الشاعر:

تعلمت أسباب الرضا خَوفَ هجرِها   وعلمها حبـي لها كيـف تغضـب

ثم قال أجيزي هذا البيت، فقالت فضل:

يصد وأدنـو بالمـودة جاهـداً   ويبعد عنّـى بالوصـال وأقـرب

فقلت:

وعنـدي لها العتبى على كـل حالـة   فمـا منه بد و لا عنـه مهـرب "[١]"

نبت: قال أحمد بن أبي طاهر قال: دخلت يوما على " نبت" جارية مخفرانة المخنث، وكانت حسنة الوجه والغناء فقلت لها " قد قلت مصراعا فأجيزيه":

يا نبت حسنك يعشي بهجة القمر

فقالت: قد كاد حسنك أن يبتزني بصري

فوقفت أفكر، فسبقتني فقالت:

وطيب نشرك مثل المسك قد نسمت   ريا الرياض عليه في دجى السحر

فقمت عنها خجلا ثم عرضت بعد ذلك على الإمام المعتمد على الله، فاشتراها بمشورة علي بن يحيى المنجم بثلاثين ألف درهم."[٢]"

لقد بلغت شهرة مغنيات بغداد الآفاق حتى إن الخليفة أو غيره ليقتنع بشراء الجارية المغنية إذا قيل له عنها إنها: عاملة عراقية وزامرة زمامية وطبالة عثعثية، وخريجة شارية، ومن ذلك أيضاً أن تقول الجارية رأيت (بدعة)، وكلمة (تحفة) ليتم شراؤها."[٣]"

ويغص ديوان ابن الرومي الشاعر بأسماء كثيرة للجواري مثل بستان، وجلنار، وبدعة وشاجي، ودريرة، وغناء، ووحيد، ومظلومة، وظلوم، وأكثرهن كنا لوزراء أو لأمراء مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله، وكان بجوارهن قينات وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن، مثل شُنطف، وفيها يقول:

---

١) ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص٩١ـ السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص١٢.
٢) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٧)، ص١٢٨-ص١٢٩/ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١٠٢-ص١٠٣.
٣) ابن الفقيه الهمداني، بغداد مدينة السلام، ط(١) ١٩٧٧م، ص٧٣.

وإن سكوتها عندي لبشرى   وإن غنائها عندي لمنْعى

فقـرطها بعقرب شهر زورٍ   إذا غنت وطوقها بأفـعى "[1]"

لقد أوردت ذكر بعض المشهورات من الجواري المغنيات في ذلك العصر بهذه الصورة لأنهن ذوات أثر مهم من الآثار الثقافية في هذا العصر، فقد عاشت كل منهن واقعاً خطيراً في نشأتها وبيعها وتناقلت أخبارهن الكتب، وكان الغناء والشعر وسيلة لدخولهن مجالس الخلفاء والتقرب إلى أصحاب النفوذ والسلطة فراقبن أحوال الدولة في ضعفها وقوتها، وشاركت بعضهن كـ"شارية" في بعض تلك الأحداث، كما أن الثقافة وتطور المجتمع لا يظهر إلا من خلال أشخاص كانوا علامة فارقة في تاريخ المجتمع حتى وإن كان الأمر يتعلق بالجواري فمنهن التي أحسنت وتميزت فبقيت محور حديث الناس لفترات وأغلبهن لم يرد لهن اسم في تلك الكتب، وهناك العديد من الجواري المشهورات ذكرت بعضهن كـ"ساجي"، وبعضهن لم يشتهرن من الناحية الثقافية، ولكنهن ظهرن بشكل كبير في الآثار السياسية.

لقد أفاد وجود الرقيق والجواري أهل بغداد في ثقافاتهم المختلفة، إذ وقبل أن ينتجوا ثقافة مؤثرة بين الناس كانوا محوراً لأسئلة الناس، وسبباً في رغبتهم حب معرفة الآخر ومعرفة طبيعته فبدل أن يكونوا رحالة يتنقلون لمعرفة أخبار البلدان وأهلها وعاداتها اختصر الرقيق والجواري عليهم تلك المسافات فعرفوا أغلب أخبار تلك البلاد وإن لم تكن كل تلك الأخبار، وكل ذلك يصب في مصلحة بناء ثقافة الناس وتقدم معارفهم وعلومهم في بغداد.

---

1 شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص٣١.

الفصل الرابع
دور الرقيق والجواري في الحياة الاقتصادية والسياسية في العصر العباسي الثاني

- **الآثار الاقتصادية:**

كانت النظرة المادية ومظاهر الترف هي المظاهر المسيطرة على الحياة في بغداد، لذا يقول بشار بن برد:

هل تعلمين وراء الحب منزلة   تدني إليك فإن الحب أقصاني

فأجابته المرأة:

نعم علمت وخير القول أصدقه   بذل الدراهم يدني كل إنسـان
من زادنا النقد زدنا في مودته   ما يطلب الناس إلا كل رجحان "[١]"

"وتجب مكافأة كل من يقوم من الخدم بعمل مرض حالا، ليجني ثمار ما قدمت يداه، أما من يرتكب منهم خطأ في عمله سهوا ودونما قصد فتنبغي معاقبته بقدر ذنبه، لتقوى رغبة العبيد في الخدمة ويكثر إقبالهم عليها، وتزداد خشية المذنبين، وتستقيم الأمور"."[٢]"

ومثلما كان للرقيق والجواري أثر في المجتمع وفي ثقافته فقد كانوا ذوي أثر كبير مـن الناحية الاقتصادية على مالكيهم وعلى الدولة، وهذه الآثار كغيرها تحتمل جانبين همـا الجانـب السلبي والجانب الإيجابي، إذ تمكن بعضهم من تكوين ثروات هائلة، وتملك الرقيق والخدم، كما تمكن الكثير منهم من شراء حريته بسبب ما فرضته المبادئ الإسلامية من منحه الحق في العمل مقابل أجر وهو عبد ليصبح حراً."وهو العتق بالمكاتبة أي يشتري حريته بمبلغ من المال يؤديـه إلى مالكه، فيأذن له بالعمل ليحصل على المبلغ المتفق عليه." "[٣]"

وكان الغرب يحسدون العرب على انتظام مالية الدولة التي أتاحت للخلفاء القيام بأعمـال عظيمة تعود على الناس بالخير بإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي، والمكتبات العامة وغيرها."[١]"

---

١) الأصفهاني، محاضرات الأدباء م(١)، ص٢٦٨.
٢) نظام الملك الطوسي، سياسة نامة أو سير الملوك، ص١٧٢.
٣) الترمانيني، الرق ماضيه وحاضره، ص٧٩.

وغيرها."[١]" إلا أن انتظام مالية الدولة العباسية لم تستمر على تلك الصورة الجيدة، وكانت مرحلة الضعف هذه مرحلة مكنت الرقيق من التصرف في أمور لم يحق لهم التصرف بها من قبل، ولا أعني كل الرقيق بقدر ما أعني جند الخلافة من الترك والخدم في القصور العباسية، ومن تـولى منهم مناصب مهمة في الدولة، إذ كان الخليفة العباسي في هذه الفترة في أزمة كبيرة منذ عهـد المتوكل إلى حين دخول البويهيين بغداد، وهذه الأزمة بدأت فعلاً منذ استكثار المعتصم للعناصر التركية في الجيش، وكان أسهلها ما شكاه أهل المدينة من تصرفاتهم وما صاحبها مـن ضـغط على المعتصم لإخراجهم منها وبناء مدينة لهم، لقد ظن المعتـصم أن الأتـراك سـيمكنوه مـن التخلص من قوة العباس بن المأمون الذي سعى أنصاره من الفرس بأن يكـون خليفـة علـيهم، فتخلص من العباس، إلا أنه لم يقدر عاقبة الاستكثار منهم، لذا بدأ الأتـراك بطبيعـتهم القبليـة القيادية الحرة "[٢]" التي لا تؤمن إلا ببقاء الأقوى بأخذ مكان لهم داخل الدولة مستغلين قربهم مـن الخلفاء العباسيين، وكان استيلاؤهم على السلطة وسيلة لاستيلائهم على أموال الدولة والـسيطرة عليها، وقد ساعدهم على ذلك ضعف الواثق وعدم إدراكه لحساسية وضـع الخلافـة إذ تـرك منصب ولاية العهد خالياً، فكانت هذه الفرصة هي الأفضل لتدخل الترك في الخلافة، وكان هـذا التدخل بداية لمرحلة مختلفة كلياً عما سبق، فتغيرت نظرة الفقهاء لمفهوم الخلافة ومن سيتولاها، وأصبحت مشاركة الجند في اختيار الخليفة وولي العهد أساساً، ولم تكن مشاركة بقدر ما كانـت حقاً انتزعه الأتراك انتزاعاً، وكان الأسوأ أن أموال الولايات القادمة إلى بغداد أصبحت تتفـرق على القوى التركية، فكلما ظهر منهم قائد أخذ حصته من تلك الأموال فإذا لـم يمـنح رفقـاءه أرزاقهم وحصصهم اقتتلوا، فيقتلون القائد وتنهب داره وتتفرق الغنيمة بين الجند والعامـة ممـن يستغلون مثل هذه الفرص.

لقد كانت أموال الدولة تفرق بلا حساب في هذه الفترة وكانت قبل ذلك تستثمر في بناء مرافق بغداد الرئيسية وتطويرها، وتنفق في زراعة أراضي السواد وفي أجور عمالهـا، وفـي تعويض خسائر فيضان نهري دجلة والفرات، وفي تجهيز الجيش وفي حاجات الولايـات لمنـع الفتن والحروب والخارجين على الدولة وغيرها مما لا يحص من النفقات، لقد عطل كـل ذلـك

---

١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص١٧٣.
٢) زكريا كاتبجي، الترك في مؤلفات الجاحظ، ومكانتهم في التاريخ الإسلامي، ص١٣٥.

وأصبح إرسال المال من قبل الولاة إلى بغداد صعباً لإنه يهدد مصالح منـاطقهم ولا يحقـق أي فائدة في بغداد.

وهذه الآثار كغيرها لا بد من بحثها بشكل مفصل لأنها كانت مرتبطة بشكلٍ كبير بالآثار السياسية التي كانت خاتمة كل تلك الآثار وأول ما يرى فيها، لأن الآثار الاجتماعيـة والثقافيـة والاقتصادية تكون غير ظاهرة وواضحة وتتسرب لكتب التاريخ من دون أن يقصد ذكرها بينما يكون الحدث السياسي هو الحدث اللامع الذي تلتقطه كل الكتب وكل الألسنة.

وكان أهم مظهر اقتصادي في العصر العباسي الثاني إفلاس الدولة وهـذا الإفـلاس لا يبدأ مع بدء العصر العباسي الثاني بل كانت له مقدمات، إذ يعتقد البعض "أن الثروة تقهقرت بعد المأمون وانحطت بانحطاطها"."[١]" وكان إفلاس الدولة من أبـرز الآثـار التـي أسـهم الرقيـق والجواري فيها، ومن الخطأ تحميل هؤلاء جميع أسباب إفلاسها، بل كانت هناك عوامل كثيـرة كانوا هم أبرزها خاصة ممن تم شراؤهم ليكونوا جنوداً في الجيش، كما كان بعض الخلفاء سبباً في ذلك أيضاً، يقول البيروني:

"جاءت دولة بني العباس فجمعوا من ما وجدوا من أموال وزادوها إلى أيـام المقتـدر الذي كان ذا أم مستولية، ومؤثراً لمجالسة النساء في اللعب، ففرق الأمـوال واحتـشم وزيـره العباس من الأخذ منها فردها العباس قائلا: أنها زينة الإسلام وعدة الخلافـة، ولـيس تفريقهـا بصواب." "[٢]"

وهذه الرواية تبين عظم الأموال التي كانت لبني العباس لما تولوا الخلافة بعد الأمويين، وأن ذلك كله تم صرفه وهذا صحيح، إلا أني لا أتفق مع البيروني في أن كل ذلك صرف زمـن المقتدر، إلا إذا كان يقصد تلك الجواهر التي بقيت في بيتي المال في العهدين الأموي والعباسي وكانت لا تخرج أو تقدم لأحد، فقام المقتدر بإخراجها وتوزيعها ومنها الدرة اليتيمـة والـسبحة التي عرفت (بسبحة زيدان) والتي سأذكر خبرهما في موضعهما. ويظهر هذا الإسراف مع أول خلفاء العصر العباسي الثاني.

---

١) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص١٢٧.
٢) البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص٥٧ – ص٥٩.

<u>الحالة الاقتـصادي للدولـة مـن سـنة (٢٣٢هـ ـ/٨٤٦م) إلـى نهايـة خلافـة المهتدي:</u> وظهر الإسراف الحقيقي زمن المتوكل الـذي وصـف بـأن فيـه كرمـاً زائـداً، وظهر ذلك بشكل كبير في عدة مناسبات، منها ما حـدثت بـه (نـدمان)، جاريـة (قبيحـة)، قالت: "ولدت قبيحة المعتز للمتوكل في آخر أيام الواثـق أخيـه، فلمـا ولـي الخلافـة بعـده، ولدت له أم عبد الله، فقال لها: لئن فاتتني بلوغ محبتي لك فـي أبـي عبـد الله، فـلا يفـوتني بلوغ محبتي لك في أم عبـد الله، فعمـل لهـا خمـسمائة جمـل وخمـسمائة بغـل وفـرس وحمار، صياغة من خمسمائة ألف درهـم فـضة، وحمـل علـى كـل واحـد خرجـا فيـه خمسمائة دينـار وأهـدى ذلـك إليهـا."[١] لقـد زادت مـصروفات الدولـة عـن وارداتهـا، لإسراف الخليفة وبذخه هو وأسرته."[٢]

وهذه الرواية تبين جزءاً بسيطاً قد لا يلفت نظر أحد إذا ما قورن بتلك النفقات التي أسرفها على إعذار المعتز وقد بينتُ بعض تلك النفقات فيما سبق، إلا إن أكثر إنفاقه كان على خدمه إذ "أعتق المتوكل عن المعتز ألف عبد وأمر لكل واحد منهم مائة درهم، وثلاثة أثواب .... ونثر على خدام الدار والحاشية ما كان أعد لهم وهو ألف درهم فأكب الجماعة على المال فانتهبوه .... أما (قبيحة) زوجة المتوكل فكان معها من المال ما مكنها من أن تضرب دراهم عليها مكتوب" بركة من الله و إعذار أبي عبد الله) فضرب ألف ألف درهم نثرت على وجوه الغلمان، والشاكرية، وقهرمانات الدار، والخدام، والخاصة من الصبيان السودان."[٣]

وهذه الأموال التي أنفقت على الخدم مع الكثير مما ينفق عليهم في المناسبات ومن رواتب واعطيات تكفي لتكوين ثروة لكل واحد منهم تجعله يستغني عن الحاجة لأحد، وأدت إلى تأخر رواتب الجند في بعض الأحيان.

---

١) ابن الزبير، الذخائر و التحف،ص٣٠.
٢) ضيف الله الزهراني، النفقات وإدارتها في الدولة العباسية، ص٦٨.
٣) الغزولي، مطالع البدور،ج(١)، ص٧١ - ص٧٢/ ابراهيم القيرواني، المختار من قطب السرور، ص٢٧٥-ص٢٧٦.

وليس مبالغة الحديث عن تكوينهم تلك الثروة، لأن ذلك تكرر زمن المتوكل، "فلما حذق المعتز القرآن دعا المتوكل شفيع الخادم بحضرة الفتح بن خاقان فقال: إنني عزمت على تحذيق أبي عبد الله في يوم كذا وتكون خطبته علي وحذاقه ببركوارا، فأخرج من خزانة الجوهر جوهراً بقيمة مائة ألف دينار في عشر صواني فضة للنثار على من يقرب من القواد ...ونحو هؤلاء من قادة العسكر وأخرج مائة ألف دينار عدداً للنثار على القواد الذين دون هؤلاء في الرواق الذي بين يدي الأبواب، وأخرج ألف ألف درهم بيضاً صحاحاً للنثار على من في الصحن من خلفاء القواد والنقباء ...."[١]

لقد حصل قادة الترك على ما شاءوا من الأموال بفضل المناسبات التي كانت خاصة بالمتوكل. وكانت أم المتوكل وزوجاته، وجواريه يمتلكن أموالاً طائلة تظهرها لنا بعض الروايات، فأُم المتوكل شجاع كانت تمتلك أموالاً كثيرة وإن كانت تنفق بعضها في وجوه الخير."[٢]

بينما نجد (قبيحة) زوجته امتلكت من الأموال ما مكنها من تقديم هدايا ثمينة إلى المتوكل، ومنها ما قاله أحمد بن أبي طاهر لما صار المتوكل على الله بالأنبار قافلاً من دمشق، تلقاه (شُنيف) خادم أمه بهدايا إليه أوردها من عند السيدة (قبيحة)..، وقيمتها أربعمائة ألف دينار."[٣]

(فقبيحة) قدمت تلك الهدية وقدمت غيرها من الهدايا التي قد تكون أقل منها أو أكثر تكلفة، إلا أنني ألاحظ ذكرها في أغلب المناسبات التي تتعلق بالمتوكل خاصة المادية منها، وقد يكون سبب تكرار ذلك الرغبة في تأكيد مقدار ما تملك من أموال أخفتها حين احتاج المعتز إليها، ورغم أن لكل حادث حديثاً إلا أنه من المهم لفت النظر إلى ذلك عند ذكر هذه الأموال، خاصة أن بعض الروايات تبالغ في الكذب لإثبات مواقف معينة.

وكما قدمت قبيحة للمتوكل هدايا فإن جواريه أيضاً لم يتركن مناسبة إلا وقدمن فيها الهدايا ومن ذلك ما قدمته جارية المتوكل (شجرة الدر)، وكان يميل إليها ميلاً كبيراً ويفضلها

---

١) الجريري، الجليس الصالح الكافي والأنيس ..، ج(٣)،ص١٠٣-ص١٠٥.
٢) الجريري، الجليس الصالح الكافي،ج(٢)،ص١٥٣- ص١٥٦.
٣) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف،ص٣١-ص٣٢.

على سائر حظاياه، فلما كان يوم المهرجان أهدى إليه حظاياه هدايا نفيسة واحتفلن في ذلك ...."[١]

إن معرفة العامة بما يحاط بخلفائهم من ترف وغنى لا يحصلون هم عليه، لا يولد فقط حسداً اتجاههم بل يولد ما هو أكثر يقول التوحيدي" إذا عرفت العامة حال الملك في إيثاره اللذة، وانهماكه على الشهوة، واسترساله في هوى النفس استهانت به، وإن كان سفاكاً للدماء ... وإذا عرفت منه العقل والفضل والجد هابته وجمعت أطرافها منه.."[٢]

ومن مظاهر الترف زمن المتوكل" إن المتوكل اشتهى أن يجعل كل ما تقع عليه عينه، في يوم من أيام شربه، أصفر فنصبت له قبة صندل مذهبة، ...، ولم يحضر من جواريه إلا الصفر، عليهن ثياب قصب صفر، وكانت القبة منصوبة على بركة مرصصة يجري فيها الماء، فأمر أن يجعل في مجاري الماء إليها الزعفران على قدر، ليصفر الماء ويجري من البركة ففعل ذلك."[٣]

لقد تحدثنا عن الكثير من الهدايا التي قدمت للمتوكل والتي يجب ألا تكرر هنا، إلا أن المثير للاهتمام أنه ورغم ما تشير إليه المصادر من أموال كبيرة أنفقت زمن المتوكل، وتلك الأموال التي يمتلكها المحيطون من حوله سواء كانوا خدماً أو جواري أو عمالاً وغيرهم، تبين بذخاً وترفاً كبيراً، إلا أنها لا تبرر سبب قيام المتوكل بمصادرة أموال عماله وبشكلٍ كبير، إذ كثرت تلك المصادرات في خلافة المتوكل ويبين الجدول التالي بعض المصادرات زمنه:

---

١) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص٢٩٠/ الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج(١)، ص٢٥٢.
٢) (ابن مسكويه، والتوحيدي)، الهوامل والشوامل، ١٩٥١م، ص٣٣٣.
٣) التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة، ج(١)، ص٣٠١-ص٣٠٣.

الجدول(٦)

	اسم الشخص	سبب المصادرة
١.	بختيشوع بن جبريل	طبيب المتوكل دعاه إلى بيته فأظهر من التجمل والثروة ما أعجب المتوكل واستكثر ما رآه من نعمته فأرسل الحسين بن مخلد فختم على خزائنه وباع شيئاً كثيراً منها"[١]".
٢.	محمد بن الزيات	سخط المتوكل عليه بعد(٤٠) يوما من توليه الخلافة واستصفى أمواله وعذبه في السجن حتى مات."[٢]"
٣.	عمر بن فرج الرخجي	سخط المتوكل عليه فوضعه بالسجن هو وأخوه محمد بن فرج عامل مصر وقبضت أموالهما سنة ٢٣٣هـ . "[٣]"
٤.	الفضل بن مروان	سخط عليه المتوكل وقبض ضياعه وأمواله ونفاه ثم رضي عنه ورده."[٤]"
٥.	يحيى بن خاقان، وموسى بن عبد الملك بن هشام	لما سخط المتوكل على الكُتّاب قال لإسحاق بن إبراهيم انظر لي رجلين لديوان الخراج ولديوان الضياع فقال يحيى بن خاقان وموسى بن هشام، وكان يحيى محبوساً بأموال كان يطالب بها من ولايته فارس وموسى محبوساً أيضاً فأخرجهما وولى يحيى الخراج وموسى الضياع."[٥]"
٦.	أحمد بن خالد أبو الوزير	سخط عليه المتوكل واستصفى أمواله ثم رضي عليه."[٦]"
٧.	ايتاخ التركي	استأذن المتوكل بالحج سنة ٢٣٤هـ، فلما قرب من بغداد وافاه إسحاق بن إبراهيم وأمره بنزع السواد والسيف والمنطقة وألبسه قباء أبيض وسار به إلى قصر خزيمة حيث حبس وصودرت أمواله وقبضت ضياعه....وأقام عدة أيام ثم مات"[٧]"
٨.	هرثمة بن نصر	عامل مصر قبضت ضياعه لبلوغ المتوكل مطابقته إيتاخ، وصير أعمال مصر إلى إسحاق."[٨]"
٩.	حمدويه بن علي	عامل أذربيجان نافر محمد بن البعيث على ناحية من أذربيجان تسمى(مرند) فحمله إلى باب المتوكل، فضرب وصودرت أمواله...."[٩]"
١٠.	محمد بن إبراهيم	توفي والده إسحاق فولي أعمال مصر وطساسيج السواد وكور دجلة وفارس وبعد مدة أرسل ابن أخيه الحسين بن إسماعيل مكان عمه وأمره أن يعذبه ويصادر أمواله فعذب حتى مات "[١٠]"
١١.	الحسين وإسماعيل ابنا عيسى كاتب إسحاق بن إبراهيم.	قام أحمد بن المدبر بأمر المتوكل بمصادرة أموالهما وولى المتوكل ابن المدبر ديوان الخراج، والضياع، والنفقات الخاصة والعامة والصدقات والموالي والغلمان والجند والشاكرية فوفر أموالا عظيمة.[١١]
١٢.	محمد بن أحمد بن دؤاد	سخط المتوكل عليه وعلى والده وقبض ضياعه وأمواله وحبس ثم مات، وقيل أن مقدار ذلك (١٦) ألف ألف درهم."[١٢]"
١٣.	نجاح بن سلمة الكاتب	كان الغالب على المتوكل إلا أنه سخط عليه فضمنه موسى بن هشام صاحب ديوان الخراج، والحسن بن مخلد مقابل ألفي ألف دينار."[١٣]"
١٤.	يحيى بن أكثم	عزله المتوكل عن منصب قاضي القضاة وأخذ منه مائة ألف دينار."[١٤]"
١٥.	بغا التركي	صادر أمواله قبل قتله سنة ٢٤٧هـ."[١٥]"
١٦.	وصيف التركي	أراد المتوكل مصادرته قبل مقتله سنة ٢٤٧هـ."[١٦]"

١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٣.
٢) اليعقوبي تاريخ، ج(٣)، ص٢١٧/ ابن الطقطقا، الفخري، ص٢١٤/ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج(٥)، ص٥١٩/ ابن دحية، النبراس.. ص٧٧ - ص٧٨/ ابن خلدون، المقدمة، ج(٣)، ص٢٧٠/ مرتضى، كلشن خلفا، ص٥٨
٣) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢١٨/الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج(٩)، ص١٦١.
٤) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢١٨.
٥) ن. م.
٦) ن.م.
٧) ن.م، ص٢١٨- ص٢١٩/ ابن الأثير، الكامل، ج(٥)، ص٥٢٧ - ص٥٢٨ـ ابن خلدون، المقدمة، ج(٣) ص٢٧١.
٨ اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢١٩.
٩) ن.م،ص٢١٩.
١٠) اليعقوبي، تاريخ، ص٢٢٠.
١١) ن.م، ص٢٢١.
١٢) ن.م، ص٢٢١/ الذهبي، دول الإسلام، ج(١)، ص١٠٤/ اليافعي، مرآة الجنان، ج(٢)، ص٨٨ - ص٨٩/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤٧.
١٣) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢٢٤ - ص٢٢٥.
١٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج(٥)، ص٥٣٧/ الذهبي، دول الإسلام، ط(٢)، ج(١)، ص١٠٥..
١٥) ن.م.
١٦) ن.م/ ابن خلدون، المقدمة، ج(٣)، ص٢٧٨.

وهذا الجدول يذكرنا بما قاله الخليفة المأمون يوماً من أيام خلافته حيث قال: لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين ملوكهم وحماتهم وكفاتهم، ... ثم يرون إيقاع الملوك برجالهم بسبب أطماعهم، فيقول الرجل: ما أوقع بهم إلا رغبة في أموالهم أو رغبة في بعض ما لا تجود النفس به... وهناك جنايات في صلب الملك، وفي بعض الحرم فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع ترك العقوبة، لما لذلك من الفساد.."."[١]

وقد ذكرتُ مصادرات المتوكل التي كانت كثيرة مقارنة بما سبقه من فترات، لأنها مدخل لمصادرات عديدة تلت فترة خلافته، فالمتوكل الذي لم تتجاوز خلافته الخمس عشرة سنه صادر أموال أكثر من ستة عشر شخصاً في سنوات متفرقة، وكان بعضهم من المقربين له كالفتح بن خاقان، وبعضهم ممن اجتمع لاختياره خليفة بدلاً من ابن الواثق، ولكل مصادرة مبرر برأيهم، كما أن بعض المصادرات والمبررات مخططاً لها، ليتم تحصيل الأموال الكثيرة التي يمتلكها هؤلاء الأشخاص الذين استلموا مناصب مهمة في الدولة. قال الطبري: حدثني غير واحد، أن الواثق لما توفي حضر الدار أحمد بن أبي داؤد، وإيتاخ، ووصيف، وعمر بن فرج وابن الزيات وأحمد بن خالد أبو الوزير، فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد.. فقال لهم وصيف: أما تتقون الله! تولون مثل هذا الخلافة، فتناظروا فيمن يولونه، ثم دعوا بالمتوكل وبايعوه."[٢]

وأرى أن المتوكل قام بمصادرة أموال من أجمع على تقديمه بالبيعة على ابن الواثق، إلا أني ألاحظ أن آخر شخص تعرض للمصادرة وصيف وقبل أن يصادر أو يسجن أو يقتل كان المخطط جاهزاً للقضاء على المتوكل وقتله، وقد يكون المتوكل قام بهذه المصادرات لحماية نفسه من قوة هؤلاء الأشخاص، إلا أن أخطرهم كان وصيف الخادم الذي كان ذا دور كبير في خلافة المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز، وعندما قرر المتوكل مصادرته ساهم في وضع مخطط لقتله.

وهذه السيطرة على المتوكل من قبل هؤلاء الأشخاص المذكورين في أمر اختياره خليفة بدلاً من ابن الواثق، هناك ما هو أوضح منها ومن ذلك ما حدث بعد تولي المتوكل الخلافة مباشرةً إذ "أمر للأتراك برزق أربعة أشهر وللجند الشاكرية ومن يجري مجراهم من الهاشميين برزق ثمانية أشهر، وأمر للمغاربة برزق ثلاثة أشهر، فأبوا أن يقبضوا فأرسل إليهم: من كان

---

١) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ص١٢٢.

٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)ص١٥٤/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ،ص١٤٥/ ابن خلدون، المقدمة، ج(٣)٢٧٠..

منكم مملوكاً فليمض إلى أحمد بن أبي داؤد حتى يبيعه ومن كان حراً صيرناه أسوة بالجند، فرضوا بذلك، فتكلم وصيف فيهم حتى رضي عنهم فأعطوا ثلاثة، ثم أجروا بعد ذلك مجرى الأتراك وبويع للمتوكل ...."[١]

وقال اليعقوبي:" بايع المتوكل سيما التركي المعروف بالدمشقي ووصيف التركي، وركب المتوكل إلى دار العامة وأمر بإعطاء الجند لثمانية أشهر وسلم عليه أولاد سبعة خلفاء مجتمعين بالخلافة."[٢]

لقد كانت هذه الأموال مقابل بيعتهم للمتوكل، ومع ذلك تمردوا عليه، فأراد أن يعاقبهم على ذلك لولا تدخل وصيف الذي يبدوا أنه أقنع المتوكل بعد ذلك بمدة أن يمنحهم ما منح الأتراك. لقد كان هذا الحدث منطلقاً خطيراً لمرحلة ضعيفة، فرغم أن تدخل الأتراك في شؤون الدولة الاقتصادية والسياسية في خلافة المتوكل لم يكن ظاهراً للناس، إلا أنه كان ظاهراً للخليفة العباسي، وكان سبباً لمحاولة تخلصه من سيطرتهم والتفكير بدمشق مرة أخرى عاصمة لا للدولة الأموية بل للدولة العباسية، فكانت رحلته التي لم تطل إلى دمشق بهدف التخلص من سيطرة الأتراك عليه،" إذ بات المتوكل يحسب حساب الأتراك ويخشاهم."[٣] "فقد بقي المتوكل يشعر بضعف مركزه، وبأنه وسط جيش لا يدين له بولاء، ففكر بنقل مكان حكمه ليتخلص من النفوذ التركي، ويكون فيها بين عنصر يؤيده هو العنصر العربي."[٤]

وهذه الأحداث المرتبطة بالجانب السياسي مرتبطة بالجانب الإقتصادي أيضاً لأن الأرزاق التي بدأ الأتراك يحصلون عليها والرواتب هي أعلى من تلك المحددة لهم وأكبر من احتياجاتهم، ومصادرات المتوكل ليست بسبب حاجات الدولة، ولا بسبب عصيان ولاته لأمره بل كانت في الغالب بسبب ضغوط جنده عليه، ومن قدمه بالبيعة فمصادرة شخص أو مجموعة لا تعني بناء اقتصاد جيد أو تبين أن هذا الاقتصاد ضعيف لكنها تبين، إما غضب الخليفة عليهم وهو الظاهر في كل تلك المصادرات، فإذا كان الخليفة غاضباً من أحدهم فإنه لا يستخدم أسلوباً واحداً للعقاب بل يوازي بين خطأه وعقابه، وإما أن هذه المصادرات كانت شكلاً لأمر لم يعلم به أحد سوى المتوكل الذي أصبح رهين مطالب الترك التي لا تنفد، ومحاصراً بمخاوف وصيف ممن يحيطون بالخليفة والذين قد يسلبونه حق السيطرة عليه.

---

١) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص١٥٥.
٢) اليعقوبي،تاريخ، ج(٣)، ص٢١٧/ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج(٥)، ص٥١٦
٣)صادق جودة، الرحلة المتوكلية إلى دمشق، ص١٤.
٤) الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص٤٩.

وفرضت العديد من الضرائب في العصر العباسي الثاني خاصة زمن الخليفة المتوكل خاصة ما عرف بالمكس وهي الضريبة التي تؤخذ على السفن الواردة إلى البحر في البصرة."[١]"

وفترة خلافة المنتصر القصيرة لا يذكر فيها آثار اقتصادية كبيرة بسبب الانشغال بمسألة مقتل المتوكل وقصر فترة خلافة المنتصر، إلا ذكر ما قام به من توزيع ما ورثه من أموال المتوكل بين أخوته."[٢]"

ووصفت الأموال التي خلفتها أمه بأنها أموالٌ عظيمة."[٣]" وهذه الأموال لا تدل إلا على المكانة التي وصلت إليها الجواري ممن أصبحن أمهات للخلفاء.

وبعد موته تولى الخلافة المستعين وقد ساء الأمر أكثر مما سبق، إذ "أطلق المستعين يد أوتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال، وأباح لهما فعل ما أرادا فعله فيهما، وكذلك أمه فلم يمنعها من شيء تريده،...، وكانت الأموال التي ترد على السلطان من الآفاق إنما يصير معظمه إلى هؤلاء الثلاثة أنفس، وجعل المستعين ابنه العباس في حجر أوتامش، فكان ما فضل من الأموال عن هؤلاء الثلاثة الأنفس يؤخذ للعباس، فيصرف في نفقاته وأسبابه، وصاحب ديوان ضياعه" دليل" فاقتطع من ذلك أموال جليلة لنفسه، وجعلت الموالي تنظر إلى الأموال تستهلك، وهم في ضيقة، وجعل أوتامش المستولي على المستعين ينفذ أمور الخلافة، ووصيف وبغا في معزل، فأغريا الموالي به، فتذمر الأتراك والفراغنة واجتمع إليهم أهل الدور والكرخ وزحفوا إليه وأراد الهرب فلم يستطع، وأراد أن يستجير بالمستعين الذي لم يجره فقتله الموالي وكاتبه شجاع بن القاسم وانتهبت دار أوتامش، واستوزر بدلاً منه أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد ثم غضب بغا الصغير عليه فهرب إلى بغداد فاستوزر المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجرائي"."[٤]"

"وكان أحد وزراء المستعين أبي صالح بن محمد بن يزداد والذي ضبط الأموال فصعب ذلك على أمراء الدولة وكان قد ضيق عليهم فتهددوه بالقتل فهرب"."[٥]"

وهنا استخدم الطبري جملة (أطلق المستعين يد..) ليظهر لنا في أول هذه الرواية أن المستعين هو الذي سمح لأوتامش وشاهك بأخذ الأموال، إلا أنه في نهاية الرواية لم يجر أوتامش عندما طلب الإجارة، كما يبين أن أم المستعين كانت صاحبة حصة جيدة من تلك الأموال وكأنها شريكة لهم ليس فقط في الأموال ولكن قد تكون شريكة في السعي لتولي المستعين الخلافة،

---

١) الدوري، النظم الإسلامية، ص١٧٩-ص١٨٠.
٢) الرشيد ابن الزبير، الذخائر و التحف، ص٢٢٠.
٣) ن.م. ص٢٣٦.
٤) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٦٣- ص٢٦٤.
٥) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٨.

ويبدو أن ابن المستعين كان أشبه بأسير لدى أوتامش خاصة أن ما يفضل من أموال يذهب إليه ليصير إلى الشخص الموكل بضياعه وهو (دليل)، بينما لم تبين هذه الرواية إذا ما كان للمستعين حصة من تلك الأموال، بينما يشير الطبري وبشكل واضح إلى أن وصيف وبغا كانا بمعزل عن ذلك ثم تدخلا لإثارة الأتراك ضدهما، ولا يبدوا دور وصيف وبغا دوراً سهلاً، إذ أنهما طالما كانا مستشارين مهمين للخلفاء وهما من أشارا بوضع أوتامش وزيراً للمستعين ليقوم بجمع كل تلك الأموال فيكون هو وشاهك في مواجهة الأتراك ويكون وصيف وبغا بمثابة المخلصين لهم، وبالتالي يحصلان على حصتهما من تلك الأموال دون أن يتعرضا لتلك المواجهة.

والإشارة إلى دور وصيف وبغا في أغلب هذه الأحداث ليس بقصد كيل الاتهامات لهما بقدر ما هو تنبيه لدورهما الكبير في هذه الفترة والذي كلما تعمقنا في الروايات بات أوضح مما سبق، فنجد أن كل من هو قريب من الخلفاء تعرض للقتل أو النفي أو المصادرة، سواء كان وزيراً أو كاتباً أو قاضياً أو حتى قائداً من قادة الترك، ولا يبقى إلا وصيف وبغا في هذه الأحداث كما أن طاعة الأتراك لهما مختلفة عن طاعتهم لغيرهم من القادة، وكذلك طاعة من كان قريباً من هؤلاء القادة والوزراء من خدم وجوار لهما.

أما المستعين الذي واجه مشكلة خطيرة في ميزانية الدولة فقد أصبح يقدم اعطيات مما تقدمه أمه "يقول أحمد بن حمدون النديم: إن أم المستعين صنعت بساطاً على صورة كل حيوان من الأجناس وصورت كل طائر بذهب وأعينهم بيواقيت جواهر أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف وفرقه بين مجالسيه وما تبقى منه أمر الفراشين والخدم أن ينتهبوه."[١]

وسيتضح أكثر سلوك المستعين في هذا المجال في الفتنة التي كانت بينه وبين المعتز والتي كانت سبباً لتركه سامراء وقدومه بغداد مخلفاً في بيت المال بسامرا "من أموال الموصل والشام نحواً من خمسمائة ألف دينار، وفي بيت مال أم المستعين ما قيمته ألف ألف دينار، وفي بيت مال العباس بن المستعين ستمائة ألف دينار."[٢] وهي أموال ليست كبيرة إذا ما قورنت بالفترات السابقة وخاصة من سنة (١٣٦هـ/٧٥٣م -١٩٣هـ/٨٠٨م)، وتبين كل تلك الروايات أن الخدم المقرب للخلفاء والأتراك من قادة الجيش وأمهات الخلفاء هم المستفيدون بشكلٍ كبير من تلك الفوضى المالية في هذه الفترة، لأن القائد يحصل على أكبر حصة من تلك الأموال بينما يفرق جزءاً منها على كل من ساعد على وصوله لهذه المكانة خاصة من خدم الخليفة وجواريه المقربين له.

---

١) الأبشيهي، المستظرف من في كل فن مستظرف،ج(١)،ص١٦٤/ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج(٣)، ص٣٦٨ - ص٣٦٩.
٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٨٤/ ابن الرشيد، الذخائر والتحف،ص٢٣٨.

ففي سنة (٢٤٩هـ/٨٦٣م) وصل المستعين بغداد تاركاً سامرا، ولحق به عدد من قادة الأتراك، ودخلوا عليه طالبين منه الصفح، فعاتبهم وقال لهم ألم ترفعوا إلي في أولادكم فألحقتهم بكم وهم ألفا غلام وفي بناتكم وهن أربعة آلاف امرأة في المدركين والمولدين وسبكت لكم آنية الذهب والفضة، ومنعت نفسي لذتها، وأنتم تزدادون بغيا وفسادا، فاعتذروا منه.. فقال المستعين تصيرون إلى سامرا، فإن أرزاقكم دارة عليكم، وأنظر في أمري هنا ومقامي، فانصرفوا آيسين منه وقرروا البيعة للمعتز وكان في الحبس مع المؤيد."[1]

لقد حاول المستعين التخلص من سيطرتهم بالذهاب إلى بغداد ومعه وصيف وبغا ولما أرادوا إعادته إلى سامرا ذكّرهم بما قدمه لهم ولكن "لما وصل خبر بيعة المعتز في سامرا للمستعين أمر بقطع الميرة عن سامراء، وكتب إلى عمال الخراج في كل بلد أن يرسلوا الأموال إلى بغداد، وأمر الجند بسامرا أن ينقضوا بيعة المعتز ... "[2]

لقد كان ذلك تحركاً قصد منه المستعين إضعاف الخارجين عليه في سامراء، وكان هو الخليفة المبايع من قبل الولاة والمطاع أمره، وهذه الروايات تبين قيمة المال في دعم الخليفة وفي قوته في أي حرب، إلا أن الكتابة إلى عمال الخراج في الولايات أضرت بالدولة العباسية ولم تحقق فائدة كبرى للمستعين، لأن قتل المتوكل اعتبر حادثاً قام به المنتصر طمعاً بالخلافة ولم يهدم صورة الدولة القوية، بينما أظهر هذا الحدث أن أفراد البيت العباسي ممثلين بالمستعين في بغداد، والمعتز بسامراء أصبحوا أدوات يحصل من خلالها الأتراك على ما شاءوا من الأموال، فبدأ الولاة يستغلون هذه الأحداث لصالحهم مستغلين الفوضى العسكرية في مركز الخلافة.

تولى المعتز الخلافة وهو لا يملك من الأموال شيئاً إذ "ابتاع المستعين بعد توليه الخلافة في سنة (٢٤٨هـ/٨٦٢م)، جميع ما كان للمعتز والمؤيد من دور ومنازل وضياع ومتاع وفرش بعشرين ألف دينار، وكان الشراء باسم الحسن بن مخلد للمستعين في شهر ربيع الآخر"."[3]

وكان المعتز مستضعفاً من الأتراك فجاءه جماعة من كبارهم وقالوا: يا أمير المؤمنين أعطنا أرزاقنا لنقتل صالح بن وصيف، وكان المعتز يخاف منه، فطلب من أمه مالاً لينفقه فيهم فأبت عليه وشحت نفساً، ولم يكن بقي في بيوت المال شيء، فاجتمعوا على خلعه، ووافقهم صالح بن وصيف ومحمد بن بغا، فلبسوا السلاح وجاءوا إلى دار الخلافة فبعثوا للمعتز أن أخرج إلينا،... فهجم عليه جماعة جروا برجله وضربوه ...، ثم أحضروا القاضي ابن أبي

---

١) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٨٣ - ص٢٨٤/ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)،ص٣١ – ص٤٩/ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج(٢)، ص٢٦٧.
٢) الطبري، تاريخ،ج(٩)، ص٢٨٢.
٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥٩.

الشوارب والشهود وخلعوه، ثم أحضروا محمد بن الواثق من سامرا فسلم إليه المعتز بالخلافة، ...واختفت أمه (قبيحة)، ثم ظهرت في رمضان وأعطت صالح بن وصيف مالاً عظيماً من ذلك ألف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، وسفط فيه مكوك زمرد، وسفط فيه لؤلؤ حب كبار، وكيلجة ياقوت أحمر، وغير ذلك، فقوم السفاط بألفي ألف دينار فلما رأى صالح ذلك قال: قبحها الله، عرضت ابنها للقتل لأجل خمسين ألف دينار وعندها هذا، فأخذ الجميع ونفاها إلى مكة، فبقيت بها إلى أن تولى المعتمد، فردها إلى سامرا وماتت سنة (٢٦٤هـ/٨٧٥م)."[١]

إن هذه الصورة التي ذكرتها العديد من المصادر، وتستعين بها الكثير من المراجع الحديثة لتبين أثر الجواري السلبي على الخلافة، تعد من أضعف الروايات التي تبين هذا الأثر السلبي، وذلك لعدة أسباب منها:

- أصبح الأتراك قوة كبيرة، لا يهمها إلا تحصيل المال من الخلفاء الذين يؤتى بهم ليستخلفوا أو من جواريهم وأمهاتهم وزوجاتهم وإخوانهم، فكان المعتز مستضعفاً يخاف من صالح بن وصيف ولكي يتأكد الأتراك من نفاد أمواله أرادوا تطميعه بقتل صالح مقابل إخراج ما عنده من أموال وهو ما لم يكن معه.
- وأما طلب المعتز من أمه فهو أمر يحصل عادة إذا ما كان الخليفة مضطراً إلى ذلك، لكن القول بأنها لم تعطه، فهذا يدفعنا إلى أن نعود إلى الروايات التي تحدثت عن ما قدمته له في إعذاره، إذا لم نلتفت لكونها أمه؛ لذا فقد تكون لا تملك المال الذي طُلب منها، أو أنها أدركت أن تقديم المال أو عدم تقديمه لن يحقق نتيجة مع الأتراك.
- وأما الأموال التي قيل إن صالح بن وصيف أخذها منها بعد ظهورها فقد يكون حصل عليها بعد قتل المعتز، أو أنها لم تكن إلا قصة اختلقت للتشهير بها، فبدلاً من أن يحقد الناس على الأتراك فمن الأفضل الحقد على هذه الأم السيئة خاصة أنها كانت من الجواري اللواتي تعلق عليهن بعض المشاكل.
- وأما تعاطف صالح بن وصيف مع المعتز فهو تعاطفٌ غير جاد، خاصة إذا كان المعتز يخاف منه وفي الوقت نفسه يطلب من أمه المال مقابل قتل الأتراك صالحاً وهو قبل كل ذلك قاتله أو المسبب في قتله.

والتشهير بقبيحة استغل بشكل كبير لما قبض المهتدي عليها وصادر أموالها، فقال: لجماعة من الموالي، تعليقاً على الأموال التي صودرت من قبيحة "أما أنا فليس لي أم أحتاج لها

---

١) ابن الزبير، الذخائر، ص٢٣٦ - ص٢٣٧/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٨٤/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٩ - ص٣٦٠/

إلى غلة عشرة آلاف ألف في كل سنة لجواريها وخدمها والمتصلين بها، وما أريد لنفسي وولدي إلا القوت، وما أريد فضالاً إلا لأخوتي فإن الضيقة قد مستهم"."[١]

وهنا ينقل الموالي هذه الرواية محاولة منهم لإظهار المهتدي بصورة جيدة مقابل المعتز الذي خسر كل شيء، فمن يخسر لا مجال لإظهاره بصورة جيدة، كما أنها تبين حالة المهتدي وأبنائه وأخوته السيئة، إذن لماذا يأتي الأتراك بخليفة لا يمتلك الأموال؟

وهذا يفسر بأن المهتدي يحاول عقد صفقة مع الأتراك، فهو لن يطالب لأهله إلا القليل من المال، وهذا ما يريدوه الأتراك وفي الوقت ذاته يضمن للمهتدي عدم تعرض الأتراك له؛ لذا بدأ بعمليات مصادرة الهدف منها جمع المال طالباً من الناس مساعدته "ونادى من دل على مال فله نصف العشر، فدل الناس على أموال لهم كثيرة كانت نحواً من ألف ألف دينار، فوفى لهم المهتدي بنصف العشر."[٢]

لقد كانت هذه الفترة الممتدة من خلافة المتوكل إلى المهتدي فترة تراجع اقتصاد كبير في الدولة كان المستفيد الرئيسي من هذا التراجع القادة الترك وكل من عاونهم من خدم وجواري داخل قصر الخلافة، بينما كان الخليفة العباسي الخاسر الرئيسي في هذه الفترة.

الحالة الاقتصادية للدولة العباسية من خلافة المعتمد حتى مجيء البويهيين:

واستمرت الأوضاع زمن المعتمد على ما كانت عليه سابقاً كما استمرت المصادرات، إذ نكب المعتمد عبيد الله بن سليمان وأباه، وصادر أموالهما."[٣]

ورغم استقرار الدولة سياسياً في عهده، إلا أن آثار حركة الزنج كانت سلبية بشكل كبير من الناحية الاقتصادية، لذا نجد القضاة والشهود يشهدون على المعتمد في دين اقترضه عند الإضافة بالإنفاق على حرب صاحب الزنج."[٤]"اضطرت الدولة في عهده لأول مرة إلى الاقتراض بشكلٍ علني لتأمين تلك الأموال، وهي سابقة لم تحدث في العهد العباسي، وساء وضع المعتمد المالي بسبب سيطرة أخيه الموفق عليه وعدم تمكينه من الحصول على المال.

"وكانت أيام المعتمد مضطربة الأحوال، مختلفة التدبير، كثيرة العزل والتولية بتدبير الموالي وغلبتهم عليه فقال في ذلك:

ألـيس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعا عليـه

---

١) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٣٩٦/ مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي، ص٨١ - ص٨٢ .
٢) ابن الزبير، الذخائر، ص٢٣٧ -ص٢٣٨.
٣) القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، م(١)، ص٣٣٨ - ص٣٣٩.
٤) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٢)، ص٢٥.

وتؤخـذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه"[١]"

وقيل أنه قال هذا البيت عندما أراد أن يصل عريباً المغنية بثلاثمائة دينار، فلم توجد، فطلب مائتين فلم توجد، ...."[٢]"فقال هذين البيتين يصف حاله وما آل إليه أمره.

ومهما كانت المناسبة التي قال فيها هذين البيتين فإنه مثل من خلالها حالة الدولة الاقتصادية وحالته كخليفة لا يملك شيئاً، وينتظر ما يقدم إليه.

لقد تحسن وضع الدولة الاقتصادية في عهد المعتمد بعد أن استطاع الموفق القضاء على حركة الزنج بمعاونة ولده المعتضد إلا أنه لم يكن للمعتمد الحق في التصرف بمالية الدولة بسبب سيطرة أخيه عليه، وهذا التحسن الاقتصادي والسياسي جعل الولاة يخشون سطوة المعتضد في خلافته ويقدمون له الهدايا المختلفة التي لا داعي لتكرار ذكرها.

ولما تولى المعتضد الخلافة قام أيضاً بتنظيم أمور جيشه ومعاقبة من يأخذ منهم ما ليس له كما جرى مع المرأة والقائد التركي في الرواية السابقة التي أنقذها إمام المسجد، والرواية التي تحدثت عن ضرب المعتضد أحد قادته مائة مقرعة لأخذه بطيخة من بائعٍ في كور الأهواز فأثار ذلك الجند وهابوه."[٣]"

ويبدو أن المعتضد قصد من الشدة في العقوبة تخويف الجند منه والهيبة له، وقد تحقق له ذلك في خلافته، حيث تذكر المصادر مدى شدته مع عماله وغلمانه.إذ تقدم المعتضد إلى أمراء الأجناد بأن يتقدم كل واحد منهم إلى أتباعه بلزوم الطريقة الحميدة وأن من أفسد غلامه على أحد من الرعية أو تجرأ على أحد بأذية فالمأخوذ به الأمير دون الغلام، وقد قتل أميراً بجرم غلامه."[٤]"

وأفادت قوة المعتضد المكتفي الذي استمر على طريقة أبيه، وأظهر شجاعة في تصديه للقرامطة، إلا أن أي تقدم على الوضع الاقتصادي لم يحدث؛ لذا نجد المكتفي بدل أن يشتري مثلاً عقد جوهر من ابن الجصاص يحتال عليه في أخذه بحجة إساءته بالحديث، إذ ذهب من ابن الجصاص العقد والمال بالكلمة."[٥]" وهذه الرواية تبين أنه ورغم تحسن وضع الدولة الاقتصادي إلا أن المكتفي اضطر لمثل هذا الأسلوب لأخذ المال أو الجوهر من أحد التجار.

---

١) القيرواني، ذيل زهر الاداب، ص١٢٨/ابن دحية، النبراس ..، ص٨٥/ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٣٤/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٦٥.

٢) الشابشتي، الديارات، ص١٠١.

٣) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(١)، ص٣٢٩ - ص٣٣٠/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٢٤٨.

٤) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٨٦.

٥) التنوخي، نشوار المحاضرة في أخبار المذاكرة، ج(٢)، ص٣١٦- ص٣١٧.

وقد تهيأت للأتراك ثغرة جديدة يمرون من خلالها إلى السلطة، وهي صغر سن المقتدر بن المعتضد الخليفة القادم إلى السلطة، "إذ كان الخليفة صبياً مترفاً لا خبرة له بالسياسة أو الإدارة، مبذراً متلافاً، بدد في مدة قصيرة ما في الخزينة، وزعزع ركن الدولة المالي وهو أهم أركانها، وكان الحرم يتمتعن بنفوذ كبير."[١]

وكانت الفترة التي تولى بها المقتدر الخلافة وما تلاها إلى نهاية حكم المستكفي ودخول البويهيين بغداد فترة انحدرت فيها أوضاع الدولة الاقتصادية وساءت. أما المقتدر فقد كان محور روايات كثيرة تتعلق بأموال الدولة، لقد كان المقتدر مقيداً بما أخبرنا به التنوخي وهو (السادة)"[٢]" الذين قصد بهم: المقتدر بالله نفسه ووالدته، وخالته (خاطف)، و(دستنبويه) أم ولد المعتضد ولها مكانه كبيرة عند المقتدر. فعلينا قبل أن نؤكد مسألة إسرافه أن ننظر إلى المحيطين به، فكما كان صغر سنه مأخذاً عليه لكونه لا يستطيع أن يسير أمور دولة كالدولة العباسية من وجهة نظر البعض، فسأضيف إليه أيضاً عدم قدرته على الإسراف ما دام صغيراً بالسن، ليس بهدف دفع هذه التهمة عنه، ولكن بهدف معرفة الإمكانيات التي مكنت المقتدر من أن يسرف كل هذه الأموال بينما لم تمكن المعتمد من تقديم أعطية لجارية من جواريه.

ويذكر "أن خالة المقتدر دعته في شعبان سنة (٢٩٩هـ/٩١١م)، فنثرت على خواص القصر وكلفها ذلك مائة ألف دينار."[٣]" فكيف لا يستطيع خليفة كالمعتمد الذي جاء قبله أن يفعل شيئاً من ذلك ونجده هو ومن حوله يبذرون ويسرفون، أليس في ذلك تناقضاً أم أن الأموال التي توفرت في عهده كانت تسعفه في ذلك؟

لقد تمكنت الجواري من التدخل في شؤون الدولة في خلافة المقتدر، بسبب سلطة والدته التي كانت أشبه بوصية على العرش، فبدأ يعم الفساد داخل القصر العباسي بشكل كبير وأثر ذلك على أموال الخلافة التي كان لا يحق لأحد التصرف بها وهذه الأموال ورثها العباسيين عن الأمويين، "إذ كانت جواهر الأكاسرة وغيرهم من الملوك قد صارت إلى بني أمية، ثم صارت إلى السفاح، ...ولم يزل الخلفاء يحفظون ذلك إلى أن آلت الخلافة إلى المقتدر وهناك ما لم ير مثله وفيه الدرة اليتيمة زنتها ثلاثة مثاقيل، فبسط فيه المقتدر يده ووهب بعضه لصافي الحرمي، ووجه منه إلى وزيره العباس فرده،... وكانت زيدان القهرمانة"[٤]" متمكنة من الجوهر، فأخذت سبحة لم ير مثلها، وكان يضرب بها المثل، فيقال: سبحة زيدان، فلما وزر علي بن عيسى قال

---

١) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص٣٠.
٢) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٥)،ص٥٦.
٣) الصولي، ما لم ينشر من أوراق الصولي، ص٧٨.
٤) وكانت زيدان القهرمانة تقوم بهمة اعتقال من ترغب السيدة والمقتدر باعتقاله/ العيون والحدائق، ج(٤)، قسم(١)، ص١٨٢.

للمقتدر ما فعلت سبحة جوهر قيمتها ثلاثون ألف دينار أخذت من ابن الجصاص، فقال: في الخزانة، فقال: تطلب فلما طلبت لم توجد فأخرجها من كمه، وقال: إذا كانت خزانة الجوهر لا تحفظ فما الذي يحفظ؟ وقال عرضت علي فاشتريتها، فاشتد ذلك على المقتدر، ثم امتدت يد الخزّانة في أيام القاهر والراضي إلى خزائن الجوهر فلم يبق منه شيء."[١]

وهذه الرواية توضح أنه تم في خلافة المقتدر إخراج هذا الجوهر بعلمه، بينما احتج وزيره على توزيع جواهر الخلافة التي تمثل جزءاً من هيبة الدولة، إلا أن الرواية تبين أيضاً أنه أخرج الجوهر لخادمه صافي الحرمي وللوزير، ولم يخرجها لصرفها على لذاته، ويقول الصولي:" لما قدم علي بن عيسى سنة (٣١٥هـ/٩٢٧م) بغداد قال: ما فعلت سبحة جوهر قيمتها ثلاثون ألف دينار أخذت من ابن الجصاص؟ فقال: هي في الخزانة، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضارها، فطلبت فلم توجد فأخرجها علي من كمه وقال: عرضت علي بمصر فعرفتها واشتريتها، فإذا كانت خزانة الجوهر لا تحفظ، فما الذي يحفظ، وأمير المؤمنين قد أوصل إلى خزانة الأموال الجليلة والاقطاعات، فاشتد ذلك على الخليفة والسيدة وغيرهما واتهمت بالسبحة " زيدان القهرمانة" وقيل ليس تصل إلى خزانة الجوهر غيرها."[٢] وكان لدى المقتدر الدرة اليتيمة التي وزنها ثلاثة مثاقيل وأعطاها لبعض جواريه وضيع من الذهب ثمانين ألف ألف دينار ..."[٣]

ورغم أن الصولي مقرب من المقتدر وقد برر توليه أمر الخلافة في سنه ذاك إلا أنه يبين لنا أن هذه السبحة هي تلك التي أخذها المكتفي من ابن الجصاص كما ذكر التنوخي في روايته السابقة، ويبين أن خزانة الجوهر لم تعد ذات أهمية إذا كان الجوهر لا يحفظ فيها ويتم أخذه بسهولة وبيعه، وأظهر تفاجئ المقتدر وأمه من ذلك وأنهما اتهما (زيدان) بسرقتها.

وقد يكون المقتدر لا يعلم بأمر المسبحة بينما تعلم والدته، وقد يكونان كلاهما على علم، وعندما وضعهما الوزير بموقف حرجٍ حاولا إنكار معرفتهما بالأمر وإلصاقه بالقهرمانة، وقد لا يكونان على علم بذلك كما أخبرنا الصولي، إلا أن هذا يعني أن أموال الدولة أصبحت تخرج من خزائنه دون مراقب أو محاسب أو حريص على وضع الدولة، حتى إن حامد الذي عمل على مواجهة هذا الوضع تم التخلص منه مستغلين طريقته السيئة بالحديث إلى أم موسى الهاشمية عندما طالبته بما كان يقدمه ابن الفرات من أموال لها وللسيدة عن أمر المقتدر.

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٣٨٤.

٢) الصولي، ما لم ينشر من أوراق الصولي، ص١٥٥ هو الذي ذكر أنها كانت لابن الجصاص/ الثعالبي، ثمار القلوب المنسوب له،ص١٩٥، وص٦٣٠/ المسعودي، التنبيه والأشراف، ص٣٢٨/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٨٤.

٣) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج(٢)، ص٤٨٥.

ومثلما كانت الحاجة في عهد المتوكل إلى المصادرة بسبب عدم كفاية أموال الدولة لسد حاجات الأتراك في أغلب الأحيان، كان تدخل الخدم النساء والأتراك سبباً في هذه الفوضى وخروج الأموال من الخزائن بلا محاسب أو رقيب، لقد كانت أم المقتدر مبذرة جداً ومن ذلك ما قيل عن نعالها التي كانت تنتعلها ومدى الترف الذي كانت تتصف به.

كان للسيدة دور كبير في العديد من المواقف، حتى إن بعض من تولى العمل في ضياعها وأملاكها تنافروا بسبب ذلك، إذ كان بين القاسم عبد الله بن محمد بن مهروية، بن أبي علان الأهوازي الكاتب، وبين أبي جعفر بن قديدة عداوة وكان يؤذيه بعدما تقلد ضياع السيدة أم المقتدر فآذاه إيذاءاً شديداً، ففكر فلم يرد حسما لعداوته عنه، وأذيته في نفسه بضمان ضياع السيدة وتسلمها ومطالبته بالحساب...."[١]

وقال البيروني: "وكان لخالة المقتدر فص يلقب بورقة الآس لأنه كان على مقدارها ووزنه مثقال الأشعيرتان وشراؤه ستين ألف درهم وكان فيها البحر من ياقوت أحمر وزنه ثمانية وعشرون مثقالاً إلا أنه كان رقيقاً ومفرعا بحيث كان يمكن الشرب فيه."[٢]

ورغم هذه الفوضى الكبيرة التي أسهمت فيها السيدة أم المقتدر بقي النظام الإسلامي الثابت عائقاً أمام العديد من التجاوزات، لذا نجد أحد القضاة يرفض أن يخرق كتاب وقف ضيعة للسيدة أم المقتدر بعد أن قامت بإجراءات الوقف لأن ذلك يخالف الأحكام المعمول بها، وهي حيلة من أرباب الوقف على مال الله."[٣]

لقد قدمت شغب ما قدمه لها ابنها من أموال للجيش بهدف التصدي للقرمطي فقتل ابنها وليس عنده مال .. ولما تسلم القاهر الخلافة صادرها وضربت بيده مائة مقرعة فأخرجت في صناديق ما قيمته ذلك مائة وثلاثين ألف دينار وتوفيت في جمادى الآخرة سنة (٣٢١هـ/٩٣٣م)."[٤]

والثروة التي تمثلها هذه الروايات تكتمل صورتها إذا أضفنا لها المصادرات العديدة التي قام بها المقتدر خاصة لمن ظهر أنه يمتلك المال، أو تاجر صاحب أملاك، وصادر المقتدر ابن الفرات فأرسل ابن ثوابة ليصادر منه ثلاثة عشر ألف ألف دينار فلم يعطه فعاد من غد ومعه أم موسى القهرمانة وجدد المطالبة، وقال ابن ثوابة لأم موسى: إن ابن الفرات معه الكثير من

---

١) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(١)، ص٢١١ – ص٢٢٠.
٢) البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص٥٦.
٣) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(١)، ص٢٤٢ – ص٢٤٤.
٤) الصولي، ما لم ينشر من أوراق الصولي، ص٢٣/ابن الزبير، الذخائر، ص٢٣٨ – ص٢٣٩/ مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي، ص٩١.

الأموال، فتستأمرين السادة بإنزال المكروه به حتى يذعن بما أراد، فاستشارت السادة فحبس حتى تدخل بدر الحرمي، فتم إخراجه وعاد إلى وزارته الثالثة."[١]

وابن الفرات حبس وصودر أكثر من مرة قبل أن يتم قتله، وهو أيضاً ممن استغل منصبه في الدولة ونهب أموالها، واستعان بالنساء المقربات لأم الخليفة والخدم المقربين من الخليفة لإخراجه من السجن، وإعادته وزيراً، وهذه الرواية تبين أن السجن أصبح سهلاً على الخدم والمقربين من الخليفة وأمه يخرجون من شاءوا منه بأمر الخليفة، ولا أقصد أنهم سيطروا على الخليفة بالقوة، ولكن قد يسيطرون عليه بالمشورة، أو إدعاء المحبة والخوف على المصلحة.

وكان ابن الفرات يقدم الأموال أو الرشوة بهدف حماية نفسه، وأهدى في وزارته الثالثة في سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م) قبل القبض عليه إلى مؤنس المظفر حين قدم من مصر والمغرب وإلى بشري، وبليق، ونازك، وغيره من الغلمان، وقد حضر النيروز هدايا اشتملت على سبعمائة ألف درهم وقدر أن يستكفيهم بذلك عنه، فلم يقع الموقع الذي قدره."[٢]"وكانت في داره حجرة شراب يوجه الناس غلمانهم من المواضع البعيدة ليأخذوا لهم ما يريدون من الفقاع والثلج وغيرها. وكان رسم داره أن يصحب كل من يخرج منها عند غروب الشمس شمعتين، ولا يسترجعان من خدمه.... "[٣]

ومن هذه المصادرات أيضاً ستة آلاف ألف دينار صادره المقتدر من ابن الجصاص سوى ما قبض من داره."[٤]

فلما أخرج من الحبس بعد أن طلبت السيدة من المقتدر إخراجه إكراماً لها، أرسل للسيدة وقد ضاقت به الحال فطلب منها أن تعطيه أعدال خيش رآها في قصرها يوم أطلقته، وكانت هدية لابن الجصاص في كل عدل منها ألف دينار، لينتفع بثمنها إذا باعه فسلم إليه بأسره، فأخذ منها مائة ألف دينار ما ضاع منها شيء، وباع من الخيش ما أراد."[٥]"لقد كانت هذه الفوضى من كل الاتجاهات تصادر الأموال ولا تعرف قيمتها ثم ترد إلى من صودرت منه.

أما أم موسى الهاشمية* فعظم أمرها إلى أن غلبت على الملك والوزارة والأمر والنهي، وخرجت لها الإقطاعات العظيمة القدر، وملكت الضياع النفيسة والعقارات...فلما قبض عليها في

١) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٥)، ص٥٠ – ص٥٦.
٢) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص٦٠.
٣) الثعالبي، ثمار القلوب، ص٢١٢.
٤) التنوخي، نشوار المحاضرة ، ج(١)، ص٢٥.
٥) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٧)، ص٢٣٣ – ص٢٣٤/ التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١١٠ – ص١١١.
* واسمها سكينة بنت العباس بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس من ولد إبراهيم الإمام/ ابن الزبير، الذخائر، ص٢٣٩.

سنة (٣١٠هـ/٩٢٢م) وعلى أختها أم محمد، وجد لها ولأختها ولأخيها وذويها أموال جليلة وذخائر نفيسة، قيمتها تزيد عن ألف ألف دينار."[١]"

ويذكر أن المقتدر غضب على فاطمة النحوية القهرمانة* آخر سنة (٢٩٩هـ/٩١١م) فصادر أموالها فلجأت إلى ختنيها على ابنتيها وقيل أنها أوصلت لكل منهما مائة ألف دينار عيناً سوى الهدايا."[٢]" وقيل سخط المقتدر على أم موسى القهرمانة وقبض عليها وعلى أنسابها، فصح منها في بيت المال ألف ألف دينار واختلف في السبب، فقيل إن المقتدر اعتل فبعثت إلى بعض أهله ليقرر عليه ولاية الأمور فانكشف ذلك، وقيل بل زوجت بنت أخيها إلى محمد بن إسحاق بن المتوكل فسعى بها أعداؤها وثبتوا في نفس المقتدر والسيدة والدته أنها ما فعلت ذلك إلا لتنصب محمد بن إسحاق في الخلافة فتمت عليها النكبة."[٣]" "

إن أموال الدولة تقدم لهؤلاء بشكل كبير ثم تصادر بنكبة كبيرة، فهل نجحت هذه السياسة في إطالة عمر خلافة المقتدر؟ يبدو أنها كانت الحل الأفضل لطول مدة خلافته، إلا أن البعض كان يأخذ من أموال الدولة ما لا تستطيع الدولة استرداده، رغم أن الإهداء لبعضهم قد يكون بغير رضى الخليفة، "إذ حصل أبو القاسم يوسف بن يحيى بن علي على أموال كثيرة من السيدة والمقتدر خاصة القرية الفضية التي صنعها المقتدر في مناسبة تخصه بسبب داية تسمى" نظم" خدمت السيدة أم المقتدر، واختصت بها حتى صارت إحدى قهارمتها التي تجري على يديها الصغيرة والكبيرة، فقربته من المقتدر والسيدة."[٤]" وكان المقتدر قد أظهر تعجبه من طلبها القرية الفضية وقد أهداها لأبي القاسم وهو غير راض عن ذلك لأنه لا يجوز للخليفة إعارة شيء بل إهدائه.

ولم يكن المقتدر وحده صاحب إسراف، بل كان وجوه بغداد أكثر إسرافاً منه، فهذا خادمه (مفلح) "دعا المقتدر بالله إلى بستان في جمادى الآخرة سنة (٣١٢هـ/٩٢٢م) فسكر أنهاره ورصص بعضها وطرح فيها خمسة آلاف رطل ثلج، وعلق في أشجار البستان الحملان والدجاج وبسط الموائد بالفواكه والزهر وأنواع الطيب وآلات البلور ...ووسع على الحاشية وسائر الناس وكان يوما مشهوداً"."[٥]"

---

١) مجهول، العيون والحدائق، ج(٤) قسم(١)، ص١٥٢/ الرشيد بن الزبير، الذخائر،ص٢٣٩ – ص٢٤٠.

٢) الصولي، مالم ينشر من أوراق، ص٧٩.
٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص٣٦.
٤) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(٤)، ص١٤٥ - ص١٤٩.
٥) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص١٠٧- ص١٠٨.

اتسمت هذه المرحلة بعدة سمات اقتصادية أهمها:

١. **الترف في دار الخلافة وعند العامة:** وقد ظهر الترف في جميع الفترات في هذه المرحلة رغم تردي وضع الدولة الاقتصادي، إذ كانت النفقات موجهة نحو الكماليات وخاصة الانفاق على القصور والجواري وردع الفتن المختلفة داخل بغذاذ وخارجها وغيرها من مظاهر الانفاق. وتبع العامة خلفائهم في الاهتمام بالمظاهر، وكان ابن أحد التجار ويدعى ابن الدكيني ورث عن أبيه خمسمائة ألف دينار، وكان مسرفاً بها يريد أن يضاهي المقتدر في سرفه، وكان يسرف على المغنيات خمسة آلاف دينار وعلى فصاد عشيقته ثلاثة آلاف دينار ثم تاب وحج ومات في طريق عودته إلى بغداد."[١]"

وأخبرنا غير واحد: إن بجكم أمير الأمراء ببغداد، عشق جارية من القيان بها، يقال لها (فتوة) جارية الهاشمية، وكان يتكبر عن شرائها، ويرفع نفسه أن يبوح بمحبتها، ويحضرها، فيعطيها من الأموال الشيء الكثير."[٢]"

٢. تفريق أموال الخلفاء بسبب تعدد الورثة أو بسبب زواج بعض الجواري والنساء من العامة:

وكانت الأموال التي تحصل عليها نساء الخلفاء من الجواري تذهب إلى غيرهم إذا ما تزوجن رجلاً آخر، فمحمد بن جعفر بن أحمد بن جعفر الذي يعرف بزوج الحرة حصل على أموال كثيرة ورثها من بنت بدر مولى المعتضد بالله زوجة أمير المؤمنين المقتدر بالله."[٣]"

إن هذه الروايات تبين فوضى مالية كبيرة لم يعد مسيطراً عليها منذ خلافة المعتمد إلى نهاية هذه الفترة أي سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م)، وكان أصعبها فترة خلافة المقتدر التي كانت نموذجاً للإسراف الذي لا قيود عليه ولا رقابة تمنع حدوثه، وقد شارك الرقيق والجواري في هذه الفوضى مستغلين قربهم من الخلفاء العباسيين، وهذا القرب منحهم ميزة جعلتهم العناصر الأقوى في نظر الجميع وخاصة قادة الجيش ممن يسعون للسلطة والنفوذ لذا بدأ تعاون كبير بين قادة الجيش والرقيق والجواري ممن يعمل في دار الخلافة.

٣. حصول الخدم على أرزاق محدد من الدولة إضافة للمال الذي يحصلون عليه مقابل خدمات أخرى يؤدونها للذين يسعون لأخبار الخليفة.

وكان للأتراك في المطابخ الخاصة والعامة وما يقام خارج الدار، وعلوفة الكراع والطير والوحش على ما استقر عليه الأمر في أصول الإقامات والأسفار على المقاطعات مياومات

---

١) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(١)، ص١٨٤ – ص١٨٥.
٢) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج(١)، ص١٩٦.
٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج(٢)، ص٥٣٥ _ ص٥٣٦./ التنوخي، نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة، ج(٥)، ص١٠ – ص١٢/ ابن قيم الجوزية، ذم الهوى، ص٢٨٨ – ص٢٨٩/.

ومشاهرات لشهر: أربعه وأربعين ألفاً وسبعين ديناراً. ولاثني عشر شهراً (٥٠٠) ألف و(٢٨) ألف (٨٤٠) ديناراً ومن ذلك الجاري برسم المشاهرة للسيدة أيدها الله والأمراء أعزهم الله، والحرم صانهن الله، والخدم لشهر (٦١) ألفا، و(٩٣٠) دينارا، ولاثني عشر شهرا: (٧٠٠) ألف و(٤٣) ألفا و(١٩٦) دينارا."[١]"

ورغم ذلك فقد عمل بعض الخدم مقابل أجر معلوماً ولم يعتدوا على أموال الناس كما حدث لأموال الدولة، ومثال ذلك الخادم الخصي الذي جلس على دكة في الطريق يعمل بالطب وبين يديه أدوية."[٢]"

واستغل البعض الخدم كما حدث مع (نسيم) غلام رومي للبحتري، وكان جعله باباً من أبواب الحيل على الناس، فكان يبيعه ويصيره إلى ملك بعض أهل المروءات، ومن ينفق عنده الأدب، فإذا حصل في ملكه شبب به، وتشوقه ومدح مولاه حتى يهبه له، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم، فكفي الناس أمره."[٣]"

إلا أن بعض الخدم خاصة من يعمل منهم في دار الخلافة قام بالحصول على أموال تفوق ما حددته لهم الدولة لقبولهم الرشاوي المختلفة، واستغلالهم ارتباك أوضاع الدولة السياسية.

٤. **<u>وكان النهب سمة من سمات هذه المرحلة:</u>** فعندما تمت بيعة المستعين حدث احتجاج من قبل أصحاب المعتز بالقرب من السوق فتم نهب الأسواق وبعض مخازن السلاح...."[٤]"ولما هرب ابن النفيس إلى بلاد الروم حين خلع المقتدر بالله في سنة (٣١٧هـ/٩٢٩م) نُهبت داره. "[٥]"

"وعندما تولى ابن الفرات الوزارة للمرة الأولى أمر جماعة من القواد بطوف البلد ليلاً والإيقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضاً لنهب دار وأخذ مال، لأن أصاغر الجند والعوام قد كانوا قصدوا دار العباس بن الحسن ودوراً اتصلت بها ونهبوها"."[٦]"

لقد كانت المصادرات والنهب، والثروات التي تركز في أيدي الكثير من الخدم والجواري والقادة والمقربين من الخليفة - الذي كان مصدر تلك الأموال ولا يمتلك منها شيئا.

٥. **<u>شراء المناصب السياسية بشكل كبير:</u>** وكان من أهم سمات هذه المرحلة، فاشترى بعض التجار ممن يملكون المال منصب الوزارة، كما أصبح الخليفة يختار أيضاً من قبل الأتراك على

---

١) الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص٢٢.
٢) ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين،ص١١١ – ص١١٢.
٣) الأصفهاني، الأغاني، م(٢١)، ص٤٩.
٤) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥٨.
٥) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص١٧٨ .
٦) الصابئ، الوزراء، ص٢٨.

مقدار ثروته، فقد ضمنت "علم" القهرمانة لأحد أصدقاء توزون إخراج أموال جليلة من المستكفي إذا ما جاء خليفة، وجاءت برجل ضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار."[١]

لقد شكل المال هاجساً للدولة في هذه الفترة، فأصبحت المناصب الحساسة في الدولة يتولاها من يمتلك المال ويستطيع شراء المنصب، أو الذي يلوح بماله فيظهر فيغري الدولة به، "فاستوزر المقتدر بالله سنة (٣٠٦هـ/٩١٨م) حامد بن العباس وكان موسراً له أربعمائة مملوك يحملون السلاح لكل واحد منهم مماليك، وكان يحجبه ألف وسبعمائة حاجب...."[٢]

٦. **فرض ضرائب جديدة على الناس:** لقد تقلصت رقعة الدولة دون أن يحدث تقلص في مكانتها الإدارية، وارتفع مستوى المعيشة، والرقابة على العمال، وأحدثت ضرائب جديدة كالمكس والضريبة المفروضة على الميراث أو الضرائب المفروضة على البضائع المارة بالنهر أو بعض المناطق البرية، إضافة إلى الزيادة التي حصلت على الضرائب الأساسية وهي الخراج والأعشار."[٣]

لقد كان التساهل في إسراف الأموال وتفريقها سبباً في إفساد خلافة القاهر والمتقي والراضي والمستكفي، وقد بدأ ذلك في عهد الخليفة المتوكل واستمر إلا أنه أثر على دور الخليفة العباسي، في كافة المجالات، وخاصة المجال الاقتصادي، لذا ظن بعض الخلفاء أن سبب ما يحصل للدولة لم يكن إلا غضباً إلهياً بسبب فساد المغنيين والمغنيات وكثرة الجواري، ففي سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨م) أمر المهتدي بإخراج القيان والمغنين والمغنيات من سامرا ونفيهم منها إلى بغداد، بعد أمر تقدم من قبيحة في ذلك قبل أن ينزل بابنها ما نزل، وأمر بقتل السباع التي في دار السلطان وطرد الكلاب، وإبطال الملاهي، ورد المظالم ...."[٤]

لقد كان بذخ الخليفة المتوكل وأسرته، ثم ما حدث من فتن جعل الخزينة خالية في عهد المنتصر والمستعين والمهتدي، وبدأ عهد انتعاش بعد انتهاء خطر الزنج في عهد المعتضد، إلا أن ذلك الانتعاش انتهى في عهد المقتدر، وبقي يسوء إلى نهاية سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م)، حيث وردت روايات تخبرنا عن مجاعات في بعض مناطق العراق "ففي سنة (٣٣٣هـ/٩٤٤م)

---

١) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص١٦٦ – ص١٦٧.
٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨، ص٤٩ – ص٥٠.
٣) الدوري، النظم الاسلامية، ج(١)، ص١٨٣ - ص١٨٥.
٤) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٤٠٦.

اشتدت المجاعة في بغداد"."[١]" لذا رأى البعض أن الإدارة في العصر العباسي الثاني واجهت أزمة مالية بسبب تشكيل الفرق التركية والحروب المستمرة ونقل العاصمة لسامراء "[٢]"

وهذا الرأي صحيح لأن الفرق التركية كانت عبئاً على الدولة أكثر من كونها مساعداً لها للخروج من أزماتها السياسية العديدة، كما أن الأموال التي كانت تحصل عليها نساء الخلفاء، أو التي تنفق في دور القيان ليست كبيرة لتكون مؤثرة في تراجع دولة كبيرة، لقد وجدت الجواري وكذلك الخدم فرصة لنهب أموال الدولة مع من يقوموا بالنهب، لأن النظام والأمن أصبح شبه معدوم، فمن يملك المال يشتري المنصب السياسي أو يشتري حياته أو يغتني ويترك بغداد للجند التركي ويبحث عن حياة في مكان أكثر أمناً منها، لقد كان كيان الدولة العباسية قائماً على هيكلها الإقتصادي الذي ضعف بسبب تلك العوامل فأعاق تقدمها وقوتها فكان ذلك السبب الرئيسي للآثار السياسية التي كانت ظاهرة في تاريخ الدولة العباسية.

- **<u>الآثار السياسية:</u>**

ساء وضع الدولة السياسي في العصر العباسي الثاني، واخترقت أجهزة الدولة في بغداد لا بفعل عدو بل بفعل سكانها، وظروفها المختلفة ولأن هذه الرسالة تتطرق إلى دور الرقيق والجواري بشكل أساسي في بغداد وفي الحياة السياسية، فإن الحديث عن دور غيرهم غير وارد، ولكن لا يعنى ذلك أنهم وحدهم من يتحمل مسؤولية تراجع الدولة العباسية، وأيضاً لا يمكن تحميل المناطق المحيطة ببغداد أو الثورات التي حدثت في مناطق عدة رغم أنها كانت خطيرة هذه المسؤولية، فهناك أسباب عديدة التقت وسببت هذا التراجع في قوة الدولة.

لقد واجه المسلمون عبر تاريخهم الطويل ثورات كادت تودي بكياناتهم السياسية المختلفة، فحروب الردة التي واجهها أبو بكر الصديق كانت منعطفاً خطيراً لو لم يواجهه الصديق بالقوة لكانت أفسدت ما أسس له الرسول صلى الله عليه وسلم من دولة قوية في المدينة وعطلت نشر الدين الإسلامي، وكان تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة سنة (٤٠هـ) لمعاوية سبباً في تجاوز مرحلة خطيرة من تاريخ الأمة، وفي توجيهها مرة أخرى نحو هدفها الأساسي، وهو الدعوة للإسلام والجهاد، وكان تحرك عبد الملك بن مروان ضد عبد الله بن الزبير سبباً في توحيد الأمة كذلك، وكانت كل هذه الأزمات قائمة على رفض وجود

---

١)اليافعي، مرآة الجنان، ج(٢)، ص٢٢٣/ الزهراني، النفقات وإدارتها في الدولة العباسية، ص٦٩، ص٧١، ص٧٣، ص٧٧، ص٧٩.

٢) الزهراني، النفقات وإدارتها في الدولة العباسية، ٣ص١٥٢.

خليفتين للمسلمين في وقت واحد، وقائمة على حق شرعي يتمثل بانتخاب الخليفة والبيعة له في العهد الراشدي.

اتهم الأمويون بتغيير طريقة البيعة فشبه معاوية بقياصرة الروم وبدأ عهد الوراثة في الحكم، وكان تولي الوليد بن عبد الملك الذي كانت أمه غير عربية خروجاً على التقليد الذي يقوم على عدم اختيار خليفة للحكم تكون أمه غير عربية. أما في العهد العباسي فكانت الدعوة السرية أسلوباً جديداً في أسلوب الثورة، ومثلت خطراً على كيان الدولة الأموية طوال حكم هشام بن عبد الملك وأنهت الحكم الأموي في دمشق، وخلال كل هذه الأحداث تظهر قوى وأخرى تنتهي، وأفكار تتطور، وأفكار دخيلة بعضها خطير وبعضها الآخر مر دون أن يؤثر على كيان الأمة.

وبدأ العباسيون حكماً قوياً في بغداد في عهد المنصور، وبقيت الدولة قوية رغم ما واجهه العباسيون من الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون، والتي أثرت على وحدة البيت العباسي الذي انقسم حولهما وبقي أثر الفتنة عاملاً من عوامل ضعف الخليفة العباسي الذي كان يستند إلى أسرته قبل أن يستند إلى جيشه في مواجهة الأخطار، ويرى البعض أن التباعد بين الأسرة العباسية بدأ "في عهد المنصور بسبب أزمة اختيار ولي العهد، وظلت الأسرة العباسية تبدو متماسكة في الظاهر على الأقل."[1]

كان استناد الخلفاء للجيش لحل مشاكلهم باباً من أبواب الخطر، الأمر الذي يعطي الجيش قيمة سياسية أهم من قيمته العسكرية، فبعد أن يستخدمهم الخليفة للدفاع عنه، يستخدمون إنجازهم للضغط عليه، لذا كان استبدال الخلفاء للعناصر المقربة منهم خاصة تلك التي في الجيش سبباً لبقائهم، ولكن لم تمض مدة طويلة حتى تبين للخلفاء سوء هذه السياسة ولكن بعد فوات الأوان إذ أصبح الخليفة مقيداً ومحاطاً بمجموعات من العبيد تكتلت مع بعضها البعض يقرر خليفتهم ما يقررون، وقد يجد البعض أن ذلك أمراً مبالغاً فيه، إلا أن الروايات التي تحدثت عن هذه الفترة لم تخف هذا الوضع ومنها، أنه "لما جلس المعتز على سرير الخلافة أحضر خَواصه المنجمين، وقالوا لهم: انظروا كم يعيش؟ وكم يبقى في الخلافة؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء، فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا له: فكم تقول إنه يعيش، وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك."[2]

وما القول الذي وجهه ابن أبي داؤد إلى ايتاخ إلا دليلاً على هذه الفترة، إذ قال لرسول إيتاخ:" اقرأ عليه السلام، وقل له ما أتيتك متكثراً بك من قلة، ولا متعززاً بك من ذلة ...، ولكنك

١) صالح العلي، بغداد مدينة السلام، ص٣٥.
٢) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية ، ص٢١٩.

رجل ساعدك زمان، وحركك سلطان، ولا علم يؤلف ولا أصل يعرف، فإن جئتك فبسلطانك، وإن تركتك فلنفسك."[١]

كما بدأت تظهر مفاهيم جديد لدى رجالات الدولة، إذ قال المحسن بن علي بن محمد بن الفرات، قال لي أبي: يا بني إن خدمت هؤلاء الخلفاء، فلا تترك حالاً تقدر عليها في إزعاجهم وإرهابهم إلا اجتلبتها وأوردت خبرها عليهم، حتى يكون قلب من تخدمه أبداً مشغولاً غير مفكر فيك، فإنه إذا فرغ قلبه مما يتخوفه عاد بالمكروه عليك، وانصرف به إليك ولم يفكر إلا فيك."[٢] وقال القاسم بن عبيد الله في المعتضد:" إن من عادة الخلفاء إذا فرغوا من أعدائهم وانتظم أمر ملكهم انشغل فكرهم في أقرب الناس منهم وحاولوا الإيقاع بهم، وهم الوزراء، وحق الوزير أبدا أن يشغل قلب سلطانه بالشيء بعد الشيء يلقيه إليه، مما يحذر ويخشى سوء عاقبته."[٣]

لقد كان هذا وضع الدولة كما بينه رجالها، ولكن لماذا أضع الرقيق والجواري كعناصر أثرت على الحياة السياسية في بغداد؟ الجواب لأنهم جزء من خاصة الخليفة، وخاصة الخليفة على طبقات وهم كما بين الماوردي:

"ولده وخدمه من قرابته وحاميته من الأهل والولد، ثم عبيده ومماليكه، وخاصة فتيانه وغلمانه، ثم وزراؤه وكتابه...".[٤]".

ويسأل التوحيدي:" ما بال خاصة الملك، والدانين منه، والمقربين إليه، لا يجري ذكر الملك على ألسنتهم مثل ما يجري على ألسنة الأباعد منه مثل البوابين والشاكرية والساسة، فإنك تجد هؤلاء على غاية التشيع بذكره، ونهاية الدعوى في الإشارة إليه، والتكذّب عليه، فيرد مسكويه عليه بقوله: "إن المقربين هم من المؤدبين المستصلحين لخدمته ومن جملة الآداب التي أخذوا بها ترك ذكر الملك، لأن ذكره لهم انتهاك لهيبته، أما أولئك الطبقة فلسوء آدابهم لا يأبهون ولا يميزون لما ذكرته، فهم يجرون على طباع العامة اللائقة بهم في الافتخار بما لا أصل له، وادعاء ما لا حقيقة له، لظنهم أنهم ينالون بذلك كرامة ومحلا عند أمثالهم."[٥]

ويعد العبيد والمماليك أقرب الناس إلى الخليفة بعد ولده وأهله، فهم أقرب إلى أحاديثه وأخباره، وفي هذه الفترة كان لهم دور كبير لكثرتهم في بغداد وغيرها من عواصم العالم الإسلامي، خاصة من الناحية السياسية وكان اختيار الخليفة يتم وفق تقليد معين في العصر العباسي، إذ انتخب أبو العباس من قبل أسرته ومن رجال الدعوة، ثم انتخب ولاة عهد اثنين،

---

١) القيرواني،زهر الآداب وثمر الألباب، م(٢)، ص٦٦.
٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، م(١)، ص٤٤٤.
٣) ابن حمدون ، التذكرة، م(١)، ص٤٤٣ – ص٤٤٤.
٤) الماوردي، نصيحة الملوك، ص٢٩٧.
٥) (مسكويه، التوحيدي)، الهوامل والشوامل، ص٣٠٣ - ص٣٠٤.

فجاء المنصور ولي العهد الأول كخليفة بعد موته، وبقي اختيار ولاة العهد إلى حين تولى الواثق الخلافة، فكان موت الواثق وعدم اختياره ولي عهد بعده ثغرة خطيرة في نظام الخلافة في التاريخ العباسي، ولأول مرة يقوم قادة ووزراء باختيار الخليفة في العصر العباسي.

ويرى البعض أن حكم المتوكل كان مختلفاً عن غيره من الخلفاء العباسين، فسمى البعض عصر تولي المتوكل الخلافة عصر اضطهاد الخليفة للترك"[1]"، وقيل اضطهد المتوكل أقوى خليفة عباسي في العصر العباسي الثاني الأتراك؛ لذا قاموا بتخريب الدولة"[2]".

ورأى البعض أن حكمه كان نحساً على الدولة، لأنه خرج على سياسة سلفه الدينية فاضطهد المعتزلة، والشيعة والترك واليهود والمسيحيين، فآثار على نفسه كل الأحزاب الدينية... وقسم الخلافة بين أولاده، وكان التقسيم نحساً أثار الفتن وأضعف الدولة، وألزم الرجوع للجند لإقرار النظام ...."[3]"

<u>دور الخدم في خلافة المتوكل:</u>

وقد تدخل الرقيق والجواري من الخدم في البيعة للمتوكل، وكان ذلك بصورة خفية بينما كان دور الجند التركي كبيراً في ذلك الاختيار، قال الطبري: "أن الواثق لما توفي حضر الدار أحمد بن أبي داؤد وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرج وابن الزيات وأحمد بن خالد أبو الوزير، فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد.. فقال وصيف: أما تتقون الله! تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة،..فتناظروا فيمن يولونه، فذكر عن بعض من حضر الدار مع هؤلاء، أنه قال: خرجت من الموضع الذي كنت فيه، فمررت بجعفر المتوكل، فإذا هو في قميص وسروال قاعد مع أبناء الأتراك، فقال لي: ما الخبر؟ فقلت: لم ينقطع أمرهم، ثم دعوا به، فأخبره بغا الشرابي الخبر وجاء به، فقال: أخاف أن يكون الواثق لم يمت، قال: فمر به، فنظر إليه مسجى، فجاء فجلس، فألبسه أحمد بن أبي داؤد الطويلة وعمه وقبله بين عينيه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، ثم غسل الواثق وصلى عليه ودفن، ثم صاروا من فورهم إلى دار العامة. ...."[4]"

وقيل بايعه سيما التركي المعروف بالدمشقي، ووصيف التركي، وركب إلى دار العامة وأمر بإعطاء الجند لثمانية أشهر، وسلم عليه أولاد سبعة خلفاء مجتمعين بالخلافة، لذا كان على المتوكل أن يشعر بفضله وبفضل هذه المجموعة عليه فبدأ بمكافأتهم، وتوزيع أرزاقهم بزيادة لم

---

١) زكريا كاتبجي، الترك في مؤلفات الجاحظ، ص١٥١.
٢) نادية صقر، مطلع العصر العباسي الثاني، ص٦١.
٣) فازيليف، العرب والروم، ص٢١٤/ صادق جودة، الرحلة المتوكلية إلى دمشق، ص٥ - ص٦/ نادية حسني صقر، مطلع العصر العباسي الثاني، ص١٦٩ - ص١٧٠.
٤) الطبري، تاريخ، ج(٩)ص١٥٤.ـ ابن الكازروني، مختصر التاريخ،ص١٤٥.

ترضي المغاربة الذين أرادوا أن تكون أرزاقهم كأرزاق الأتراك فأغضبوا المتوكل، الذي قبل شفاعة وصيف فيهم، كما أن مبايعة أبناء الخلفاء السبعة تمت بعد أن وقع عليه الاختيار ودون العودة إلى رأيهم."[١]

لقد كان ممن حضر هذه البيعة ثلاثة قادة من الترك وهم إيتاخ ووصيف، وبغا الشرابي رسولهم إلى المتوكل الجالس بين الأتراك، ورغم أن لا حديث صادر عن أحدهم في هذه الرواية سوى حديث وصيف فإنه الحديث المهم الذي جعل المتوكل خليفة وأما ابن أبي داؤد هو الذي سلم عليه بالخلافة.

وتصف الرواية جلوس المتوكل بين الأتراك وكأنه معتاد على ذلك، وتبين أنه ينتظر خبراً ما، ثم يتطرق الراوي إلى قول المتوكل حول موت الواثق بأنه يخاف أن يكون لم يمت بعد، وأن (من حضر الدار) ولم يحدد من هو أو من هم الذين أوصلوا تلك المعلومات للطبري، وقد يكون منهم بعض الخدم ممن يعمل في دار الخلافة. كما أن مسألة اختيار وصيف للمتوكل كخليفة تمثل تدخلاً خطيراً، وأقول اختيار وصيف رغم وجود خمسة أشخاص لأنه هو من اقترح الاسم وأثر عليهم بقصد أو دون قصد، لذا بقي المتوكل يشعر بفضل هذه المجموعة عليه طوال فترة خلافته، ويؤكد حتامله على شعور المتوكل بهذا الفضل خاصة لإيتاخ ووصيف"[٢] وتبين هذه الروايات أن دور الخدم من رقيق وجواري يعملون في القصر كان خفياً غير ظاهر يشار إليه ولا يصرح به لأن أي تدخل في سياسة الدولة يعتبر مأخذاً عليها.

<u>دور الخدم في قتل المتوكل:</u> وكانت خلافة المتوكل التي استمرت من (٢٣٢هـ/٨٤٦م - ٢٤٨هـ/٨٦٢م) فترة حافظت على الصورة القوية للدولة العباسية، لأن ما كان يدور داخل دار الخلافة لم يكن ظاهراً للناس، وكانت مظاهر الترف في عهده لا توحي بأي مشاكل سياسية داخلية، لذا كان مقتل المتوكل مفاجئاً للناس وللمحيطين بالخليفة، ولا أعني أنه لم يقتل خليفة قبل ذلك، إلا أن قتل الأمين كان بعد حرب واضحة الأسباب، أما مقتل المتوكل فلم يسبقه حرب أو حتى أزمات سياسية داخل الدولة، وكانت الروايات التي وضعت حول سبب قتله كثيرة، وانتشر بين العامة ورجالات الدولة أن الذي قتله ابنه المنتصر، وهو أمر طبيعي لأن الذي يقطف الثمار ويصبح خليفة يتهم بالقتل لدى العامة؛ لذا تَتبعتُ هذه الروايات، وأهمها ما أورده الطبري الذي يورد عدد من الروايات تصلنا عن طريق عدد من الأشخاص منهم: ابن الحفصي المغني وكان حاضراً المجلس الذي قتل فيه المتوكل، ورواية أخرى عن (عثعث)، وهارون بن محمد بن

١) اليعقوبي،تاريخ، ج(٣)، ص٢١٧.
٢) حتامله، المعتمد في خلافة المعتضد بالله العباسي،ص٣١.

سليمان الهاشمي ذكر رواية عن امرأة خاف الستار في مجلس المتوكل، ورواية عن أبي عثمان سعيد الصغير، ورواية عن طريق جارية من جواري الخليفة المتوكل نقلها ابن عرفة.

وهذه الروايات تقدم لنا عدداً من الأسباب منها:

أولاً: التشيع: وتنسب بعض الروايات ذات الميول الشيعية أن سبب قتل المتوكل هو الخلاف حول موقف كل من المنتصر والمتوكل من العلويين، فالمتوكل الذي هدم قبر الحسين ليس كالمنتصر الذي عارض هذا الأمر، "وأحسن إلى العلويين. "وأشير إلى إحسانه للعلويين وأن سبب قتله لأبيه هو عدم الإحسان لهم."[١] وذكر أن المنتصر شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء وأشار عليه بقتله بعد أن أعلمهم بمذاهبه. "[٢]"

ثانياً: موته بسبب أنه شرق بكأس كان يشرب به، فقال سعيد الصغير للمعتز: أن أمير المؤمنين قد شرق بقدح شربه بعد انصرافنا ومات."[٣]"

ثالثاً: قتله وصيف والأتراك، ويذكر الطبري: أن الخليفة المتوكل كان أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصبهان والجبل وإقطاعها إلى الفتح بن خاقان، وصارت تلك الكتب إلى الخاتم على أن تنفذ في يوم الخميس لخمس خلون من شعبان، فبلغ ذلك وصيفاً، واستقر عنده الذي أمر به في أمره... ."[٤]" فكان ذلك سبباً لتآمر وصيف مع الأتراك لقتله.

ويشير المسعودي إلى أن الجند في دمشق شغبوا عليه مطالبين بأرزاقهم، وكان ذلك سبب عودته إلى بغداد، وقد كان الأتراك رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق، وقد دبر الأتراك على إبعاد بغا عن المتوكل برسائل تنصح المتوكل من أن بغا يسعى لقتله، واستوحش المتوكل من بغا فتآمر مع باغر على قتله."[٥]"

رابعاً: قتله الفتح بن خاقان، يقول الطبري: "بايع للمنتصر قتلة أبيه فلما أصبح يوم الأربعاء حضر القواد، والكتاب، والجند، والوجوه الجعفرية فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب يخبر فيه عن المنتصر أن الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتله به، فبايع الناس"."[٦]" وهذه الرواية هي

---

١) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص١٤٩ / الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٢٧ - ص٢٢٨ ابن خلدون، المقدمة، ج(٣)، ص٢٨٠.
٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥١ -ص٢٥٢/ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣١٤/ المسعودي، مروج الذهب، ج(٤)،ص١٤٦/السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٦ - ص ٣٥٨/ الذهبي، دول الإسلام، ج(١)، ص١٠٨ -ص١٠٩/نظمي مرتضى، كلشن خلفا (روضة الخلفاء)، ص٦٠.
٣) ابن حميد، الرسائل،ص٧٤ / الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٣٤/وص٢٣٧.
٤) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٢٢ - ص٢٢٣/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٨.
٥) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج(٤)، ص١٢٧-١٢٩.
٦) الطبري، تاريخ ج(٩)، ص٢٣٤/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٦.

الرواية الرسمية للدولة وقد بينت بعض الروايات "أن الفتح قام وألقى بنفسه فوق الخليفة بهدف حمايته فقتل معه"."[١]"

خامساً: قتله المنتصر بمعاونة الأتراك: يقال إن المنتصر هو الذي دس على قتل أبيه."[٢]" وقتل المتوكل ولده محمد بسر من رأى وعاش بعده ستة أشهر ...."[٣]" وأن له أسباباً عديدة للقيام بذلك، وأسبابه تبدأ بمقدمات وهذه المقدمات هي:

- أنه كان بين المنتصر والمتوكل جفاء استغلها الأتراك لنقل أخبار بينهم تفيد بأن الفتح بن خاقان يسعى لقتل المنتصر."[٤]" ونجد أن ابن الحفصي المغني يذكر " أن المتوكل عزم هو والفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من القواد الأتراك، وكان المتوكل يشتم المنتصر، ومرة يسقيه فوق طاقته، ومرة يتهدده بالقتل."[٥]"فانتهز المنتصر ذات ليلة حين أنفرد أبوه فهجم بالغلمان الأتراك عليه فقتله وقتل معه الفتح بن خاقان."[٦]"

لقد جفا المتوكل المنتصر لسبب غير معروف، إلا أن هذا الجفاء كان سبباً في التدخل بينهما من قبل الآخرين ونقل أخبار على لسان كل منهما ضد الآخر قد لا يكونان صرحا به فاغروه بالمنتصر ودبروا قتله، إذ كان هناك من نقل لكل من المنتصر والمتوكل أن الآخر يريد قتله مستغلاً الجفاء بينهما، إلا أن ذلك لم يكن سبباً لقيام المنتصر بقتل أبيه، ودليل ذلك أنه حضر المجلس الذي أقامه والده.

- تقديم المعتز على المنتصر في الصلاة، وتقديم المعتز على المنتصر في ولاية العهد:

وتقدم الروايات للمنتصر وتعطيه سبباً تبرر فيه قتله المتوكل، وقد لا يكون هذا السبب واضحاً قبل أن يقتل المتوكل، وأنه استخدم كدافع بعد قتل الخليفة المتوكل، لذا نجد سعيد الصغير يقول للمعتز عندما بلغه خبر موت والده أن يذهب لبيعة الخليفة المنتصر " ليستدعي بذلك قلب أخيه وأن لا يؤجل ذلك لوقت آخر"[٧]"وقد أجبر المعتز والمؤيد من قبل الأتراك على التنازل عن ولاية العهد ونصبوا ابن المنتصر عبد الوهاب بدلا عنهما"."[٨]"

---

١) خواندمير، دستور الوزراء، ١٩٨٠م،ص١٨٥.
٢) ابن حزم، جامع السير، ص٣٧٢.
٣) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٧٨ -ص٧٩/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٣.
٤) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)،ص٢٢٥.
٥) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)،ص٢٣٣/ الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٢٤- ص٢٢٥..
٦) ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس، ص١٤٧.
٧) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٩٣/ ابن حميد، الرسائل، ص٧٤/ الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٣٤، وص٢٣٧.
٨) القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج(١)، ص٢٣٨.،نظمي مرتضى، كلشن خلفا، ص٦٠ .

بينما نجد البعض يشير إلى طلب المتوكل من المنتصر إمامة الناس بالصلاة في آخر جمعة من رمضان، وبعد أن يهم بالذهاب للمسجد، يتراجع عن ذلك ويقدم المعتز الذي يصلي بهم بدل المنتصر."[١]"

- رغبة المنتصر أن يصبح خليفة بدل والده فعجل بقتله يقول ابن الحفصي: أن المتوكل قال لمن كان حاضراً مجلسه: اشهدوا جميعاً أني خلعت المستعجل، ثم التفت إليه، فقال: سميتك المنتصر، فسماك الناس لحمقك المنتظر، ثم صرت الآن المستعجل، فقال المنتصر: لو أمرت بضرب عنقي لكان أسهل علي مما تفعله بي، فقال المتوكل: اسقوه، ثم أمر بالعشاء فأحضر ذلك في جوف الليل.... "[٢]"

إن هذه الرواية لا تبين إذا ما كان المتوكل يوجه هذا القول إلى المنتصر بصورة جادة، أو بفعل حديث دار بالمجلس، أو أنها كانت لرغبة الخليفة المتوكل في مفاكهة المنتصر، كما لا تبين ما ذكرته إحدى الجواري من أمر المتوكل للفتح بن خاقان بضرب المنتصر. إذ يذكر هارون بن محمد بن سليمان الهاشمي أنه قال: حدثني من كان في الستار من النساء: أن المتوكل التفت إلى الفتح فقال له: برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم تلطمه (يعني المنتصر) فقام الفتح ولطمه مرتين، وانه لما حدث ماحدث خرج مع زرافة أحد قادته من المجلس وجعل يتحدث معه عن زواج ولديه، وأنه متى كان اليوم التالي سوف يمنحه أموالاً للنثار في هذه المناسبة."[٣]"

وتبين هذه الرواية المبالغ فيها في كيفية تعامل المتوكل مع المنتصر أمام ندمائه وخدمه ومغنيه، وأمره للفتح بضرب ابنه وهو مجرد رجل مقرب للخليفة وليس بأقرب من ابنه إليه، ثم خروج المنتصر من المجلس وهو غير منزعج لما حدث بالمجلس، ويتكلم عن حفل زواج، لا توحي بأن هناك استعداداً من قبل المنتصر لقتل والده، إلا إذا كانت التي نقلت الرواية من الجواري من أن المتوكل لم يأمر بالإنصراف أن انصراف المنتصر دون إذن كان بسبب غضبه، ووعده بالنثار أي الأموال في اليوم التالي كهدية للعرس أنه سيكون بيده الأموال عندما يصبح خليفة، وهذا كلام دس في حوار لا علاقة له بموضوع الرواية أو فسر بطريقة تناسب صورة المنتصر الذي خطط للقتل.

---

١) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٢٢ - ص٢٢٣/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٩.
٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٢٥ - ص٢٢٧/ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج(٥) ص٥٦٤ - ص٥٦٦.
٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٢٥.

وهذه الدوافع، تدفعني إلى القول أن الذي يخطط للقتل لا يقدم أدلة واضحة تدينه، وإنما من يخطط للقتل هو أيضاً من يخطط لوجود قاتل قام بالقتل ويرتب له مبررات تسلط الأعين عليه.

لقد ساهم الخدم في قتل المتوكل ويؤكد ذلك ما حدث بالمجلس الذي أقامه المتوكل ليلة مقتله "وذكر عن عثعث أن الخليفة المتوكل دعا بالمائدة بعد خروج المنتصر، وكان بغا الصغير المعروف بالشرابي قائما عند الستر، وكانت نوبة بغا الكبير في الدار وكان خليفته في الدار ابنه موسى ودخل بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف، فكره الفتح انصرافهم لأن المتوكل لم يأمر بذلك، فقال له بغا: إن حرم أمير المؤمنين خلف الستارة، فقوموا فاخرجوا، فخرجوا جميعاً، ولم يبق إلا الفتح وعثعث وأربعة من خدم الخاصة منهم شفيع وفرج الصغير، ومؤنس وأبو عيسى مارد المحرزي، ووضع الطباخ المائدة"....[١]"

إن هذه الرواية تبين أن المنتصر خرج من المجلس، وتبين مواقع الجند من الأتراك في القصر، وتبين أن بغا الصغير أمر من بالمجلس بالخروج حتى لا يكونوا شهوداً على ما سيحدث وبقي في المجلس الجواري خلف الستار والمغنون والخدم، الذين نقلوا أخبار قتل المتوكل وهم: الحفصي المغني، وعثعث، وسعيد الصغير ممن كان داخل دار الخلافة تلك الليلة، وممن اطلع على الأحداث أما هارون بن محمد بن سليمان الهاشمي، فقد نقل صورة ما حدث عن امرأة من الجواري خلف الستار، ورواية عن طريق جارية من جواري المتوكل نقلها ابن عرفة، فإذا لم نقل إن الخدم والمغنيين كانوا متفقين مع الجند، فإنهم خافوا سطوتهم فنقلوا الصورة كما أرادها الجند، ومع هذا كشفت الروايات المتناقضة عن دور الجند والخدم لأنهم اتفقوا على القتل ولم يتفقوا على القول.

فرواية ابن الحفصي تخبرنا أن المتوكل كان في مجلسٍ عادي حضره المغنون والندماء والمنتصر، إلا أنه يدخل قبيحة في موضوع روايته ويتكلم عن هدية شقها المتوكل لأنه لا يظن أنه سيلبسها، ولا يريد لأحد أن يلبسها بعده، وهي مسألة تبين أن الخليفة المتوكل كان يستشعر خطراً ما، إلا أنها جزء من أسلوب قصصي، فهو يشعر بالخطر قبل أن يداهمه، وهذا الأسلوب يختلط بالكثير من الروايات العربية. "[٢]"

---

١) الطبري، تاريخ، ج(٩)،ص٢٢٦.
٢) الطبري، ن.م. ص٢٢٢ - ص٢٢٣/ المسعودي، مروج الذهب، ج(٤)، ص١٣٢/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٩.

وقد منحت قبيحة دوراً أكبر من الدور الذي قامت به فعلاً في كل تلك الأحداث، وقال البعض إن (قبيحة) استأثرت بحب المتوكل، حتى أصبحت سيدة البلاط الأولى وكان لها هدفان أن تكون الخلافة لابنها، وحصولها على أموال الدولة بقدر الإمكان."[١]"

وقد حكى إبراهيم بن عرفة أن جارية من جواري المتوكل، قالت:أنه كان في مجلس يقرأ القرآن فدخل إليه الجند فقتلوه، وكان قبل ذلك قد استمع إلى غناء أحد المغنين وقد تشاءم منه وهو قوله:

يا عاذلـي فـي المـلام دعاني   أن البليـ ـة فوق ما تصفـان
زعمـ ـت بثينة أن رحلتنا غدا   لا مرحبـا بغـد فقد أبكانـي

فتطير المتوكل من هذا وقال: ويحك كيف وقع لك أن تغني بمثل هذا؟ ...."[٢]"

وتبين الرواية أنه لم يكن بمجلس شرب بل كان يقرأ القرآن ثم جاءه الأتراك بقيادة باغر غلام المنتصر وقتلوه، وكان قبل ذلك جاء بمغني فغنى أبيات الشعر التي تطير منها، وكأن المغني ينقل هواجس المتوكل ومخاوفه وهو أمر واضح في الرواية، إلا أن بعض المغنيين أو المغنيات قد يكون على علم بما يخطط له حول الخليفة أكثر من الخليفة نفسه، لذا نجد عثعث يقول:" أن امرأة من نساء الأتراك ألقت رقعة تخبر ما عزم عليه القوم فوصلت الرقعة إلى عبيد الله، فشاور الفتح فيها وكذلك وقع إلى نوح عيسى بن إبراهيم كاتب الفتح بن خاقان، فقرروا كتمانها عن المتوكل لما رأوا من سروره، فبينما كان عبيد الله جالس في عمله ينفذ الأمور .. إذ طلع عليه بعض الخدم، فقال: يا سيدي ما يجلسك هنا؟ قال وما ذاك؟ قال: الدار سيف واحد"."[٣]"

وذكر سعيد الصغير: أن الأخبار تتابعت عن خبر قتل المتوكل وأن القادة الترك أحاطوا بالمنتصر بهدف حمايته وأرسلوا إلى أخويه المؤيد والمعتز من أجل مبايعة المنتصر، وأمر ابن حميد بكتابة كتاب البيعة."[٤]" لقد نقل الخدم الأخبار وتبادلوها فضاعت الحقيقة في ظل هذه الفوضى، لقد قام الجند ورجال الدولة بالاستعجال في البيعة للمنتصر حتى أن سعيد استعجل المعتز الذي أراد تأجيل ذلك، وهذه العجلة لا تدل على رغبتهم في تجنب فتنة بل الرغبة في عدم إطالة الحديث حول مسألة قتل المتوكل والخلافة.

---

١) يوسف شعبان، ولاية العهد في الدولة العباسية رسالة جامعية_ الجامعة الأردنية، إشراف محمد خريسات، ١٩٩٥م،ص٢٨٣.
٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص٨ – ص١٠.
٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٢٨ - ص٢٢٩.
٤) ابن حميد، الرسائل،ص٧٤ - ص٧٥/ الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٣٤ - ص٢٣٧/ محمد حمادة، الوثائق السياسية،ص٨٣.

إن المنتصر لم يقتل والده ولا الفتح بن خاقان، ولا الكأس الذي شرب به، ولم يبق إلا وصيف، ووصيف هو الذي سعى للبيعة للمتوكل وهو الذي تحرك في الإصلاح بين الخليفة المتوكل والجند حول الأرزاق، وهو الذي عمل على التحريض على القادة المقربين من الخليفة المتوكل بالمصادرة والقتل، وسعى إلى التخلص من الفتح بن خاقان لقربه من المتوكل فلم ينجح، وهو الوحيد الذي بقي دون أن يتعرض للأذى، وعندما رغب الخليفة المتوكل بتأديبه ومصادرته، خطط لقتله، وكان حريصاً على أن يكون اسمه بعيداً عن ما تتناقله الأخبار، إلا أن الطبري الذي حصل على معلومة تفيد بسعي المتوكل لمصادرته بين لنا جزءاً كبيراً من صورة الأحداث.

أعلن خبر موت الخليفة المتوكل بالكتاب الذي بين أن الفتح بن خاقان هو الذي قتله سنة (٢٤٨هـ/٨٥٩م)، وبايع الناس ورجال الدولة للمنتصر، وجد وصيف وبغا وباقي الأتراك في خلع المعتز والمؤيد وبايعوا ابنه عبد الوهاب وقد قال المنتصر لأخويه:" أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له، والله ما طمعت في ذلك ساعة قط، لكن هؤلاء وأشار إلى سائر الموالي والأتراك ممن هو قائم وقاعد ألحوا علي في خلعكما."[١]

لقد اتخذ الأتراك احتياطات منها عزل المعتز والمؤيد حتى يكون المنتصر بعيداً عن أخوته، ويسهل إفساد العلاقة بينهم، وتظهر الرواية أن المنتصر كان يبين لأخويه خطورة الترك عليه وعليهم، إلا أنها لا تبين أي إجراء فعلي قام به ضدهم، بل منح الأتراك أموالاً كثيرة، يقول اليعقوبي: "بعد توليه الخلافة أعطى الجند رزق عشرة أشهر وانصرف من الجعفري إلى سر من رأى وعزل أخويه وأشهد عليهما بخلع أنفسهما وكان الغالب عليه أوتامش وأحمد بن الخصيب".[٢]

دور الخدم في منصب الخلافة بعد مقتل الخليفة المتوكل إلى سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م):

لقد كان إعلان قتل المتوكل سبباً في نشر العديد من الأحاديث بين الناس، "فلما اتهم المنتصر بقتل أباه تحدث الناس بأنه لا يطول عمره بعده، وشبهوه بشيرويه بن كسرى".[٣] ولا أعرف كيف عرف الناس أن عمره لا يطول، لكن لا يمكن أن أرد ذلك إلى الأسلوب القصصي

---

١) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢٢٥ - ص٢٢٦/ الطبري، تاريخ ج(٩)، ص٢٣٤/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٦/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص١٧ – ص١٨/ نظمي زاده مرتضى، كلشن خلفا، ص٦٠ .

٢) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢٢٥ - ص٢٢٦.

٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥١./ ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٨٠/ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية،ص٢١٥./ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٢٧ - ص٢٢٨.

العربي، فلو كان الأمر كذلك لم يطل عمر المأمون الذي قتل أخاه أيضاً، إن نشر هذا الخبر بين الناس هو لإعدادهم لتقبل موت المنتصر بعد مدة قصيرة.

فقد ذكر أن المنتصر بعدما تولى الخلافة كان يجلس على بساط لم ير الناس مثله، وعليه كتابة بالفارسية، فاستحضر رجلاً عجمياً غريباً وأمر بقراءتها.. فقال الرجل: على هذا البساط" أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر فتطير المنتصر ونهض من مجلسه مغضباً." "[١]" وذكر أن قصة شيرويه كانت موجودة على جدار من جدران أحد القصور التي بناها الخليفة المتوكل وهدمها المنتصر فلما قرأها تشاءم."[٢]"

إن هذه الأخبار لم تبث بشكل عشوائي بل كان من ورائها هدف، إذ أصبح المنتصر مخيفاً وخطراً على الأتراك فكان لا بد من تهيئة الناس لموت خليفة آخر، فلما أفضت الخلافة إلى المنتصر: كان يكثر إذا سكر قتل أبيه ويقول في الأتراك: هؤلاء قتلة الخلفاء، ويذكر من ذلك ما تخوفوه، فجعلوا لخادمه ثلاثين ألف دينار على أن يحتال على سمه، وجعلوا لعلي بن طيفور جملة، وقيل أنه سم الفاكهة التي يحبها وهي الكمثراة، فلما شعر بحرارة احتجم فزاد ألمه، فنصحه ابن طيفور بالفصد ففصده بمبضع مسموم وقيل أن نفس المبضع فصد به ابن طيفور ومات."[٣]"

لقد بين الطبري السبب الذي أدى إلى التخلص من المنتصر وبشكل مباشر ومع ذلك اختلفت المصادر في سبب "قتله" فقال بعضهم: أصابته الذبحة في حلقه، وقيل إن علته من ورم في معدته، ثم تصعد إلى فؤاده فمات وقيل أنه كان وجد حرارة، فدعا من كان يتطبب له وأمره بفصده ففصده بمبضع مسموم فكان فيه منيته، وقيل بل وجد في رأسه علة فقطر ابن طيفور في أذنه دهنا فورم رأسه، وقد قيل أن ابن طيفور سمه في محاجمه. وقيل أنه مرض بمرض السرسام* "[٤]"

---

١) المسعودي، مروج الذهب، ج(٤)، ص١٤٢. الخطيب البغدادي، تاريخ، م(٢)، ص٤٨٥ - ص٤٨٦/ القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص١٧١ -ص١٧٢/ التنوخي، نشوار المحاضرة،ج(٥)، ص١٨٣ - ص١٨٤/ ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢١٥ -ص٢١٧/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص١٥٠/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٥٨..

٢) نظمي زاده مرتضى، كلشن خلفا، ص٦٠ -ص٦١.

٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥٢ - ص٢٥٣/ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج(٥)،ص٥٧٧.

* السرسام هي كلمة فارسية: تعني، الهذيان والذي يسببه سرسام آور وهو مسبب الهذيان موجب الازعاج/ انظر التونجي، المعجم الذهبي، مادة(سرسام) ص٣٤٤.

٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣١٤. ابن دحية، النبراس،ص٨٠/ نظمي مرتضى، كلشن خلفا (روضة الخلفاء)، ص٦١.

لقد قتل كل من الخليفة المتوكل والخليفة المنتصر وبدأ عهد من الفوضى السياسية أصبح واضحاً في كتب التاريخ، ولدى الناس "وكان يضرب في الليلة التي قتل فيها المتوكل المثل، وكانت ثلمة الإسلام، وعنوان سقوط الهيبة، وتاريخ تراجع الخلافة"."[١]"

لقد كان دور الخدم أوضح في قتل المنتصر، إلا أن دورهم كذلك كان كبيراً في حادثة قتل الخليفة المتوكل خاصة أنهم من سرب المعلومات ومن شهد الأحداث وشارك فيها وسهل مهمة الجند.

وتولى المستعين الخلافة لأن الأتراك لم يلتزموا بالبيعة للمعتز، ولا للمؤيد، ولا لعبد الوهاب، وسعوا إلى تنصيب أبي العباس أحمد بن محمد المعتصم خوفاً منهم أن يبايعوا أحد أولاد الخليفة المتوكل وتحرك الجند ضده هاتفين باسم المعتز. "[٢]"وقد أمر المستعين للجند برزق خمسة أشهر...."[٣]" وصادر المستعين أموال المعتز والمؤيد وحبسهما وعقد المستعين لأوتامش على مصر والمغرب واتخذه وزيراً، وعقد لبغا الشرابي على حلوان وماسبذان ومهرجان قذق."[٤]" وتولى الخلافة وهو محاصر بضغوط الأتراك عليه، الذين انقسموا حوله وحول المعتز في بغداد وسامرا، وقسموا الأرزاق والمهام بينهم.

فلما بدأت أول مصادمة بينه وبين الأتراك عمل ومعه وصيف وبغا على ترك سامراء والعودة إلى بغداد حيث نصره أهلها، وأمر المستعين بقطع الميرة عن سامراء، وبدأت المواجهة بينه وبين المعتز وكان بين المعتز ومحمد بن طاهر القريب من المستعين مراسلات يذكره ببيعته له أمام الخليفة المتوكل، وكتب المستعين والمعتز إلى موسى بن بغا الذي يحارب أهل حمص ليضمه كل واحد منهم إلى جيشه، بينما قدم ابنه عبد الله بن بغا إلى بغداد ودخل على المستعين معتذراً لتخلفه في سامراء ثم تركه وعاد إلى سامرا ودخل على المعتز واعتذر له بأنه أراد أن يعلم الأخبار في بغداد فقبل ذلك منه ورده للخدمة."[٥]"

لقد كان من السهل على عبد الله بن بغا التنقل بين بغداد وسامرا وقبل الجميع أعذاره لأن كلاً من المعتز والمستعين يرغب في أن تكون قوة موسى بن بغا تسانده، إلا أن ابنه عبد الله كان جاسوساً يعمل لصالح الأتراك لا لصالح أي منهما، ولم يرضِ أهل بغداد بما يحدث في عاصمتهم وفي خلفائهم "ففي سنة (٢٤٩هـ/٨٦٣م) عظم على أهلها قتل قائدين من قادة

---

١) الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٩٠.
٢) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢٢٦ - ص٢٢٧/ الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥٦/. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣١٥/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص١٥٢ -ص١٥٣/السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٨ - ص٣٥٩..
٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥٦ - ص٢٥٨/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)، ص١٩.
٤) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٢٥٩ - ص٢٦٠.
٥) الطبري، تاريخ،ج(٩)، ص٢٨٢/ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج(٢)، ص٢ - ص٣.

المسلمين في الثغور، مع ما عظم عليهم من استفظاعهم من الأتراك قتل الخليفة المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء، واستخلافهم من غير رجوع إلى ديانة ولا نظر للمسلمين فاجتمعت العامة بالصراخ والنداء والنفير."[١]

وفي سنة (٢٥١هـ/٨٦٥م) وقعت وقعة عظيمة بين أهل بغداد والأتراك، قتل فيها عدد من الأتراك حتى إن وصيف وبغا جعلا يقولان ذهب والله الموالي. حاصر الأتراك بغداد وغلت الأسعار وضاق الأمر بأهلها، فأرسلوا إلى ابن طاهر ليخبروه بحالهم فأرسل إلى المعتز بالصلح، بعد غلاء الأسعار في بغداد، على أن يتنازل المستعين عن الخلافة.

وكان أول من صرف ابن طاهر عن نصرة المستعين عبيد الله بن يحيى بن خاقان، الذي قال له: إن هذا الذي تنصره أمر وصيفاً وبغا بقتلك، لذا قام بمراسلاته وعقد الصلح الذي ينص على أن يعطي المعتزالمستعين خمسين ألف دينار ويقطع غلة ثلاثين ألف دينار في السنة، وأن يكون مقامه بغداد حتى يجتمع لهم مال يعطون الجند...ولما رأى المستعين ضعف أمره وخذلان ناصريه أجاب إلى الخلع على ما اتفق عليه من شروط، ومنع المستعين من الخروج إلى مكة واختار أن ينزل البصرة."[٢]

إن هذه التطورات السياسية أظهرت عجز الخليفة عن السيطرة على الجند وعلى من يعملون في قصره من خدم وجواري، بينما لم يعجب خلع المستعين أهل بغداد وورد ذلك في شعرهم إذ قال أحد البغداديين:

خـلع الخلافة أحمد بن محمد ... وسيقتل التالي له أو يخلـع
ويـ ـزول ملك أبيه ولا يرى ... أحد تملك منهم يستمـ ـتع "[٣]

وهذا واقع مفروض وأمر حاصل لأن ما عانى منه المستعين سيعاني منه المعتز أيضاً فبعد نفي المستعين ضغط الأتراك على المعتز لقتله لأن بقاءه حراً سيمكنه من تجهيز نفسه بشكلٍ أفضل مع تعاطف أهل بغداد ورفضهم لما يحدث وسوف يشكل قوة تقضي عليهم لذا من الأفضل أن يتم القضاء عليه قبل ذلك.

لذا أرسل المعتز سعيد بن صالح لقتله."[٤] وقيل أرسل المعتز ابن طاهر بنكبة المستعين، وقيل وجه جيشاً بقيادة أحمد بن طولون التركي، ووجه معه سعيد بن صالح لينفذا الأمر بالقاطول."[١] وقيل أن الذي أرسل شاهك الخادم."[٢]

---

١) الطبري، تاريخ، ج(٩)،ص٢٦٢ - ص٢٦٣/ابن الجوزي، المنتظم، ج(٧)،ص٣١ – ص٤٩.
٢) الطبري، تاريخ،ج(٩) ص٣٤٠ - ص٣٤٨.
٣) ن.م. ص٣٥٠.
٤) ن.م.،ص٣٦٤.

وقيل إن سبب قتل المستعين أن غلمان الخليفة المتوكل خافوا على المعتز من كيد يلحقه من المستعين فاضطربت لذلك قبيحة أم المعتز فكتب إلى أحمد بن طولون، فرفض أن يقتل خليفة بايعه، فأرسل سعيداً فقتله، وغسله أحمد بن طولون ...وقتل بالسيف ذبحا يوم الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة (٢٥٢هـ/٨٦٦م)."[٣]"

وكان ذلك أيضاً سبباً في قتل المؤيد خاصة مع إرسال عامل أرمينية إليه خمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره، وذكر أن الخدم والقادة تناقل هذا الأمر فوصل للمعتز الذي أمر بقتله."[٤]"وقيل أن قبيحة من أشارت عليه بذلك "[٥]"

وفي سنة (٢٥٣هـ/٨٦٧م) في رجب جرت ملحمة بين المغاربة والأتراك أظهر فيها بعض القادة معارضة لما يحدث للخلفاء العباسيين إلا أن هذه الملحمة انتهت بعدما اتفقوا على أن يحصل المغاربة على حقهم من هذا الخلاف الدائر وكانوا أحرص على حصتهم من مال الدولة المتفرق بينهم أكثر من احتجاجهم على وضع الدولة."[٦]" وهذه الروايات إما أن الخدم نقلوه أو أنهم من نفذ مهام معينة فيها كقتل المستعين.

وقد أزعج هذا التدخل في شؤون الدولة الخلفاء فنجد المعتز يخاطب جماعة ممن صفت أذهانهم وكملت عقولهم بالمشورة من أهل بغداد بقوله:" أما تنظرون إلى هذه العصابة التي ذاع نفاقهم، وغار شأوهم؛ الهمج الطغام، والأوغاد الذين لا مسكة بهم، ولا اختيار لهم، ولا تمييز معهم، قد زين لهم تقحم الخطأ سوء أعمالهم، فهم الأقلون وإن كثروا والمذمومون وإن ذكروا، ...، وبعث بنسخة منها إلى عماله ...."[٧]" لقد كان المعتز منتبهاً ومدركاً لدور الأتراك، لذا سعى إلى التقرب من علماء بغداد وأهلها، وأرسل نسخة من الكتاب ليبين لهم ما قد حدث في بغداد ليحصل منهم على النصرة إن قدروا على ذلك لكن هذه الكتب لم تخف على الأتراك الذين هددوا ابن طاهر بسببها ظناً منهم أنه قد يكون سبباً من أسباب ما حدث.

ويرى البعض أن المعتز سعى للتخلص من قواد الحرس التركي والتملص من سيطرتهم التي لم تعد تطاق، فسعى إلى استخدام الجنود البربر، ولكن أهل حاشيته الذين كانوا يرتعدون

---

١) ن.م. ص٣٦٢ - ص٣٦٤.
٢) المسعودي، مروج الذهب، ج(٤) ص١٧٨.
٣) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٨١ - ص٨٢.
٤) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٦١ - ص٣٦٢/ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٤٧.
٥) البيروني، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، ص١٤٨.
٦) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص١٤٦ - ص١٤٧.
٧) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٦٦ -ص٣٦٨/ محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية، ص١٠٢.

خوفاً من الأتراك رأوا أن هذه المحاولة ضرب من الحماقة ففشلت خطته، وهجم الجند على القصر."[١]"

إن هذه المحاولات التي خاضها المعتز ومن قبله المستعين وغيرهم من خلفاء بني العباس لم تعد ذات جدوى، خاصة بعدما تمكن الأتراك المطالبون بأرزاقهم سنة (٢٥٣هـ/٨٦٧م) من قتل وصيف الذي خرج لتهدئتهم."[٢]"

لقد سعى المعتز إلى إثارة الفرقة بينهم فتنبه له صالح بن وصيف، لذا وضع مخططاً للتخلص منه بأن أرسل بعض الأتراك يطلبون منه المال مقابل أن يتم قتل صالح، ولم يكن يمتلك ذلك المال فأرسل إلى أمه يطلب منها المال، فهجم عليه جماعة جروا برجله وضربوه بالدبابيس، وأقاموه في الشمس، وهم يلطمون وجهه ويقولون له اخلع نفسك، ثم أحضروا القاضي ابن أبي الشوارب والشهود وخلعوه ثم أحضروا محمد بن الواثق من سامرا فسلم إليه المعتز بالخلافة، وأخذوا المعتز بعد خمس ليال من خلعه، فأدخلوه الحمام فلما اغتسل عطش، فمنعوه الماء، ثم أخرجوه وهو أول ميت مات عطشاً فسقوه ماء بثلج، فشربه وسقط ميتاً في شهر شعبان سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨م)، وظهرت أمه بعد قتله في رمضان وذكر خبر أموالها المصادرة من قبل صالح بن وصيف."[٣]".

وفي وصف قبيحة: أنها كانت امرأة لها سطوة على أولادها من الخلفاء، وكانت ممن يشرفن على شئون الدولة وتدبير أمور الحكم، وكان لها أكبر الأثر في سير الأحداث في بغداد."[٤]" وقد بينت أن هذا الدور ليس حقيقياً خاصة ما ذكر في هذه الرواية عن تلك الأموال.

وبعد قتل المعتز جاء الأتراك بالمهتدي محمد بن الواثق بالله فبايعوه، وصادر صالح بن وصيف (قبيحة) ثم أخذ يصادر خواص المعتز ويعذبهم."[٥]" لقد مثلت المواجهة بين المهتدي وبين الأتراك حقيقة موقف العباسيين من نفوذهم وكان المهتدي لا كما تظهره الروايات بأنه ملتزم بالصلاة فقط ويرضى بما يكفيه وأخوته، بل كان مخططاً جيداً أراد أن يطمئن الأتراك من جهته، وهو لم يكن بالرجل السهل، واستمر المهتدي بما قام به المعتز من محاولة التفريق بين الجماعات التركية، وقد استمال المهتدي بايكباك وأمره أن يقتل موسى بن بغا قائد الجيش الذي

---

١) بلياييف، العرب والإسلام والخلافة العربية، ص٢٧٠ - ص٢٧١.

٢) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٧٤.

٣) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٨٧-ص٣٨٨/وص٣٩٠/ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣١٦/ ابن الجوزي، المنتظم،ج(٧)، ص٨٤/ ابن الزبير، الذخائر، ص٢٣٦ - ص٢٣٧./ ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص١٤٦ -ص١٤٧/ والذهبي، العبر، ج(٢)، ص٦./ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٩ - ص٣٦٠/العمري، الروضة الفيحاء، ص٣٦٤ - ص٣٦٦.

٤) علي إبراهيم حسن، نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ص٩٣.

٥)الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٩١/الذهبي، دول الإسلام،ج(١)، ص١١٢/ الذهبي، العبر، ج(٢)،ص٩ - ص١٠.

يحارب الشاري ليحل محله قائداً للجيش إلا أنه أخذ رسالة المهتدي إلى موسى وبين له الأمر فلما عاد للمهتدي ولم ينفذ ما أمره لذا أمر المهتدي بقتله فلما قتله جاشت الترك."[١]

وبدأت مواجهة جديدة فوجه المهتدي إلى الأتراك والمغاربة والأشروسنية الذين بايعوا على الدرهمين والسويق فجاءوا.... وكان الأتراك في عشرة آلاف رجل فكانت بينهم معركة سقط فيها الكثير من القتلى، ثم مال الأتراك الذين مع المهتدي إلى أصحابهم وبقي هو بالفراغنة والمغاربة ومن خف معه من العامة ومضى المهتدي يركض منهزما والسيف في يده مشهور إلى أن لحقه الأتراك وضرب بالسيف وحمل إلى داره فجعل الأتراك يصفعونه ويبزقون في وجهه، ودفعوه إلي رجل منهم فقتله، فبايعوا أحمد بن المتوكل المعروف بابن فتيان يوم الثلاثاء لعشر خلت من رجب، وسمي المعتمد على الله وأشهد لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٥٦هـ/٨٦٩م) على وفاة المهتدي محمد بن الواثق، وأنه سليم ليس به إلا الجراحتان اللتان نالتاه يوم الأحد في الوقعة."[٢]

وقيل: قتل المهتدي بعصر خصييه حتى مات ثم قتلوه، وبعجوا بطنه وعصروا حلقه وألقي في بئر من القناة، فلم يزل هنالك حتى أخرجه الموالي بعد أسرهم المهتدي بيوم فدفن."[٣] وقال ابن دحية: إن سبب قتله، لأنه لم يوفق في الوزير والحاجب والقاضي، ولأن جعفر بن محمود الإسكافي وحاجبه صالح بن وصيف وقاضيه الحسن ابن محمد بن أبي الشوارب يحبون الدنيا ولا يذكرون الآخرة، فكانوا إعانة على سفك دمه، وهتك حرمه فقتل بخنجر..."[٤]

وكانت خلافة المعتمد هادئة من الناحية السياسية الداخلية وانشغل الخليفة بمحاربة الخارجين عليه، إلا أنه اختلف مع المعتضد على ولاية العهد ولكنه قبل بطلب المعتضد أن يقدمه على ابنه، واختلفت الروايات حول موته فقيل، رمي في رصاص مذاب فمات، وقيل بل مات في حفرة ريش مشى عليها فسقط فيها، فمات غماً، وذلك في بغداد ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٧٩هـ/٨٨٢م)."[٥] وعندما عرضه بدر غلام المعتضد على القضاة والشهود، قال: هل ترون به بأساً أو أثراً؟ مات فجأة وقتلته مداومته لشرب النبيذ...."[٦]وقيل إنه

---

١)الطبري، تاريخ،ج(٩)، ص٤٥٧-ص٤٥٩/ العيون والحدائق، ج(٤)، قسم(١)،ص٦/ ابن حمدون، التذكرة الحمدونية م(١)، ص٤١٣/ اليافعي، مرآة الجنان، ج(٢)، ص١٤٧.
٢) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)،ص٢٣٧/ الطبري، تاريخ،ج(٩)، ص٤٥٦ - ص ٤٦٢/ ابن الكازروني،مختصر التاريخ، ص١٥٩.
٣) الطبري، تاريخ، ج(٩، ص٤٦٩/ المسعودي، مروج الذهب، ج(٤)، ص١٩٩.
٤)ابن دحية، النبراس في تاريخ الخلفاء، ص٨٤/ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج(٢)، ص١٢.
٥) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص٨٥.
٦) المسعودي، مروج الذهب، ج(٤)، ص٢٤٥.

توفي فجأة وكان سبب موته أنه شرب على الشط الحسني يوم الأحد شراباً كثيراً وتعشى فأكثر فمات ليلاً وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة."[١]

لقد كانت محاولة المهتدي قوية لكن ليس بالقدر الذي ينهي هذه الفئة التي لم تعد سهلة وقوية ومتفقة مع بعضها بعضاً، كما بينت المصادر أن لا شيء يمكن أن يخفى على الناس، حدثنا الصولي، قال: حدثني الحسين بن يحيى الكاتب قال: لما ولي المعتز لم تمض مديدة حتى أحضر الناس وأخرج المؤيد، وقيل اشهدوا أنه دعي فأجاب، وليس به أثر قتل.ثم مضت أشهر فأحضر الناس، وأخرج المستعين، فقيل: إن منيته أتت عليه وها هو لا أثر به؛ فاشهدوا. ثم مضت مديدة واستخلاف المهتدي، فأخرج المعتز ميتا؛ وقيل: اشهدوا إنه مات حتف أنفه ولا أثر به. ثم لم تدر السنة حتى استخلاف المعتمد وأخرج المهتدي ميتا؛ وقيل: اشهدوا إنه قد مات من جراحته، فتعجب الناس من تلاحقهم في مدة يسيرة."[٢]

لقد أدرك المهتدي ضرورة التخاص من الأتراك لإنقاذ الخلافة، فسبب ضعف مؤسسات الخلافة يكمن في وجودهم."[٣]

لقد ساهم الخدم من الرقيق والجواري في هذه الأحداث السياسية منذ قتل الخليفة المتوكل بمساعدتهم الجند على تنفيذ ما عزموا عليه، وبنقلهم أخبار الخلفاء، وحصول بعضهم على حصته من أموال يقدمها الجند لهم.

وكان حكم المعتضد قوياً ضبط فيه الأتراك بالقوة "وكان المعتضد يسمى السفاح الثاني لانه جدد ملك بني العباس بعد أن أخلقته الأتراك وأذلته، وقد وصل إلى الخلافة بعد موت المعتمد وقضى على عدوه إسماعيل بن بلبل الذي كان سبب حبسه بما أوقعه من خلاف بين المعتضد وبين أبيه."[٤]

وتوفي المعتضد في ربيع الآخر سنة (٢٨٩هـ/٩٠١م)."[٥] وتولى المكتفي الخلافة كولي للعهد وقد استمد قوته بالحكم من قوة والده وواجه نفوذ الطولونيون في مصر إلا أنه ومات سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م دون أن يختار ولي للعهد بعده."[٦] جاء الأتراك بأخيه المقتدر ليتولى الخلافة لأنه لم يختر ولياً للعهد وكان صغيراً بالسن ويعلق ابن الطقطقي على ذلك بقوله: واعلم

---

١) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص١٤٨/ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص١٦٢.
٢) الثعالبي، لطائف المعارف، ص١٤٣/ الذهبي، العبر، ص١١-ص١٢/ القلقشندي، مآثر الإنافة ..، ج(٣)، ص٣٧١.
٣) فاروق فوزي، محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكري،بغداد، ١٩٧٣م، ص٤٤.
٤)المسعودي، مروج الذهب، ج(٤)، ص٢٤٣. التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٢٧٩ – ص٢٨٠.
٥) الطبري، تاريخ، ج(١٠)، ص٨٦ - ص٨٧/ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٧٤.
٦) الصولي، ما لم ينشر من أوراق، ص٢١.

أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير، لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه، فكانت دولته تُدار أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذاته، فخربت الدنيا في أيامه وخلت بيوت الأموال...."[١] وكان صبياً صغير السن فعادت الأتراك إلى ما كانت عليه من ذلك"."[٢] وقد برر الصولي تولي المقتدر الحكم وهو صغير السن بعدة أمور منها أن الله سبحانه وتعالى "آتى يحيى الحكم صبياً." "[٣]"ويقول أبو بكر الخوارزمي:" لا صغير مع الولاية والعمالة، وإنما الولاية أنثى تصغر وتكبر بواليها."[٤]"

لقد اختلف الناس حول تولي المقتدر الخلافة بهذا السن، فبرر بعضهم ذلك، بينما هاجم بعضهم هذا الاختيار، لأن صغر سنه في هذه المرحلة الضعيفة سيؤدي إلى حدوث تدخلات كثيرة في حكمه، وهذا ماحدث فقد عزل المقتدر عن الخلافة مرتين، فجاء الأتراك في المرة الأولى بابن المعتز سنة (٢٩٦هـ/٩٠٨م) وسعى جماعة من الكتاب والقواد بعضهم إلى بعض عازمين على خلع المقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتز، فناظروه في ذلك فأجابهم على أن لا يسفك دم، ولا تكون حرب...."[٥]"وكان ابن المعتز خليفة مدة خلافته يوم وبعض يوم، ثم حاربه غلمان المقتدر بمعونة العامة فهزموا ابن المعتز واستقام الأمر للمقتدر."[٦]"وضرب في خلافة ابن المعتز المثل فيمن لا تطول مدته ويسرع انقضاؤها...."[٧]"

ثم أعيد المقتدر للخلافة، وعزل مرة أخرى بسبب الخلاف بينه وبين مؤنس الخادم فتولي القاهر الخلافة بدلاً منه، ثم خلع القاهر وأعيد المقتدر مرة أخرى للخلافة "[٨]" وقيل إن السبب في هذا الخلاف أن مؤنس والجيش لم يرضهم الدور الكبير الذي منحه المقتدر للحرم والخدم، وقد أغاضهم الأمر لذا اختلفوا معه."[٩]"

لقد أراد المقتدر التخلص من سيطرة مؤنس عليه بمصادرته فترك مؤنس بغداد وتوجه للموصل، فخرج المقتدر إلى حربه، فجرت الحرب بينهما ووافى البربر من أصحاب مؤنس، فأحاطوا بالمقتدر وضربه رجل منهم من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض فقال: أنا الخليفة،

---

١) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية ، ص٢٣٤.
٢) الاتليدي، نوادر الخلفا، ص٣٥٤ – ص٣٥٧.
٣) الصولي، ما لم ينشر من أوراق، ص٢٧ - ص٢٨.
٤) القيرواني الحصري، زهر الآداب، م(٣)،ص١٣
٥) الصولي، ما لم ينشر من أوراق، ص٣٨ – ٣٩/ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م(١١)، ص٣٠٦ – ص٣٠٧..
٦) الثعالبي، لطائف المعارف، ص١٣٥.
٧) الطبري، تاريخ،ج(١٠)، ص١٤٠ - ص١٤١/ الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٩١.
٨) ابن الزبير، الذخائر، ص٢٣٨ – ص٢٣٩.
٩) حمدان الكبيسي، عصر الخليفة المقتدر بالله، ص١٤١- ص١٤٢.

فقام البربري وأضجعه وذبحه بالسيف..."[١]" "وبمقتل المقتدر نحرت الخلافة العباسية كقوة سياسية، فازداد الجيش تعنتاً وطغياناً."[٢]" وهذه الآراء التي تبين وضع الدولة في خلافة المقتدر لم تصدر إلا عن روايات تلك الفترة والتي بينت دور الخدم من جواري ورقيق في ضعفها حتى أن قتل المقتدر تم بيد خادمه مؤنس الذي أصبح صاحب نفوذ كبير.

تولى محمد بن المعتضد الخلافة ولقب بالقاهر وكان مؤنس يرغب بتولية ابن المقتدر الخلافة تجنباً لغضب والدة المقتدر وحتى يحصل على الأموال منها."[٣]" و"تحرك المماليك ضده يريدون خلعه بتحريض من الوزير بن مقلة وبايعوا أبا العباس محمد بن المقتدر ولقبوه الراضي بالله ثم أرسلوا إلى القاهر الوزير والقضاة، وقال القاضي أبو الحسين: فدخلت على الراضي وأعدت عليه ما جرى، وأعلمته أنني أرى إمامته فرضاً، فقال: انصرف ودعني وإياه، فأشار سيما، مقدم الحجرية على الراضي بسمله فكحله بمسمار محمي."[٤]"

ولكن القاهر لم يغادر منصب الخلافة قبل أن ينجح في قتل مؤنس وعلي بن يلبق..، وتقدم بمنع القيان والخمر والنبيذ، وقبض على المغنين من الرجال والنساء والحرائر والإماء، وقبض على جماعة من الجواري المغنيات، وتقدم ببيعهن في النخاسين على أنهن سواذج."[٥]"

إلا أن هذه الإجراءات لم تعد تنفع، فلا يمكن أن يكون سبب ما حدث من تراجع للدولة بسبب الإماء والمغنين، بل بسبب ما هو أقرب للخلفاء وهو الجند والخدم ممن يعملون في دار الخلافة. واستتر ابن مقلة عن القاهر بالله في سنة (٣٢٢هـ/٩٣٣م) وفي أثناء استتاره، راسل جند القاهر وجعل يخوفهم من أن القاهر سيقضي عليهم وأنه يبني لهم مطامير ليحبسهم بها، وجعل يدس "سيما" يخوفهم من القاهر ويذكر الحبس فخافوه فاتفقوا عل خلع القاهر، الذي بقي محبوسا في دار السلطان إلى سنة (٣٣٣هـ/٩٤٤م)."[٦]"

وفي سنة (٣٢٢هـ/٩٣٣م) استوحش الحجرية والساجية من القاهر فدبروا عليه وقبض عليه بسبب أن أخبار وصلتهم عن كونه أعد لهم مطامير لهم للتخلص منهم."[٧]"

---

١) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص١١٩/ اليافعي، مرآة الجنان، ج(٢)، ص٢١٣/ابن خلدون، المقدمة، ج(٣)، ص٣٨٨.
٢) الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص٣٢.
٣) ابن الجوزي ، المنتظم، ج(٨،،ص١١٧.
٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٨٨.
٥)المسعودي، مروج الذهب، ج(٤)، ص٢٤٧/ ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨،ص١٢٥ – ص١٢٦.
٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)، ص١٤٢/ الذهبي، دول الإسلام، ج(١)، ص١٤٢- ١٤٣.
٧) مسكويه، تجارب الأمم، ج(٦) ، ص٢٨٦.

لقد أوصل الخدم والجواري بتعاونهم مع الجند التركي الخلافة إلى مرحلة لم يعد الخلفاء فيها مسيطرين على دولتهم، لذا ظن الراضي أنه يستطيع أن يحسن وضع الدولة بإيجاد منصبٍ جديد يرضي القادة الأتراك، ويجنبه المواجهة معهم وهو منصب إمرة الأمراء.

إمرة الأمراء:

لقد وصلت صورة ضعف الدولة إلى أقصى درجاتها وجدد الجند ما بدءوه مع الخلفاء من إيذائهم، وبدأ عهد جديد تمثل بإمرة الأمراء الذي بدأ كمنصب سياسي جديد خاص بالأتراك في عهد الراضي بالله، واستمر إلى نهاية حكم المستكفي بالله.

وسبب إنشاء هذا المنصب هو عجز الميزانية، وفساد الإدارة، وانفصال الحمدانيين بالموصل وبني بويه بفارس والجبال والري، والبريديين بخوزستان، واستئثار ابن رائق بوارد البصرة وواسط وبقيادة الجيش هناك كل ذلك أدى إلى إنشاء إمرة الأمراء."[١]"

ففي عهد الراضي وبسبب سوء الوضع المادي كان مضطراً لتسليم محمد بن رائق الإمارة وقيادة الجيش وجعله أميراً للأمراء سنة (٣٢٤هـ/٩٣٥م)، وشارك ابن رائق الخليفة بالدعاء له يوم الجمعة والأعياد، وله أمر تولية الولاة وعزلهم وعلت مرتبته على مرتبة الوزير حيث بطل أمر الوزارة الذي أصبح منصباً اسمياً، وكان لابن رائق أمر النفقات العامة ووضع رواتب الجيش، والدواوين والأمور المالية، وظهر له منافسون لنفوذه فتحرك أحد الأمراء الديالمة ضده وهو بجكم الديلمي"[٢]" والأمور تسوء بسبب منافسة الأمراء على هذا المنصب، لقد ضعفت مؤسسة الخلافة ولم تعد تتمكن من تدبير أمورها، وكان الخليفة مدركاً للأمور إلا أنه لم يستطع فعل شيء لضعفه"[٣]"

لقد جمع أمير الأمراء بين الاختصاصات المدنية والعسكرية أي السيف والقلم، لذا تدخل بجكم في ولاية العهد ولم يولّ ابن الراضي خليفة رغم طلب الراضي ذلك، وجمع القادة ووجوه بغداد واختار إبراهيم بن المقتدر ولقب المتقي بالله، وكان التنافس بين ابن رائق وبجكم مستمراً ودخل البريدي على هذا التنافس ليظهر مودة لكلا الطرفين حتى نجح ودخل بغداد بعد أن كان بالبصرة، ولم يستطع المتقي أن يعينه أميراً للأمراء بسبب قوة الديالمة بقيادة كورتكين الذي لم يفرض وجوده على الديالمة فاستدعى الخليفة ابن رائق لإمرة الأمراء بينما كان وزيره الديلمي، فعملا معاً على الفتك بالديلم، وكان لاستعانة الخليفة بالحمدانيين سبباً في طمع الحسن بن عبد الله

---

١) الدوري، النظم الإسلامية، ج(١)،، ص٥٤.

٢)وبجكم التركي توفي في سنة ٣٢٩هـ وكان أمير الجيش ويلقب أمير الأمراء، وكان عاقلاً يفهم بالعربية ولا يتكلم بها ويقول: أخاف أن أخطئ والخطأ من الرئيس قبيح، ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٢٠٥.

٣)فاروق فوزي، محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكري،ص٦٢-ص٦٣/ ص٧٠

بن حمدان بإمرة الأمراء، فحل مكان ابن رائق وتولى هذا المنصب في الوقت الذي استعاد به الديالمة قوتهم فوقفوا بوجه البريديين والحمدانيين بقيادة توزون الديلمي الذي أصبح أميراً للأمراء، وهرب المتقي إلى الموصل ولجأ للحمدانيين الذين لم يستجيبوا له هذه المرة، فاستنجد بالاخشيد والي مصر والتقى به في الرقة ودعاه إلى مصر فرفض، وعقد صلحاً مع توزون فلما عاد إلى بغداد سمله وجاء بالمستكفي بالله عبد الله بن المكتفي خليفة وبقي مسيطراً على المستكفي، لكن عمره لم يطل لذا قرر أبو جعفر بن شيرزاد نقل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة الحمداني لكن جنده عارضوه فأقره الخليفة أميراً للأمراء. لقد كان نظام إمرة الأمراء نظاماً فاشلاً أدخله الخليفة الراضي، فلم ينقذ الدولة من أزمتها السياسية والمالية بل زاد التنازع حولها."[١]"

انتهى عهد إمرة الأمراء بدخول معز الدولة بن بويه بغداد "في سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م) وهو أول ملوك بني بويه، ولقب أخويه الأكبر علي عماد الدولة وأخاه الأوسط أبا علي الحسن ركن الدولة وضرب ألقابهم على الدنانير والدراهم ونزل الديلم والأتراك دور الناس ولم يكن يعرف ببغداد قبل هذا النزول فصار من هذا اليوم رسماً."[٢]" وبدأ الجند الديالمة يظهرون على مسرح الأحداث فكان جيش بني بويه منهم."[٣]"

لقد كانت هذه هي الصورة النهائية لضعف الدولة في العصر العباسي الثاني حيث أخذ الأمراء بالتنافس على مناصب اعتقدوا أنها مهمة رغم ضعف هذه الدولة، وتدخلت النساء بصورة واضحة في هذه الفترة فكانت (علم) امرأة تتصف بالطمع فهي لم تبلغ توزون عن أموال المستكفي إلا ليكون لها مكانة في دار الخلافة، لتستثمر قربها مادياً أيضاً. ففي سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م) بلغ معز الدولة أن (علم) قهرمانة المستكفي عازمة على إزالته فحضر معز الدولة والناس عند الخليفة في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم فتناولا يد المستكفي فظن أنهما يريدان تقبيل يده، فجذباه عن سريره، وجعلا عمامته في حلقه وساقاه ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها، وأخذت (علم) القهرمانة وقطع لسانها."[٤]"وتوفي المستكفي سنة ٣٣٨هـ."[٥]"

---

١) فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية السقوط والانهيار، ص٦٤/ و٦٦- ٦٧/ ص٦٨.
٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٢٣١.
٣) فاروق فوزي، محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية، ١٩٧٣م،ص٧٢
٤)ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص١٦٦ – ص١٦٧.
٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،ص٢٣٣/ الصفدي، مختصر كتاب نكت الهميان في نكت العميان،ص٥٢ - ص٥٣.

وهي صورة لبداية صنعها الأتراك وأدت إلى ضعف الدولة في عهد الخليفة المتوكل ومن جاء بعده من خلفاء، ولكن بتغيير العنصر الذي استمر في الحفاظ على الدولة العباسية ضعيفة وفي الوقت نفسه تمنح القادمين الجدد من الديلم شرعيتها ليكونوا سلاطين بغداد في المرحلة التالية.

آثار حركة الزنج على الخلافة العباسية:

لقد كان لحركة الزنج آثار كبيرة على العالم الإسلامي رغم أنها وقبل أن تمثل أثراً مثلت ظاهرة من ظواهر احتجاج الرقيق الذي كان يعاني من سوء أوضاعه داخل بغداد، وظهر صاحب الزنج * أيام المعتمد، واجتمع إليه خلق كثيرون من الرقيق وناس آخرون من غيرهم وعظم شأنه، وقويت شوكته، وفي مبدأ حاله كان فقيراً وانبث عسكره السودان في البلاد العراقية والبحرين وهجر والتقاه الموفق بين البصرة وواسط فقامت الحرب بينهما سنين كثيرة، وبنوا مدائن كثيرة، وكانت الغلبة للبيت العباسي، فأبادوهم قتلا وأسراً، وقتل صاحب الزنج وانتهبت مدينته وكان بناها وسماها المختارة، وحمل رأسه إلى بغداد، وكان يوما مشهودا."[١]

مثلت حركة الزنج أول تحرك عسكري وسياسي قام به الرقيق في المجتمعات الإسلامية، وتعاملوا مع أسيادهم بصورة سيئة مبالغ فيها، لأن شعورهم بالاضطهاد والعبودية ومرورهم بتجارب كبيرة انصبت كلها على رؤوس أسيادهم، إن التعاطف مع الرقيق سيكون أكبر من التعاطف مع السادة لأنهم الأضعف بينما سيجد الجميع أن مالكيهم نالوا ما يستحقون، إن عدالة أي قضية تتطلب طرحها بصورة عادلة أيضاً لا بصورة أكثر اضطهاداً وظلماً وإفساداً في الأرض، لقد كلف ذلك الدولة العباسية الكثير من الجهد والمال، ولم يكن لها إلا فائدة واحدة أنها ولخطورتها جمعت العباسيين مرة أخرى، لكنهم لم يحسنوا استغلال هذه الفرصة التي أتيحت لهم لتثبيت الدولة ووضع حد لقوة الجند واكتفوا بإنهاء هذه الحركة، التي لم تحقق الكثير من المكاسب للرقيق أيضاً خاصة تلك التي طالبوا بها أثناء ثورتهم، بل استمرت تجارة الرقيق، واستمر الاعتماد عليهم لتقديم خدمات عديد لأسيادهم في هذه الفترة وما تلاها من فترات.

ويرى البعض أن ثورتهم أسهمت في ترسيخ حكم الطولونيين في مصر، وحركة الصفاريين، وعمليات بيزنطة على الحدود، والقرامطة الذين على ما يبدو بدءوا تدريباتهم الأولى

---

* وهو علي بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي بن أبي طالب، ونسبه عند النسابين ليس بصحيح، وهم يعدونه من الأدعياء.

١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٤ - ص٢٢٥/ مجهول، العيون والحدائق، ج(٤)، قسم(١)، ص١٤.

في حمل السلاح في صفوف الزنج."[١]" فبعد سنة (٢٥٩هـ/٨٧٠م) مرت فترة لم نسمع فيها عن الزنج شيئاً، فقد ظهر يعقوب بن الليث الصفاري وحركته في خراسان."[٢]" بينما كانت دولة القرامطة زاحفة تجاه العباسيين الذين كانت بغداد آخر نقطة في برنامجهم."[٣]"

لقد سعى صاحب الزنج إلى تأسيس دولة كغيره من حكام المسلمين لها دواوينها ومؤسساتها الخاصة، وضرب النقود التي تحمل اسمه."[٤]" ومثلت حركة الزنج وإن لم تنجح بالبقاء لفترة طويلة قوة الرقيق في المجتمع الإسلامي خاصة المجتمع في بغداد، ومثلت قدرتهم على انتزاع حقوقهم وما فوقها مستغلين قيم التسامح الديني. فكانت بمثابة ناقوس الخطر الذي يبين مساوئ إعطائهم مجالاً واسعاً من الحرية، وهذا لا يعني التضييق عليهم بل الحذر منهم ما دام الاعتماد عليهم ضرورة من ضرورات الحياة.

- تعيين أشخاص في المناصب السياسية المختلفة.

ساهم الأتراك أيضا في التدخل في مناصب الدولة فلم يكن تمكنهم من الخليفة، بلا مقدمات إنما بدأ هذا التدخل من خلال الوصول إلى أطراف الخليفة من عمال وموظفين وخدم وجوار ونساء، ونجد أن بعض خلفاء هذه الفترة لم يكن راغباً في تعيين الكثير من الرجال الذين تولى مناصب إدارية وعسكرية حساسة، ومن ذلك أن المعتز لم يكن راغباً في وزيره جعفر بن محمود وكان ثقيلاً على قلبه."[٥]"

ولم تكن المناصب وراثية في الدولة العباسية، ولكن الوظائف الإدارية يختار لها في الغالب أفراد من حلقة ضيقة وهم من العائلات الواقفة على أسرار فن الحكم والإدارة، ومن ثم فإن المماليك والمعتقين الذين كانوا كثرة وفيرة العدد بين رجال الجيش، كانوا قليلاً ما يوجدون في طبقة الكتاب وكانت جميع الحرف التي تستلزم تدريباً واستقلالاً كالقضاء وطبيب البلاط تظل في عائلة واحدة أو جملة عائلات تتابع أجيالها فيها"."[٦]"

ونرى أن المناصب وزعت بين قادة الجيش في الصلح الذي عقد بعد الفتنة بين المعتز والمستعين" فيولى بغا مكة والمدينة والحجاز ووصيف الجبل وما والاها، ويكون ثلث ما يجيء من المال لمحمد بن عبد الله وجند بغداد، والثلثان للموالي والأتراك، وذكر أن لما صار أحمد بن

---

١) أحمد علبي، ثورة العبيد في الإسلام، دار الآداب، ص١٣٩ - ص١٤٠.
٢) فيصل السامر، ثورة الزنج، ص١١٢.
٣) عبد الكريم حتامله، المعتمد في خلافة المعتضد بالله، ص٢٠٣.
٤) فيصل السامر، ثورة الزنج، ص١٦٥- ص١٦٩.
٥) الصابئي، الهفوات النادرة، ص٢١١.
٦) جوستاف ا.فون جرونيباوم، حضارة الإسلام، ص٢٧١ - ص٢٧٣.

إسرائيل إلى المعتز ولاه ديوان البريد وفارقه على أن يكون هو الوزير وعيسى بن فرخانشاه على ديوان الخراج وأبو نوح على الخاتم والتوقيع فاقتسموا الأعمال."[١]

لقد امتدت أعين القادة الأتراك إلى خارج بغداد فمنذ خلافة السفاح إلى هذا التاريخ أي سنة (٢٤٤هـ/٨٥٨م) كان أقرباء الخلفاء وأمراؤهم من العرب الموالين لبني العباس يتعاورون على حكم مصر بموجب القوانين التي يصدرها الخلفاء من حين لآخر، ثم أخذ يحكمها جماعة من الأتراك."[٢] وهذا الأمر أيضاً ينطبق على الشام ويبين ذلك الصفدي:" إذ تولى إمرة دمشق عدداً من قادة الترك ومنهم(أصرم)."[٣] وأماجور التركي وابنه علي إمرة دمشق."[٤] وأبو منصور تكين الخاصة ولي دمشق وولي مصر أيضاً."[٥] ووصيف المكتمري."[٦] وولى الراضي مصر محمد بن طغج الإخشيد ولقبه الراضي بالله بالإخشيد لأنه فرغاني وكل ملك بفرغانة يسمى الإخشيد وقال ابن زولاق معناه ملك الملوك.. وكان أصحاب الخليفة ينفردون بالأمر دونه ولا يقدر لضعفه أن يغيره، فتقسمت البلاد وظهر الفساد."[٧] وملك مصر أحمد بن طولون في سنة (٢٥٤هـ/٨٦٨م) وتوفي وعنده أربعة وعشرون ألف مملوك."[٨] وفي سنة (٢٩٢هـ/٩٠٤م) جهز المكتفي جيشا عظيماً، وفتح مصر واحتوى على أموال الطولونية."[٩]

وكانت نساء الخلفاء سبباً في تولي البعض مناصب سياسية، وكان سبب ولاية محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الوزارة بسبب أم ولد المعتضد بالله دستنبويه، وكان ضمن لها مائة ألف دينار، فوفى لها بذلك، وقيل أنه في سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م) أنفذ أخا أم موسى الهاشمية أحمد بن العباس إلى الأهواز ليقدم أحمد بن محمد بن يحيى للوزارة فخرج إليه وخاطبه بالوزارة، فلما صار إلى واسط سلم عليه حامد بن العباس بالوزارة، وحمل إليه ثلاثمائة ألف دينار، فلما قرب منه ركب محمد بن عبيد الله إلى الدار فصانع جماعة من الخدم، وضمن لأم المعتضد وهي دستنبويه التي كانت صاحبته خمسين ألف دينار، وكانت قد عرفت وفاءه فنقضت أمر أحمد بن

---

١) الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٣٤٠ - ص٣٤٨.
٢) نظمي زاده مرتضى، كلشن خلفا (روضة الخلفاء)، ص٥٨.
٣) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢٣٨/ الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٤٧٥/ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم(١)،ص٣٠٦ - ص٣٠٧.
٤) اليعقوبي، تاريخ، ج(٣)، ص٢٣٨/ الطبري، تاريخ، ج(٩)، ص٤٧٥ / الصفدي،تحفة ذوي الألباب، قسم(١)،ص٣٠٧.
٥) الصفدي، تحفة ذوي الالباب، قسم (١)، ص٣٣٩ – ص٣٤٠.
٦) ن.م. ص٣٤٢.
٧) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص١٠٨ – ص١٠٩/ القلقشندي، صبح الأعشى، ج(٥)، ص٤٥٣.
٨) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص١٤٧/ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم (١)، ص٣١٣ - ص٣١٦/الذهبي، دول الإسلام ،ج(١)، ص١١٩.
٩) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم (١)، ص٣٢٩ - ٣٣٠.

محمد بن يحيى، ودبر الأمر بأن يرد والياً على فارس."[١]" وأم ولد المعتضد بالله دستنبويه كانت لها مكانه كبيرة عند المقتدر فلما اختلفت مع أم المقتدر قبض عليها."[٢]"

وبرز هارون بن غريب خال المقتدر بالجيش، وكان له نفوذ إلا أنه سكر في بعض الليالي فقتل رجلاً من الخزر، بلا سبب فشغب رفقاؤه ليقتلوا هارون وكانوا نحو مائة..."[٣]"

ولقد تولى الخدم مناصب مهمة في الدولة، فالخلفاء لجئوا إلى تحكيم الخدم استبقاء لحياتهم، ودفع استبداد جند الأتراك عنهم، ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية بل شمل معظم أنحاء الدولة الإسلامية المعاصرة."[٤]"

إلا أن بعض صفات من يتولى شؤون الدولة كانت كصفة كاتب أوتامش شجاع ابن القاسم الذي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب علم علامات يكتبها في التواقيع قال الحسن بن مخلد: أن أوتامش ضجر يوماً في مجالس المستعين بسبب ضحك المستعين وجلسائه على كاتبه."[٥]" وفي مجالس آخر اجتاز(شجاع) بدار الخلافة للشرب فخرق كاب ثوبه، فلما دخل على المستعين قال: داس كاب ذنبي فخرقت ثيابه، فضحك المستعين حتى زال تماسكه."[٦]"

وسأل بعض الهاشميين (شجاعاً) حاجة، فقال لهم: ليس الأمر إلي وهو للأمير يعني أوتامش وهو يجلس أول من أمس يعني بعد غد، وقال ابن عمار: عملت شعراً رائجياً لا معنى له على أن ينشده صديقي سعيد بن عبيد (أحد الهاشميين) لشجاع بن القاسم ويعرفه أنه مدح وضمنا له على ذلك ألف درهم والشعر:

شجاع لجاع كاتب لاتب معا ... كجلمود صخر حطه السيل من علٍ
خبيص لبيص مستمر مقوم ... كثير أثير ذو شمـ ـال مـ ـهـ ـذب
بلـ ـيغ لبيغ كلما شـ ـئت قلته ... فإن كنت مسكاتاً عن القول فاسكت
فطين لطيف آمـ ـر لك زاجر ... حصـ ـين لصـ ـين كـ ـل ذلك يعلم

فسر بالأبيات سروراً زائداً ودخل إلى المستعين فأخرج له صلة عشرة آلاف درهم وأجرى له ألف درهم في كل شهر."[٧]"

---

١) الصولي، ما لم ينشر من أوراق الصولي، ص٨٥/ وص٨٨ -ص٨٩.
٢) مجهول، العيون والحدائق، ج(٤)، قسم(١)،ص١٧٠.
٣) مجهول، العيون والحدائق، ج(٤)، قسم (١)، ص١٩١/ الصولي، ما لم ينشر من أوراق، ص١٠٢ - ص١٠٣.
٤) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص٣٠١.
٥) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص١٧٣.
٦) الصابئ، الهفوات النادرة، ص٢٠٨.
٧) القيرواني، ذيل زهر الآداب، ص١٧٣/ الصابئ، الهفوات النادرة، ص٢٠٨

وهنا لا تكمن المشكلة بالسخرية من هذا الكاتب بل تكمن في تسليمه أموراً إدارية خطيرة في الدولة العباسية وهو على هذا القدر من الجهل، فهل يوقع على كتب الدولة وهو أمي، وهل فرغت بغداد من الكتاب ليتولى مثل هذا الرجل الكتابة، ولماذا اكتفى الآخرون بالسخرية منه دون أن يحاولوا تغيير الوضع؟

إن شجاعاً هذا لم يكن التركي الوحيد الذي تسلم أموراً في الدولة وهو أمي لقد عانى العصر العباسي الثاني من وجود هذا العدد من الأميين أو الجاهلين.

وكان سبب عزل ابن الخصيب أبي العباس أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الخصيب أن السيدة أم المقتدر انحرفت عنه، وكان قد غلب على المقتدر أصحاب الدواوين فلا ينفذ أمر دونهم وراسلوا النساء والخدم وكلفوا الناس المغرم، وأعدموا خزائنه الدينار والدرهم وجعلوا جارية من جواريه تعرف القهرمانة، تجلس للمظالم ويحضرها الوزراء والقضاة والعلماء واستوزر أثني عشر وزيراً يولي هذا اليوم ويصانع الخدم فيعزله غدا، ويولي الذي رشا الخدم ...."[١]

وبدأت بعض المناصب في الدولة تشترى وتباع لا من قبل الخليفة بل من قبل من يؤثرون عليه وعلى قراراته أخبرنا طلحة بن محمد بن جعفر قال: قلد المتقي بالله بغداد بأسرها أبا الحسن أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقي... وخلع عليه في سنة (٣٣٠هـ/٩٤١م) وكان رجلا من وجوه التجار البزازين بباب الطاق هو وأبوه وعمومته، وكانوا يشهدون عند القضاة، بتمكنهم من خدمة (زيدان) قهرمانة المقتدر ومعاملتهم لها، واتصلت معاملة أحمد بن عبد الله بعد المقتدر، بحاشيته، وولده، وكان المتقي يرعى له خدمته في حياة أبيه، فلما أفضت الخلافة إليه، أحب أن ينوه باسمه ويبلغه إلى حال لم يبلغها أحد من أهله فقلده القضاء، ولم تكن له خدمة للعلم ولا مجالسة لأهله...."[٢]

وبلغ الأمر ببعض الخدم ممن له مكانة وقرب من الخليفة أن يتجاهل أمر القضاء، فلم يجلس خادم المعتضد مقابل خصمه إلا بعد أن أمر القاضي ببيعه، وذلك بسبب قربه من المعتضد الذي غضب من غلامه لعدم طاعته القاضي."[٣]

لقد فرض بعضهم آراءه على الخلفاء وإن كانت خاطئة، وأثرت على سياسة الدولة الخارجية، ففي سنة (٣١٧هـ/٩٢٩م) أمر المقتدر ابن أبي الساج بترك ثغر الديلم لمواجهة القرمطي، فرد أنه إذا ترك الثغر الموجود فيه فإنه سيحدث خطر أكبر من خطر القرامطة، فاستهزأ الحضور بجوابه، فأرسل المقتدر له بالقدوم، فترك الديلم وواجه القرمطي فقتله،

---

١) ابن دحية، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص١٠١ – ص١٠٣.
٢) التنوخي، نشوار المحاضرة ، ج(٥)، ص٢٢١ – ص٢٢٢.
٣) التنوخي، نشوار المحاضرة و، ج(١)، ص٢٤٥.

فاستفحل أمر الديلم وصاروا ملوك الأرض وحصلت لهم ممالك كثيرة، غير ممالك الأمراء من بني بويه. مما دفع الناس إلى التسائل بقولهم: أي شيء خبرنا في يد الديلم نحن أم في يد الأتراك؟ فصاروا في ممالكهم وأيديهم."[١]"

وقد أفسد بعض الوزراء صورة الدولة، ففي سنة ضعف أبي الحسن بن الفرات بعد قوته أنه قام يتلقى الحجاج سنة (٣١١هـ/٩٢٣م) في رجوعهم فقتل منهم قتلا مسرفاً، فخرج أهل بغداد يندبون، ونهب بيته وقتلوه وولده."[٢]"

إن اختيار الخلفاء أصبح من صلاحيات الجيش إلا أن الجيش لم يتمكن من القيام بذلك لولا معاونة خدم الخليفة والجواري اللواتي كنا ينقلن الأخبار لهم، بسبب انتمائهم العرقي الواحد، وبسبب مصالح مشتركة بينهم، كان أبرزها أموال الدولة التي فرقت عليهم، لذا يقال: "يجب عدم تمكين من هم تحت سلطة الملك وفي خدمته من أن يكون لهم نفوذ وقوة، لما ينجم عن هذا من إخلال عظيم يذهب بجلاله وأبهته وهيبته، وأخص من هؤلاء النساء...."[٣]"

الـجـيـش:

تميز العصر العباسي الثاني باعتماد الخلافة على الترك وعناصر أخرى في الجيش والبلاط، ثم ازداد نفوذهم وسيطرتهم على مقاليد الحكم"."[٤]" واستكثر المعتصم من الأتراك وقويت شوكتهم بعد أن أنقذوا المملكة من بابك الخرمي، وفتحوا عمورية ونصروا الإسلام وأصبحت الدولة في قبضتهم." "[٥]"ووردت إشارات قليلة إلى استخدام الأتراك في الجيش العباسي في بغداد في العصر العباسي الأول."[٦]" وكان الجيش يتكون من العناصر العربية والخراسانية والأبناء وبعض العناصر التركية، وذكر الجاحظ " عمن زعم أن جند الخلافة اليوم خرساني وتركي ومولى وعربي وبنوي، وأن الخراساني والتركي إخوان والحيز واحد وأن نسب الأبناء نسب آبائهم، وهم المهيمنون على بغداد لأنهم يشاركون العربي في فخره والخراساني في مجده."[٧]" أما في العصر العباسي الثاني" فبدأت تظهر على الخلافة علائم انحلال سياسي بسبب بروز

---

١) التنوخي، نشوار، ج(١)، ص٣٢٢ – ص٣٢٥.
٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج(٨)،، ص٥٧ – ص٥٨.
٣) نظام الملك الطوسي، سياست نامة، ص٢٢٤.
٤) فاروق عمر فوزي، الخلافة السقوط والانهيار،ص٢١.
٥) الشيرازي، من التمدن الإسلامي، ص٢٩٨.
٦) صالح العلي، بغداد مدينة السلام، ص١٢٣.
٧) الجاحظ، الرسالة الأولى (مناقب الترك)، ص١١/صالح أحمد العلي، سامراء دراسة في النشأة والبنية والسكان، ص٤١.

العسكرية التركية التي لعبت دوراً خطيراً في سياسة الدولة"[١] وكانت أبرز عناصر الجيش في العصر العباسي الثاني:

العناصر الخراسانية وبعض العناصر العربية كاليمانية، والربيعية، والمضرية."[٢]وهي فرق عربية ومن الترك:

الفرقة الحجرية، وفرقة الشاكرية التي ظهر دورها في أحداث المستعين بشكل خاص، وفرقة المغاربة وتنسب لمصر، وفرقة الفراغنة تنسب إلى أهل فرغانة في بلاد ما وراء النهر، وفرقة الشفيعية وتنسب إلى شفيع أحد الخدم الخاصة زمن الخليفة المتوكل، وفرقة النازوكية تنسب إلى نازوك صاحب شرطة بغداد زمن المقتدر، وفرقة الهارونية، وتنسب إلى هارون بن غريب الخال أحد قواد الدولة العباسية، وفرقة البجمكية ونسبت إلى بجكم أمير الأمراء."[٣]

لقد كانت أغلب العناصر في الجيش عناصر غير عربية شكلت مع خدم الدولة قوة أدت إلى تغيير النظرة للخلافة، وأسهمت في ضعف الدولة العباسية، وتمثلت بكافة المظاهر السياسية التي بينتها، ونظر الأتراك إلى الدولة لا من خلال مفاهيم الدولة، بل من خلال مفاهيمهم القائمة على بقاء الأقوى، وقيل إن من حق المحارب المنتصر قتل المقهور، فان استعبده واسترقه فذلك منه منة وفضل ورحمة."[٤]

- <u>دور الجواري في السياسة في العصر العباسي الثاني:</u>

وكانت (ثمل) من الجواري اللواتي تولين مناصب مهمة في الدولة وهو الجلوس للمظالم في عهد المقتدر، وأمرت السيدة (شغب) (ثمل) أن تجلس بالرصافة قرب مدفن الإمام أبي حنيفة، وتنظر في مظالم الناس، فأنكر الناس ذلك لذا أحضرت ثمل القاضي وكانت تستشيره بالأحكام فسار أمرها على سداد واستقامة."[٥] وتولي المرأة القضاء في الإسلام غير جائز عند عامة المسلمين لذا احتج الناس على توليها القضاء فأحضرت القاضي ليمنحها شرعية للبقاء. وينظر البعض نظرة إيجابية إلى تولي ثمل وغيرها مناصب سياسية ويرى شوقي ضيف: أن تولي "ثمل" قهرمانة أم المقتدر مهمة القضاء وسماع المظالم مع الفتوى التي قال فيها الطبري بجواز ولاية المرأة للقضاء في كتاب الأحكام السلطانية للماوردي تدل على ما بلغته المرأة من التعمق في الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر، ولابن بسام المتوفى سنة (٣٠٣هـ/٩١٣م) أبيات منها قوله:

---

١) هنري فارمر، تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ص٢١٢.
٢) الطبري، تاريخ ، ج(١٠) ص٣٦٦.
٣) الزهراني، النفقات وإدارتها في الدولة العباسية، ص٢٩١ - ص٢٩٣.
٤) نديم الملاح، موجز تاريخ الرق، ص١٦.
٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٨١/مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي،ص٩٣.

ما للنســـاء وللكتابــــة والعمالـــة والخطابــــة

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ من كن يطالبن بمساواة المرأة بالرجل في الوظائف المهمة"[١]".

وهذا الكلام يدل على إسقاط معاصر، فالمرأة العباسية في توليها تلك المهام أو في احتجاجها على الرجل لم تهدف إلى المساواة معه كما تطالب المرأة في الوقت الحاضر، بل كانت مثل هذه الحالات استثناء بسبب طبيعة هذه المرحلة الضعيفة وكان تصرف (ثمل) بإحضار أحد القضاة ليقبل الناس وجودها وإن كانت على علم ودراية، شبيهاً بما قامت به ملكة مصر الفرعونية (نفرتيتي) التي عملت على الظهور بلحية شبيهة بلحية الرجال لتكون مقبولة كملكة على مصر وذلك قبل الميلاد، فما بالك بهذه الفترة التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية.

وتدخلت (ثمل) في سياسية الدولة، ومن ذلك أنه لما صفت الحال بين (ثمل) القهرمانة ونصر الحاجب، وتكلما في أمر عزل عبد الله بن محمد عن الوزارة، مالت ثمل إلى ذكر الخصيبي للوزارة."[٢]"

وقدمت المصادر أدواراً لنساء الخلفاء كبيرة كانت قدراتهن أقل منها، فرغم تركيز المصادر والمراجع على دور قبيحة السيئ في الأحداث إلا أنها لم تكن إلا واجهة سترت تحركات الأتراك، ولم يجد العامة أمتع من إعطائها دوراً كبيراً مبالغاً به والتشهير بها، وكذلك أم المستعين التي كانت تملك أموالاً أكثر من ما في بيت المال، وقد يكون لها دور في تولي المستعين الخلافة، أما كثرة أموالها فقد تكون رغبة من المستعين لحفظ هذه الأموال معها، وقد استعان بها عندما احتاج لها.

بينما كانت شغب ذات دورٍ أكبر منهما نظراً لسن المقتدر الصغير فكانت بمثابة وصية عليه، وعندما احتاج المقتدر أموالها قدمتها له، إلا أن صلاتها برجال الدولة وجواريها وما كانت تشفع به عند المقتدر لهم وقبول المقتدر ذلك من أهم الثغرات الكبرى في خلافة المقتدر وتؤكد المصادر والمراجع على دورها الكبير"[٣]"، لذا كان تأثيرها كبيراً على وضع الدولة ولا مقارنة بينه وبين دور قبيحة أو أم المستعين، لقد أوصلت أم المقتدر عدداً من النساء ليشاركنها الحكم ومنهن القهرمانة فاطمة، والقهرمانة أم موسى، والقهرمانة ثمل، والقهرمانة زيدان، وقد فصل

---

١) شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني،ص١٢٨.

٢) الصولي، ما لم ينشر من أوراق، ص١٥٤.

٣) مجهول، العيون والحدائق، ج(٤) قسم(١)، ص١٣٦/علي إبراهيم حسن، نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ص٩٦.

الصابئ دورهن الكبير في الإدارة خاصة أم موسى القهرمانة التي كانت لها مكانه كبيرة ولكل شخص قريب منها حتى وإن كانت إحدى صاحباتها كـ (فرج النصرانية)."[١]"

ورأى البعض أننا لا نستطيع أن نعطي صورة صحيحة عن منزلة المرأة وصفاتها خلال القرنين الثالث والرابع، ويرجع السبب في ذلك إلى الفرق بين حياة نساء الخلفاء، والأمراء، وحاشيتهم من الجواري، وبين نساء العامة، التي تشمل أكثرية نساء المجتمع."[٢]" كما رأى البعض أن دور الجواري في السياسة قد أشاع الفوضى والاضطراب داخل مؤسسة الخلافة مما أدى إلى سقوطها بينما كان دور النساء الحرائر أفضل من دور الجواري لاتصافهن بالحكمة والإيمان والأصالة الفكرية."[٣]"ويقول الكبيسي: أن سلطان الحريم يأتي على قدر مبلغ سحرهن وتمكنهن من قلوب الخلفاء، وبالمقابل تضعف الخلافة وإدارتها."[٤]"

فسواء تدخلت النساء أم لم تتدخل في سياسية الدولة، فإن نفوذ الجند التركي الكبير لا يقارن بهذه التدخلات العادية، باستثناء الدور الذي قامت به أم المقتدر، لقد كان الخدم والمغنون والجواري وسائل ينفذ من خلالها الجند أهدافهم، ولقد تجاهل الكثيرون ممن درس دور الجواري عن قصد أو دون قصد أن المجتمع الإسلامي وإن منح المرأة حرية أكبر من تلك الحرية الممنوحة لغيرها من النساء في المجتمعات الأخرى في تلك الفترة، إلا أنه بقي مجتمعاً "ذكورياً" أي أن السلطة فيه للرجل، وأن تدخل النساء في شؤون الرجال يعتبر عيباً في نظر الكثير منهم، لذا بقي دورهن ثانوياً وغير ظاهر وتمت محاولة إخفاء الذي ظهر منه بتلك الستارة التي فصلت مجالس الخلفاء عن جواريهم.

إلا أن اعتماد الخلفاء على الأتراك وما هم عليه من قوة وفوضى أفقدت الخلفاء السيطرة، ورأى البعض أن هذه القوة هي التي مكنت الأتراك من السيطرة على الدولة واعتبر ذلك في نظر البعض حقاً " لم يكن بالإمكان حرمان الترك من التقدير نظراً لما هم عليه من السجايا الحربية التي تثير الإعجاب"."[٥]"

إلا أن البعض أظهر أن تراجع الدولـة كـان بـسبب تـدخل الخـدم والنـساء فـي الحكم، ومن ذلك ما قاله أحمد بن إسـرائيل رداً علـى كتـاب عبيـد الله بـن عبـد الله بـن طاهر حول موقف المعتز من بغا: "أنه قد حدث بعـدك وهـو مـالا نعرفـه نحـن ولا أنـت

---

١) الصابئ، الوزراء، ص٢٩٣.
٢)مليحة رحمة الله، الحالة الإجتماعية في العراق في القرنيين الثالث والرابع بعد الهجرة، ص١٢٤.
٣)محمد السامرائي، المرأة في أدب العصر العباسي، مجلة الفيصل، أبو ظبي- الإمارات، ٢٠٠٣م، (ع) ٣٢٣، ص١١٥.
٤) حمدان عبد المجيد الكبيسي، عصر الخليفة المقتدر، ١٩٧٤م، ص٧٩.
٥) جوستاف ا.فون جرونيباوم، حضارة الإسلام، ١٩٩٤م، ص٢٦٥.

رأي للحرم والخدم يقبل ويعمل عليه، وهذا فتح للخطأ وإخلاف للصواب"."[١] والحقيقة أن المسألة لا تتعلق برأي الحرم والخدم بقدر ما تتعلق بالخوف من غضب الأتراك وردود فعلهم على ما حدث، لذا يقول لتمان:"لما هبت أعاصير البربرية الجامحة، وأطفأت منائر بغداد، وزعزعت عرش الخلافة، وعبثت العجمة الجاهلة بتراث العرب من علم وأدب وخلق ودين .. اتسع خيال القصاص ليصور أحداثاً لم تقع"."[٢]

إذن فإن المزج بين الحقيقة والمبالغة كانت من أهم سمات هذه المرحلة، وكانت جميع العوامل التي قدمت من تدخل الجيش في الحكم ومن تولي قادته أمرة بعض الولايات والذين كانوا على علم بوضع الدولة الضعيف سبباً لاستقلالهم بمناطقهم،وكان ضعف الأسرة العباسية عاملاً رئيسياً في ذلك التراجع، وكان تدخل الرقيق والجواري ممن يعمل في دار الخلافة ومن نساء الخلفاء سبباً في ذلك أيضاً،

لقد أسهم الرقيق والجواري في ضعف الدولة العباسية وتراجعها بسبب ما منحه لهم الخلفاء من حرية الإطلاع على أخبارهم، إذ مثل الخليفة العباسي الدولة فكانت حياته المكشوفة لهم، أول مدخل لهذا الضعف، فأوصلوا أخباره إلى من سعى إليها، وبعضهم كان يقصد توصيل تلك الأخبار إلى السعاة لها، بينما كان لتساهل بعضهم في الحديث عنها فرصة لمن يلتقطها، وفرصة لتدخل بعضهم في أحداث مست حياة الخلفاء وأنهتها، ثم كان لهم أن يكونوا أسياداً لا عبيداً في قصور خلفائهم، وساء أمر الخلفاء بحيث لم يخفى ذلك الوضع على عامة الناس الذين تقبلوا واقع تلك الظروف فتعاملوا مع أحداثها تارةً بالاحتجاج وتارةً بالسكون.

إن هذه القوة التي مكنت الرقيق والجواري من إضعاف الدولة ليست قوة رقهم، بل كانت قوة الجيش المتعدد العناصر الذي كان سبب تراجع الدولة أولاً، فانضموا إلى هذه الفوضى وأسهموا بها بشكلٍ كبير فكانوا عيون قادة الجيش على الخلفاء، فأصبح الخليفة يخشى منهم كما يخشى بعض قادة جيشه، وأصبح الكثير منهم سبباً في تهديد حياة سيده، وصاحب رأي يؤخذ به لم يكن بمقدور الخلفاء والناس التخلي عن خدمات الرقيق والجواري في حياتهم اليومية، ولكن كان بإمكانهم، الحذر منهم بعدم منحهم حرية التدخل في حياتهم وكشف أخبارهم لهم.

---

١) الآبي، نثر الدر، ج(٣)، ص٢١٤ - ص٢١٥/ وابن حمدون، التذكرة الحمدونية، م(١)، ص٤٤٠ - ص٤٤١/ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج(٢)، ص٢٧٤ – ص٢٧٥.

٢) ليتمان، ألف ليلة وليلة دراسة وتحليل، ص٨٤ - ص٨٥.

لقد انتهت هذه الفترة من التاريخ العباسي ليصبح الخليفة اسماً يمنحه لمن يريد الشرعية التي ينفذ من خلالها سياساته، وأصبحت مهام الخليفة العباسي التي كان يقوم بها سابقاً جزءاً من مهام من يمنحه الشرعية، فقد منح المستولون على الخليفة العباسي الخلافة البقاء طوال ثلاثة قرون أخرى بصورتها التي تزداد ضعفاً، ليتم القضاء عليها من قبل المغول وتنقضي دولة كانت من أكثر الدول الإسلامية عمراً.

نتائج الدراسة:

لقد بينت هذه الدراسة جوانب مهمة من التاريخ الاجتماعي والثقافي الإسلامي، ومن التاريخ الاقتصادي والسياسي أيضاً، وقد توصلت إلى نتائج عديدة من خلالها، ومنها:

١) أن المسميات العديدة المرتبطة بالرقيق والجواري يمكن التفريق بينها بسهولة، إذ بينا معانيها وربطنا بينها.

٢) أن الدين الإسلامي وضع أسس وقواعد محددة للتعامل مع الرقيق، فلم يكن التعامل معهم عشوائياً، فكانت الحرية الممنوحة لهم في الدين الاسلامي، سبباً في تمردهم في الكثير من الأحيان على سادتهم.

٣) تعددت مصادر جلب الرقيق إلى العالم الإسلامي، وكان الرقيق القادم من أوروبا أفضل الرقيق لأنه كان يتم تدريبه في مراكز رئيسية في الأندلس والمغرب وكذلك الرقيق القادم من الممالك الإسلامية المنتشره في آسيا، بينما كان الرقيق القادم من افريقيا أقل مهارة وقدرة لوصوله مباشرة إلى البلاد الإسلامية.

٤) وضع المسلمون العديد من الآداب التي كان على الرقيق تعلمها، وبين صفاتهم، وفاضلوا بين أنواعه، وكيفية التعامل معه في مؤلفات وضعوها بصورة خاصة لهم.

٥) كانت هناك العديد من الأسباب الاجتماعية التي دفعت المسلمين لشراء الرقيق خاصة التسري، والرضاعة، وتقديم بعضهم كهدايا، بالإضافة لأهم سبب من تلك الأسباب وهو الخدمة.

٦) وكانت الأسباب الثقافية على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية، وذلك بسبب اعتماد العلماء على الرقيق المدرب على الكتابة، والقرآة، وذلك ليتم الإستعانة بهم في مكتباتهم الخاصة، وفي نسخ بعض مؤلفاتهم.

٧) وكانت الحاجة الاقتصادية لهم كبيرة إذ عمل العديد منهم في الزراعة، وكذلك في معاونة أصحاب الحرف المختلفة، واستثمرت أعداد كبيرة منهم من قبل السادة في مشاريع كبيرة.

٨) وكان للصراع السياسي في العصر العباسي الثاني دور كبير في شرائهم، فقدم خدمات من مثل الحراسة، ونقل الرسائل، والتجسس، والاغتيالات، وغيرها من خدمات.

٩) لقد كانت آثار الرقيق والجواري كبيرة في هذه المرحلة من التاريخ العباسي وذلك بسبب ازدياد أعدادهم، وازدياد الحرية الممنوحة لهم، واستغلالهم ضعف الدولة لتحقيق أهدافهم.

١٠) فقد أثر الرقيق والجواري في الصفات الخَلقية والخُلقية للسكان، فأثروا على العلاقات الإسرية، وكان بعضهم سبباً في فساد الأخلاق خاصة منازل القيان، بينما كان بعضهم

نموذجاً للأخلاق، وهذا لا يعني التناقض بل يعني أن هناك نوعين من الرقيق بعضهم سيء الخلق والبعض الآخر حسن الخلق، وقد يوثر السيد في سلوك مملوكه، فيدفعه للفساد أو يحضه على مكارم الأخلاق.

١١) أثر الرقيق في الناحية الثقافية بشكلٍ كبير، خاصة بسبب الإعتماد على الكثير منهم في الغناء، وفي الضرب على الآلات الموسيقية، بينما ساعد بعضهم المؤرخين، خاصة ممن يعمل في قصور الخلفاء، على نقل أخبار تلك القصور، إلا أن ذلك كان في الكثير من الأحيان جانباً سلبياً لأن الكثير من تلك المعلومات كانت تصل إلى أصحاب الغايات الخطيرة، الذين يهدفون للوصول للسلطة والسيطرة على الخليفة.

١٢) لقد كان تأثيرهم كبيراً من الناحية الاقتصادية، إذ ساهموا في نهب أموال الدولة مع من يقوم بنهبها من جند الخلافة، وكان بعضهم من الأمناء على خزائن الدولة المالية فأخرج تلك الكنوز خاصة في خلافة المقتدر.

١٣) وقام بعضهم بالمساهمة في قتل الخلفاء وفي تنصيب البعض الآخر الخلافة، وقد ظهر ذلك بشكل كبير في هذا العصر.

١٤) وكان تأثيرهم الكبير من الناحية السياسية، فكان الرقيق المقرب للخليفة، يقبل الرشوة مقابل، أن يؤثر على الخليفة مقابل تعيين أحدهم في منصب ما، أو في إخراج أحدهم من السجن، أو نقل أخبار خلفائهم لمن يرغب بها من الطموحين سياسياً.

١٥) ولقد تدخلت النساء بصورة كبيرة في هذه الفترة مقارنة مع ما سبقها من فترات إلا أن بعض هذه الأدوار كان مبالغاً به كدور " قبيحة" اتي لا يمكن أن يوصف بأن لها دور فعلي وواضح في الأحداث في خلافة المتوكل والمعتز، بل هو دور كان القيام به أكبر من قدراتها، بينما مكن المقتدر أمه (شغب) من أن تكون وصية عليه، وقد مكنت الجواري والرقيق وقادة الجيش وغيرهم من التدخل في شؤون الحكم، ونهب أموال الدولة.

١٦) إلا أن الأتراك، ورغم قوتهم، وكذلك من جاء بعدهم من الديلم، بقوا ضعفاء أمام نقطة مهمة وهي (الشرعية) فلا شرعية لهم، أو لوجودهم داخل بغداد أو سامراء أو غيرها من مدن العراق بلا وجود هذا الخليفة العباسي الذي يمثل هذه الشرعية المتمثلة بنسبه المرتبط بالعباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، لذا لم يسعوا لإنهاء هذه الخلافة بل سعوا إلى الحفاظ عليها ولكن بالصورة التي أردوها لها من الضعف وقلة الحيلة.

لقد كان الجميع إذن مسؤولاً عن هذا التراجع في مؤسسة الخلافة، فكان للخلفاء دورهم الكبير في ضعفها بعدم تلافي الخلافات داخل أسرتهم بل زادوا من تلك الخلافات فزاد التباعد بينهم، وكان تعدد ولاة العهد سبباً آخر من تلك الأسباب، وكان استكثارهم من الجند وتغييرهم مع كل مرحلة من مراحل التاريخ العباسي سبباً لكثرة الرقيق في بغداد خاصة الرقيق المستخدم في الجيش، وكان تساهلهم الكبير مع الخدم وفتح أبواب قصورهم وقلوبهم لهم وكشفهم جميع تفاصيل حياتهم أمامهم سبباً لاستغلال تلك الفرص ضدهم وضد دولتهم.

وكان على الجيش العباسي الجزء الأكبر من تلك المسؤولية حيث كانت قلة المهمات التي تلقى على عاتقه والفراغ الذي أصبح جزءاً من حياة أفراده يستغل داخل بغداد، فبعد أن استخدمه المعتصم في الكثير من الحروب التي خاضها، لم يتم استغلاله بشكلٍ كبيرٍ إلا زمن المعتمد وأخيه الموفق وفي خلافة المكتفي أيضاً، وقد كانت الأوقات التي وجه فيها نشاط الجيش إلى خارج بغداد سبباً لتحسن أوضاع الخلافة فيها واستقرارها سياسياً وإن كان ذلك لم يحدث إلا في فترات قليلة.

أما الدور الأخطر فكان من نصيب الرقيق والجواري الذين كانوا كالصديق الذي يؤتمن على صديقه ثم يغدر به، فقد كانوا أمناء الخلافة والخلفاء والمقربين لهم ولأزواجهم ولأبنائهم، ولخزائن الدولة ودواوينها، والعارفين مخارج قصورهم ومداخلها.

لقد كان بعضهم أهم من القادة العسكريين، ومن رجال الدولة لأنهم كانوا يمتلكون كل المعلومات المرتبطة بالخلفاء والتي كان يسعى لها للجميع ممن يسعون للسيطرة على الخليفة، وكانت مصالحهم مقدمة على مصالح أسيادهم، الذين ظنوا أنهم يفتدونهم في مثل هذه المواقف فخاب ظنهم بالكثير من هؤلاء المرتبطين بهم والذي كان أذاهم أكبر بكثير من خدمتهم للخلفاء.

نتائج الدراسة:

لقد بينت هذه الدراسة جوانب مهمة من التاريخ الاجتماعي والثقافي الإسلامي، ومن التاريخ الاقتصادي والسياسي أيضاً، وقد توصلت إلى نتائج عديدة من خلالها، ومنها:

١) أن المسميات العديدة المرتبطة بالرقيق والجواري يمكن التفريق بينها بسهولة، إذ بينا معانيها وربطنا بينها.

٢) أن الدين الإسلامي وضع أسس وقواعد محددة للتعامل مع الرقيق، فلم يكن التعامل معهم عشوائياً، فكانت الحرية الممنوحة لهم في الدين الاسلامي، سبباً في تمردهم في الكثير من الأحيان على سادتهم.

٣) تعددت مصادر جلب الرقيق إلى العالم الإسلامي، وكان الرقيق القادم من أوروبا أفضل الرقيق لأنه كان يتم تدريبه في مراكز رئيسية في الأندلس والمغرب وكذلك الرقيق القادم من الممالك الإسلامية المنتشره في آسيا، بينما كان الرقيق القادم من افريقيا أقل مهارة وقدرة لوصوله مباشرة إلى البلاد الإسلامية.

٤) وضع المسلمون العديد من الآداب التي كان على الرقيق تعلمها، وبين صفاتهم، وفاضلوا بين أنواعه، وكيفية التعامل معه في مؤلفات وضعوها بصورة خاصة لهم.

٥) كانت هناك العديد من الأسباب الاجتماعية التي دفعت المسلمين لشراء الرقيق خاصة التسري، والرضاعة، وتقديم بعضهم كهدايا، بالإضافة لأهم سبب من تلك الأسباب وهو الخدمة.

٦) وكانت الأسباب الثقافية على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية، وذلك بسبب اعتماد العلماء على الرقيق المدرب على الكتابة، والقرآة، وذلك ليتم الإستعانة بهم في مكتباتهم الخاصة، وفي نسخ بعض مؤلفاتهم.

٧) وكانت الحاجة الاقتصادية لهم كبيرة إذ عمل العديد منهم في الزراعة، وكذلك في معاونة أصحاب الحرف المختلفة، واستثمرت أعداد كبيرة منهم من قبل السادة في مشاريع كبيرة.

٨) وكان للصراع السياسي في العصر العباسي الثاني دور كبير في شرائهم، فقدم خدمات من مثل الحراسة، ونقل الرسائل، والتجسس، والاغتيالات، وغيرها من خدمات.

٩) لقد كانت آثار الرقيق والجواري كبيرة في هذه المرحلة من التاريخ العباسي وذلك بسبب ازدياد أعدادهم، وازدياد الحرية الممنوحة لهم، واستغلالهم ضعف الدولة لتحقيق أهدافهم.

١٠) فقد أثر الرقيق والجواري في الصفات الخَلقية والخُلقية للسكان، فأثروا على العلاقات الإسرية، وكان بعضهم سبباً في فساد الأخلاق خاصة منازل القيان، بينما كان بعضهم

نموذجاً للأخلاق، وهذا لا يعني التناقض بل يعني أن هناك نوعين من الرقيق بعضهم سيء الخلق والبعض الآخر حسن الخلق، وقد يوثر السيد في سلوك مملوكه، فيدفعه للفساد أو يحضه على مكارم الأخلاق.

١١) أثر الرقيق في الناحية الثقافية بشكلٍ كبير، خاصة بسبب الإعتماد على الكثير منهم في الغناء، وفي الضرب على الآلات الموسيقية، بينما ساعد بعضهم المؤرخين، خاصة ممن يعمل في قصور الخلفاء، على نقل أخبار تلك القصور، إلا أن ذلك كان في الكثير من الأحيان جانباً سلبياً لأن الكثير من تلك المعلومات كانت تصل إلى أصحاب الغايات الخطيرة، الذين يهدفون للوصول للسلطة والسيطرة على الخليفة.

١٢) لقد كان تأثيرهم كبيراً من الناحية الاقتصادية، إذ ساهموا في نهب أموال الدولة مع من يقوم بنهبها من جند الخلافة، وكان بعضهم من الأمناء على خزائن الدولة المالية فأخرج تلك الكنوز خاصة في خلافة المقتدر.

١٣) وقام بعضهم بالمساهمة في قتل الخلفاء وفي تنصيب البعض الآخر الخلافة، وقد ظهر ذلك بشكل كبير في هذا العصر.

١٤) وكان تأثيرهم الكبير من الناحية السياسية، فكان الرقيق المقرب للخليفة، يقبل الرشوة مقابل، أن يؤثر على الخليفة مقابل تعيين أحدهم في منصب ما، أو في إخراج أحدهم من السجن، أو نقل أخبار خلفائهم لمن يرغب بها من الطموحين سياسياً.

١٥) ولقد تدخلت النساء بصورة كبيرة في هذه الفترة مقارنة مع ما سبقها من فترات إلا أن بعض هذه الأدوار كان مبالغاً به كدور " قبيحة" اتي لا يمكن أن يوصف بأن لها دور فعلي وواضح في الأحداث في خلافة المتوكل والمعتز، بل هو دور كان القيام به أكبر من قدراتها، بينما مكن المقتدر أمه (شغب) من أن تكون وصية عليه، وقد مكنت الجواري والرقيق وقادة الجيش وغيرهم من التدخل في شؤون الحكم، ونهب أموال الدولة.

١٦) إلا أن الأتراك، ورغم قوتهم، وكذلك من جاء بعدهم من الديلم، بقوا ضعفاء أمام نقطة مهمة وهي (الشرعية) فلا شرعية لهم، أو لوجودهم داخل بغداد أو سامراء أو غيرها من مدن العراق بلا وجود هذا الخليفة العباسي الذي يمثل هذه الشرعية المتمثلة بنسبه المرتبط بالعباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، لذا لم يسعوا لإنهاء هذه الخلافة بل سعوا إلى الحفاظ عليها ولكن بالصورة التي أردوها لها من الضعف وقلة الحيلة.

لقد كان الجميع إذن مسؤولاً عن هذا التراجع في مؤسسة الخلافة، فكان للخلفاء دورهم الكبير في ضعفها بعدم تلافي الخلافات داخل أسرتهم بل زادوا من تلك الخلافات فزاد التباعد بينهم، وكان تعدد ولاة العهد سبباً آخر من تلك الأسباب، وكان استكثارهم من الجند وتغييرهم مع كل مرحلة من مراحل التاريخ العباسي سبباً لكثرة الرقيق في بغداد خاصة الرقيق المستخدم في الجيش، وكان تساهلهم الكبير مع الخدم وفتح أبواب قصورهم وقلوبهم لهم وكشفهم جميع تفاصيل حياتهم أمامهم سبباً لاستغلال تلك الفرص ضدهم وضد دولتهم.

وكان على الجيش العباسي الجزء الأكبر من تلك المسؤولية حيث كانت قلة المهمات التي تلقى على عاتقه والفراغ الذي أصبح جزءاً من حياة أفراده يستغل داخل بغداد، فبعد أن استخدمه المعتصم في الكثير من الحروب التي خاضها، لم يتم استغلاله بشكلٍ كبيرٍ إلا زمن المعتمد وأخيه الموفق وفي خلافة المكتفي أيضاً، وقد كانت الأوقات التي وجه فيها نشاط الجيش إلى خارج بغداد سبباً لتحسن أوضاع الخلافة فيها واستقرارها سياسياً وإن كان ذلك لم يحدث إلا في فترات قليلة.

أما الدور الأخطر فكان من نصيب الرقيق والجواري الذين كانوا كالصديق الذي يؤتمن على صديقه ثم يغدر به، فقد كانوا أمناء الخلافة والخلفاء والمقربين لهم ولأزواجهم ولأبنائهم، ولخزائن الدولة ودواوينها، والعارفين مخارج قصورهم ومداخلها.

لقد كان بعضهم أهم من القادة العسكريين، ومن رجال الدولة لأنهم كانوا يمتلكون كل المعلومات المرتبطة بالخلفاء والتي كان يسعى لها للجميع ممن يسعون للسيطرة على الخليفة، وكانت مصالحهم مقدمة على مصالح أسيادهم، الذين ظنوا أنهم يفتدونهم في مثل هذه المواقف فخاب ظنهم بالكثير من هؤلاء المرتبطين بهم والذي كان أذاهم أكبر بكثير من خدمتهم للخلفاء.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر المخطوطة:

- بايا، أبو العباس سيدي أحمد بن أحمد بن عمر،د.ت.**مخطوط معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود، أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان**، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، رقم الشريط(٣٥٨) (صورة بالميكروفيلم).

- الحنبلي، شمس الدين محمد بن أحمد،د.ت. **مخطوط كتاب نشق الأزهار في عجائب الأمصار**، مركز المخطوطات والوثائق في الجامعة الأردنية، رقم الشريط(٣٥٨) (صورة بالميكروفيلم).

- السيوطي، جلال الدين الشافعي،د.ت. **مخطوط نزهة الجلساء في أشعار النساء**، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، رقم الشريط(٣٧٤) (صورة بالميكروفيلم).

المصادر المنشورة:

- الأبشـيهـي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد المحلي(تـ٨٥٢هـ). **المستطرف في كل فن مستظرف**، ط(٢)، جزئين، المطبعة البهية، القاهرة،(١٩٣٥م).

- الاتـليـدي، محمد بن دياب، د.ت. **نوادر الخلفاء المسمى إعلام الناس بما وقع للبرامكة من بني العباس**، ط(١)،(تحقيق أيمن عبد الجابر النميري)، دار الآفاق العربية،د.م.(١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

- ابن الأثـيـر، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (تـ ٦٣٠هـ). **الكامل في التاريخ**، ط(١)، ج(٩)، (تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا)، دار المعرفة، بيروت، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

الأربـلـي، أبو محمد بدر الدين عبد الرحمن بن إبراهيم ابن قنينو (تـ٧١٧هـ). **خلاصة الذهب المسبوك**، (تحقيق مكي سيد جاسم)، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

- الأزدي، علي بن ظافر (ت ـ٦١٣هـ). **بدائع البدائة،** (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (١٩٧٠م).

- الإصطـخـري، ابو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، (المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري). **المسالك والممالك،** (تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني)، دار القلم، القاهرة، (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

- الأصفـهانـي، الإمام الأديب أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب،(ت ـ٥٠٢هـ). **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء،** ط(١)، جزئين، (حققه وضبط نصوصه وعلق حواشيه د. عمر الطباع)، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت،. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

- الأصفـهانـي، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي(٢٨٤هـ- ٣٥٦هـ). **الأغاني،** ط(٦)، (٢٥) جزء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

*ـــــــــــــــ **القيان،** (تحقيق جليل العطية)، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن (١٩٨٩م).

*ـــــــــــــــ **والديارات،** (تحقيق جليل العطية)، دار رياض الريس للكتب والنشر،لندن،(١٩٩١م).

- ابن أبـي اصيـبـعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت ـ٦٦٨هـ).**عيون الأنباء في طبقات الأطباء،** (شرح وتحقيق د. نزار رضا)، دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٩٦٥م).

- الأمشـاطـي، محمود بن أحمد العينتابي(ت ـ٩٠٣هـ). **القول السديد في اختيار الإماء والعبيد رسالة نادرة في شرى وتقليب العبيد،** ط(١) (تحقيق د.محمد عيسى صالحية)، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

- الآبـي، الكاتب أبو سعد منصور بن الحسين(ت ـ ٤٢١هـ). **نثر الـدر،** د.ط،ج(٤)، (اختار النصوص وعلق عليها مظهر الحجي)، وزارة الثقافة، دمشق، (١٩٩٧م).

- ابن بـكـار، الزبير(تـ٢٥٦هـ). **الأخبار الموفقيات،** ط(٢) (تحقيق سامي مكي العاني)، عالم الكتب، بيروت، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

- البـكـري، عبيد الله بن عبد العزيز أبو عمرو (٤٣٢هـ-٤٨٧هـ). **المسالك والممالك،** د.ط،ج(٢)، (تحقيق اوريان فان ليوفون)، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م.

- البلاذوري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، (تـ٢٧٩هـ). أنساب الأشراف، د.ط، ج(٣)،(تحقيق محمد باقر المحمودي، دار الثقافة للمطبوعات، بيروت، (١٩٧٧م).

- البـيـرونـي، أبو الريحان محمد بن أحمد (تـ ٤٣٠هـ). **كتاب الجماهر في معرفة الجواهر،** ط(١)، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

- البـيـهـقـي، ظهير الدين إبراهيم بن محمد(تـ٣٢٠هـ). **المحاسن والمساوئ،** دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

- الـتـنـوخـي، القاضي أبو علي المحسن بن علي (تـ٣٨٤هـ). **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة،** د.ط، ج(٨)، (تحقيق عبود الشالجي)، د.م، ١٩٧٢م.

*___________ **الفرج بعد الشدة،** ط(١)، (تحقيق د. محمد حسن عبد الله)، مكتبة وهبه، القاهرة، (١٩٩٣م).

- الثـعالـبـي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(تـ٤٢٩هـ). **تحفة الوزراء المنسوب إليه،** د.ط، (تحقيق حبيب علي الراوي، ود. ابتسام مرهون الصفار)، وزارة الأوقاف، بغداد،(١٩٧٧م).

*___________ **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب،** د.ط، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار المعارف، مصر، (١٩٨٥م).

* ___________ **لطائف المعارف،** د.ط (تحقيق إبراهيم الابياري، وحسن كامل الصيرفي)، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.

*ـــــــــــــــــــ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ط(١)، (تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

- الـجـاحــظ: أبو عثمان عمرو بن بحر(ت ٢٥٥هـ)، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. **المحاسن والأضداد**، تحقيق عصام عيتاني، دار إحياء العلوم - بيروت، ط(١)، وله أيضاً:

*ـــــــــــــ **الرسائل**، اختارها الإمام عبد الله بن حسان، ط(١)، مجلدين، (شرحها محمد باسل عيون السود)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

*ــــــــــــالرسالة الرابعة: " **فخر السودان على البيضان**"

*ــــــــــــالرسالة الثالثة عشرة: " **مفاخرة الجواري والغلمان".**

*ــــــــــــالرسالة الرابعة عشرة: " **القيان ".**

*ـــــــــــ**التاج في أخلاق الملوك (منسوب له)،** ط(١)، (تحقيق أحمد زكي باشا)، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٣٢هـ -١٩١٤م.

*ـــــــــــ**كتاب الحيوان**، ط(٣)، مجلدين، (تحقيق د. يحيى الشامي)، منشورات مكتبة دار الهلال، بيروت،(١٩٩٧م).

- الـجـريـري، أبو الفرج معافى بن زكريا النهرواني (ت ٣٩٠هـ). **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**، ط(١)، أربعة أجزاء،(تحقيق محمد مرسي الخولي) عالم الكتب، بيروت(١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

- ابن جـمـيـل، أبي الحسن علي بن محمد المعافري المالقي(ت ٦٠٥هـ/١٢٠٨م). **الحدائق الغناء في أخبار النساء تراجم شهيرات النساء في صدر الإسلام**، (تحقيق د.عائدة الطيبي)، الدار العربية للكتاب، تونس، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

- ابن الـجـوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي القرشي (ت ٥٩٧هـ). **أخبار الظراف والمتماجنين**، ط(٢)، (تقديم وتعليق محمد بحر العلوم)، المكتبة الحيدرية، النجف، (١٣٨٦هـ/١٩٦٧م).

*__________ **ذم الهوى**، ط(١)، (تحقيق مصطفى عبد الواحد)، دار الكتب الحديثة القاهرة، (١٩٦٢م).

*__________ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ج(١٠)، (تحقيق سهيل زكار)، دار الفكر، بيروت، (١٩٩٥م).

*__________ **أخبار النساء**، (تحقيق نزار رضا)، مكتبة الحياة -بيروت، (١٩٧٩م).

-الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط(٢)، (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار)، (١٩٨٢م).

- الجوهري، إسماعيل بن حماد،**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ط(٢)،ج(٧)، (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار)،د.م، (١٩٨٢م).

- ابو حـبـيـب، أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٦هـ).. **عقلاء المجانين**، ط(١)، (تحقيق عمر الأسعد)، دار النفائس، بيروت، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).

- ابو حـبـيـب، أبو جعفر محمد بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي، د.ت. **المحبر عن رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري**، اعتنى بتصحيح الكتاب د. إيلزه ليحتن شتيتر، جمعية دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن،(١٣٦١هـ= ١٩٤٢م).

- ابن حـجـه الحـمـوي، تقي الدين أبو بكر بن علي الأزرادي (ت٨٣٧هـ). **ثمرات الأوراق**، ط(٣)، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧م.

- ابـن حـ ـزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، د.ت. **جوامع السير وخمس رسائل اخرى**، (تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد)، دار المعارف، مصر، د.ت.

- ابن حـمـدون، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي(ت٥٦٢هـ). **التذكرة الحمدونية**، مج (٨)، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر،بيروت، (١٩٨٣م).

- ابن حـمـيـد، أبو عثمان سعيد بن بحر الكاتب، **رسائله وأشعاره**، (جمعها وحققها يونس أحمد السامرائي)، مطبعة الإرشاد، بغداد، (١٩٧١م).

- ابن حـوقـل: أبو القاسم محمد(ت ٣٦٧هـ). **صورة الأرض**، ط(٢)، م(١)، ج(٢)، ليدن، برل، (١٩٦٧م).

- أبو حيان التـوحـيـدي، علي بن محمد بن العباس أبو حيان (ت ٤٠٠هـ). **البصائر والذخائر**،ج(٤)، مكتبة أطلس، دمشق، (١٩٦٤م).

- (التوحيدي، ومسكويه)، **الهوامل والشوامل**،د.ط، (نشره أحمد أمين، وأحمد صقر) لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، (١٩٥١م).

- الخطيب الـبغـدادي، أحمد بن علي بن ثابت بن احمد بن المهدي أبو بكر (ت٤٦٣هـ). **تاريخ مدينة السلام(تاريخ بغداد) وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء وواريديها**، ط(١)، ج(١٧)، (تحقيق بشار عواد معروف)، دار الغرب الإسلامي، قرطاج، (٢٠٠١م).

- ____________ **كتاب التطفيل وحكايات الطفيلين وأخبارهم ونوادرهم كلامهم وأشعارهم**، ط(١)، (تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان)، دار المدني، جدة، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

- ابـن خـلـدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت٨٠٨هـ). **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، ج(٤)، (تحقيق تركي فرحان المصطفى)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- ابن خـلكـان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت ٦٨١هـ). **وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان**،د.ط، ج(٨)، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

- خـواندميـر، غياث الدين (ت ٩٤٢هـ). **دستور الوزراء،** (ترجمة حربي أمين سليمان)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٠م).

- ابن دحـيـة، أبو الخطاب عمر بن الحسن(ت ٦٣٣هـ). **النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس،** ط(١)، (تحقيق مديحة الشرقاوي)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. (١٤١٢هـ/٢٠٠١م).

- الإدريـسـي، أبو عبد الله بن عبيد الله الحمودي،د.ت. **نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)،** د.ط، (تحقيق إسماعيل العربي)، ديوان المطبوعات، الجزائر. (١٩٨٣م).

- الـذهـبـي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨هـ).**دول الإسلام،** ط(٢)، جزئين، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤م).

- **ـــــــــ العبر في خبر من غبر،** ج(٥)، (تحقيق صلاح الدين المنجد، وفؤاد السيد)، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، (١٩٦٦م).

- ابن الزبـيـر، القاضي أبو الحسن أحمد بن الرشيد(القرن الخامس الهجري). **الذخائر والتحف،** ط(١)، (حققه محمد حميد الله الحيدر آبادي)، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، (١٩٥٩م).

- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني،(د.ت). **تاج العروس في جواهر القاموس،** (تحقيق عبد العزيز مطر)، مطبعة الحكومة – الكويت، (١٩٧٠م).

- ابن السـاعـي، تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب(٥٩٣هـ- ٦٧٤هـ). **نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء،** ط(٢)، (تحقيق مصطفى جواد)، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣م.

- ابن سلمة، أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم النحوي اللغوي (ت ٢٩٠هـ). **كتاب الملاهي وأسمائها من قبل الموسيقى،** (حققه وشرحه غطاس عبد الملك خشبة)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

- السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ). **المستظرف من أخبار الجواري،** ط(١)، (تحقيق صلاح الدين المنجد)، دار الكتاب الجديد، بيروت، (١٩٦٣م).

*________ **تاريخ الخلفاء،** ط(١)، (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد)، مطبعة السعادة، مصر،(١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م).

- الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد(ت ٣٨٨هـ). **الديارات،** ط(٢)، (تحقيق كوركيس عواد)، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).

- الشيزري، أبو النجيب جلال الدين عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ). **نهاية الرتبة في طلب الحسبة،** د.ط، (نشره السيد الباز العريني)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م).

- الصابئ، أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن غرس النعمة(ت ٤٤٨هـ). **رسوم دار الخلافة،** ط(١)، (تحقيق ميخائيل عواد)، دار الآفاق العربية، القاهرة، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

*__________**الهفوات النادرة من المغفلين الملحوظين والسقطات الباردة من المغفلين المحظوظين،**. (تحقيق محمد سعيد حماد، وطلعت محمد الشيخ، تنفيذ هيام محمد محمد)، ط(١)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (١٤٢٤هـ).

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت ٧٦٤هـ). **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب،** القسم (١)، (حققته إحسان بنت سعيد خلوصي، وزهير حميدان الصمصام)، منشورات وزارة الثقافة لاحياء التراث العربي، دمشق، (١٩٩١م).

* __________**مختصر كتاب نكت الهميان في نكت العميان**، ط(١)، (اختصره عبد الإله بن عثمان الشايع)، دار الصميعي-الرياض، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

- الصـولـي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله(ت ٣٣٥هـ). ما **لم ينشر من أوراق الصولي أخبار السنوات(٢٩٥هـ -٣١٥هـ)**، ط(١)، (تحقيق هلال ناجي)، عالم الكتب، بيروت، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

- الـطـبـري، محمد بن جرير(ت ٣١٠هـ). **تاريخ الرسل والملوك**، د.ط، ج(١١)، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار المعارف، مصر، (١٩٦٨م).

* __________ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، م(١٥). دار الفكر، بيروت (١٩٩٥م).

- ابن الطـقـطقـا، محمد بن علي بن طباطبا، د.ت. **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ط(١)، (نقحه وراجعه محمد عوض إبراهيم بك، وعلي الجارم بك)، دار المعارف، مصر، (١٩٥٠م).

- ابن عبـد ربـه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي(ت ٣٢٧هـ). **العقد الفريد**، ج(٧)، (تحقيق أحمد أمين وآخرون)، (١٩٨٦م).

- ابن عبدون البغدادي، أبي الحسن المختار بن الحسن المتطبب، **رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد نوادر المخطوطات**، ج(١)، (تحقيق عبد السلام هارون)، دار الجيل، بيروت، د.ت.

- ابن العـبـري، جريجوريوس الملطي (ت ٦٧٥هـ). **مختصر تاريخ الدول**، ط(٢). المطبعة الكاثوليكية، بيروت، (١٩٥٨م).

- ابن العـمـاد الحنـبـلي، الإمام شهاب الدين أبي فلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد(ت ١٠٨٩هـ). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ط(١)، ج(٣)، (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

- ابن العـمـرانـي، محمد بن علي بن محمد(تـ ٥٨٠هـ). **الأنباء في تاريخ الخلفاء،** د.ط، (تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائي)، دار إحياء الكتب العربية ليدن، برل. ١٩٧٣م.

- الـعـمـري: الخطيب ياسين بن خير الله الموصلي(تـ١٢٣٢هـ). **الروضة الفيحاء في تاريخ النساء،**د.ط، د.م، ١٩٨٧م.

*_________ **مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء،** (تحقيق عماد علي حمزة)، (تحقيق رجاء محمود السامرائي)، وزارة الثقافة والارشاد – بغداد، د.ت.

- ابن أبـي عـون: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد(تـ ٣٢٢هـ). **الأجوبة المسكتة،** د.ط، (تحقيق محمد عبد القادر أحمد)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (١٩٨٥م).

- غرس النعمة، هلال بن المحسن،د.ت. **الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء،** (تحقيق عبد الستار أحمد فراج)، عيسى البابي الحلبي - القاهرة، (١٩٥٨م).

- الـغـزولـي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي(٨١٥هـ). **مطالع البدور في منازل السرور،** م(١)، ج(٢)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (١٤١٩هـ/ ٢٠٠٠م).

- الغزالي، محمد، **هداية المريد في تقليب العبيد نوادر المخطوطات،** د.ط، ج(١) (تحقيق عبد السلام هارون)، دار الجيل، بيروت،د.ت.

- ابن الفـقـيه الهمـذاني، أبو عبد الله أحمد بن محمد،د.ت. **بغداد** مدينة السلام، ط(١)، (تحقيق صالح أحمد العلي)، وزارة الإعلام، بغداد، (١٩٧٧م).

- الفيروز آبادي، مجدي الدين محمد بن يعقوب،د.ت. **القاموس المحيط،** دار الجيل، بيروت، د.ت.

- الـقـالـي، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي(٣٥٦هـ). **ذيل الأمالي والنوادر ويليه كتاب " التنبيه" لأبي عبيد البكري،** ط(٣)، (طبعه مصطفى إسماعيل يوسف بن دياب)، د.م، (١٩٥٣م).

- ابن قـتـيـبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦هـ). **عيون الأخبار**، د.ط، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، (١٣٤٣هـ/١٩٢٥م).

*ـــــــــ **المعارف**، ١٩٦٩م. تحقيق ثروت عكاشة، ط(٢)، م(٤)، دار الكتب المصرية - القاهرة.

- ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد(ت ٦٣٠هـ). د.ت، **المغنى**، على مختصر أبة القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي،ج(٩)،د.ط، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، د.ت.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري(ت ٦٧١هـ).**الجامع لأحكام القرآن**، ط(٢)، مج(٢٠)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٥٢م).

- الـقزويـنـي، أبو زكريا بن محمد بن محمود(تـ١٢٨٣م). **آثار البلاد وأخبار العباد**، د.ط، دار صادر، بيروت، (١٩٦٠م).

- القـيـروانـي، أبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري(ت ٤٥٣هـ). **زهر الآداب وثمر الألباب**، د.ت. صلاح الدين الهواري، أربع مجلدات، المكتبة العصرية - بيروت، د،ت.

*ـــــــــ **ذيل زهر الآداب جمع الجواهر في الملح والنوادر**، ط(١)، المطبعة الرحمانية، مصر، (١٣٥٣هـ).

- الـقيـروانـي، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق(تـ٤٢٥هـ). **المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور**،د.ط، (حققه عبد الحفيظ منصور، اختاره علي نور الدين المسعودي)، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، د.م، (١٩٧٦م).

- القـلقشنـدي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله بن أحمد الفزاري (٧٥٦هـ-٨٢١هـ)، **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**،د.ط، ج(٢)، (تحقيق عبد الستار أحمد فراج)، الكويت، (١٩٦٤م).

*__________ **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، د.ط، ج(١٤)، (تحقيق محمد حسين شمس الدين)، دار الكتب العلمية – بيروت، (١٩٨٧م).

- ابـن الـكـازرونـي، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي،(تـ٦٩٧هـ). **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس،** د.ط. (تحقيق د.مصطفى جواد)، مطبعة الحكومة، بغداد، (١٢٩٠هـ/١٩٧٠م).

- ابـن كـثـيـر، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (تـ٧٧٤هـ). **البداية والنهاية ومعه نهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم**،د.ط، ج(١٠)، (تحقيق صدقي جميل العطار)، دار الفكر، بيروت، (١٩٩٨م).

- الـمـاوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (٣٦٤هـ-٤٥٠هـ). **نصيحة الملوك**، د.ط، (تحقيق محمد جاسم الحديثي)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (١٩٨٦م).

- مـجهـول المـؤلـف، **كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، من عام(٢٥٦هـ/ ٨٧٠م- ٣٥٠هـ/ ١٩٦١م)،د.ط، ج(٣)، (عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه عمر السعيدي)، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، (١٩٧٣م).

- مرتـضـى، نظمي زاده افندي، **كلشن خلفا(روضة الخلفاء)،** د.ط.(ترجمة موسى كاظم نورس)، مطبعة الآداب، النجف، د.ت.

- الـمـرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران(تـ٣٨٤هـ). **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ط(٢)، (تحقيق محب الدين الخطيب)، المطبعة السلفية، القاهرة، (١٩٦٥م)

الـمسـعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (تـ ٣٤٦هـ). **التنبيه والإشراف،** (تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي)، دار الصاوي للطباعة والنشر، القاهرة. ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

*_________ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**،د.ط، ج(٤)، (شرح عبد الأمير مهنا)، ط(١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات –بيروت، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

- ابن مسـكـويـه، أبو علي أحمد بن محمد(تـ ٤٢١هـ). **تجارب الأمم وذيله لظهير الدين الرزواري**، جزئين، مكتبة المثنى، بغداد، (١٩١٥م).

- الـمغـيـري، سعيد بن علي، د.ت. **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار**،د.ط، (تحقيق عبد المنعم عامر)، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، (١٩٧٩م).

- المـقـدسـي، محمد بن أحمد، د.ت. **رحلة المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط(١)، دار ارتياد الآفاق، (٢٠٠٣م).

- المـقـري، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد، **المختار من النوادر والأخبار** ط(١)، (تحقيق أنور أبو سويلم)، مؤسسة الرسالة، عمان، (١٩٨٦م).

- ابن منـظـور، جمال الدين محمد بن مكرم (تـ ٧١١هـ). **لسان العرب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(١٩٩٣م).

*_________ **المنتخب والمختار في النوادر والأشعار**،د.ت. د،ط، (تحقيق د.عبد الرزاق حسين)، دار عمار ومكتبة الذهبي، السعودية، د.ت.

- ابن الـنـجار، محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود بن الحسن البغدادي(تـ ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م). **ذيل تاريخ بغداد**، ط(١)، ج(٣)، (صحح بمشاركة قيصر فرح)، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن، الهند، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

- نـظـام المـلـك، قوام الدين أبو علي الحسن بن علي الطوسي(٤٠٨هـ-٤٨٥هـ). **سياسة نامة أو سير الملوك**، (ترجمة د. يوسف حسين بكار)، دار القدس، بيروت. (١٩٧٠م).

- الـنويـري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧هـ - ٧٣٣هـ). **نهاية الأرب في فنون الأدب**،د.ط، ج(٣٢)، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٥٥م).

- اليـافـعـي، عفيف الدين أبو السعادات عبد الله بن أسعد(تـ٧٦٨هـ). **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**،د.ط ج(٤)، (وضع الحواشي خليل منصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- اليعـقـوبـي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن الواضح الاخباري(تـ٢٨٤هـ)**. البلدان**، ط(٣)، المطبعة الحيدرية، النجف، (١٩٥٧م).

*ـــــــــــــــ **تاريخ اليعقوبي**، ط(٣)،ج(٣) (علق عليه السيد محمد صادق بحر العلوم)، المكتبة الحيدرية، النجف، د.ت.

*ــــــــــــــ **مشاكلة الناس لزمانهم**،د.ط (تحقيق وليم مور)، دار الكتاب الجديد، بيروت، (١٩٨٠م).

- وكـيـع، محمد بن خلف بن حيان (تـ ٣٠٦هـ). **أخبار القضاة**، ج(٣)، عالم الكتب، بيروت، (١٩٨٠م).

- الـوطـواط، الإمام العلامة أبو إسحاق جمال الدين محمد بن إبراهيم الكتبي(تـ٧١٨هـ)، **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، ط(١)، دار صعب – بيروت، د.ت.

<u>المراجـــع:</u>

- الأسد، ناصر الدين،(١٩٦٠م). **القيان والغناء في العصر الجاهلي**، لبنان: دار صادر.

- أمين، أحمد، د.ت. **ضحى الإسلام**، ط(١٠)، ج(٢) بيروت: دار الكتاب العربي.

- الأنصاري، فاضل،(٢٠٠١م). **العبودية والرق والمرأة بين الإسلام الرسولي والإسلام التاريخي**، مكتبة الأهالي.

- بدران، جمال،(١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م). **الجواري والحظايا**، ط(١)، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

- البستاني، كرم،(١٩٦٤م). **النساء العربيات في الأدب، في الغناء، في الحرب، في الكهانة**، بيروت: دار صادر ودار بيروت.

- بيلياييف، ايفجيني الكسندر وفتش، (١٩٧٣م). **العرب والإسلام والخلافة العربية**، (ترجمة أنيس قريحة)،ط(١)،بيروت: الدار المتحدة للنشر.

- الترمانيني، عبد السلام،(١٣٩٩هـ/١٩٧٩م). **الرق ماضيه وحاضره**، الكويت: عالم المعرفة.

- الجداوي، مصطفى،(١٩٦٣م). **الرق في التاريخ الإسلامي**، ج(٢)، د.م.

- جرونيباوم، جوستاف أ. فون،(١٩٩٤م). **حضارة الإسلام**، (عبد العزيز توفيق جاويد)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- جواد، مصطفى،د.ت. **سيدات البلاط العباسي**،بيروت: دار الفكر للجميع .

- ـــــــوآخرون، (١٩٦٩م). **بغداد**، بغداد: دار رمزي.

- جودة، صادق، (١٤٠٦هـ /١٩٨٥م). **الرحلة المتوكلية إلى دمشق**، ط(١)، بيروت: مؤسسة الرسالة.

- حتاملة، عبد الكريم عبده، (١٩٨٤م). **المعتمد في خلافة المعتضد بالله العباسي أحمد الموفق (٢٧٩هـ - ٢٨٩هـ)**، ط(١)، عمان: مديرية المكتبات والوثائق الوطنية.

- حسن، علي إبراهيم، (١٩٧٠م). **نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

- حماد، هيام علي،(١٩٨٦م). **المرأة في ألف ليلة وليلة**، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق.

- حمادة، محمد ماهر،(د.ت.) **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة(٢٤٧هـ -٦٥٦هـ)**، بيروت: مؤسسة الرسالة.

- خريسات، محمد عبد القادر، (١٩٩٨م). **المرأة والمشاركة السياسية في ظل الدولة الإسلامية من العصر الجاهلي حتى سقوط الخلافة العباسية**،ط(١)، (د.م).

- (خريسات، محمد عبد القادر، والنابودة، حسن محمد)،(١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م). **صاحب الخبر في الدولة الإسلامية**، ط(١)، الامارات العربية المتحدة: مركز زايد للتراث والتاريخ.

- دعبول، رضوان،(١٤١٩هـ/١٩٩٨م). **تراجم أعلام النساء**، ط(١)، عمان: مؤسسة الرسالة.

- الدوري، عبد العزيز،(١٩٤٥م). **دراسات في العصور العباسية المتأخرة**، بغداد: مطبعة السريان.

ـــــــــ،(١٩٥٠م). **النظم الإسلامية الخلافة، الضرائب، الدواوين، الوزارة**، ط(١) بغداد: وزارة المعارف العراقية.

ـــــــــ،(١٩٧٤م). **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، ط(٢)، بيروت دار المشرق.

- الراوي، طه، (١٩٤٥م).**بغداد مدينة السلام**، (صدر بمعاونة د. طه حسين بك، وانطوان الجميل بك، وعباس محمود العقاد، وفؤاد صروف)، مصر: دار المعارف.

- رحمة الله، مليحة،(١٩٧٠م) . **الحالة الإجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة**، بغداد: مطبعة الزهراء.

- الزهراني، ضيف الله يحيى، (١٩٨٦م). **النفقات وإدارتها في الدولة العباسية من سنة ١٣٢هـ -٧٤٩هـ**، ط(١)،مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي.

- السامر، فيصل،(٢٠٠٠م). **ثورة الزنج**، ط(٢)، دمشق دار المدى.

- الشيرازي، السيد محمد بن المهدي الحسيني، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م). **من التمدن الإسلامي**، ط(١)،بيروت: دار الصادق.

- صقر، نادية حسنى،(١٩٨٣م). **مطلع العصر العباسي الثاني الإتجاهات السياسية والحضارية في خلافة المتوكل على الله(٢٣٢ -٢٤٧هـ)**، جدة: دار الشروق.

- ضيف، شوقي، (١٩٧٣م).**العصر العباسي الثاني**، مصر: دار المعارف.

- عبد النور، جبور،(١٩٤٧م). **الجواري**، مصر: دار المعارف.

- العبيدي، صلاح حسين،(١٩٨٠م). **الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي الثاني من المصادر التاريخية والأثرية،** بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام.

- علبي، أحمد،(١٩٨٥م). **ثورة العبيد في الإسلام**، ط(١)،بيروت: دار الآداب.

- العلي، زكية عمر،(١٩٧٦م). **التزييق والحلى عند الرأة في العصر العباسي**،بغداد: منشورات وزارة الإعلام.

- العلي، صالح أحمد،(٢٠٠١م). **سامراء دراسة في النشأة والبنية والسكان**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

• **ـــــــــــ(١٩٨٥م). بغداد مدينة السلام انشاؤها وتنظيم سكانها في العهود العباسية الأولى**،جزئين، المجمع العلمي العراقي - بغداد.

- العمروسي، فايد،(١٩٦١م). **الجواري المغنيات**،د.ط، مصر: دار المعارف.

- فارمر، هنري جورج،(١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). **الموسيقى والغناء في ألف ليلة وليلة**، (ترجمة د. حسين نصار)، ط(٢)، بيروت: منشورات اقرأ.

• **تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي**، (١٩٧٢م). (ترجمة جرجيس فتح الله المحامي)،بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

- فازيليف،(١٩٥٠). **العرب والروم**، (ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة)، راجعه فؤاد حسين علي،د.ط ،القاهرة: دار الفكر العربي.

- فوزي، فاروق عمر، (١٩٧٣م)، **محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية٢٤٧هـ-٣٣٤هـ/ ٨٦١ -٩٤٦م**، بغداد: مطبعة دار السلام.

*ـــــــــ(١٩٩٨م). الخلافة العباسية السقوط والانهيار، عمان: دار الشروق.

- قزيحة، رياض،(١٩٩٨م). **الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي،** (قدم له وراجعه ياسين الأيوبي)، بيروت: المكتبة العصرية.

- كاتبجي، زكريا،(١٩٧٢م). **الترك في مؤلفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري**،د.ط، بيروت: دار الثقافة.

- الكبيسي، حمدان عبد المجيد،(١٩٧٤م). **عصر الخليفة المقتدر بالله(٢٩٥هـ- ٣٢٠هـ) دراسة في أحوال العراق الداخلية**،د.ط، النجف: مطبعة النعمان.

- ليتمان، اينو، (١٩٨٢م). **ألف ليلة وليلة دراسة وتحليل،** (ترجمة بإبراهيم خورشيد ود. عبد الحميد يونس، وحسن عثمان)،د.ط، بيروت: دار الكتب اللبنانية.

- لوبون، جوستاف، (١٩٥٦م).**حضارة العرب،** (ترجمة عادل زعيتر)، ط(٣)، القاهرة: عيسى البابي الحلبي.

- متز، آدم، (١٩٥٧م). **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام،** (ترجمة عبد الهادي أبو ريدة)، ج(٢)، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والتربية والنشر.

- الملاح، نديم،(١٣٨٩هـ/١٩٦٩م). **موجز تاريخ الرق،**عمان: المطبعة الحديثة.

- المنجد، صلاح الدين،(١٩٥٧م). **بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي**،د.ظ، بيروت: دار الحياة.

- المهدي، صالح زرياب،(٢٠٠٣م). **الموسيقى العربية نموها وتطورها تاريخاً وأدباً وبحثاً**، بيروت: دار الشرق العربي.

- هاري. و. هازارد، **أطلس التاريخ الإسلامي،** (ترجمة إبراهيم زكي خورشيد)، القاهرة: مكتبة النهضة.

- ولهاوزن، يوليوس، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م). **الدولة العربية وسقوطها،** (ترجمة يوسف العش)، د.ط، دمشق: مطبعة الجامعة السورية.

المعاجـــم:

- أنيس، إبراهيم وآخرون،(د.ت). **المعجم الوسيط،** ط(٢)، بيروت: دار الفكر.

- التونجي، محمد، (١٩٩٣م). **المعجم الذهبي،**د.ط، بيروت: دار الروضة.

- حسنين، عبد النعيم محمد،(١٩٨٢م). **قاموس الفارسية(عربي - فارسي)،** ط(١)، دار بيروت : الكتاب اللبناني .

- شتا، إبراهيم الدسوقي، (١٩٩٢م).**المعجم الفارسي الكبير،**د.ط، القاهرة: مكتبة مدبولي.

- شير، ادي، (١٩٠٨م). **الألفاظ الفارسية المعربة**،بيروت: المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين.

- شيرازي، مرتضى آية الله زاده، ومحمد، غفراني،(١٩٩٥م). فرهنك اصطلاحات روز (فارسي - عربي)، بيروت:مكتبة لبنان ناشرون.

- عبد الباقي، محمد فؤاد،(١٩٨٤م). **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**،تركيا: المكتبة الإسلامية - استانبول.

- علوب، عبد الوهاب،(١٩٩٦م). **الواعد للألفاظ والتعبيرات والتراكيب الفارسية المعاصرة(فارسي - عربي)،** ط(١)، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

الرسائل الجامعية:

- بني حمد، فيصل عبد الله،(١٩٩٧م). **بنو العباس ودورهم في الحياة العامة في العصر العباسي الأول (١٣٢هـ - ٢٣٢هـ/٧٥٠م -٨٤٦م)،** رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان الأردن.

- التميمي، أيمن سليمان خالد،(١٩٩٧م). **السجون في العصر العباسي(١٣٢هـ - ٣٣٤هـ)**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

- شعبان، يوسف إبراهيم محمود، (١٩٩٥م). **ولاية العهد في الدولة العباسية(١٣٢هـ-٣٣٤هـ)،** رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

- قريبي، ابراهيم بن ابراهيم،(١٩٨٠م). **مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع،**رسالة دكتوراة منشورة، الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة، السعودية.

- الكساسبة، حسين فلاح،(١٩٨٦م). **الدواوين المركزية في العصر العباسي الأول**، رسالة دكتوراه غير منشورة ، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

- محافظة، حسين علي أحمد، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م). **الرقيق في المجتمع العربي الإسلامي حتى ثورة الزنج**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية ،عمان، الأردنية.

- ياغي، سوزان حسين،٢٠٠١م. **الحياة الاجتماعية في بغداد منذ تأسيسها حتى سنة ٣٣٤هـ = ٩٤٦م،** رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان الأردن.

<u>الدوريات:</u>

- السامرائي، محمد رجب، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م). مقال حول كتاب واجدة مجيد الأطرقجي المرأة في أدب العصر العباسي، **مجلة الفيصل الشهرية**، مركز زايد للتراث والتاريخ/ أبو ظبي - الامارات، العدد ٣٢٣.

- العبيدي، محمد المختار، (١٩٨٨م). التقيين في العصر العباسي بالاعتماد على رسالة القيان للجاحظ، **حوليات الجامعه التونسية** - المطبعة الرسمية، العدد (٢٨).

- سعيد، حامد غنيم، (١٩٧٩م). الدولة العباسة ومراكز القوى في عهد المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)، **مجلة كلية العلوم الاجتماعية** / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،العدد(٣).

References:

- Ahasnullah, M. 1996. **History of the Islamic World**. Deep and Deep Publications: New Delhi.
- Bosworth, C.E. & et.al. 1987. .BY, Suluk. **The Encyclopaedia of Islam**.
- Carmichael, J. 1967. **The Shaping of the Arabs**. Great Britain.
- Hitti, P.K. 1964. **History of the Arabs**. Macmillan & Co LTD: London.
- Rahmatallah, M. 1952. **The Women of Baghdad in the 9th & 10th Centuries (as Revealed in the History of Baghdad of al-Hatib)**. Baghdad University: Baghdad.